د. إسماعيل ناصر الصمادي

التأريخ التوراتي.. والتاريخ

التأريــخ التوراتــي المزيــف

بين
إسـرائيل الكنعـانية
وإسـرائيل العـبريـة
وإسرائيل الصهيونية



حفرية نصية تاريخية أركولوجية
في الماضي المتخيل الافتراضي لليهود



التأريخ التوراتي.. والتاريخ

الكتاب الثاني

د. إسماعيل ناصر الصمادي

التأريخ التوراتي.. والتاريخ

التأريخ التوراتي المزيف

بين

إسرائيل الكنعانية

وإسرائيل العبرية

وإسرائيل الصهيونية

حفرية نصية تاريخية أركولوجية

في الماضي المتخيل الافتراضي لليهود

الكتاب الثاني



منشورات دار علاء الدين

- **التأريخ التوراتي.. والتاريخ - الكتاب الثاني**
- **تأليف: د. إسماعيل ناصر الصمادي**
- الطبعة الأولى ٢٠٠٥.
- عدد النسخ /١٠٠٠/ نسخة.

- **تمت الطباعة في دار علاء الدين للنشر.**
- **هيئة التحرير في دار علاء الدين.**

- الإدارة والإشراف العام: **م. زويا ميخائيليلينكو.**
- التدقيق اللغوي: **صالح جاد الله شقير**
- المتابعة الفنية والإخراج:

أسامة راشد رحمـــة.

دار علاء الدين

للنشر والتوزيع والترجمة

سورية، دمشق، ص.ب: ٣٠٥٩٨

هاتف: ٥٦١٧٠٧١، فاكس: ٥٦١٣٢٤١

البريد الإلكتروني: **ala-addin@mail.sy**

الفصل الأول

مرآة التاريخ

تقول إحدى النظريات الأنثربيولوجية، إن أسلاف البشر، والذين كانوا يعيشون على الأشجار (كمرحلة قردية) في المنطقة الجنوبية من قارة أفريقيا، تعرضوا إلى ظروف بيئة جديدة اضطرتهم إلى النزول عن الأشجار بسبب نقص الطعام، وعلى الأرض ولعدم تأقلمهم المورفولوجي البنيوي (التشكيل الجسدي) مع نمط الحياة الجديد، فقد تعرض هؤلاء الأسلاف للإبادة من قبل الوحوش المتنوعة، ولكن بعض الأفراد من تلك الأسلاف (الآدميون، أو الأناسي، أو أشباه الإنسان) كانوا أكثر ذكاء من سواهم واستطاعوا، بالاعتماد على ما يمتلكونه من قدرات فكرية أولية، أن يحموا أنفسهم من الهلاك، وقد خضعوا إلى سلسلة من التطورات التراكمية، والتحولات، والطفرات أدت إلى تطور مورفولوجي للبنية الجسدية، والذي انتهى إلى تشكّل الإنسان الذي يقف على قدمين، وترافق ذلك بتشكل الجمجمة والوجه الخاص بالإنسان، وتطور الجهاز العصبي بشكل مميز، وهو ما سمح لاستخدام الأيدي بشكل أكثر دقة بعد أن استطاعت الإبهام مقابلة الأصابع الأربعة، الأمر الذي جعل الأيدي من أهم الأعضاء المساعدة في حياة الإنسان، والتي بواسطتها استطاع أن يبدأ بتصنيع بعض الحاجيات الضرورية، كما اكتشف استحداث النار في سياق تطور أشباه الإنسان نحو النياندرتال وهو الذي يمثل مرحلة وسطى من مراحل التطور نحو الإنسان العاقل، كما يُعَدّ حلقة الوصل بين القطيع البشري، والقردي.

وقد نتجت هذه التطورات المورفولوجية، بعد تعرض هؤلاء الأسلاف، أو القطيع البشري الأولي إلى عدة امتحانات وجودية حياتية قاهرة، والتي كانت خاضعة لقانون الاصطفاء والتطور الداروني، ومع تعرض هذا القطيع لظروف متغيرة، وفي سياق الصراع على البقاء، فقد استطاعت بعض التجمعات، أو (العروق) البشرية، والتي تتمتع بمزيد من الذكاء وحب المعرفة النسبيين، أن تستمر في وجودها، وأن تتطور مع الزمن إلى الحالة الإنسانية تبعا، وتحت تأثير التبدلات البيئية، وتغيرات الطبيعة الأرضية.

وبسبب تغيرات بيئية قامت عناصر من الجماعات الأكثر ذكاء من (القطيع البشري البدائي النياندرتالي) بدخول مغامرة الاستكشاف باتجاه الشمال بدءا من المناطق الجنوبية للقارة الأفريقية، ووصلوا في النهاية إلى أقصى الشمال الشرقي من أفريقيا، حيث هناك إما عبروا عن طريق باب المندب باتجاه آسيا نحو المنطقة الجنوبية الغربية من شبه الجزيرة العربية، حيث هناك شكلوا محطة قبل أن يتابعوا طريقهم شمالا نحو بلاد الرافدين والهلال الخصيب، وإما أنهم وصلوا إلى منطقة النيل السفلى، وعبروا من هناك نحو آسيا عن طريق برزخ سيناء، ومنها شرقا نحو الهلال الخصيب وبلاد الرافدين، وجنوبا نحو شبه الجزيرة العربية، وإما أنهم سلكوا الطريقين معا، وفي النهاية - وبغض النظر عن الطريق الذي عبروا منه من أفريقيا نحو آسيا - حطّوا في منطقة الهلال الخصيب، وبالأخص في بلاد الرافدين، حيث شكّلت تلك المنطقة إحدى أهم بؤر تطور الإنسان النياندرتال اكتشفت آثاره في فلسطين، كما تم اكتشاف عدة حلقات تطورية في سياق الوصول إلى الإنسان العاقل في منطقة الشرق الأدنى القديم، أما بعض الجماعات التي لم تتوقف في منطقة بلاد الرافدين، وتابعت رحلتها الاستكشافية نحو الشمال فقد تعرضت هناك للانقراض بسبب المد الجليدي الأوربي قبل تغلغلها في القارة الأوربية.

أما القطيع الرئيسي الذي حطّ في بلاد الرافدين، فبسبب التباينات الفصلية في جريان الماء عبر الأنهر الساقطة من الشمال، وما تجلبه من الفيضانات التي كانت تخطف منهم الكثير، وسواء من الظروف البيئية الطبيعية القاهرة التي تعرضوا لها، فقد انقسم القطيع البشري، الذي استفاد حضاريا من تجربته الوجودية، على أمره إلى ثلاث مجموعات:

مجموعة أولى قررت العودة نادمة من حيث أتت.

ومجموعة ثانية قررت متابعة المغامرة والاستكشاف، كموجة ثانية، باتجاه الشمال علّها تحظى ببيئة أكثر استقرارا، وهذا ما يفسر ظهور الإنسان العاقل دفعة واحدة في مرحلة متأخرة في أوربا الوسطى التي كان قد وصل إليها عن طريق البلقان منذ أربعين ألف سنة على وجه التقريب في عصر الباليوليت الأعلى، وهذا ما يفسر غياب، أو عدم اكتشاف الحلقات التطورية في أوربا ما بين إنسان النياندرتال، والإنسان العاقل، وهو الذي اكتشفت آثاره الرائعة من النقوش التصويرية في أعماق الكهوف الممتدة بين جنوب فرنسا وشمال إسبانيا، وهي التي عادت وانقرضت ثانية بسبب المد الجليدي في العصر الحجري الأعلى، والوسيط.

أما بالنسبة لـ **المجموعة الثالثة** من القطيع البشري فقد قررت البقاء حيث هي، وتابعت تطورها التاريخي نحو العصر الحجري الحديث (النيولوتي) الذي ابتدأ في الألف الثامن قبل

الميلاد، وكانت أولى بذره الحضارية المعروفة في الشرق الأدنى القديم، وحتى العالم القديم هي الحضارة النطوفية في فلسطين، وهي الحضارة التي شكّلت حالة مفصلية ما بين المرحلة الكهفية، والمرحلة المدنية الاستيطانية، إلى جانب موقع تل المريبط على الفرات الأوسط حيث قام الإنسان في ذلك الموقع ببناء أولى المستوطنات القروية المستقرة، كما أنه، في تلك المنطقة، شكل محطة مهمة من محطات تطور الإنسان الروحي الديني، حيث تم اكتشاف بينات تشير إلى أن الإنسان كان يقدس الثور البري الذي كان من الحيوانات ذات الأعداد القليلة.

بعد أن حطت بعض الجماعات من القطيع البشري البدائي في بلاد الرافدين، وبسبب التحديات الوجودية التي كان يتعرض لها، والتي كان في البداية قد خضع لها بشكل سلبي، ولكنه استطاع سريعا أن يتجاوز دوره المنفعل في تقبل التقلبات الطبيعة التي كانت تستشعره بالخوف والقلق، وشيئا.. فشيئا بدأ الإنسان يدرك ويربط ويستنتج مجموعة من العلاقات التي تنظم بعض الظواهر الطبيعية، كالعلاقات السببية بين الشمس، والقمر، والريح، والغيوم، والمطر، والنباتات، والفصول، كما بدأ يدرك مفهوم الزمان وعلاقته بالمكان، ودورية بعض المظاهر، الأمر الذي جعله يدرك ويستشعر مفهوم المستقبل، بعد أن تعمق إدراكه للعلاقات التي تربط حياته مع الوجود، والزمكان، ومع الظواهر الطبيعية التي كانت تُحدث لديه الدهشة، وتثير لديه، وتفتح ذهنه على الكثير من الأسئلة التي تتعلق بألغاز الوجود، ولا سيما لغز الحياة والموت، وقد حاول الإنسان استيعاب، وتشخيص المجاهيل، وكشف الغموض الذي يكتنف تلك العلاقات، والقوانين التي تربط بينه، وبين ظواهر الطبيعة التي تتحكم بحياته، والتي أخذ - فكريا - يعلوا عليها، الأمر الذي مكّنه بعد تفهمها، ومعرفة عللها، من احتوائها، ومن ثم تدارك نتائجها، ومن ثم التحكم بها، أو مشاركتها في تقرير حياته ومصيره، ومن ثم استطاع تدجينها من خلال بناء السدود، وتنظيم المسالك المائية في محاولة للوصول إلى حياة تنعم بالاستقرار، والطمأنينة.

أما ما كان يعجز الإنسان عن تفسيره، ويعجز عن إيجاد العلاقات، والنظم التي تربط ما بين العلة والمعلول، فكان الإنسان يعيده إلى عالم الغيب، أو إلى قوى خفية عاقلة فوق طبيعية (ميتافيزيقية)، وكان يتصور أن لهذه القوة العاقلة إرادة ومراماً وقصداً فيما تفعله، وهكذا بدأ يتطور لديه مفهوم عالم اللاهوت الفاعل، المطلق، الثابت، الخالد (العالم العلوي) الذي جعل مسكنه في السماء، والتي جعل منها مصدرا للخير والعطاء، مقابل عالم الناسوت المنفعل، النسبي، المتحول، الزائل (العالم السفلي) الذي يعيش على الأرض التي جعل منها مصدرا للشر، وقد اعتقد الإنسان أن عالم اللاهوت هو من يقوم

بتدبير، وتصريف شؤون، ومصير الوجود، وبالذات ما يتعلق بالمظاهر الطبيعية، وبالأخص تلك المتعلقة والمرتبطة بوجوده، وأسباب حياته، ومماته، وقد أضفى على تلك القوى صفاته البشرية، إلا أنه ميزها بأنها أعلى قدرة منه، ولذا فقد أضفى عليها هيبة، وجلالة، ورفعة على البشر، كما أنه ميزها بالخلود، واعتقد أنها هي التي صنعت الكون، وهي التي أوجدت الإنسان، وهي التي تتحكم بوجوده، ولذلك فقد استضعف نفسه أمامها، وكان عليه أن يقدم لها فروض الطاعة، وأن يبني لها المعابد لاسترضائها، وللاحتفاء بها أثناء نزولها العابر إلى الأرض.

وهذه النظرية الأنثربيولوجية، التي أتيت على ذكرها، ساقتها الفلسفات المادية، والتي اعتمدت في صياغتها على قانون النشوء والارتقاء الداروينية، وهي، وعلى الرغم من أنها تبنت فكرا علمانيا ماديا، لم تستطع أن تتخلص من رواسب ذهنية لاهوتية توراتية حيث عادت لتقسم الشعوب إلى ثلاث مجموعات:

المجموعة البشرية الأولى التي انطلقت شمالا، وهي المجموعة الهند أوربية، وهي تمثل العرق اليافثي التوراتي.

والمجموعة البشرية الثانية التي استقرت في الشرق الأدنى القديم، وهي تمثل العرق السامي التوراتي.

والمجموعة البشرية الثالثة التي عادت إلى أفريقيا، وهي تمثل العرق الحامي التوراتي.

ولكن هذه النظرية جعلت من الجماعة التي استوطنت في بلاد الرافدين الجماعة الأكثر ذكاء لأنها هي التي قامت بأولى عمليات الاستقراء والحدس، والتي من خلالها حاولت أن تسيطر على الطبيعة ولو جزئيا بدل أن كانت الطبيعة هي العنصر المسيطر بشكل شبه كامل على حياتها ومصيرها، وبذلك، وفي بلاد الرافدين تشكلت البؤرة الأولى للحضارة، حيث استطاع الإنسان استيعاب الكون بطريقة شمولية، كما أدرك عناصره، ووعى تحولاته الزمنية، كما أدرك الإنسان زمنيته، ومن ثم تاريخيته، ومجتمعيته التي ساقته في الألف السابعة قبل الميلاد إلى بناء منازل متفرقة أو ضمن مستوطنات بسيطة، والتي جمعها في قرى، ومن ثم طور نظاما اجتماعيا، ثم سياسيا، والتي أسفرت بعد طول بقاء عن تشكل الحضارة التي عرفت باسم الحضارة العبيدية التي ورثتها فيما بعد الحضارة السومرية، ومن ثم الأكادية، فالبابلية، فالآشورية، فالكلدانية، فالعربية.

بالطبع أن تلك الرحلة ليست رحلة جماعة محددة بل هي رحلة جماعات عديد امتدت عبر عشرات أو مئات الآلاف من السنين، وتم سردها كما لو أنها قصة لتبسيطها.

هذا ما تقوله إحدى النظريات الأنثروبولوجية، أما ما تقوله النظرية الجيولوجية فهو أن الأرض في عهودها السحيقة كانت مغمورة بالمياه بشكل كامل، عدا منطقة صغيرة كانت تعلو على المياه تقع في الجنوب الغربي من شبه الجزيرة العربية، وهي المتاخمة للبحر الأحمر، وتدعى (الدرع العربي)، وهي سلسلة الجبال الممتدة من منطقة الحجاز، وحتى جبال اليمن، وهي البقعة الوحيدة على الأرض التي لم تغمرها المياه منذ تشكلها، ومن تلك البقعة على الأرض بدأت أبجدية الحياة بكل أشكالها من خلال تطور الحياة المائية إلى البرمائية، ومنها إلى البرية، ومن هناك انطلقت، وانتشرت رسل الحياة البرية بكل أشكالها، بعد بدء الانحسار المائي، وتكشّف اليابسة، وهذا التطور الحيوي ما زال مستمرا إلى يومنا هذا، والذي في سياقه تطورت وتميزت رسل الحياة إلى أنواع، وأنماط الحياة المختلفة التي انتشرت على وجه البسيطة متأثرة بالتبدلات البيئية الطقسية التي تعرضت لها الأرض، ولا سيما تأثيرات الدورات الجليدية التي كانت تخضع لها الظروف البيئية على الأرض، وكانت هذه الدورات الجليدية تتبعها دورات دفيئة تؤدي إلى ذوبان الجليد، والتي بمدها وجزرها كانت الحياة تنتشر، وتنحسر تبعا لها، وقد أدت الدورة الدفيئة الثالثة، التي ما زالت قائمة حتى الآن، إلى تمدد بحر العرب شمالا نحو ما يدعى الآن بالخليج العربي، الذي كان على شكل يابسة تشكل المنطقة الجنوبية لبلاد ما بين النهرين، والمنطقة الشرقية من شبه الجزيرة العربية، وهو المكان الذي يعتقد البعض أنه كان مهد الحضارة العبيدية، التي تُعَدّ مرحلة انتقالية ما بين العصور ما قبل التاريخية، والعصور التاريخية، وقد تم تقسيم هذه الدورات إلى:

١- دورة جليدية (جنز): لم يحدد لها بداية ولكنها انتهت منذ سنة ٤٣٠ ألف عام.

٢- دورة جليد مندل (٤٣٠ - ٣٧٠ ألف عام ق.م) واستمرت لمدة ٦٠ ألف عام.

ثم تبعها دورة دفيئة أولى (٣٧٠ - ١٣٠ ألف عام ق.م) واستمرت لمدة٢٤٠ ألف عام.

٣- ثم دورة جليد رس (١٣٠ - ١٠٠ ألف عام ق.م) واستمرت لمدة ٣٠ ألف عام.

ثم تبعتها الدورة الدفيئة الثانية (١٠٠ - ٤٠ ألف عام ق.م) واستمرت لمدة ٦٠ ألف عام.

٤- ثم تبعتها دورة جليد فروم (٤٠ - ١٨ ألف عام ق.م) واستمرت لمدة ٢٢ ألف عام.

٥- وأخيرا تبعتها الدورة الدفيئة الثالثة والتي بدأت قبل ١٨ ألف عام قبل الميلاد وما زالت مستمرة حتى يومنا هذا.

وكان مد الدورات الجليدية وانحسارها على حساب الدورات الدفيئة، يترافق مع حركات مد وجزر تنتشر في سياقها الحياة، وكان الشريط، أو الحزام الحي الذي يمتد من

شبه الجزيرة العربية، مرورا بضفتي المتوسط الشمالية والجنوبية، وصولا إلى أمريكا الوسطى والجنوبية، وهو المكان المناسب الذي يشكل الحيّد الذي لم تنقطع فيه الحياة بكل عناصرها، النباتية، والحيوانية، والإنسانية، وهو الذي كان يدفع بموجات العناصر الحيوية تجاه الشمال عندما تبدأ الدورات الجليدية بالتراجع نحو القطب.

وفي سياق الدورة الدفيئة الثالثة بدأ التاريخ الإنساني يتمسرح، وينتشر على وجه الكرة الأرضية، وقد قام الباحثون المختصون بتقسيم الزمان التاريخي الإنساني إلى عدة عصور هي:

العصر الحجري، والذي يقسم إلى ثلاثة عصور هي:

١- **العصر الحجري القديم** ويمتد من ١٠٠٠٠٠٠ إلى ١٠٠٠٠ ق.م، وفيه كانت بلاد الهلال الخصيب على وجه الخصوص، ومنطقة الشرق الأدنى على وجه العموم تنعم بمناخ مطير، وكان الإنسان ما زال في مراحل تطوره الأولى، وكان يعتمد في تأمين عيشه على (الصيد، والجمع، والالتقاط)، وكان في بدايته قد بدأ بصناعة بعض الأدوات القتالية النصلية، والزراعية (المناجل، والأجران) مستخدما الحجر، وقد قسم العلماء العصر الحجري القديم إلى **ثلاثة أدوار هي:**

- **العصر الحجري الأدنى (القديم الأسفل):** ويمتد من ١٠٠٠٠٠٠ إلى ٧٠٠٠٠ ق.م، وقد اعتمد الإنسان في صنع أدواته على الحجارة بشكل رئيسي، إلا أنه استخدم أيضا العظم، والخشب، والعاج، والأصداف بشكل ثانوي، وفي نهايته اكتشفت بعض الجماعات طريقة لإشمال أو استحداث النار.
- **العصر الحجري الأوسط:** ويمتد من ٧٠٠٠٠ إلى ٣٥٠٠٠ ق.م، وقد تميز هذا العصر بتطور الأدوات التي كان يصنعها الإنسان، بحيث أصبحت أكثر دقة، ونوعية، وأصغر حجما.
- **العصر الحجري الأعلى:** ويمتد من ٣٥٠٠٠ إلى ١٠٠٠٠ ق.م، وقد تميز بصناعة الأسلحة النصلية الحادة الحجرية.

٢- **العصر الحجري الوسيط:** ويمتد من ١٠٠٠٠ إلى ٧٥٠٠ ق.م، وتميز بقيام الإنسان بصناعة أدوات زراعية، أهمها المناجل، والأجران.

٣- **العصر الحجري الحديث:** ويمتد من ٧٥٠٠ إلى ٤٥٠٠ ق.م، وفيه حقق الإنسان نقلة نوعية في طريق تطوره، حيث انتقل من طور استهلاك الطعام، إلى إنتاجه، من خلال تدجين بعض عناصر مملكة النبات، والذي استدعى نوعا ما من الاستقرار، وتشكيل نويات استيطانية، وبالتالي بدء تشكل نمط اجتماعي إنساني بدائي، وبدأ مفهوم تشكل الأنا، بالتطور،

والتمايز، كما أن الإنسان في سياق هذا العصر بدأ بصناعة الأواني الفخارية، وقد اكتشفت المستقرات المدنية الأولى على الضفة الغربي لنهر الأردن.

- **العصر الحجري النحاسي الانتقالي** ويمتد ما بين ٤٥٠٠ - ٣٣٠٠ ق.م، وتميز هذا العصر بتطور نوعي وحجمي للبيوت، وتم فيه تصنيع الأسلحة، وبعض الأدوات من معدن النحاس، كما تطورت صناعة الفخار، وحقق الإنسان في سياقه تطورا روحيا مميزا، حيث ازداد الاهتمام بدفن الموتى، وكان يزوّد الميت ببعض الأدوات، الأمر الذي يشير إلى حدوث تطور ديني، وظهرت في بلاد الرافدين، في سياق هذا العصر، حضارة أريدو ثم حضارة الحاج محمد، ثم حضارة العبيد بالقرب من موقع أور، وبعدها ظهرت حضارة أكثر تطورا هي حضارة الوركاء (أوروك)، وقد تميزت بكبر مساحة المستوطنات، وقد ذهب البعض أن تلك الحضارة تعود إلى العنصر (السامي)، والبعض اعتبروها تعود إلى العنصر السومري، وإلى تلك المدينة يعود الملك الأسطوري جلجامش، ثم حضارة جمدة نصر (٣٢٠٠ - ٣٠٠٠ ق.م)، والتي تُعَدّ آخر حضارة في عصور ما قبل التاريخ، والتي في سياقها عرف الإنسان فن النحت، الذي كان له دور كبير في معرفتنا بالحالة الذهنية، والأنماط التخيلية للإنسان في تلك الفترة.

- **العصر البرونزي:** ويمتد ما بين ٣٣٠٠ - ١٢٠٠ ق.م، وفي سياق هذا العصر أصبحت المدافن تقام خارج المستوطنات، التي تطورت مساكنها عدديا، وعمرانيا، وفي هذا العصر ظهرت الحضارة السومرية في جنوب بلاد الرافدين على المسرح التاريخي، والتي بدأت في حدود سنة ٣٥٠٠ ق.م، التي تُعَدّ أولى الحضارات التاريخية الإنسانية، وقد قسم العلماء هذا العصر إلى:

العصر البرونزي القديم أو الأول	ويمتد ما بين ٣٣٠٠ - ٢٠٠٠ ق.م
العصر البرونزي المتوسط أو الثاني	ويمتد ما بين ٢٠٠٠ - ١٦٠٠ ق.م
العصر البرونزي الحديث أو الثالث	ويمتد ما بين ١٦٠٠ - ١٢٠٠ ق.م

العصر الحديدي: ويقسم إلى:

العصر الحديدي الأول أو المبكر	ويمتد ما بين ١٢٠٠ - ١٠٠٠ ق.م
العصر الحديدي الثاني أو المتأخر	ويمتد ما بين ١٠٠٠ - ٧٠٠ ق.م

كنت في الفقرتين السابقتين قد عرضت نظريتين: أنثريبولوجية، وجيولوجية تذهبان كلاهما إلى أن مجموعات بشرية كانت قد انطلقت، أو عبرت من شبه الجزيرة العربية، وحطت في بلاد الرافدين، وهناك شكلت تلك الجماعات المحطة الأولى في الطريق الحضاري

للبشرية، وفي هذه الفقرة سأعرض النظرية، أو التصور، أو المعتقد الديني، الذي يتماشى مع كلا النظريتين العلميتين السابقتين.

يذهب التصور الديني اليهودي، كما جاء في التوراة، إلى أن آدم وحواء كانا قد طردا من الجنة التي تقع عند منابع الأنهار الأربع (فيشون، وجيحون، وحداقل أي دجلة، والفرات)، ومن هناك هبطا مطرودين نحو بلاد الرافدين، وهناك تكاثرت ذريتهما، وتشكلت الجماعة الإنسانية التي قامت بكتابة أبجدية الحضارة الأولى، ولكن وبسبب الفساد الذي أصاب البشر، قرر الرب أن يغسل الأرض من الشرور التي أصابتها، فبعث الرب طوفاناً أدى إلى نهاية البشرية، إلا من نوح وعائلته بأولاده الثلاثة سام وحام ويافث وزوجاتهم، والذين كانوا يقيمون في بلاد الرافدين، والذين، وحسب نبوءة سابقة لنوح، صنع سفينة، أنقذ بواسطتها عناصر الحياة الحيوانية، وقد حطت سفينة نوح على جبال أرارات في أرمينيا، وهناك تكاثروا «وكانت الأرض كلها لسانا واحدا ولغة واحدة. وحدث في ارتحالهم شرقا أنهم وجدوا بقعة في أرض شنعار وسكنوا هناك» تكوين ١١، وأرض شنعار هي المنطقة الجنوبية من بلاد الرافدين (محافظة البصرة حاليا)، وفي جنوب العراق أسست البشرية حضاراتها الأولى.

أما التصور الديني الإسلامي فيذهب إلى أن الجنة التي كان يعيش فيها آدم وحواء تقع خارج الزمكان، ومن هناك طردا نحو الأرض بسبب عصيانهما للأمر الإلهي، وحسب ما جاء في كتاب الكامل لابن الأثير فقد هبط آدم في جبل نود من أرض سنرديب، وحسب الطبري فقد هبط على جبل بوذ في الهند، أما حواء فقد هبطت بجدة، وبعد مدة عادا ليلتقيا على جبل عرفة في الديار المقدسة في شبه الجزيرة العربية، ومن تعارفهما اتخذ الجبل اسمه (جبل عرفة)، وهناك تكاثرت السلالة البشرية، ومن هناك أيضا من شبه الجزيرة العربية انطلقت الهجرات الإنسانية الأولى، وكانت أولى المواقع التي انتقلت إليها هي بلاد الرافدين لما تمتاز به من خصب، أما بالنسبة للطوفان، فتذهب إحدى التصورات الإسلامية إلى أن سفينة نوح، الذي كان يعيش في بلاد الرافدين، دُفعت بقوة الأمواج من بلاد الرافدين إلى منطقة الحجاز، وبالذات نحو البيت العتيق، وهو الموقع الوحيد الذي لم تغمره المياه، ولذا سمي (بالعتيق) لأنه أعتق مكان على الأرض، وقد طافت سفينة نوح حوله، ثم دفعتها الأمواج نحو الشرق لتستوي في النهاية على جبل الجودي في منطقة الموصل شمال العراق.

وآخر النظريات (والتي تبنت المقولة الدينية) تقول إن سفينة نوح منطقيا، وحسب مسارات المياه التي تتبع الوضع الطبغرافي للمنطقة، قد هبطت باتجاه الجنوب الغربي، ولا يمكن لها الصعود شمالا نحو تركيا كما هو سائد حسب المقولة التوراتية، لأن تيارات الماء

تتحدر في المنطقة من الشمال إلى الجنوب، وهكذا، فقد اندفعت سفينة نوح نحو الجنوب الغربي لتتوقف على أحد قمم جبال عسير والسراة، والتي أكدت النظرية الجيولوجية أن تلك الجبال المسماة بالدرع العربي، هي المنطقة الوحيدة على وجه الأرض التي لم تغمرها المياه، وبذلك ومرة أخرى، بعد أن كان آدم قد تعرّف على حواء على جبال المنطقة الجنوبية الغربية من شبه الجزيرة العربية، عاد نوح وأولاده الثلاثة سام وحام ويافث ليتناسلوا ويملؤوا الأرض بذريتهم انطلاقا من تلك المنطقة، ثم هاجروا إلى بلاد الرافدين ليؤسسوا أولى الحضارات البشرية.

وأخيرا، وكخاتمة لهذا الفصل، سأستعرض النظريات التاريخية التي حاولت أن تبحث في أصول، ومصادر، ومنابع شعوب الشرق الأدنى القديم، وحسب ما سبق فقد كانت شبه الجزيرة العربية أهم أماكن الحزام الحي (المركز الحضاري حسب رأي د أحمد داود) لأنها كانت تحافظ على الطقس الأكثر ملائمة للحياة أثناء امتداد وتوغل الدورات الجليدية، وكانت شبه الجزيرة العربية تنعم بطقس دافئ، وأمطار وأنهار، وبالتالي كل عناصر الخصب الذي يمكن أن يؤول الحياة، بينما كانت أوربا تمر بمراحل حيوية برية غير متواصلة، وكانت تعاني من تذبذب حركات المد، والانحسار للدورات الجليدية.

وفيما بين الألف الرابعة عشرة والثانية عشرة قبل الميلاد بدأت منطقة شبه الجزيرة العربية بالتحول نحو الجفاف والقحط وقلة الأمطار، وتشكلت بيئة صحراوية أو شبه صحراوية، وأخذت إمكانات الأرض تضيق بسكانها، الأمر الذي أدى بالحياة، وعلى رأسها الإنسان، إلى أن تبحث عن مصادر جديدة لاستمرار وجودها، وهذا ما ساق بعض المجموعات البشرية إلى الهجرة النابذة، أو الفيضية، نحو الشمال إلى بلاد الهلال الخصيب، حيث هناك وجدت تلك القبائل أسباب الاستقرار، وكانت تلك القبائل البدوية، وحسب البيئة الجديدة، وبعد مرحلة من الجولان، تبدأ بالتحول من الحالة البدوية المتنقلة إلى الحالة الحضرية المستقرة، والجدير ذكره أن بعض الهجرات، ولا سيما منها البطيئة المزمنة، التي كانت تنطلق من شبه الجزيرة العربية نحو الهلال الخصيب كانت لا تعلن عن حضورها العسكري، أو الحضاري أو الثقافي في البلاد الجديدة، بل كانت تبقى كامنة خاملة على مستوى الحضور السياسي إلى مدة قد تطول وتقصر تبعا لمجموعة ظروف موضوعية، ومن ثم وعندما يحدث انعطاف أو ضعضعة في حالة التوازن السابقة للمنطقة فإن تلك الجماعات تتمسرح على الخشبة السياسية وتعلن عن وجودها العسكري السياسي التاريخي.

أما على المستوى النوعي، فقد كانت تلك القبائل، تمر عبر سلسلة من التحولات الكمية، والكيفية، والتي قد تستغرق زمنا طويلا، وتنتج أو تفرز، أو تطلق تلك السلسلة جذوة من الطاقة الفكرية تؤدي إلى تشكيل نواة حضارية ينبعث منها الإشعاع على المحيط، وهذه الطاقة تنتج عن تحول الحالة الوحشية أو البدائية الأولية الغشيمة بعد تدجينها في المعرفة الجديدة التي اكتسبتها من خلال التجربة الجديدة في بيئة جديدة، فبينما في الحالة البدوية يبدد الإنسان طاقاته الخلاقة الفكرية، والذهنية في ملاحقة الغيوم متنقلا مع تنقلها، فإنه، بعد استيطانه في مناطق تتوفر فيها المياه (المادة الأولية للحياة)، كانت تتوفر له تلك الطاقة - كفائض - فكان الإنسان يقوم بتوظيفها في إبداعات حضارية تسهّل عليه سبل الحياة، يضاف إلى ذلك تعرّض هذا البدوي إلى تجربة اجتماعية جديدة قائمة على مبدأ التعاون والتعاضد وجمع الطاقات أفقيا، ومن ثم تنظيمها عموديا لتشكيل هرم معرفي حضاري، وبعد أمد تبدأ تلك الطاقة، بسبب التنعم، بالهمود التدريجي، وبذلك تبدأ أعراض الشيخوخة الحضارية، فتأتي هجرة جديدة من شبه الجزيرة العربية تقوم بدك البنية الاجتماعية المدنية السياسية للحضارة الشائخة، وتأخذ منها عصارة التجربة الحضارية البائدة فتمتصها وتتابع البناء الهرمي الحضاري، والجدير ذكره أن أحد أهم أسباب إطالة عمر الحضارات، هو التزاوج الأثني بين المجموعات البشرية، ودخول دماء، وثقافات جديدة إلى حضارات قديمة، الأمر الذي كان ينشط العوامل الإبداعية، والحضارية، ومن جانب آخر، فإن الحضارات التي كانت تنهزم عسكريا، كانت تدخل جيناتها الثقافية في الحوض التراثي للحضارة المنتصرة، وبالتالي فإن الحضارة التي استطاعت الانتصار عسكريا كانت تدب فيها حالة من الفورة الحضارية التي قد تمتد أو تقصر زمنيا تبعا لظروف متعددة، وهذه الظاهرة تجلت بشكل واضح في سياق الاندحار السياسي للحضارة الآرامية، والذي أعقبه انتشار واسع للثقافة الآرامية في كل بقاع الشرق الأدنى القديم في سياق الألف الأولى قبل الميلاد، وقد انتشرت المظاهر الثقافية للكيان الآرامي المنكسر على يد الكيان السياسي الفارسي المنتصر.

وقد تبنى أغلب العلماء والباحثين هذه الآراء، والنظريات التقليدية السائدة، حول مصدر، وآلية الهجرات السامية، والتي أُيدت بكثير من الشواهد والأبحاث الأنثربيولوجية، والجيولوجية، والأركولوجية، والإيتولوجية، والتاريخية، ومن العلماء الذين تبنوا الرأي السائد شبرنجر، وشرادر، وكيتاني دي جوييه، ووونكلر، وتيلي، وماير وروبورتسون سميث، ولانج، وسايس، وروجرز، والذين اتفقوا جميعا على أن الجزيرة العربية كانت هي موطن كل الهجرات السامية، ويرى هؤلاء العلماء أن الجزيرة العربية كانت موئلا للحياة عندما كانت خصبة طوال

عصر البلايستوسين، وقد كانت الجزيرة العربية شديدة الخصوبة ذات أشجار وسهوب، وغطاء نباتي كثيف، وبعد انتهاء العصر البلايستوس منذ عشرة آلاف عام، أخذت الظروف البيئية تتدهور شيئا.. فشيئا، والجفاف يتعمق في شبه الجزيرة العربية، والذي كان يزحف نحوها أحيانا بشكل بطيء، ومتدرج، وأحيانا بشكل سريع، ومفاجئ، والذي كان يؤدي أحيانا إلى عجز سهوب الطبيعة عن تقديم ضروريات البقاء للحيوانات، والإنسان، الأمر الذي بدوره أدى إلى تشكل هجرات متعاقبة للفائض البشري، كانت تنطلق من شبه الجزيرة العربية، وتمضي شمالا نحو الوديان الكبرى، وقد حدد العلماء خمس موجات، أو هجرات رئيسة، وقد كانت أولى هذه الهجرات هي هجرة الأكاديين في حدود الألف الرابعة قبل الميلاد، وثانيها هجرة الكنعانيين (الفينيقيين والعموريين) خلال الألف الثالث والثاني قبل الميلاد، وثالثها هجرة الآراميين والعبرانيين في حدود منتصف الألف الثاني قبل الميلاد، وجاء بعدها الغساسنة، والمناذرة، ورابعها هجرة الأنباط في النصف الثاني من الألف الأولى قبل الميلاد، وأخيرا هجرة العرب المسلمين في القرن السادس الميلادي، وتتابعت هذه الهجرات بشكل أقل تواردا لبعض القبائل العربية البدوية مثل قبائل شمر، والرولا، والنعيمية، والعنزة، ولم تتوقف هذه الهجرات إلا بعد اكتشاف النفط في شبه الجزيرة العربية في العقود الأخيرة، وقد أكد هؤلاء العلماء على أن هذه الهجرات كان مصدرها، وموطنها الأساسي مكان، أو مركز واحد نظرا للتشابه والتماثل الكبير فيما بين هؤلاء الأقوام من حيث اللسان، والمعتقد، والثقافة، والبنية الجسدية، وقد اختلف الباحثون في تحديد المنطقة من شبه الجزيرة العربية التي كانت موطن الساميين، فبعضهم رأى أنهم قدموا من اليمن، وتحديدا من جبال السراة (والتي تعني أعلى كل شيء) وجبال عسير (خزان الشعوب)، والبعض رأى أنهم قدموا من منطقة الخليج العربي، والبعض رأى أنهم قدموا من المنطقة الغربية الشمالية من الجزيرة العربية أي من منطقة مديان.

وإلى جانب هذه الآراء، والنظريات المتعددة، والتي تعيد مصدر الأمم، والشعوب في الشرق الأدنى القديم إلى شبه الجزيرة العربية، طُرحت نظريات، وآراء تعارض هذا التوجه، فبعض الباحثين، الذين رفضوا تبني الرأي السابق، يعتقدون أن التغيرات البيئة في الجزيرة العربية حدثت في مرحلة زمنية عميقة تزيد على مئة ألف سنة، ولم يكن حينها في الجزيرة العربية كثافة بشرية يمكن لها أن تفيض عن حاجتها من خلال هجرات بشرية نحو الشمال، وقد ذهب هؤلاء العلماء، تمشيا مع المقولة، أو التصور التوراتي، إلى أن الجنس السامي هبط من أرمينيا، على اعتبار أن الفرع السامي تحدّر من أرفكشاد الذي عاش في أرمينيا حسب التصور التوراتي، كما أن سفينة نوح حطت على جبل آرارات بالقرب من محيط بحيرة (فان)

القريبة من بحر قزوين في أرمينيا، وهناك تكاثر الجنس البشري، ومن هناك هبطت الهجرات نحو الجنوب، وهذا يعني، حسب تصور هؤلاء العلماء، أن العرقين السامي، والهند أوربي انتشرا من مركز واحد، وحجة هؤلاء العلماء الذين اتخذوا من التوراة قرينة، ومن اكتشاف كتابات آرامية قديمة في منطقة أربخيتس (أرب خيتس = عرب خيتس)، ومن وجود بعض الجماعات التي ما زالت تتحدث اللغة الآرامية حتى الآن في تلك المنطقة، من وجود ترابط لفظي بين أرمينيا، وآراميين.

ويرى الباحث لويس عوض أن الشعوب، والأمم الهند أوربية قدمت إلى الشرق الأدنى القديم من خلال موجتين:

الأولى هي هجرة الكاشيين الذين احتلوا بابل، والحوريين الذين انشؤوا دولة الميتاني.

أما الموجة الثانية فكانت سامية قدمت من منطقة القوقاز وأتت على مرحلتين:

الأولى عمورية والثانية آرامية، وهو يرى أن اللغة العربية هي فرع من اللغة الهند أوربية.

ويرى الدكتور سيد القمني أن الفرع السامي الشمالي أتى من أرمينيا، وقد تلاقح هذا الفرع السامي في منطقة أدوم مع الفرع الحامي المتمثل بالمصريين والكاشيين الآراميين، والحثيين السكيثيين الهند آريين، وحصل هذا في سياق الألف الثالثة قبل الميلاد، وقد أفرز هذا التلاقح والتمازج مملكة أدوم التجارية، التي شكلت ما يدعى بالعرب المستعربة، ومنهم العدنانيون والمضريون (الإسماعيليون)، أما العرب الجنوبيون، حسب القمني، فهم العرب العاربة (القحطانيون)، وكان العرب المستعربة يعيشون في منطقة العريبي (سيناء ومحيطها)، وكانوا يتكلمون السريانية المشتقة من الآرامية (الأرمينية حسب سيد قمني)، وقد نزلوا جنوبا ليختلطوا مع العرب العاربة القحطانية، وهم الذين أعطوا العرب اسمهم، وبذلك فإن اللغة العربية حسب سيد القمني هي خليط من اللغة المصرية، واللغة الهند أوربية، واللغة العجزية الأفريقية، وهو ما يتماشى أيضا مع ما ذهب إليه آثر كيت من أن الجنس العربي هبط من القوقاز نحو العربية.

ومن الباحثين الذين يرفضون مبدأ الهجرات، بغض النظر عن مصدرها، هو الباحث د أحمد يوسف داود، والذي أطلق على حركة الشعوب، والأمم، والقبائل في منطقة شبه الجزيرة العربية والهلال الخصيب، بالجولان، وليس بالهجرات {إن ما دعي بالهجرات من شبه الجزيرة العربية لا يعدو كونه مجرد افتراض بائس ولا أساس له، وإن حركة السكان العرب في الأرض العربية إنما هي حركة جولان دائمة، يتجاذبها التنقل والاستقرار على الدوام}، ومن هنا فهو يذهب إلى أن الهجرات السامية ليس لها حقيقة تاريخية، بل إن الإنسان العربي

القديم كان موطنه الأصلي في كل منطقة سورية (شبه الجزيرة والهلال الخصيب وصولا إلى مصر السفلى)، وإن ما شخصه المؤرخون بالهجرات هي ليست أكثر من حركة جولان (وهي توصيف أكثر دقة من هجرة) لتلك القبائل في تلك المنطقة، وكان المحرك الداخلي لهذا الجولان هو التغير البيئي الذي كانت تتعرض له بعض المناطق، ولا سيما منها البوادي، التي كانت تجبر القبائل على التجول وهي تلاحق الغيوم حتى تجد تلك القبائل مستقرا أوليا لها على تخوم البيئات المستقرة، الأمر الذي كان يسمح لعملية ارتشاح اختلاسية بطيئة لبعض الجماعات الجوالة التي تبلورت لديها رغبة الاستقرار ضمن المناطق المستقرة، وبذلك انتقال بعض أهل (الوبر)، إلى (أهل المدر).

كما أن التغيرات البيئية، وموجات الجفاف منها على وجه التحديد كانت تجبر الكثير من المستقرات، والقرى على أطراف الأماكن الخصبة، وعلى تخوم البوادي، على التحول من النمط الحضري الزراعي إلى النمط البدوي الرعوي، (ظاهرة التبدي)، وبذلك تعود تلك القبائل إلى الجولان ثانية، أما بعضهم فكانوا ينتقلون إلى مناطق أكثر استقرارا وهذا ما كان يغير الكثافات السكانية بين منطقة وأخرى، وكانت هذه الحراكية سلمية، وهي التي ساهمت في تشكيل حوض ثقافي واحد، وقد استشهد أحمد يوسف داود في ما يذهب إليه بما قاله موسكاتي {إن المناطق الثلاث - الجزيرة العربية وسورية ومن ضمنها فلسطين وبلاد ما بين النهرين - كلها تكون وحدة جغرافية متماسكة الأجزاء كانت في تلك الأزمان مسرحا رئيساً للنشاط البشري، وإن الأقوام الذين مثلوا هذه الأحداث المسرحية لعبور الدور المعد لهم بحكم طبيعة أحوالهم، وقد صهرتهم هذه الوحدة الجغرافية في مصير مشترك بحيث أن أي صدمة أو حركة تصيب القطاع الواحد يمتد انعكاسها إلى الأقطار الأخرى}.

وأنا لن آت بالجديد حين أفترض أن الإنسان في منطقة الهلال الخصيب كان له مصدران:

المصدر **الأول** هو التكاثر المحلي للإنسان، وهو ما أكدت عليه الحفريات الأثرية الأركولوجية في شبه الجزيرة العربية ومنطقة الهلال الخصيب، وقد عثر الباحثون على هياكل إنسانية تعود إلى كل مراحل التطور من الحالة البشرية إلى الحالة الإنسانية، وفي هذا السياق فقد تم اكتشاف هيكل عظمي بشري يعود إلى ١٢٠ ألف سنة في إقليم كردستان في المنطقة الشمالية الشرقية لبلاد الرافدين، كما اكتشف في مدينة تدمر في البادية السورية هيكل عظمي لإنسان النياندرتال، الأمر الذي جعل الباحثين يذهبون إلى أن ظهور الإنسان (الكامل الأول) كان في تلك المنطقة، وقد تكاثر هذا الإنسان المحلي في تلك المنطقة.

أما المصدر الثاني فيعود إلى قدوم، واستقرار بعض القبائل (السامية) الجوالة في منطقة الهلال الخصيب، وهو ما أكدت عليه أغلب الآراء والنظريات (الأنثريبولوجية، والجيولوجية، والأركولوجية، والإيتولوجية، والتاريخية) التي استعرضناها، والتي تذهب إلى أن المنطقة الجنوبية الغربية من شبه الجزيرة العربية (جبال عسير والسراة)، كانت المحطة أو النقطة التي عبرت منها البشرية لتملأ وجه الكرة الأرضية، والتي انتقلت من هناك إلى منطقة الهلال الخصيب، حيث شكلت تلك المنطقة محطة للتأهيل الحضاري، والتحول من الحالة البشرية إلى الإنسانية، ومن هناك وعبر محطة وميناء بلاد كنعان انتشر الإنسان الحضاري ليبني مدنه وحضارته على الأرض، وبالتالي يمكن مما تقدم أن نجزم بوجود وحدة عضوية أرومية تاريخية أثنية ثقافية تصورية لغوية جغرافية في آسيا العربية، وهذه المنطقة تشكل جذعها شبه الجزيرة العربية، وفروعها، وغصونها، هي الهلال الخصيب الذي يضم كلاً من بلاد الرافدين، وبلاد الشام.

بلاد ما بين النهرين والشرق الأدنى القديم

الفصل الثاني

فلسطين
الجغرافيا والتاريخ

تشكل فلسطين نقطة وصل بين آسيا وأفريقيا، وبين البحر الأبيض المتوسط الذي يتصل مع المحيط الأطلسي، والبحر الأحمر الذي ينتهي بالمحيط الهندي، وتشكل ملتقى وحلقة وصل بين القارات الثلاث آسيا وأفريقيا وأوربا، حدّها الغربي يشكل القسم الجنوبي من الساحل الشرقي لحوض المتوسط، وحدّها الشرقي تحدده المسالك المائية (أخدود نهر الأردن) بدءا من تل القاضي بالقرب من بانياس شمالا امتدادا عبر بحيرة الحولة ثم نهر الأردن فبحيرة طبريا ثم البحر الميت، فوادي عربة حتى البحر الأحمر، أما الحد الجنوبي فيمتد بشكل مائل من رفح على البحر الأبيض المتوسط حتى خليج العقبة على البحر الأحمر، أما حدها الشمالي فيتشكل من مرتفعات الجليل، وتبلغ مساحتها ٢٧٠٠٠ كم٢.

تتألف فلسطين من:

سهلين ساحليين يفصل بينهما جبل الكرمل، ومن منطقة جبلية تمتد كعمود فقري وسط فلسطين وتتألف من جبال الجليل الأعلى والأسفل، يليها جبال السامرة التي تحاذي سهل ابن عامر، وتطل شرقا على غور الأردن وتمتد غربا حتى جبل الكرمل، وتستمر جنوبا من خلال جبال القدس والخليل، والتي، تمتد حتى النقب جنوبا.

والمنطقة الجنوبية من فلسطين المؤلفة من صحراء النقب وحاضرتها مدينة بئر السبع ذات المناخ الصحراوي الحار.

ومنطقة غور الأردن.

بشكل عام تتوفر المياه في فلسطين بشكل متباين قليلا بين الشمال والجنوب حيث تعاني صحراء النقب من نقص المعدلات المطرية، ومن افتقادها إلى مصادر المياه الجارية، أما منطقة غور الأردن فتتغذى من ثلوج جبل حرمون، ولكن فلسطين بشكل عام تنعم بمصادر

مياه جوفية جيدة وسطحية، وعلى الرغم من أنها تنعم بحالة مستقرة كافية لأعمال الزراعة إلا أنها كثيرا ما كانت تعاني من فترات من الجفاف كجزء من إقليم البحر المتوسط، وتشتهر فلسطين بزراعة الحبوب وعلى رأسها القمح، وزراعة الأشجار وأهمها الزيتون، والعنب، والفواكه وخاصة البرتقال.

ومناخ فلسطين مناخ متوسطي معتدل، مع تفاوت في درجات الحرارة بين الشتاء والصيف، وبين الليل والنهار، كما يلاحظ وجود تباين بين درجات الحرارة بين منطقة وأخرى، وبمعنى ما فإن فلسطين على الرغم من صغر حجمها فإنها تحوي عدة أقاليم مناخية متعددة، ومتنوعة: جبلية (الضفة الغربية)، وسهلية وأهم سهولها سهل مرج ابن عامر الذي يفصل بين جبال الجليل شمالا، وبين الهضاب المركزية جنوبا، وصحراوية (صحراء النقب)، وبحرية (المدن الساحلية)، وهذا التنوع الجغرافي البيئي ساهم في تشكيل ملامح شخصيتها الحضارية، وأدى إلى تنوع في نمط الحياة الإنساني، والحيواني، والنباتي.

إن فلسطين بموقعها الجغرافي الاستراتيجي تشكل نقطة العبور البرية الوحيدة بين أسيا وأفريقيا، ونقطة عبور بحرية مع أوربا وبذلك تربط ثلاث قارات، ولذلك فقد دعيت فلسطين بجسر الأمم، فكل من كان يريد من الشعوب والجيوش والأفراد أن ينتقل بين القارات عليه المرور من خلال جسر الأمم الذي لا يتجاوز عرضه الأربعين ميلا، وبسبب موقعها هذا تحمّلت منذ بدأ التشكل الحضاري خاصة بعد تطور الجهاز التجاري، مسؤوليتين:

أولهما أنها كانت ضحية صراعات الحضارات المائية (بلاد الرافدين، ووادي النيل)، والحضارات الشمالية المتمثلة بالقوة التي تطل برأسها من أسيا الصغرى، للسيطرة على هذا الممر الحيوي، وبعدها بلاد فارس، وأخيرا أوربا، وقد شكلت فلسطين المؤشر أو الميزان الذي يحدد التوازن بين تلك القوى.

وثانيهما شكّلت فلسطين منطقة التمازج الحضاري الثقافي للحضارات القديمة، إضافة إلى حضارة البلاد السورية الخاصة، وبذلك شكلت معبد للتزاوج الحضاري.

تُعَدّ منطقة الشرق الأدنى القديم ككل، وفلسطين على وجه الخصوص من المناطق البيئية المعتدلة، وذات المناخات المتعددة (البيئة البحرية الساحلية، والمينائية، الجبال الشاهقة، التلال، السهول الداخلية، والسهول الساحلية، البادية، الصحراء) وهذا ما جعلها محجا وبيئة مناسبة لاستيطان الإنسان منذ تشكيله الأول، وكان الاستيطان يتغير بين مد وجزر موازيا لمد وجزر الدورات الدفيئة والدورات الجليدية، ومنذ ثمانية عشر ألف عام بدأت الدورة الدفيئة الثالثة والتي ما زالت قائمة حتى الآن.

ولم يتوقف الاستيطان فيها طوال المراحل، ونظرا لظروفها البيئية المتنوعة فقد تشكلت فيها نويات الحضارة الأولى خلال مراحل وعي الإنسان لذاته، والذي استطاع في المنطقة الكنعانية تحديدا أن يشكّل المدنيات الأولى، حيث عثر على آثار الإنسان في العصر الحجري القديم في رأس شمرا، وكهوف عدلون بين صيدا، وصور، وفي جبل الكرمل حيث شكلت مغارة الطابون في جبل الكرمل متحفا للعصر الحجري بمراحله الثلاث، وفي موقع أم قطفة شمال غرب البحر الميت، والزطية شمال غرب بحيرة طبرية.

أما بالنسبة للعصر الحجري المتوسط فقد برزت الحضارة النطوفية (نسبة إلى وادي النطوف في جبال القدس الجنوبية الغربية) (١٠٠٠٠ - ٨٣٠٠ ق.م)، والتي قامت بالنقلة النوعية من المرحلة الاستهلاكية، إلى المرحلة الإنتاجية، في مملكتي النبات، والحيوان، حيث انتقل من مرحلة التقاط النبات البحت، إلى مرحلة الزراعة، وقد ترافق ذلك مع صناعة الأدوات الزراعية مثل المناجل، والأجران، كما انتقل الإنسان من مرحلة الصيد البحت، إلى مرحلة تدجين الحيوانات، والرعي بها، وقد وجدت في أريحا التي تُعَدّ أقدم مدينة في التاريخ ما زالت مأهولة حتى الآن، آثار للحضارة النطوفية والتي ميزت العصر الحجري الوسيط (١٠٠٠٠ - ٧٥٠٠ ق.م)، والذي أبدى فيها الإنسان قدرات تكيّفية عالية مع التقلبات البيئة دلّت على حالة تطورية كبيرة لإمكانات الإنسان الذهنية.

وقد تميزت فترة العصر الحجري الوسيط عما سبقها بتطور الحالة الروحية الدينية للإنسان، والذي تمثّل باهتمام الإنسان بموتاه وطقوس دفنه، وهذا ساهم بتأسيس البنية التحتية للتطور الحضاري الكبير الذي قام به الإنسان في العصر الحجري الحديث (٧٥٠٠ - ٤٥٠٠ ق.م)، وكان أهم مواقعه في تل السلطان، وفي موقع جريكو بين أريحا، وبيسان، ويعتقد أن الكنعانيين هم أول من بنى مساكن حجرية، وتحديدا في مدينة جبيل وقد قام الإنسان في سياقه بتطور عميق، حيث بلغ وعيه التاريخي مستوى جديدا ونوعيا، والذي ترافق بسيطرة الإنسان على عالمي الحيوان والنبات من خلال تدجينه لعناصر متنوعة من المملكتين النباتية والحيوانية، واستغلاله وتنظيمه لمصادر المياه، وبالتالي تعمق تحوله من النمط الاستهلاكي البحت إلى النمط الإنتاجي، وهو الذي استدعى تغيرات اجتماعية على رأسها الاستقرار والتنظيم، الأمر الذي أدى أيضا إلى تزايد تعدادي كبير للإنسان، والذي لحق به تطور نوعي أعطى بدايات لعلامات هوية مميزة للبزر الحضارية، وهذا قاد في النهاية إلى ظهور النويات الأولى لمفهوم الدولة السياسي، وهي ما سميت بثورة العصر الحجري الحديث، وقد عرف الكنعانيون صناعة الفخار في الألف السادس قبل الميلاد، وكان أهم ما اكتشفوه، أو

ما اخترعوه في سياق تطوير صناعة الفخار هو الدولاب، الذي في النهاية، ومن خلاله، تم صنع العجلات، كما ساهم كثيرا بتطور صناعة النسيج، والتي اشتهر بها الكنعانيون كثيرا، والتي اختصوا بصناعة النسيج المصبوغ بالأرجوان الذي تفردوا بمعرفة الحصول على صباغه المستخلص من قشريات بحرية.

أما بالنسبة لآثار العصر الحجري النحاسي، فقد وجدت في تل جريكو، وحضارة وادي غزة، وكان أهم الحضارات في هذا العصر هي الحضارة الغسولية إلى الشرق من البحر الميت، كما برزت بعدها حضارة بئر سبع في الجنوب.

وتُعَدّ أريحا (مدينة القمر) المدينة المميزة لقراءة كل المراحل التاريخية للتطور الإنساني عبر مراحله المتعاقبة وبالأخص المراحل الحجرية، والتي يعود فيها بدايات الاستيطان إلى الألف التاسع قبل الميلاد، وقد بدأت فيها أولى المستوطنات الزراعية، وفيها تم اكتشاف مدقات للحبوب من قبل كاثلين كونيون، وفي الألف الثامن قبل الميلاد استطاع الإنسان فيها تدجين زراعة الحبوب، وعلى رأسها القمح والشعير، وبعد ذلك أخذت بلاد الرافدين والنيل لواء التطور التاريخي في العصور المعدنية المتعاقبة.

وعلى الرغم من الفترات التي كانت تعاني منها النويات المدنية والمدينية لمنطقة فلسطين من انقطاع الحياة المؤقت لأسباب عديدة أهمها التغيرات البيئية والحروب والغزوات الطامعة بالمنطقة، إلا أنها في النهاية أخذت صفة الاستمرارية والديمومة منذ العصر البرونزي القديم (٣٢٠٠ - ٢٠٠٠ ق.م)، بعد أن استطاع الإنسان من خلال خبراته أن يتكيّف مع بيئته، بل وأن يكيّف - ما استطاع - بيئته مع احتياجاته، الأمر الذي قاد إلى تكاثر بشري محلي، رُفد بإمدادات بشرية كانت تأتي من النزوحات القبلية البدوية إلى منطقة فلسطين بشكل خاص من شبه الجزيرة العربية، حيث كانت القبائل البدوية تتجول في الشرق الأدنى القديم مجربة جميع الأقاليم إلى أن تستقر بها الحال في المنطقة الأكثر غنى واستقرارا من منطقة البوادي التي تغلب عليها البيئة الجافة، ومن منطقة الأنهر الكبرى التي كانت كثيرا ما تعاني من الفيضانات والطوفانات قبل أن يستطيع الإنسان تدجين القوى العمياء للماء من خلال السدود والأقنية والهندسات المائية بكافة أشكالها.

وهذه الأهمية الاستراتيجية للموقع الجغرافي للمنطقة (الكنعانية) المنفتحة على البحر والبوادي والجبال، جعلت المكان ممرا بين أقاليم العالم القديم، وفي الوقت نفسه محجا للشعوب التي تبحث عن مكان ذي ظروف معيشية جيدة تتمتع بمستوى جيد من الاستقرار، وبذلك فإن العنصر البشري الاستيطاني لمنطقة فلسطين كان يأتي من مصدرين:

الأول من تطور محلي للإنسان الحجري القديم والذي كانت أهم مراكزه، أو مدنه هي أريحا ومجدو، وقد دلّت الحفريات على وجود حضارة كنعانية متطورة في منتصف الألف الثالثة قبل الميلاد. أما المصدر الثاني وهو الأكبر فكان يأتي من الخارج، وبالذات من الجزيرة العربية التي أمدّت المنطقة بعناصرها البشرية ذات الطابع البدوي، كما أتت أيضا جماعات من حضارات وادي الرافدين (العموريين - والآشوريين)، كما زحفت نحو بلاد كنعان القبائل الهكسوسية، وقد شكلت تلك الجماعات المتنوعة عرقيا وحضاريا دويلات صغيرة مستقلة لها أنظمتها وقوانينها الخاصة التي بمرور الزمان كانت تنصهر فيما بينها ضمن البوتقة الكنعانية.

وقد وصل الكنعانيون (المتحدرون من القبائل العمورية) في النصف الأول من الألف الثالث قبل الميلاد، واستوطنوا في الساحل وجنوب فلسطين، ويعتقد سترابو أنهم نزحوا من سواحل الخليج العربي من خلال وجود تشابه كبير بين المعابد والمدن الكنعانية، وبين مثيلات لها على خليج البصرة، ويعتقد المؤرخ أوتو ايسفلد أن موطن الكنعانيين الأصلي كان في سيناء، أو مديان، وقد انتشروا في فلسطين في سياق الألف الثالث قبل الميلاد، أما المؤرخ فيلون الجبيلي فيرى أن الكنعانيين وجدوا، وتكاثروا في بلاد كنعان، بل يذهب إلى أن بلاد كنعان هي مصدر البشرية، والآلهة، أما هيرودتس فيذهب إلى أن الكنعانيين (الفينيقيين) قدموا من الساحل الأرتيري، ويعتقد البعض ومنهم سميث، وكلود كوندر، وواتران ولويس باتون أن كلمة كنعان تعني منخفض، وهناك من يقول إن كلمة كنعان تعني مزارع، وهي تقابل كلمة عبري، والتي تعني بدوي متنقل، والبعض الآخر، يخلط، أو يوحد بينها وبين كلمة فينيق، التي تدل على صبغة الأرجوان المستخرجة من بعض الرخويات البحرية والتي تستخدم في أعمال الصباغة، والتي كانت أهم المنتجات الكنعانية، كما أن كلمة كنعاني تدل أحيانا على كلمة تاجر، وقد أتى في التوراة أن كنعان هو أحد أبناء حام، وهو أب للصيدونيين والحثيين واليبوسيين والجرجشانيين والحويين والعرقيين والسينيين والأرواديين والعماريين والحماتيين.

وقد استقر الكنعانيون على الساحل الشرقي للبحر المتوسط، وسميت الجماعات التي سكنت على شواطئ لبنان وسورية بالفينيقيين، وقد انتشروا على شريط ساحلي ضيق يضم المدن الممتدة من أوغاريت (المدينة الكنعانية التي تقع بالقرب من مدينة اللاذقية على الساحل السوري)، وحتى مدينة عكا، مرورا بجزيرة أرواد، ثم مدينة جبيل (بيبلوس)، ثم صيدون وحتى جزيرة صور، ويعتقد أن الفينيقيين كانوا يعيشون كمرحلة أولى جنوب غرب بلاد كنعان، ومن هناك صعدوا نحو الشمال في الألف الثالثة قبل الميلاد.

ولم تشكل هذه المدن (الممالك) الكنعانية بشكل عام، والفينيقية بشكل خاص وحدة سياسية طوال تاريخها القديم، كما أنها كانت تخضع جزئيا لهيمنة القوى الدولية، حيث كانت في الألف الثانية قبل الميلاد تخضع للهيمنة المصرية، ومن ثم خضعت للحثيين الذين غزوا المنطقة في النصف الأول من القرن الرابع عشر، ومن بعدها تعرضت تلك المدن لغزو شعوب البحر، وقد أعادت المدن الكنعانية استقلالها في نهاية القرن الثالث عشر قبل الميلاد، واستمر هذا الاستقلال حتى القرن الثامن قبل الميلاد الذي سقط على يدي الآشوريين.

وأول إشارة جاءت على ذكر الكنعانيين كانت في القرن الخامس عشر قبل الميلاد على لوح من مدينة ماري، كما جاءت أيضا على لوح يعود إلى زمن أمنحوتب الثاني (١٤٣٦ - ١٤٢٥ ق.م) من الأسرة الفرعونية الثامنة عشرة، كما أتى على ذكرها في عهد ملك حلب إدريمي، كما أتى ذكرها في معاهدة قادش بين مصر بقيادة رعمسيس الثاني (١٢٩٩ - ١٢٣٢)، والإمبراطورية الحثية.

وبشكل عام شكّلت المنطقة الكنعانية هوية حضارية خاصة بها، ومميزة لها منذ بداية الألف الثالثة قبل الميلاد، وليس هناك من داع أن نذكّر بالإنجازات الحضارية التي قدمتها للبشرية وأهمها الأبجدية الكنعانية التي اشتقت منها كل الأبجديات العالمية.

وشكلت المنطقة الكنعانية (الشاطئ الشرقي للمتوسط) ميناء أو محجا أو منطقة منفتحة تأخذ وتعطي الإنسان بكل مكوناته الحضارية، كما أنها شكلت محطة للتأهيل الحضاري للقبائل البدوية، والشعوب القاطنة على الموانئ البحرية، والشعوب العابرة بين قارتي أسيا وأفريقيا، وعلى رأسها القبائل العمورية الذين انتقلوا من محيط بلاد الرافدين وحطوا برحالهم على المرتفعات المحيطة بنهر الأردن، كما استوطن في بلاد كنعان عدة أمم على شكل جيوب صغيرة ضمن النسيج المحلي منها جماعات هند - أوربية قدمت من الشمال مثل الحوريين، والحثيين، ولاحقا قدمت شعوب البحر البيلستية بعد أن أنهت الحضارة الحثية لتحط على الشاطئ الكنعاني في منطقته الجنوبية، كما قدمت أيضا موجات من القبائل الآرامية (المشتقة من العمورية)، والعبرية، والعربية، والنبطية.

وإضافة إلى كون بلاد كنعان الواحة التي يتم فيها تأهيل القبائل الرحل، والشعوب المتنقلة، والتجار، والغزاة، كانت أيضا هي الميناء الذي يتم فيه استقبال وتصدير الحضارات مع منتجاتها العينية والإرثية، وأهم دور قامت به كواحة من جهة، وكميناء من جهة أخرى هو تحضير (من الحضارة) أو تعميم المنتج اللغوي والذي قامت بتطويره وتنسيقه ضمن أبجدية تم تصديرها كمنتج حضاري عالمي وبهوية كنعانية حملتها القبائل (الآرامية) إلى البر الداخلي نحو

الشرق عبر بلاد فارس وصولا إلى الهند، وحملتها السفن التي برعوا بصناعتها إلى الموانئ الدولية المطلة على البحر الأبيض المتوسط، والذي كان يُعَدّ بحيرة كنعانية، وكان الكنعانيون أسياد التجارة وارتياد البحر في العصور القديمة، فمنذ القرن الثالث قبل الميلاد وصلوا بمراكبهم نحو مصر وبحر إيجة، وفي الألف الثانية قبل الميلاد وصلوا حتى شبه جزيرة إيبيريا وتجاوزوا جبل طارق، والبعض يذهب إلى أن الكنعانيين (القرطاجيين) وصلوا إلى قارة أمريكا، وكان الكنعانيون قد اكتشفوا، من خلال نشاطهم التجاري، رأس الرجاء الصالح، وقاموا بالدوران حول القارة الأفريقية نحو سنة ٦٠٠ ق.م، كما أنهم وصلوا إلى الجزر البريطانية نحو سنة ٤٥٠ ق.م في بحثهم عن القصدير، وكان الطريق الذي يسلكونه سرياً حسب ما جاء به سترابو، وقد أقاموا عدة مستوطنات على شواطئ المتوسط، وكانت تبدأ ببناء عساقل أي مرافئ لمراكبهم، وكانت هذه العساقل تتحول مع الزمن إلى مراكز تجارية، ومن ثم إلى مستوطنات، منها ترشيش، وقادش، وطرسوس، وكورنثوس، ومرسيليا، وقرطاجة، وسيطروا على الجزر المتوسطية، ومن جهة أخرى فإن الكنعانيين هم من اكتشفوا صناعة الزجاج، والكثير من المنتجات الحضارية، وهنا أنا، ومن خلال إبراز مناقب الكنعانيين، فإني لا أقصد أن أرفع من شأن حضارتهم من باب المنكاة التاريخية، كما أنني بالمقابل لا أحاول تقزيم ما قدمه العبرانيون إلى الحضارة الإنسانية، بل أتحدث عن ذلك بكثير من الحيادية الموضوعية، يقول المؤرخ غوردون تشايلد {إن الكنعانيين في انتشارهم التجاري كانوا ينشرون في العالم القديم معطياتهم الفكرية والعلمية واللغوية ومعتقداتهم الميثولوجية}.

إضافة إلى ذلك الدور الحضاري، وعلى جانب كبير من الأهمية، فإنهم قاموا أيضا بتعميم أو تحضير أو عولمة الدين الكنعاني الذي حُمل أيضا مع اللغة، والذي كان قد قدم من حضارات الواديين وطوِّر بحيث أصبح إنسانيا، (أو يمكن القول عنه مجازا بالدين العولمي) بعد أن أصبح أكثر تسامحا، وأقل تعصبا، على الرغم من أنه كان يميل نحو المادية أكثر من ميله للروحانية، فقد كانت الديانة الكنعانية (المادية الوثنية) تتخذ من الوثن أو الصنم دور الوسيط، في الهيكل، بين العابد والمعبود، أي أنه يُعَدّ رمزاً حاضراً لحالة غائبة ليس أكثر، أو أن وظيفته لا تتعدى إشراك البصر في دعم البصيرة لاستدراك الرب المجرد، ولا يمثل هذا الوسيط (الوثن) أهمية عالية، بحيث يمكن التخلي عن هذا الوثن الوسيط واستبداله بسواه، كما أن هذا الوسيط يفقد قدسيته خارج هيكله (بيت الرب)، وهيكل الرب أيضا لا يحمل قدسية مطلقة، بحيث يمكن للرب أن يسكن في أي مكان، فالمقدس هو الإله في السماء وليس الوثن أو الرمز الذي يمثله على الأرض، وهو الأمر الذي ساهم بنشر المعتقدات الكنعانية في العالم، وبخاصة

الأوربي، قياسا، أو بالمقارنة مع الديانة اليهودية التي كانت أسيرة المكان، وفي هذا السياق يقول ولفنستون {والكنعانيون عدا تأثيرهم العلمي والصناعي على العالم المتمدن لهم فضل عظيم آخر وهو تأثيرهم الديني في جميع الأمم السامية فقد كانت دياناتهم أرقى ديانات الأمم السابقة الوثنية لذلك تأثرت بها ديانات بابل وورث الآراميون والإسرائيليون والعرب هذا التأثير}.

وكان قد حدث تنافس قوي في انتشار المعتقدات الكنعانية، وبين الديانة اليهودية ضمن القبائل العبرية، ومن هذا التنافس وفي مراحل لاحقة انبعث الدين المسيحي الروحي الإنساني، والذي شكل انعكاسا للأرض الكنعانية والشعب الكنعاني، ومن أرض كنعان صُدّر بعد ذلك إلى موانئ العالم الغربي على وجه الخصوص. ويمكن القول أن المسيحية هي خروج أو ولادة البعلية الكنعانية في حضن اليهودية مع تأثيرات زارادشتية، وهندية، وهيلينية - رومانية.

إن اليهودية تتناص مع البعلية الكنعانية التي كانت تدين لعشتار (الزوجة) الإلهة الأنثى، ولبعل (الزوج) الإله الذكر، بحيث إن اليهودية جعلت من الإله (يَهْوَه) إلها وحيدا، أما عشتار فقد تجلت في اليهودية بالشعب العبري الذي كان يمثل زوجة الرب (يَهْوَه)، أما المسيحية فقد مزجت بين المعتقدين، بحيث أصبح دور الزوجة هو دور الأم.

وبينما ذاب المعتقد الكنعاني في المعتقد المسيحي، بقي معتقد الجماعات العبرية الجنوبية المتعصب، والتزمت (الدين اليهوي) متقوقعا على ذاته، ولذلك لم يذب هذا الدين في بوتقة الدين الكنعاني - المسيحي، على الرغم من أن الدين اليهودي قد أخذ الكثير من لبناته من الديانة الكنعانية البعلية.

كان أول من استوطن، وعمّر، واستقر في منطقة فلسطين واعتبرها وطنا له هم الكنعانيون، الذين قاموا بتطويع الأرض البكر وتدجينها وترويضها لتكون طيعة لنشاطاته الزراعية، كما قاموا ببناء المدن الثابتة عليها، وأسسوا عليها حضارة قادرة على التفاعل مع الحضارات المحيطة والعابرة بحيث استطاع أبناء المنطقة أن يمتصوا ويستوعبوا (رحيق) الحضارات كمادة أولية، ثم أعادوا تصنيعها بما يضفي عليها خصوصية المنتج، وعمومية المنتَج وهذه حال الأحرف الهيروغليفية والمسمارية التي أعيد إنتاجها على شكل أبجدية عالمية (الأبجدية الأوغاريتية) وذلك ما لم تستطع أن تقوم بهذا الدور لغات حضارات الواديين بسبب خصوصيتهما على الرغم من قدمهما وسبقهما على الكتابة الكنعانية.

وبسبب العقلية المنفتحة على الآخر، والمتسامحة معه، فإن جميع القادمين من الشعوب على اختلاف أنماطهم كانوا سريعا ما يذوبون في بوتقة المجتمع الكنعاني بعد أن يفرغوا كل ما في جعبتهم من فكر حضاري، ومن ثم كانوا يخلعون ملابسهم الخصوصية، ومن ثم

كانوا يغرفون من الحضارة الكنعانية التي هم جزء منها، وبذلك يتكنعنون طوعاً، وبمعنى آخر فقد كانت بلاد كنعان بشكل خاص، وبلاد الشام بشكل عام تقوم باستيعاب، ومزج كل الدماء، والثقافات الجديدة في بوتقتها الحضارية، وتعيد تصنيعها ضمن هويتها الشامية، أي بمعنى ما بقيت بلاد الشام تحافظ على هويتها الخاصة بها، وعلى أصالتها، وكان كل طارئ على تلك الهوية أن يسلك أحد المسارات التالية:

إما أن يذوب ويصبح جزءا عضويا من المجتمع الوطني، وخير مثال على ذلك جماعات البيلست الإيجيين الذين استوطنوا على الساحل الكنعاني في سياق الفترة الانتقالية بين العصر البرونزي الثالث، والعصر الحديدي الأول، وقد ذابت تلك الجماعات الإيجية في المجتمع الكنعاني خلال أقل من قرنين من الزمان حالهم حال الحثيين الذين كانوا يسكنون في مدينة الخليل، والحوريين (وموطنهم الأصلي جبال أرمينيا) الذين كانوا يسكنون في منطقة جبل سعير في جنوب شرق فلسطين.

أو أنه يتعرض للنبذ خارج حدود المنطقة، وهو حال كل الشعوب المجيشة التي قدمت إلى المنطقة حاملة سيوفها، والتي في نهاية المطاف عادت مدحورة من حيث أتت.

أو، وهي حالات خاصة، أن يتسور، ويتقوقع ضمن المجتمع الوطني، والمكان الجغرافي وهو الطريق الذي سلكته الجماعات العبرية.

وبشكل عام كانت بلاد كنعان، إسفنجة يمكنها امتصاص كل أنواع الأثنيات، لا سيما وأنها كانت في أكثر مراحلها التاريخية بلاد وفرة، وعيش رغيد، وقد جاء وصف لبلاد كنعان في مذكرات الأمير المصري سينوحيت، والذي كان قد فر من مصر بسبب خلافات سياسية، واختار بلاد كنعان مقاما له في النصف الأول من الألف الثانية قبل الميلاد {لقد كانت تلك الأراضي طيبة، ففيها كثرة كثيرة من التمور والعنب، والخمر أكثر من الماء، ولم نعان في يوم من الأيام نقصا في العسل والسمن، وكانت الأشجار تعج بمختلف أنواع الثمار، كما وكانوا يزرعون هناك القمح والشعير، أما القطيع فأعداده أكثر من أن تعد، لقد كنت آكل الخبز واللحم المسلوق والطيور المشوية، وأشرب الخمر كل يوم، زد على ذلك أنني كنت آكل الطرائد التي كانوا يصيدونها لي، وكنت أذهب إلى الصيد بنفسي مع كلابي}.

وبشكل مختصر يمكن القول أن الحضارة الكنعانية بكل أشكالها كان لها أم كنعانية، وآباء لا حصر لهم، وهذه النقطة انعكست على الدين الكنعاني بحيث كان للإلهة (الأم الكبرى) الدور البارز في الديانة الكنعانية، والتي كان من تشكيلاتها الأخيرة السيدة مريم العذراء، فكل الحضارات أمها كنعانية، أما أبوها فكل الأمم التي قدمت إليها،

باستثناء القبائل العبرية (اليهودية تحديدا) والتي لم يتم على وجه اليقين التأكد من تحديد منشأها بدقة، إلا أنها تظل محصورة بين الآرامية بالخاصة، أو العمورية بالعامة، ولكن لا يستبعد أن تكون أو تعود إلى بقايا القبائل السومرية - الأكادية، أو أنها مزيج من تلك الشعوب، ولكن وبسبب انعزالها، وتطرفها، وتصلبها، وتمنعها، ومقاومتها للتمازج والانصهار مع باقي الشعوب التي تعيش بين ظهرانيها، وتقوقعها على ذاتها وأحلامها وأفكارها ودينها جعل شيئا ما من الغموض يكتنفها، وبشكل عام فإن الجماعات العبرية واليهود من بعدهم تنفتح جزئيا على الآخرين ولكن دون أن تسمح للآخرين بالانفتاح عليها.

ويمكن القول أن تصلب القبلية العبرية نتجت عن عاملين متنافسين ومتجادلين، وأيضا متآزرين من حيث النتيجة، فقد كان يُعَدّ الكنعانيون، وسواهم من الشعوب المتمدنة أن العبرانيين قبائل بدوية بدائية، تمثل مرحلة تطورية غشيمة بدائية مخربة، يمكن أن تسبب مظاهر الفوضى والشعور بالقلق، والإساءة إلى الوحدة العضوية الأثنية الاجتماعية الثقافية المدنية، من قبل جماعات غير عضوية، بل ومنافس على مصدر العيش، على الرغم من أن المجتمَعين اقتصاديا هما مجتمعان تكامليان، وهو ما يجعل المجتمع المدني ينظر إلى الدخيل البدوي البدائي نظرة عنصرية لا تخلو من الشوفينية، وهذا بدوره كان من شأنه أن يعزز انغلاق تلك الجماعات على نفسها، كما سيعزز لديهم حالة عدائية تجاه المجتمع المضيف، الأمر الذي سيعزز أيضا موقف المجتمع الوطني، وبتلك يلتحم السبب مع النتيجة في دارة متصاعدة، وعلى الرغم من أن مطلب المجتمع الوطني المدني لم يكن يتعدى الطلب من المجتمع القبلي الدخيل بأن يعلن طاعته لنظم المجتمع المدني، والاندخال في نسيجه العضوي المستقر كي يعم الأمن، إلا إن هذا المطلب يفقد معناه من صاحب الطلب حين يعامل الدخيل تلك المعاملة الشوفينية، التي كان من شأنها تعزيز انغلاق جماعات على نفسها.

ولكن على الرغم من كل هذه الخصوصية للجماعات القبلية، فإنها حين قدمت إلى بلاد كنعان بشكل مسالم حينا، وبشكل تسللي حينا آخر، فقد اضطرت بعد زمن طويل أن تتخلى عن لهجتها الآرامية لمصلحة اللهجة الكنعانية، كما أنها تخلت عن نمطها الرعوي لمصلحة النمط الزراعي، لا سيما بعد اطلاع تلك الجماعات على النظم الزراعية الكنعانية، الأمر الذي قاد تلك الجماعات إلى تبني الديانة الكنعانية الزراعية، والتي كان يترأس آلهتها إيل (آب البشر)، ورفيقته عشيرة، وكان له ابن يدعى بعل وهو إله الخصب (إله المطر والعواصف)، وهو الذي ورث عن أبيه جزءا من مملكة السماء، وكان عدوه اللدود هو الإله موت (إله القحط والجفاف والموت).

وقد حصل صراع داخلي قبلي عبري بين تيار انفتاحي على المحيط الكنعاني وقد تبنته القبائل العبرية الشمالية في محيط منطقة شكيم (نابلس) والتي كانت منتشرة في وسط ديموغرافي كنعاني، وتيار متزمت مغلق تبنته القبائل الجنوبية (منطقة أورشليم والخليل) بقيادة قبيلة يهوذا ومن ائتلف معها من العشائر القبلية ولا سيما بعض عشائر قبيلة بنيامين، والتي كانت تنتشر في محيط كنعاني ضعيف، وقد تخلت القبائل والجماعات القبلية الشمالية عن عباءتها واعتنقت الكنعانية البعلية الزراعية، وقد كانت هذه القبائل العبرية بقيادة قبيلة أفرايم التي استوطنت بين الكنعانيين في المنطقة الشمالية من الضفة الغربية على عدة مراحل زمنية قبل قدوم قبيلتي يهوذا وبنيامين، والتي دخلت إلى بلاد كنعان بشكل تسللي على مراحل في سياق الثلث الأخير من الألف الثاني قبل الميلاد، والتي بعد دخولها بقيت تعيش حياة البداوة القبلية المتزمتة، وبقيت متمسكة بدينها وإلهها (يَهْوَه) الرعوي القبلي العنصري في بيئة بدوية فقيرة زراعيا.

وبسبب الخطر المحيط بالقبائل العبرية من قبل الشعوب الأخرى في الوقت الذي كانت تفتقد فيها المنطقة لشرطي النظام، فقد تعاقدت مجموعة القبائل لمرحلة قصيرة تحت قيادة الشيوخ الذين أتت التوراة على تسميتهم بالملوك كما هي حال باقي الشعوب الكنعانية شاول وداود وسليمان، ولكن سرعان ما انفك هذا التعاقد وانقسموا إلى ما كانوا عليه:

- قبائل متكنعنة زراعية شمالية.
- وقبائل جنوبية (يهوذية) والتي بقيت متزمتة مع دينها اليهوي وقامت بإغلاق الأبواب على نفسها ورفعت أسورا تحجبها جزئيا عن محيطها الحضاري لتدخل نفسها في عزلة حضارية.

وبعيدا عن الذهنية التوراتية، يمكن أن نوجز التاريخ العام لبلاد كنعان كالتالي:

كان أول من استوطن، وتوطن في بلاد كنعان قبائل وجماعات عمورية، وعندما بدأت تتشكل قوى دولية متنافسة في منطقة الشرق الأدنى ولا سيما في بلاد الرافدين، ووادي النيل، خضعت بلاد كنعان لحكم الفراعنة من سنة ٢٩٠٠ وحتى ١٣٠٠ قبل الميلاد، وفي تلك الفترة الطويلة من الزمن اندخلت عدة شعوب في بلاد كنعان جاءت من الشمال والشرق أهمها جماعات حثية، وحورية، وفي المراحل الأخيرة للهيمنة الفرعونية، والفترة التي تليها خضعت لصراعات محلية، ولغزوات القبائل العبرية.

ومن ثم خضعت بلاد كنعان لحكم الآراميين منذ مطلع الألف الأولى قبل الميلاد، وحتى الثلث الأخير من القرن الثامن قبل الميلاد.

ثم خضعت لحكم الآشوريين بين القرنين الثامن، والسابع قبل الميلاد (٧٤٤ - ٦٣٥ ق.م).

ثم خضعت لحكم الكلدانيين بين القرنين السابع والسادس قبل الميلاد (٦٣٥ - ٥٣٨ ق.م).

ثم لحكم الفرس بين القرنين السادس والرابع قبل الميلاد (٥٣٨ - ٣٣٢ ق.م).

ثم جاء الإغريق (٣٣١ - ٦٣ ق.م)، ومن بعدهم الرومان ثم البيزنطيون (٦٣ ق.م - ٦٣٥ ب.م)

ثم جاء الفتح العربي الإسلامي سنة ٦٣٥ للميلاد.

أما بالنسبة للتاريخ العبري، الإسرائيلي، اليهودي الذي تم ربطه قسرا بتاريخ بلاد كنعان فقد بقي لغزا يمتّع الباحثين في وضع النظريات التي تحاول الوصول إلى مقاربة منطقية لتاريخ القبائل العبرية، والسبب الرئيس في ذلك يعود إلى أن النصوص لم توضّح تماما أصل هذه الجماعات، كما أن التوراة لم تحدد بدقة إلى أي جد يعود العبرانيون، فقد أتى أن «سام أبو كل بني عابر» وهذا يعني انطباق مفهوم الساميين مع العبريين، والمحرر التوراتي نفسه في موقع آخر يعيد العبرانيين إلى عابر ابن شالح وهو الجد الخامس لإبراهيم، وقد أعاده الباحث أحمد يوسف داود إلى إبراهيم (أبرام)، حيث يعتقد أن اسم (أبرام) هو بالأصل (إبرا) ثم تحول إلى أبرام ومن ثم إبراهيم، وهو الذي يذهب إلى أن لقب عبري أو عبراني كانت تطلق على مجموعة كبيرة من القبائل العربية في محيط بادية الشام.

وقد ورد ذكر العبرانيين في النصوص التاريخية تحت أسماء متعددة منها العبيرو، والخابيرو، والهابيرو، والأخلامو، والعفر. و، ومن مجموع النصوص التي أتت على ذكرهم يمكن مقاربتهم على أنهم نمط اجتماعي شبه بدوي، فلم يكونوا يستقرون في إقليم أو مكان جغرافي، بل كانوا يتنقلون بين البوادي وعلى هامش المدن، والقرى، والتي يتزودون منها ببعض المواد التموينية، كما أنهم إلى جانب أعمالهم الرعوية، كان العبرانيون يقومون بأنواع مختلفة من الأعمال الارتزاقية، مثل أعمال اللصوصية، وغزو المدن أو المدينات معتمدين على المباغتة والمفاجأة في غزواتهم التي كانت تتم تحت جنح الظلام ومن ثم الفرار إلى أماكن بعيدة، كما أن بعض الكتابات تظهر أنهم كانوا يعملون أيضا كجيوش مرتزقة، وقد وردت عدة قصص في التوراة تشير إلى أنهم كانوا يقومون بتشكيل عصابات ارتزاقية، فداود كان رئيس عصابة مرتزقة، وكان يعمل لمصلحة الفلسطينيين، كما أن ملك يهوذا أمصيا (٧٩٨ - ٧٦٩ ق.م) استأجر مئة ألف جبار بأس «جيش غزاة مرتزق من قبيلة أفرايم» من أجل حربه مع الأدوميين، وقبل ذلك كان قد ورد في سفر التكوين ما يشير إلى أن إبراهيم كان يأتمر على مجموعة من الرجال المتدربين على القتال، وأنه كان يقوم بتوظيفهم مقابل المال، فبعد أن قام تحالف ممالك

جنوب العراق بغزو ممالك شرقي الأردن وأسروا لوط ابن أخي إبرام، قام إبرام «جر غلمانه المتمرنين ولدان بيته ثلث مائة وثمانية عشرة وتبعهم إلى دان. وانقسم عليهم ليلا هو وعبيده فكسرهم وتبعهم إلى حوبة التي عن شمال دمشق. واسترجع كل الأملاك واسترجع كل الأملاك واسترجع لوطا أخاه أيضا وأملاكه والنساء أيضا والشعب. فخرج ملك سوم لاستقباله بعد رجوعه من كسرة كدر لعومر والملوك الذين معه إلى عمق شوى الذي هو عمق الملك. وملكي صادق ملك شاليم أخرج خبزا وخمرا وكان كاهنا لله العلي وباركه وقال مبارك أبرام من الله العلي مالك السموات والأرض، ومبارك الله العلي الذي أسلم أعداءك في يدك. فأعطاه عشرا من كل شيء. وقال ملك سدوم لأبرام أعطني النفوس وأما الأملاك فخذها لنفسك. فقال أبرام لملك سدوم رفعت يدي إلى الرب الإله العلي مالك السماء والأرض لا آخذن لا خيطا ولا شراك نعل ولا من كل ما هو لك. فلا تقول أنا أغنيت أبرام. ليس لي غير الذي أكله الغلمان. وأما نصيب الرجال الذين ذهبوا معي عانر وأشكول وممرا فهم يأخذون نصيبهم» تكوين: ١٤ ولنا أن نتساءل في هذا الموقع لماذا قام إبراهيم بالعودة إلى ملك شالم (ملكي صادق) وأعطاه عُشر ما كان قد سلبه من الغزاة، فهل كانت هذه إتاوة يدفعها لأنه تحت حماية ملك شالم، وقد دفع ملك سدوم أجر رجال إبراهيم، ألا يوحي هذا النص بأن إبراهيم كان يترأس مجموعة من الرجال (المتمرنين) على أعمال القتال، وهم يعملون كمقاتلين مأجورين.

وكان أول نص جاء على ذكرهم يشير إلى أن الخبيرو (العبرانيين) كانوا قد تجندوا كجيوش مرتزقة في جيش نارام سين ملك الأكاديين نحو عام ٢٢٧٠ ق.م، وورد ذكرهم في نصوص مملكة ماري العمورية على نهر الفرات في نهاية الألف الثالثة قبل الميلاد على أنهم غزاة، وقد وصفوا بالأعداء وكان تعدادهم ألفي جندي بقيادة شخص يدعى بابا هدد، وجاء في نقش من مدينة آلالاخ شمال وادي الرافدين ملك باسم إبرام كان قد عقد اتفاقا مع الخابيرو ليكونوا جنودا مرتزقة في جيشه، وورد ذكرهم في نوزي عاصمة مملكة ميتاني التي تقع بالقرب من مدينة كركوك العراقية في القرن السادس عشر قبل الميلاد على أنهم كانوا يحصلون على مساعدات منتظمة من الخزينة الملكية (أطعمة وألبسة) مقابل خدمات غير واضحة، وأتت سجلات ميتاني على ذكر شخص من الهابيرو يدعى مارا ديجلات كان يعمل كعبد متطوع لدى أحد الوجهاء، وعند الحثيين جاء ذكرهم في عهد مرشاليش الأول نحو ١٦٠٠ ق.م الذي كان قد استأجرهم كمرتزقة، كما ورد ذكرهم في القرن الثالث عشر قبل الميلاد من خلال الحديث عن اتفاق كان قد أبرم بين الملك الحثي حوتشيلي الثالث، وملك مدينة أوغاريت ينص على عدم استقبال الحثيين للعابيرو الذين يفرون من مملكة أوغاريت، وجاء في نص حثي ما يشير إلى

وجود حي خاص لإقامة (اللابيرو = العابيرو)، وقد ورد أيضا في سجلات ماري رسائل تظهر وجود صدامات بين مملكة حلب وقبيلة أو جماعة باسم بني يمين (بنيامينا).

وقد ورد أيضا ذكر العابيرو باسم (عفر. و) في رسائل متعددة بعث بها ملوك بلاد كنعان إلى ملوك مصر في تل العمارنة مستنجدين بهم من الغزوات التي كانوا يقومون بها ضد الممالك الكنعانية، وفي نقش آخر جاء أن الملك أو الفرعون أمنحوتب الثاني (١٤٣٦ - ١٤٢٥ ق.م) أخذ أو أسر مجموعات من (العفر. و) كان عددهم (٣٦٠٠) من فلسطين، وأحضرهم إلى مصر ليعملوا كرقيق ومسخرين، كما أتى ذكرهم في عهد سيتي الأول، كما أتى أيضا أن رعمسيس الثالث كان قد استخدم أسرى عبرانيين لخدمة معبد آمون في مدينة عين شمس، أما رعمسيس الرابع فيذكر أنه كان في جيشه ٨٠٠ من رماة السهام من العابيرو كجماعات مرتزقة، وهذا يتفق مع ما أتت به التوراة من أنهم كانوا يعملون كعبيد مسخرين في بناء مخازن فيثوم ورعمسيس، وبسبب ضنك العيش الذي كانوا يعانون منه قاموا بالخروج أو الهروب من مصر بشكل فردي، أو على شكل جماعات صغيرة مع عبيد منوعين ومع خارجين عن القانون، ومطلوبين، ومصابين بأمراض معدية، وأعيد تجميعهم في سيناء تحت قيادة قبيلة يهوذا بعد أن انظمت إليهم جماعات وقبائل سينائية.

وكانت تلك الجماعات العبرية التي خرجت - مع لفيف من الشعوب - من مصر قد خبرت في الماضي النعيم الذي عاشت فيه في بلاد كنعان نسبة إلى الضنك الذي عاشته في عبودية مصر، فأصبحت بلاد كنعان قبلتهم، ومحل أحلامهم، وفي تلك المرحلة بدأ يتشكل لديهم مفهوم الأرض الموعودة، وبعد أن دخلوا إلى بلاد كنعان على مراحل بشكل متسلل لينظموا إلى القبائل العبرية المتكنعنة، اصطدموا هناك بمجتمع حضاري منفتح، الأمر الذي يتعارض مع الفكر القبلي البدوي المتزمت والذي يرفض الذوبان والتزاوج الحضاري مع الآخر، وهذا تماما يشبه ما حصل مع يهود الأشكناز المنغلقين الغيتويين عندما هاجروا من أوربا الشرقية إلى أوربا الغربية المنفتحة حيث يعيش اليهود السافارد المندمجين في مجتمعهم المدني الغربي الأوربي، وبالتالي تشكّل ما سمي بالمسألة اليهودية، وهو الذي ساهم بتشكيل الصهيونية لحل هذه المسألة عن طريق تهجير اليهود الشرقيين الأشكيناز إلى فلسطين وتشكيل دولة إسرائيل الصهيونية في مرحلة لاحقة.

وعندما دخلت القبائل العبرية التي قدمت من مصر إلى بلاد كنعان وجدت القبائل العبرية المتوطنة منذ زمن سابق تخضع عرفيا لقاضي أو شيخ القبيلة، وهذا يشبه النظام السياسي الكنعاني (المدينة - الدولة)، وقد حاولت القبائل الجديدة أن تؤسس نظاماً عصبياً

قبلياً مركزياً موحداً، واستجرّت إليه القبائل العبرية القديمة (المتكنعنة) لا سيما بعد أن اصطدمت تلك القبائل بالشعب الفلستي (لا الكنعاني)، وحسب ما جاء في التوراة وبعد مرحلة تقارب القرنين من الزمان - كانوا يخضعون فيه قبليا لنظام القضاة الذين كانوا يحكمون ويحلون مشكلاتهم وخلافاتهم البينية - قاموا بتنصيب شاؤل (١٠٠٧ - ١٠٠٤ ق.م) كقائد وزعيم قبلي والذي سرعان ما انكسر أمام البيلست ومات منتحرا إثر إصابته في الحرب.

وحسب ما جاء في التوراة فقد استلم بعده داود (١٠٠٤ - ٩٦٥ ق.م) الذي كان نجمه قد سطع إثر قيامه بترؤس عصابة مرتزقة تقوم على السطو تحت حماية البيلست، والذي سريعا - باعتماده على عصابته - استطاع أن ينهي صراعه الداخلي مع ابنه أبشالوم، وأن يرسخ ويوسع سلطته، ويؤسس له عاصمة عسكرية قبلية هي حصن داود (حصن صهيون بالقرب من أورشليم) مستغلا الانحسار الحضاري العسكري على المنطقة حيث كانت مصر تعاني من تمزقها الداخلي وبلاد الرافدين تعاني من الهيمنة الكاشية، والحثيون مجتاحون من قبل شعوب البحر.

وورث عنه ابنه سليمان (٩٦٥ - ٩٢٨ ق.م) المملكة القبلية المستقرة، وهذا ما ساعد على الاهتمام بالأعمال البنائية والتجارية من خلال خبرات كنعانية فينيقية، وبالنشاطات السياسية، وقد أسهبت التوراة في تضخيم سليمان وعصره، ومنجزاته وأحالته إلى شخصية أسطورية لا تاريخية.

ولكن بعد موته سنة ٩٢٨ ق.م انقسمت المملكة القبلية العشائرية التي كان لها سلطة قبلية واسعة، وسلطة جغرافية ضيقة لم تتعد جبال يهوذا والتي لم تدم سوى سبعة أو ثمانية عقود، وانتهت بخروج قبائل الشمال المنفتحة المواطنة، والتي كانت قد دخلت إلى أرض كنعان في مراحل متعددة ابتداء بالقرن الثامن أو التاسع عشر قبل الميلاد، والتي عاودت حياتها الكنعانية السابقة مع بعض التأثيرات من تجربتها الجديدة، وكانت ديانتها البعلية الكنعانية الزراعية بالدرجة الأولى، بينما عززت تلك التجربة للقبائل القادمة مجددا (يهوذا وبنيامين) العصبية العرقية القبلية، وكانت ديانتها اليهوية الرعوية بالدرجة الأولى، وفي سنة ٧٢١ قبل الميلاد انتهت مملكة السامرة (إسرائيل) على يد الآشوريين، وفي سنة ٥٨٦ انتهت مملكة يهوذا على يد البابليين.

ومما تقدم، فقد دأب الباحثون على تعدد أهدافهم في وضع عدة مقاربات، أو نظريات لتشخيص النمط والتاريخ العبري، الإسرائيلي، اليهودي، والتي يمكن إجمالها في ثلاث مجموعات، أو نظريات هي:

١- **الأولى منها**، وهي التي تبناها التوراتيون، والتي تقول إن العبرانيين اسم جنس لمجموعة عرقية محددة حسب مقولة التوراة بانتسابهم إلى إبراهيم العبراني، أو إلى جده عابر، أو إلى الجد الأكبر سام، وإذا كان العبرانيون يعودون إلى عابر فهذا يعني أن كل أبناء المنطقة هم من العبرانيين، كما أنه يتنافى مع كون إبراهيم آراميا، وحسب شجرة العائلة العربية فإن عابر هو أحد أبناء آرام إلى جانب أخويه ثمود وجديس (ابنا آرام)، وبغض النظر عن شجرة النسب التوراتية، فإن التوراة في النهاية جعلت العبرانيين يتحدرون نسبيا من إسحق، أو حتى يعقوب ابن إسحاق حصرا، وحسب التوراة فإن العبرانيين هم جماعات آرامية «آراميا تائها كان أبي».

٢- **والثانية** تذهب إلى أن العبرانيين مجموعات من البدو أو الأعراب أو شبه البدو، عابرين للبوادي والقفار والمراعي، وكلمة عبراني تدل على وصف لحالة اجتماعية لا إلى عرق أو جنس معين، وهي النظرية التي يميل أكثر الباحثين التاريخيين إلى تبنيها، ومنهم أحمد يوسف داود، وأحمد سوسة الذي يذهب إلى أن كلمة العبراني تأتي مرادفة لكلمة ابن الصحراء بشكل عام، أما أحمد يوسف داود فيذهب إلى أن العبراني هو كل شخص قَدِم من الجانب الآخر من الطريق، وبذلك فهي لا تحمل أي صفة عرقية، أو اجتماعية، أو طبقية، وقد أطلقت تسمية العبرانيين على كل من عبروا إلى بلاد كنعان، وهو يميزها عن كلمة الخبيرو التي تدل إلى الرفيق أو الشريك، وهم يشكلون طبقة من الفقراء ائتلفوا فيما بينهم، وتحولوا إلى جماعات مرتزقة متنوعة، أما الأخلاموا فهم صنف خاص من الخابيرو وهم يمثلون عصابات كانت تقوم على النهب والسلب وقطع الطرق، وهو يذهب أيضا إلى أن الصعاليك العرب كانوا نوعا من الأخلامو.

٣- **أما النظرية الثالثة** فتتشكل من عدة مقولات، فالبعض يرى أن العبرانيين يعودون إلى جماعات سامية لم تتميز بشكل واضح، ومنهم من رأى أن العبرانيين هم خليط من جماعات متنوعة من الآرامية وبقايا من السومريين والأكاديين، أما عمودها الفقري فمن العموريين، وهم جماعات كانوا ينتمون إلى أمارة أور على الخليج العربي قرب التقاء نهري دجلة والفرات، وفي القرن السادس عشر قبل الميلاد وبعد الغزو أو الاجتياح الحثي لمملكتهم في عهد ملكهم (داميق - إيل - يشو) تشتتوا في منطقة الهلال الخصيب على شكل جماعات متفرقة، وكان من هذه الجماعات الجماعة التي قادها النبي إبراهيم (خليل الرحمن) والتي بعد أن صعدت شمالا نحو أعلى الرافدين عادت وانحدرت باتجاه الجنوب الغربي إلى بلاد كنعان.

كما يرى البعض أن العبرانيين هم جماعات أجنبية قدمت إلى المنطقة وادعت أنها من أبناء المنطقة عندما بدأت تشعر بعمليات الرفض الحضاري لها، ومن هؤلاء البروفيسور فيرلو الباحث في تاريخ أوغاريت الذي يعتقد أن العبرانيين هم بقايا الحثيين الذين اجتاحوا بابل، وهو

الذي يتوائم مع ما ذهب إليه فيليب حتّي من أن الملامح المورفولوجية (الشكلية) اليهودية تقرب من الملامح الحثية والحورية (الأرمينية)، وهو يذهب إلى أن العبرانيين يعودون إلى جماعات متنوعة تضم عناصر سامية، وحورية، وحثية، وغيرها من العناصر غير السامية، أما السيد القمني فيذهب إلى أن الخابيرو هم نتاج مزيج هجرتين.

الأولى جنوبية قدمت من اليمن (بنويمينا) وهم جماعات زنجية - عربية مختلطة،

والثانية شمالية قدمت من أرمينية (بنو شمأل أو بنو شمأعيل أو بنو إسماعيل) وهم جماعات هند أوربية، وهو يذهب إلى أن جملة «آراميا تائها كان أبي» كانت في الأصل (أرمينيا تائها كان أبي)، ويعتقد أكثر من باحث أن العبرانيين هم جماعات من العرب البائدة، وأن العبرية ما هي سوى العربية مقلوبة.

أما **كاثلين كينون** فتعتقد أن العبرانيين اليهود هم مزيج شعبين أو قبيلتين هما قبيلة إبراهيم، وقبيلة يعقوب، وتعتقد أن قبيلة إبراهيم قدمت من أعالي النهرين، أما قبيلة يعقوب فقدمت من شرقي الأردن.

أما **كمال الصليبي** فيرى أن بني يهوذا تحديدا من بني يعقوب الآراميين، أما بنو إسرائيل فهم العبرانيون، ويعتقد الصليبي أن بني إسرائيل ولفيفهم من العبرانيين بلسانهم العبري (المتشكل من خليط من الكنعانية والآرامية)، وتحت رعاية موسى تم اتحادهم مع بني يعقوب الآراميين.

أما **فرويد** فيرى أن اليهود واليهودية نتجت عن اندماج شعبين أحدهما كان يتعبد للإله إيل، والآخر لـ (يَهْوَه)، وقد استطاعت اليهوية الانتصار على الإيلية في النهاية.

أما أنا، وتمشيا مع ما سبق، فأرى أن الجماعات العبرية، هي جماعات إيلافية لها محوران، أو عمودان فقريان أثنيان أساسيان متشكلان من جماعات عمورية وجماعات آرامية، أما أطرافها فتتألف من عدة جماعات أثنية منها الحثية والحورية والكاشية (آرية أو هند أوربية)، إضافة إلى بقايا الشعوب السومرية والأكادية، والجدير ذكره أن هناك قرابة عميقة جوهرية بين الديانة اليهودية والديانة السومرية، وخير ما نجده في تلك القرابة عدا عن أساطير البدايات، تصور كلا المعتقدين عن الجنة، وهذه القرابة الثقافية التصورية تشكل انعكاساً لحالة قرابة عرقية، أثنية بين الجماعات العبرية والسومرية - الأكادية، وقد امتزجت العقيدة السومرية المادية (الأرضية)، مع العقيدة العمورية الروحية (السماوية)، وشكلتا أحد الموارد المهمة في العقيدة العبرية، ومن ثم اليهودية، ولأن هذه الجماعات العبرية

وُجدت في منطقة صراعات أثنية، فقد حاول قادتها أن يصمموا لها شجرة أثنية واحدة تجمع تلك الشعوب المتشظية، وتسبك ما تنافر منها في بوتقة واحدة.

وهذه الحالة يمكن مشاهدتها أو رصدها عند الأقليات، أو الجاليات المختلفة المتغربة التي تعيش بين ظهراني مجتمع وطني عضوي، حيث تقوم هذه الأقليات بالتآلف والتآزر فيما بينها، وتشكل شبه مجتمع، ضمن، أو إلى جانب، المجتمع الوطني في البلد المضيف، والمجتمع العبري يشبه إلى درجة ما مجموعة جاليات قدمت لعدة أسباب من مجتمعات وحضارات مختلفة، منها ما باد، ومنها من كان يعاني من حالة تفكك، وبسبب رفض المجتمع الوطني لهؤلاء الدخلاء العابرين، وبسبب نظرة المجتمع الوطني، وتصنيفه لمجموعات الدخلاء على اختلاف أثنياتهم على أنهم يعودون إلى جماعة واحدة فقط تهدد تماسك أثنيته، فلم يجد هؤلاء الدخلاء سوى التكوثر على أنفسهم، وابتداع عوامل تساهم في تماسكهم في وجه المجتمع الوطني، وبذلك تشكل العبرانيون كجماعة صهرت في بوتقتها مجموعات أثنية متعدد، وشكلت مجتمعاً أثنياً واحداً.

نهاية، فأنا أعتقد بأن العبرانيين هم إما جماعة سامية تعرض آباؤهم الأوائل إلى طفرة وراثية، حرفت أخلاقياتهم العامة عن الأخلاقيات السامية المعروفة، وهو احتمال ضعيف.

أما الاحتمال الثاني، وهو الأقرب إلى المنطق، فهو أن العبرانيين خليط غير متجانس من مجموعات أثنية متعددة، سامية، وهند أوربية، ائتلفت فيما بينها، وفي محاولة منهم لأن يشكلوا مجتمعا عضويا، فقد تكوثروا، وشكلوا نسيجا من خيوط متعددة، ولأن هذا الخليط كان يعيش في بيئة قبلية أثنية، فإنه لم يجد بدا من أن يدعي أنه شعب سامي، بل إن تأكيده على هذا النسب، أو التنسب كان تأكيدا عصابيا، وسواسيا، وهو ما يوحي بأن هذه الجماعات كانت متهمة في نسبها من قبل المجتمعات السامية في الشرق الأدنى القديم.

وأعتقد أن العرق السومري الأكادي كان له حضور متميز في التشكيل العبري، ويمكن أن نأتي بدلالتين حول هذا الافتراض، الدلالة الأولى تأتي من التماثل العميق في المعتقدين، أو التصورين الدينيين للسومريين، والعبرانيين، أما الدلالة الثانية فهي ادعاء التوراة بأن إبراهيم، وهو الأب الأول للعبرانيين، كان قد خرج من مدينة أور، وهي مدينة أول من أنشأها السومريون، ولا بد أن الموروثات السومرية بقيت متواجدة في تلك المدينة، ولكن بعض الباحثين يعتقدون أن إبراهيم من العرق الآرامي، وأنه كان يقيم في مدينة حاران عاصمة مملكة آرام النهرين التي هاجر منها إلى مدينة أور، ثم من هناك عاد إلى مدينة حاران بسبب نزاع ديني، أو اجتماعي، وهذا ما يفسر لماذا صعد إبراهيم إلى حاران أولا، قبل أن يهاجر من هناك إلى بلاد كنعان، ولكن بعض علماء الأنثربيولوجيا اكتشفوا وجود تشابه كبير بين

الأنف السومري، والأنف اليهودي، الأمر الذي يجعلنا نعتقد أن رافدا دمويا سومريا، على الأقل، يصب في الوريد العبري اليهودي.

وهنا لا أذهب إلى أن السومريين يشكلون العمود الفقري العبري الأثني، بل أعتقد أن السومرية الثقافية التصورية تشكل العمود الفقري في المعتقد الديني الثقافي العبري، أما باقي الأثنيات التي دخلت في النسيج العبري فهي العمورية - الآرامية بالدرجة الثانية، مع بعض الجماعات الهند أوربية، وربما الأفريقية بالدرجة الثالثة، وربما كان للعرق الحوري أثر مهم في التشكيل العبري، ويذهب فيليب حتي إلى أن بعض الصفات اليهودية التي يقال أنها سامية هي صفات حورية حثية، إضافة إلى ذلك فقد جاء في مدينة نوزي الحورية أن على الزوجة العاقر أن تقدم جاريتها لزوجها كي ينجب لها أطفالا منه، وهو ما نجده في قصة إبراهيم مع زوجته هاجر التي قدمت له جاريتها هاجر كي ينجب لها ولدا ينسب إلى سارة، وكذلك الأمر في قصة يعقوب مع زوجتيه راحيل، وليئة، اللتين قدمتا جاريتيهما بلهة، وزلفة، فهل هذا يشير إلى أن العبرانيين، أو جزأ من إيلافهم يعود إلى العنصر الحوري..؟

وقد أفرزت أو تطورت الحالة العبرانية نحو الإسرائيلية ثم اليهودية عبر مراحل تاريخية متعاقبة، فقد كانت القبائل العبرانية تعيش مرحلة البداوة، وكانت بعض جماعات منها تتحول إلى مرحلة وسيطة بدوية - حضرية تبعا للتبدلات البيئية والسياسية في منطقة الشرق القديم، ثم يتحولون إلى مجتمع زراعي حضري مستقر عندما تسمح لهم الأمطار بذلك، بالتوافق مع أو بالتزامن مع ضعف الهيمنة الإمبراطورية، والتبدلات السياسية على امتداد منطقة الشرق الأدنى القديم.

ولما قدمت بعض الجماعات العبرية إلى بلاد كنعان وتعبدت لإلهها إيل فقد كافئها مقابل تعبدها له بأن وعدهم بأنه سوف يريحهم من معاناتهم الحياتية جراء ترحالهم المستمر، وأنه سوف يوطنهم في أرضه (بلاد كنعان)، وفي منطقة إسرائيل على وجه التحديد، وفي تلك المرحلة بدأت تتبلور الحالة الإسرائيلية، وتشكيل أو تطوير أثنية جديدة، هي الأثنية الإسرائيلية، وبذلك بدأت تتحول تلك الجماعات من نمطها البدوي العبري، إلى مجتمع حضري - بدوي، ثم بعد مرحلة استطاعوا خلالها من الاستقرار، وتشكيل كيان سياسي لهم باسم إسرائيل.

وفي موضع آخر لهم، اندخلت بعض تلك الجماعات العبرية ضمن إيلاف كبير، هو الإيلاف الهكسوسي الذي كان يقوم على نظام الأحلاف، وهم الذين استطاعوا اجتياح مصر، والاستقرار فيها لمدة طويلة من الزمن، وكان ممثل وعميد الجماعات العبرية في ذلك الإيلاف هو يوسف، الذي يمثل قطبا أو وزيرا في الحكومة المركزية الهكسوسية، وجماعة يوسف العبرية

دخلت إلى مصر بعدة طرق، وعلى عدة مراحل منها استقدامهم كأسرى من بلاد كنعان على يد الفراعنة (ما قبل الهكسوس)، أو أنهم كانوا أسرى وتم بيعهم إلى مصر الفرعونية (حسب ما يمكن أن توحي لنا به التوراة من خلال قصة يوسف)، أو أنهم دخلوا كزحف بدئي سلمي هكسوسي للعمل والاعتياش والرعي في دلتا النيل، وأخيرا دخولهم كجماعات اجتياحية ضمن الحلف الهكسوسي، وقد حققت تلك الجماعة العبرية المتحالفة أو الحليفة مع الهكسوسية بسبب أسبقية، وقدم وجودها مكانة مهمة في الدولة الهكسوسية متمثلة بعميدها يوسف، الأمر الذي شكل بؤرة استقطاب وجذب للكثير من الجماعات العبرية في سيناء، ومديان وبلاد كنعان، حيث عاشوا في مصر تحت ظل الحكم الهكسوسي.

وبشكل عام فإن الجماعات العبرية لم يكن لها سياق تطوري واحد من الحالة البدوية إلى الحالة الحضرية، بل كان لديها عدة سياقات تطورية متداخلة، حسب الافتراق السياسي البيئي، فبينما استقرت بعض الجماعات العبرية في بلاد كنعان وشكلوا كيانا سياسيا باندماجهم ضمن المجتمع الكنعاني، كانوا في مصر نظرا لخصوصية الظروف السياسية - والتي كان على رأسها تولي يوسف منصبا رفيعا في النظام الهكسوسي - يعيشون كغزاة فيها، ولكن بعد اندحار الهكسوس في مصر بقيت بعض الجماعات منهم، وكانوا يقومون بأعمال البناء وأعمال رعوية كأجراء لدى المصريين، في الوقت نفسه التي كانت بعض القبائل العبرية في سيناء (ونظرا للحكم البيئي) تعيش مرحلة البداوة، والترحل، كما أن القبائل والجماعات العبرية التي طردت مع الإيلاف الهكسوسي من مصر والتجأت إلى سيناء، والجماعات التي خرجت من مصر هاربة بقيادة موسى، قد انضمت أو اختلطت مع الجماعات العبرية البدوية في سيناء، وبالتالي عادت الجماعات العبرية التي كانت في مصر إلى حياة الترحل ثانية، ثم استطاعت بعض تلك الجماعات السينائية من التسلل حينا، وربما الاجتياح والغزو حينا آخر، إلى بلاد كنعان في الثلث الأخير من الألف الثاني قبل الميلاد، وهم الذين باختلاطهم، ومن ثم بجدلهم الديني والمجتمعي مع المجتمع العبري الإسرائيلي المستوطن في بلاد كنعان، انقسم المجتمع العبري بالتوازي والتزامن بين جماعتين، جماعة شمالية في منطقة إسرائيل ذات نمط زراعي حضري، وجماعة جنوبية في منطقة يهوذا ذات نمط بدوي مترحّل، وبينما كان الإسرائيليون يعبدون الآلهة الكنعانية، حافظ الجنوبيون المتعصبون وبسبب مجاورتهم لسيناء على الإله البدوي السينائي (يَهْوَه)، وهم الذين شكلوا - بعد اندحار المرحلة الإسرائيلية على يد الآشوريين - ما يمكن تسميته بالمرحلة اليهودية، والتي انتهت بالسبي البابلي، ثم العودة من السبي، ثم مرحلة الشتات التي يد الرومان، ثم الحالة الصهيونية على يد الإمبريالية العالمية.

الفصل الثالث

موجز تاريخ الشرق القديم

بلاد الرافدين

بلاد النهرين، أو ما بين النهرين، هي البلاد التي تعرف الآن بالعراق، إضافة إلى الجزء الشمالي الشرقي من سورية، وهي البلاد التي تحيط، وتتضمن نهري دجلة والفرات اللذين ينبعان من هضبة أرمينيا، واللذين بعد أن يتباعدا عن بعضهما، يعودان للتقارب ثانية عند دخولهما إلى أراض العراق الحالية، ثم يتباعدان قليلا، ويعودان للتقارب في وسط بلاد الرافدين ثم يبتعدان قليلا لمسافة قصيرة، ويعودان ليلتقيان ثانية فيما يسمى بشط العرب الذي يصب في الخليج العربي، والذي كان في العصور القديمة يصل شمالا حتى حدود ٢٥٠ كم مما هو عليه الآن، وكان لكل من نهري دجلة والفرات مصبان مستقلان عن بعضهما.

يحد بلاد الرافدين من الشرق البادية السورية، والجزء الشمالي الشرقي من صحراء شبه الجزيرة العربية، ومن الشرق جبال زاغروس التي تفصل ما بين بلاد الرافدين، وبلاد فارس، وتتشكل بلاد الرافدين، فيما عدا السرير المائي، من صحراء تمثل امتدادا للصحراء في شبه الجزيرة، والبادية السورية، أما جنوب بلاد الرافدين فيتشكل من الطمي الذي يأتي به نهرا دجلة والفرات أثناء فيضانهما في فصلي الشتاء والربيع، وكانت بلاد الرافدين تعاني من تأثير الفيضانات الربيعية، وبخاصة في المنطقة الجنوبية منها، والتي بعد جفافها تترك وراءها تربة قاسية متشققة تؤدي إلى صعوبة في استثمارها زراعيا، واستجابة لهذه الصعوبات، قام الإنسان في تلك البلاد، ومنذ العصور القديمة، وبشكل جماعي بالعمل على تنظيم تدفق الماء من خلال فتح القنوات، واستحداث شبكات مائية من شأنها أن تحد من تأثير الفوضى التي تحدثها الفياضانات المائية، وهو الأمر الذي ساهم في تنظيم الجماعات البشرية في بلاد الرافدين، وتشكيل بنى اجتماعية وسياسية، والتي انتهت إلى تشكيل أول حضارة متقدمة

على يد السومريين الذين استوطنوا في البداية على المرتفعات التي لا تصلها الفيضانات، ولكن بعد أن سيطروا عليها انتشروا في المنطقة الجنوبية من بلاد الرافدين.

نظرا لعلاقة بلاد الرافدين، والهلال الخصيب كمكان، وكتاريخ بالمعتقد الديني المسيحي الغربي، فقد كانت آثار بلاد الرافدين محل اهتمام كثير من الباحثين في نهاية القرون الوسطى، وبداية العصر الحديث، وكان أول من أبدى اهتماما خاصا بآثار بلاد الرافدين التاجر اليهودي بنيامين بار الذي زار المنطقة سنة ١٦٦٠م، ودوّن مشاهدته في كتاب كان محل اهتمام الكثير من الباحثين، ومع الزمن ازداد الاهتمام الأوربي بآثار بلاد الرافدين، وقد أرسل الملك الدانماركي أول بعثة بحثية سنة ١٧٦١م، ومن بعدها توافدت بشكل متواتر البعثات البحثية الأوربية إلى منطقة الهلال الخصيب ككل، وإلى بلاد الرافدين على وجه الخصوص، وكان من نتاج هذه البعثات أن تم الكشف عن أن بلاد الرافدين كانت المكان الذي تشكلت عليه أقدم الحضارات الإنسانية الأولى، وبذلك كان على الغرب، وبألم شديد، أن يغير من قناعاته، وتصوراته التي كانت تُعَدّ أن اليونان هي أم ومرضعة الحضارة العالمية، يقول ول ديورانت في موسوعته المعرفية قصة الحضارة {إن الآريين لم يشيدوا صرح الحضارة بل أخذوها عن بابل ومصر، وإن اليونان لم ينشئوا الحضارة إنشاء لأن ما ورثوه منها أكثر مما ابتدعوه، وكانوا الوارث المدلل المترف لذخيرة من الفن والعلم مضى عليها ثلاثة آلاف من السنين وجاءت إلى موانئهم مع مغانم التجارب والحرب، فإذا درسنا الشرق الأدنى وعظمنا من شأنه، فإنا بذلك نعترف بما علينا من دين لمن شادوا بحق صرح الحضارة الأوربية والأمريكية، وهو دين كان يجب أن يؤدى من زمن بعيد} ، ولكن الكثير من الباحثين الأوربيين حاولوا أن يعيدوا مصدر الحضارة الأولي إلى السومريين الذين اعتبروهم ذوي مصدر غير سامي، بل اعتبرهم البعض من الشعوب الهند أوربية دون تقديم دلائل كافية على ما يذهبون إليه، ولم يقدموا من البراهين سوى ادعاءهم أن للسومريين بنية، وتقاطيع لا تشبه سواهم من الشعوب (السامية)، وهكذا أعادوا المصدر الأولي للحضارة إلى الأوربيين.

وكانت البعثات الأثرية المتعاقبة قد اكتشفت آثار العصر الحجري القديم في شمال بلاد الرافدين، وكان من أهم الأدوات التي استخدمها الإنسان في هذا العصر، هو الفأس اليدوي، وفي نهايته أيضا طور الإنسان مجمل أدواته الحجرية.

أما في العصر الحجري المتوسط، فقد حقق الإنسان في العالم القديم ككل، وفي الهلال الخصيب على وجه الخصوص، قفزة نوعية في الحياة، تحول فيها الإنسان من النمط الاستهلاكي، إلى النمط الإنتاجي، وهذا ما قاد إلى تشكيل بداية النويات الاجتماعية

الإنسانية، الذي تمثل بتشكيل مستقرات إنسانية صغيرة لعدد محدد من الأفراد، وهو الأمر الذي نتج، وترافق، وأدى إلى تدجين الزراعة، والحيوان، وقد أُكتشفت عدة أدوات زراعية كان الإنسان قد اخترعها في سياق تجاربه الحياتية الجديدة، والتي ترافقت بتطور روحي فكري ثقافي فني، تمثل في تشكيل بعض تماثيل الأمومة.

أما العصر الحجري الحديث فقد امتاز بمزيد من التطور الإنساني على المستويات كافة، الحياتية، والفكرية، والاجتماعية والذي تمثل بتشكل العائلة، وظهور مفهوم الملكية الذي أدى إلى تشكل نزاعات اجتماعية على ملكية المكان، وقد ظهرت في تلك الفترة عدة بؤر حضارية متعددة متعاقبة، متوارثة، شملت الهلال الخصيب، وكان لتلك البؤر سمات حضارية مشتركة، وكانت أول بؤرة في بلاد الرافدين (مكتشفة) هي حضارة قرية جرمو في منطقة كركوك في شمال وادي الرافدين، والتي تعود إلى الإلف السابع، أو السادس قبل الميلاد، وتُعَدّ قرية جرمو أقدم مواقع العصر الحجري في بلاد الرافدين، ثم ورثتها حضارة تل حسونة إلى الجنوب من مدينة الموصل التي يعود تاريخها إلى بداية الألف السادسة قبل الميلاد، وقد تم اكتشاف جثث أطفال دفنوا في جرار فخارية في تلك الفترة، وهو الأمر الذي جعل البعض يعتقدون أنها تمثل ظاهرة أولى لتقديم الأطفال كقرابين للآلهة، وورثت تلك الحضارة حضارة السومريين، ثم حضارة تل حلف على نهر الخابور، والتي تعود إلى النصف الثاني من الألف السادسة قبل الميلاد أي إلى العصر الحجري النحاسي، وقد اكتشف فيها بيوت مصنوعة من الطوب، كما عثر فيها على القرميد لأول مرة، وكذلك بالنسبة للمقابر، والتماثيل الفخارية.

ثم بدأت تتشكل نوى حضارية في جنوب بلاد الرافدين، ربما انتقلت من شمال إلى جنوب بلاد الرافدين، أو أنها كانت نتاج تطور محلي، وكانت أولى البؤر الحضارية في الجنوب هو موقع، أو حضارة أريدو، والتي عثر فيها على هيكل عظمي إنساني متطور يرجع إلى سنة ٤٩٠٠ ق.م، ثم حضارة الحاج محمد، ثم حضارة العبيد بالقرب من موقع أور، التي تعود إلى بداية الألف الخامسة قبل الميلاد، واستمرت حتى منتصف الألف الرابع قبل الميلاد، وقد عاصرت حضارة العبيد في الجنوب حضارة تل الحلف في الشمال لمدة من الزمن، وكانت حضارة العبيد أول حضارة حققت انتشارا واسعا في بلاد الرافدين، ويعتقد أن تلك الحضارة قد قدمت من شرق الجزيرة العربية، والبعض يعتقد أنها جاءت من شمال بلاد الرافدين، والبعض يذهب إلى أنها قدمت من بلاد فارس، وقد تميزت هذه الحضارة بتطورها الروحي حيث اكتشف الكثير من المعابد، والمقابر والتي عثر فيها على الحلي الشخصية، الأمر الذي يشير إلى أن إنسان تلك الحضارة كان يعتقد في الحياة الأخرى، والبعث، وقد كان المعبد أهم أبنية

تلك الحضارة، كما أنه كان يشكل مركز المستوطنة العمراني، وتُعَدّ حضارة تل العبيد أول ظهور لما يمكن تسميته بالحضارة السومرية، وبعدها ظهرت حضارة أكثر تطورا هي حضارة الوركاء (أوروك)، بين بغداد والبصرة، والتي تميزت بكبر مساحة المستوطنات البشرية، وقد ذهب البعض إلى أن تلك الحضارة تعود إلى العنصر (السامي)، والبعض اعتبرها تعود إلى العنصر السومري، وإلى تلك المدينة يعود الملك الأسطورة جلجامش، وقد ظهر في ذلك الموقع الختم الأسطواني لأول مرة بعد أن كان مسطحا، كما تم اختراع الدولاب، واكتشفت بعض الرموز، أو النقوش، وقد اعتبرت أول كتابة تصويرية، والتي تطورت إلى الكتابة المسمارية، ثم جاءت بعد حضارة الوركاء حضارة جمدة نصر (٣٢٠٠ - ٣٠٠٠ ق.م)، التي تميزت بظهور فن النحت فيها، والتي تُعَدّ آخر حضارة في عصور ما قبل التاريخ، حيث تزامنت مع بداية ظهور السومريين على المسرح التاريخي في بلاد الرافدين نحو سنة ٣٥٠٠ ق.م، والذين باختراعهم الكتابة في حدود سنة ٣٢٠٠ ق.م قسم التاريخ العام إلى عصور ما قبل التاريخ (ما قبل الكتابة)، والعصور التاريخية.

ظهر السومريون على المسرح التاريخي في بلاد الرافدين نحو سنة ٣٥٠٠ ق.م، والذين باختراعهم الكتابة في حدود سنة ٣٢٠٠ ق.م قسّم العلماء التاريخ العام إلى عصور ما قبل التاريخ (ما قبل الكتابة)، والعصور التاريخية.

ويُعَدّالسومريون أقدم أمة حضارية زراعية استوطنت في بلاد ما بين النهرين، وتحديدا القسم الجنوبي منها، ولم يجمع علماء التاريخ حتى الآن على تحديد هوية السومريين، والمكان الذي قدموا منه إلى جنوب بلاد الرافدين، ولكن الأغلبية يرجح أنهم من الشعوب غير السامية، وحجة المؤرخين في ذلك هو اختلاف لغة أو لسان السومريين، وتشكيلهم المورفولوجي، عن باقي الشعوب التي استوطنت بلاد الرافدين والتي يطلق عليها الشعوب السامية، ويعتقد البعض أنهم جاؤوا إلى المنطقة من بلاد ما وراء جبال إيران، ومنهم العالم صموئيل كريمر الذي يعتقد أنهم جاؤوا من وراء القوقاس، أو بحر قزوين، وقد ورثوا، أو حلوا مكان حضارة (أو إمبراطورية) إيرانية عربية، وشكلوا إمبراطورية سومرية أكادية على أنقاض الإمبراطورية الفارسية العربية، أما المؤرخ أندريه بارو فيذهب إلى أن السومريين عبارة عن مجموعات بدوية نزحت من وراء بحر قزوين إلى جنوب بلاد الرافدين، أما الباحث السوري أحمد يوسف داوود فيؤكد أن السومريين هم من شعوب المنطقة الأصليين، وأهم ورثة حضارة العُبيديين (السامية)، والذين كانوا يعيشون في منطقة الخليج العربي قبل أن يملأه ماء البحر، ويصبح خليجا، وهي المنطقة التي أطلق عليها أحمد يوسف داود منطقة ما قبل الخليج، وهي

المنطقة التي غمرها البحر في سياق تعمق الدور الدفء الأخير، حيث أدى ذوبان الكتل الثلجية في شمال الكرة الأرضية، إلى إحداث فياضانات متعددة في العالم، تشكّل على إثرها الخليج العربي، وقد ترافقت بعدة طوفانات ربيعية في نهري دجلة والفرات، ويعتقد أحمد يوسف داود أن السومريين هم نتاج امتزاج جماعات عمورية سامية قدمت من الغرب السوري، مع جماعات سريانية سامية صعدت من منطقة الخليج العربي بعد تحوله من يابسة، إلى مسطح مائي، وهو يعتقد أن الذي قاد الجماعة من يابسة منطقة ما قبل الخليج، وصعد بها نحو جنوب بلاد الرافدين، شخص تاريخي يدعى آن، أو آنو وقد تم تقديسه، ومن ثم تأليهه.

كانت الحضارة السومرية تقوم على أساس دويلات المدن، والتي كان من أهمها مدينة كيش عاصمة مسيلم، والتي تُعَدّ السلف القديم لمدينة بابل حسب ما جاء به موتغارت، ومن ثم برزت مدينة أور عاصمة سومر في حدود سنة ٢٥٠٠ ق.م، وكانت مركزاً لعبادة القمر (سين)، ومن ثم برزت مدينة أورك الذي كان أحد ملوكها جلجامش بطل الملحمة الشهيرة، ومدينة لاجاش الذي كان قد حكم عليها الملك أوروانمجينا صاحب أول شريعة إصلاحية، وجاء بعده ملكها لوجال زاجيري الذي استولى على الحكم وكان أول ملك سومري حاول التوسع خارج حدود مدينته، وهو الذي عاصر الملك الأكادي شاروكين الذي انتصر على لوجال زاجيري، وقام بأسره، منهيا العهد السومري الذي قدم للعالم الكثير من الإنجازات الحضارية المميزة، وفي كل المجالات الاقتصادية، والاجتماعية، والزراعية، والأدبية.

وقد ورث هذا التاريخ السومري الزراعي القبائل الأكادية البدوية التي كانت قد بدأت هجرتها، حسب ما يجمع عليه الكثير من المؤرخين، من شبه الجزيرة العربية في نهاية الألف الخامسة قبل الميلاد، واستوطنت تلك القبائل إلى الشمال من سومر، وقد تفاعل الأكاديون مع السومريين وأخذوا عنهم الكثير من المفردات الحضارية، في الوقت الذي قاموا، أو ساهموا بإنهاء الوجود السياسي السومري، وقد استطاعت القبائل الأكادية بعد مرحلة طويلة من تجربتها الحياتية أن تؤسس الحضارة الأكادية التي كان لها سبق تشكيل أول إمبراطورية في التاريخ، وكان ملكها التاريخي الأول هو صارغون أو سرجون أو شاروكين الأول (٢٣٧١ - ٢٣١٦ ق.م)، والذي أطلق على نفسه (ملك الجهات الأربع)، والذي أنهى نظام دول المدن الضعيف، وشكل دولة مركزية حيث وسع حدودها لتشمل كل بلاد الهلال الخصيب مشكلا أول إمبراطورية في التاريخ وكبح التمردات التي كانت تقوم بها المنطقة السومرية في الجنوب، وخلفه ابنه ريموش (٢٣١٦ - ٢٣٠٧ ق.م) الذي تعرض حكمه إلى مجموعة من الفتن ومات غيلة، ثم خلفه أخوه مانيشتوزو بن شاروكين (٢٣٠٧ - ٢٢٩١ ق.م)، أما حفيده نارام سين

(٢٢٩١ - ٢٢٥٥ ق.م) والذي أطلق على نفسه أيضا ملك الجهات الأربع، فهو الذي وسّع المملكة إلى أبعد حدودها، والتي امتدت من عُمان على الخليج العربي حتى البحر الأبيض المتوسط غربا، كما أنها شملت قسما من أسيا الصغرى ولكن على ما يبدو لم تستطع الإمبراطورية الأكادية أن تضم فلسطين التي كانت - وبقيت - تحت ظل الجناح المصري، وعلى ما يبدو فإن الإمبراطورية الأكادية بدأت تضعف في السنوات الأخيرة من حكم نارام سين بحيث استطاعت مدينة أوروك أن تعلن انفصالها عن الإمبراطورية، كما قامت حركات انفصالية أخرى في الجنوب استطاع كبحها بشكل جزئي، وبعد ذلك ومع اعتلاء العرش ابن نارام سين شاركالي شار ازداد ضعف الإمبراطورية الأكادية وازدادت مظاهر تفككها، وفي عهد ابنه شودورول سقطت الإمبراطورية في حدود سنة ٢١٥٠ ق.م على يد القبائل الكوتية (الكوشية) المتخلفة حضاريا التي أتت من الشمال (جبال زاغروس) فاحتلت المنطقة، ودمرتها بشكل شبه نهائي، وقضت على الحكم الأكادي بعد أن هيمن على منطقة الهلال الخصيب لمدة مئتي سنة، وبعد أقل من نصف قرن اختفى وجودهم ثانية، والجدير ذكره أن الجهاز الكهنوتي قد وقف إلى جانب الكوشيين في غزوهم للأمبرطورية الأكادية، وقد جاء في قصيدة وجدت في أحد المعابد:

أيتها المدينة، يا من تجرأت على مهاجمة إيقور، وتحديت إنليل، عسى أن تتكدس غاباتك في أكوام تراب

عسى أن يعود آجرك ملعونا من أنكي

عسى أن تعود أشجارك إلى غاباتها،

ولتكن أشجارا ملعونة من (نينالدوا)

ثيران الذبح - عساك تذبحين زوجاتك بدلا عنها،

أغنام الذبح - عساك تذبحين أبناءك بدلا منها،

فقراؤك - عسى الجوع يجبرهم على إغراق أطفالهم الأعزاء

يا أكاد، قصرك المشيد بالفرح عساه يتحول خرابا محزنا

وحيث كنت تقيمين شعائرك

الثعلب الذي يسكن الخرائب عساه يهز ذيله

عسى قنوات مراكبك لا ينبت فيها سوى الأعشاب الضارة،

وعسى طرق مركباتك لا ينمو فيها سوى (القصب المسيل للدمع)

وفوق ذلك، في مكان جر القوارب والرسو

عساه لا يقدر إنسان أن يسير بسبب الماعز الوحشي والديدان والأفاعي وعقارب الجبل

وسهولك حيث تتمو النباتات المسرة للقلب

عساه لا ينمو سوى (قصب الدموع)

يا أكاد، بدل مياهك العذبة الجارية عساها تجري المياه المرة، ومن يقول: (أريد أن أسكن المدينة) لا يجد مكانا صالحا للسكن

ومن يقول: (سأضطجع في مدينة أكاد) لن يجد مكانا صالحا للنوم.

ويتابع الشاعر قصيدته.. مؤكدا على تحقق أمنياته (وهو ما يشير إلى أن النبوءة كتبت بعد تحققها):

لم ينبت في مكان جر القوارب سوى الأعشاب الضارة

وطرق العربات لم ينبت سوى النبات الباكي

ولا إنسان يستطيع أن يعيش

بسبب الماعز الوحشي والديدان والأفاعي وعقارب الجبل

وفي السهول، حيث نما النبات المفرح للقلب، لم ينم سوى (القصب المسيل للدمع)

وفي أكاد، بدل المياه العذبة الجارية جرت المياه المرة

ومن قال سأسكن تلك المدينة لم يجد موقعا صالحا للسكن

ومن قال سأضطجع فيها لم يجد للنوم مكانا صالحا

وهذه القصيدة تذكرنا بقصائد الهجاء التوراتية التي أتت على لسان أنبياء يهودا في سياق سقوط مملكتهم.

وفي تلك الفترة، وبعد تبدد الوجود الكوشي، عادت المدن السومرية للنهوض بدورها الحضاري السومري مع تأثيرات آكادية ثانية، فبعد سقوط الحكم الأكادي وبالتزامن مع الوجود الكوشي عادت مدينة لاجاش لتشكل عاصمة سومرية، وكان أهم ملوكها الملك جوديا الذي حكم في نهاية الألف الثالثة قبل الميلاد نحو سنة ٢١٥٠ قبل الميلاد، ونهضت بعدها مدينة أور (٢١١٨ - ٢٠٠٧ ق.م) التي استطاعت طرد القبائل الكوشية من البلاد نحو سنة ٢١٣٠ قبل الميلاد في عهد ملكها أتوخينجال الذي لقب نفسه بلقب آكادي (ملك

الجهات الأربع) والذي حاول تزعم المدن السومرية، ثم تبعه أورنامو الذي استطاع أن يوحد بلاد بابل كاملة، وأطلق على نفسه لقب (ملك سومر وأكاد)، وهو صاحب قانون أورنامو التشريعي، كما أنه قام ببناء الزقورات في مدينة أور وأوروك وأريدو ونيبور، وبعد أن قُتل في احد المعارك حكم بعده ابنه شولجي (٢٠٩٥ - ٢٠٤٨ ق.م)، وهو الذي تم تأليهه من قبل أبناء المدينة ولقبوه بـ (شولجي المقدس) على اعتبار أنه أعاد لهم الفردوس المفقود، وخلفه ابنه أمارسين (٢٠٤٧ - ٢٠٣٩ ق.م)، ثم أخوه شوسين (٢٠٣٩ - ٢٠٣٠ ق.م)، ثم إبّي سين، والذي في عهده انهارت الحكومة المركزية، متزامنة مع التغلغل العموري في بلاد الرافدين حيث استطاع العاهل الآشوري شمسي حدد أن يوسع سلطانه على حساب الحدود السياسية لإبي سين، وأن يحتل مدينة ماري، وانتهت مملكة أور على يد العيلاميين الذين دمّروها، وأسروا إبّي سين، كما تشكلت دولة إسين بين نهاية الألف الثالثة، والثلث الأول من الألف الثانية قبل الميلاد، وكان أهم ملوكها هو ليبيت عشتار صاحب القانون التشريعي الشهير، وزامنتها دولة لارسا العمورية، كما زامنتها أيضا دولة إشنونا، وبذلك انتهت الصحوة الثانية السومرية، ومعها انتهى الوجود السياسي السومري دونما رجعة، وتلاها مرحلة من التشتت، والعودة إلى نظام دولة المدن الضعيف التي كان للعموريين سيادة غير مطلقة عليها، وهم الذين كانوا قد نزلوا من الشمال نحو الجنوب وقد استطاع سومو أبوم (الأب العلي) أن يعلن نفسه أول ملك على بابل التي كان أغلب سكانها من العموريين، وبقايا من الأكاديين، وقد حكم بابل أحد عشر ملكا كان سادسهم هو حمورابي، أو أمورابي، أو عمورابي (١٧٩٢ - ١٧٥٠ ق.م) والذي بإنهائه لدولة إشنونا أنهى نظام المدن الضعيف وشكل دولة بابلية مركزية.

يذهب الكثير من الباحثين إلى أن العموريين قد خرجوا كموجة رئيسية من شبه الجزيرة العربية نحو الهلال الخصيب في بداية الألف الثانية قبل الميلاد، وقد استطاعوا أن يؤسسوا الحضارة البابلية في بلاد الرافدين، ولكن أولبرت كيلي يعتقد أن البابليين لم يأتوا كموجة سامية من شبه الجزيرة العربية إلى بلاد الرافدين، بل جاؤوا من بلاد العموريين، أي أن موطنهم الأصلي هي بلاد العموريين (سوريا)، أو على الأقل فقد عاشوا مرحلة طويلة في سوريا، ثم تغلغلوا في بلاد الرافدين، وهو ما يتقاطع مع نظرية (الجولان) لأحمد يوسف داود، والذي يعتقد أيضا أن الفينيقيين القدماء هم جزء من العموريين، أمّا الفينيقيون الكنعانيون الجدد فهم دفعة ثانية وصلت من الخليج العربي، ومن منطقة عُمان الحالية تحديدا.

وقد أحدث العموريون الذين كانوا يمرون في الطور الانتقالي ما بين النمط البدوي والنمط الحضري عدة تغيرات ديموغرافية واسعة في الهلال الخصيب، واستطاعوا أن يؤسسوا عدة دويلات أو إمارات شبه مستقلة على مدى عدة قرون، وقد أصبحت هذه الإمارات العمورية أكثر استقلالا بعد سقوط الإمبراطورية الأكادية، كما استطاعت القبائل العمورية الغائرة، بالاشتراك مع بعض الشعوب التي قدمت من آسيا الصغرى، من اجتياح البلاد السورية بالمعنى السياسي العسكري، وكانت تقوم بتقويض المدنيات الأولى في البلاد السورية ومن ثم كانت تقوم بتأسيس وبناء مراكز أو دويلات بالقرب من المدن المدمرة، وفي حالات قليلة كانت تقوم ببناء تجمعاتها المدنية على أنقاض المدن التي كانوا يقومون بتدميرها.

وكانت من أولى، وأهم المدن القديمة التي أسسها العموريون هي مدينة ماري في تل الحريري شمال وادي الرافدين، والتي خضعت في بداية تشكلها للحكم الأكادي في عهد سرجون الأول (شاروكين) في القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد، واستقلت بعد سقوك أكاد على يد الكوشيين في القرن العشرين قبل الميلاد وكان آخر ملوك مدينة ماري زمري ليم (١٧٣٠ - ١٧٠٠ ق.م)، وقد تم اكتشاف آثار مدينة ماري ونصوصها المهمة في الثلث الأول من القرن التاسع عشر بعد الميلاد، وكانت مدينة حاران من المدن التي كانت تابعة لمدينة ماري في محيط القرن السابع عشر قبل الميلاد متزامنة مع الزمن المفترض لهجرة النبي إبراهيم إليها.

وقد استطاعت القبائل العمورية في النهاية أن تؤسس المملكة البابلية القديمة (١٨٩٤ - ١٥٩٥ ق.م) من خلال اتحاد المدن العمورية، كما أن هذه القبائل العمورية أسست في بلاد الشام تحت اسم الهكسوس (والذين هم عبارة عن جماعات عمورية مع جماعات حورية هند أوربية) عدة مدن أهمها مدينة قطنا (المشرفة) على بعد ٢٥ كم شمال شرق حمص، ومدينة شكيم (البلاطة) بالقرب من نابلس، ولخيش، وأريحا، وقد استطاعت الجماعات الهكسوسية الوصول إلى مصر بشكل موجات تسللية في البداية، ثم بشكل اجتياحي سنة ١٧٣٠ ق.م، وأسقطت المملكة المصرية الوسطى، وحكمت مصر السفلى وحصرت القيادة المصرية في المنطقة الجنوبية من مصر، حيث أسسوا في طيبة مملكة أو إمارة لها حكم ذاتي (١٦٧٥ - ١٥٧٠ ق.م)، أما القبائل العمورية (الهكسوس) فقد بنت عاصمتها أفاريس في منطقة الدلتا في موقع حصن دفاعي فرعوني قديم، وبعد أن حقق الأمير المصري كامس بعض الانتصارات الجزئية عليهم، استطاع شقيقه، أو ابنه القائد المصري الشهير أحمس (١٥٧٠م - ١٥٤٦ ق.م) من طردهم وملاحقتهم إلى بلاد الشام وتدمير بعض مواقعهم فيها، ويعتقد أن بعض الجماعات الرعوية منهم قد انتشروا في عمق صحراء سيناء بعيدا عن رقابة الجيش الفرعوني،

فقد جاءت إشارة تعود إلى زمن تحتمس الثالث أن الآسيويين (الهكسوس) قد احتلوا قلعة شاروحين الذي كان قد حررها أحمس {السنة الثانية والعشرون، الشهر الرابع من فصل الشتاء، اليوم الخامس والعشرون، مر جلالته بقلعة ثارو في أول قلعة مظفرة، ليطرد الذين هاجموا حدود مصر بشجاعة ونصر وقوة وفوز. وقد مرت مدة طويلة من السنين كان فيها الآسيويون يحكمون البلاد اغتصابا} ؛ وهذا يدل على أن سيناء لم تخضع تماما للحكم المصري حتى في ذروة هيمنتها، وكانت تلك الجماعات البدوية الهكسوسية كلما سنحت لهم الفرصة، ووهنت القوة المصرية، تقوم بالهجوم، أو التسلل إلى منطقة الدلتا، وقد جاء أنهم في بداية عهد سيتي الأول (١٣١٨ - ١٢٩٩ ق.م) قد قاموا بالهجوم على مدينة فيثوم، حيث جرد حملة ضد الآسيويين، وقد وصل بها حتى بلاد كنعان ليبعد خطرهم عن حدود مصر.

ويذهب الكثير من الباحثين إلى أن العابيرو (العبريون) هم من الاشتقاقات العمورية، وقد دخلت مع أو بعد سيطرة الهكسوس على مصر السفلى، واستوطنوا في منطقة جاسان على مقربة من منطقة أفاريس عاصمة الهكسوس.

أما في بلاد الرافدين، فقد استطاعت هذه القبائل العمورية الفائرة حضاريا أن تنهي العهد السومري والآكادي، وأن تؤسس مملكتها البابلية الأولى وكان أول ملك بابلي (عموري) لها يدعى (سومو - آبوم) (١٨٩٤ - ١٨٨٧ ق.م) والذي يعني الأب سوم، أو الأب سام، والذي وحّد الممالك أو الإمارات العمورية الصغيرة وأسس الأسرة البابلية الأولى، وقد جعل من بابل (باب إليم) التي كان يسكنها الساميون الغربيين (العموريون) وبعض الأكاديين عاصمة له، وكان سادس (أو سابع) ملوكهم هو الملك الشهير حمورابي صاحب الشريعة الشهيرة (١٧٩٢ - ١٧٥٠ ق.م)، وقد بلغت الإمبراطورية البابلية قمة مجدها في عهده، بتشكيل دولة مركزية في بلاد الرافدين، كما استطاع توسيع حدودها بتوحدها مع بلاد الشام، وهو الذي جعل من مردوخ رب البابليين، بعد أن سحب الصلاحيات الدينية لكهنة مدينة نيبور مدينة الإله إنليل، ولكن سرعان ما بدأ الضعف يدب في أرجاء الإمبراطورية البابلية بعد أن خلف حمورابي ابنه شمسو إيلونا (الشمس إلهنا) (١٧٤٩ - ١٧١٢ ق.م)، والذي لم يستطع تدبير إمبراطورية تمتد من الخليج العربي إلى قبرص، ومن شواطئ البحر الأسود إلى شواطئ البحر الأحمر، وبدأت الإمبراطورية البابلية بالتفكك بالتزامن مع اندخال وتغلغل الكاشيين، على عهد ملوك كانوا يزدادون ضعفا، فقد ولي بعد شمسو إيلونا أبي إشوخ (١٧١٢ - ١٦٨٤ ق.م)، ثم عمي ديتانا (١٦٨٤ - ١٦٤٧ ق.م)، ثم عمي صدوقا (١٦٤٧ - ١٦٢٦ ق.م) ثم آخر ملوكها سمسو ديتانا (شمس الدين) (١٦٢٦ - ١٥٩٥ ق.م)، وقد تعرضت بابل إلى هجمات متعددة من الساميين

الجنوبيين (الذين كانوا يندخلون مع السومرين)، ومن العيلاميين شرق زاغروس، والحثيين الشماليين، ومن الكاشيين الذين نزلوا من شمال عيلام، وفي النهاية، سقطت بابل سنة ١٥٩٥ ق.م بيد الحثيين بقيادة ملكهم مورشيلي الأول، ثم قاموا بالانسحاب بعد أن قاموا بنهبها، وإضعافها، ليتركوا بابل غنيمة سهلة للكاشيين القادمين من الشرق بقيادة (جنداش).

كان الكاشيون الهند أوربيون، وبسب تغيرات ديمغرافية بيئية، قد هاجروا من منطقة القوقاز في نهاية القرن السابع عشر قبل الميلاد، وتقدموا من جبال زاغروس الشرقية نحو الحدود الشمالية الشرقية من بلاد الرافدين بطريقين، أو على نمطين، أحدهما عسكري بقيادة جنداش الذي يُعَدّه البعض الملك الكاشي الأول، ولكن ملوك بابل في تلك الفترة سمسو إيلونا، وخليفته أبي إشوخ استطاعا صدهم، أما النمط الثاني الذي سلكوه في هجرتهم نحو منطقة بلاد الرافدين فكان بطريقة تغلغلية سلمية في وقت كانت تعاني فيه بابل من ضعف عسكري سياسي بعد موت العاهل البابلي البارز حمورابي، وقد احتل الكاشيون الذين اندخلوا البنية الديمغرافية البابلية مناصب سياسية مهمة في بابل في عهد شمسو ديتانا، ويبدوا أنهم تآمروا مع الحثيين الذين كانوا يتربصون على الحدود الشمالية الغربية لبلاد الرافدين، والذين قاموا باجتياح عسكري كاسح للملكة البابلية، وقاموا بنهب المنطقة ثم انسحبوا منها، ومباشرة تسلم السلطة منهم الكاشيون والذين شكلوا سلالة بابل الثالثة التي استمرت، ما يزيد على أربعة قرون (١٥٩٥ - ١١٦٢ ق.م)، ويعتقد أن هناك رابطة أو اتفاقاً بين الكاشيين والحثيين، على مقتضاه دمر الحثيون بابل وانسحبوا مباشرة ليحتل المكان مباشرة الكاشيون، وقد بقيت البلاد بحالة دمار وفوضى تحت الحكم الكاشي حتى نهاية القرن الخامس عشر قبل الميلاد، ثم بدأت بالازدهار بعد ذلك من خلال الاهتمام ببناء شبكات الري، وقد استطاع الملك الكاشي آكوم الثاني الذي حكم في بداية القرن الخامس عشر قبل الميلاد من مد نفوذه شمالا حتى بحيرة أورمية، وجنوبا حتى إمارة أرض البحر، التي استطاع الملك أولام بورياش أن يضمها إلى بابل أيضا، وقد نجح الكاشيون من تثبيت وتوطيد وجودهم في المنطقة، ومن خلال عدة تحالفات عسكرية، وعلى رأسها تحالفهم مع الآشوريون الذين كانوا يعانون من الوجود والهيمنة الميتانية الحورية، ومع فراعنة مصر، ولا سيما في عهد تحتمس الثالث الذي استطاع أن بجيوشه حتى نهر الفرات، كما كانوا على علاقة طيبة مع فراعنة تل العمارنة.

كان الكاشيون قد قاموا ببناء مدينة كور يكالزو (عقر قوف) غرب بغداد واتخذوها عاصمة لهم، وعلى الرغم من أن الكاشيين استطاعوا أن يسيطروا على المنطقة

سياسيا، وعسكريا، إلى أنهم هزموا ثقافيا، وحضاريا من خلال تبنيهم للغة بابل، وثقافتها، بل ومعتقداتها، ولكن ما يسجل لهم تاريخيا هو قيامهم ببناء برج بابل في عهد الملك الكاشي كوريكالزو الثاني، كما يعتقد أن أول من أدخل الخيل والعربة العسكرية إلى منطقة الشرق الأدنى هم الكاشيون.

أما بالنسبة لأمارة أرض البحر الواقعة على الخليج العربي بالقرب من منطقة التقاء نهر الفرات ونهر دجلة (أرض البحر)، والتي كان شعبها من العموريين ومن بقايا السومريين والأكاديين، فيعود تواجدها إلى فترة الضعف العموري البابلي، حيث استطاعت تلك الإمارة في عهد الملك البابلي شمسو إيلونا أن تنفصل عن السلطة المركزية في بابل، وأن تستقل، وأن تجعل من مدينة أور الواقعة بين المستنقعات عاصمة لها، حيث استمرت بكيانها على طرف الصراع على بابل بين العموريين والحثيين أسفل بابل، وقد توالى عليها ثلاثة ملوك، أو ثلاثة أمراء كان أولهم أيلوما أيلو (الإله هو الإله الواحد) الذي بدأ حكمه سنة ١٧٤٢ ق.م - والثاني اسمه إيتي إيلي نيبي (الله هو حسبي، أو أنت يا إيل ربي)، والثالث يائع إيل، أو ياشي إيل؟؟ (إلهه الواحد صديق له أو صديق إيل)، وكان ثالثهم هو (داميق - إيل - يشو) والذي تعني باللهجة العمورية خليل الله أو (خليل الرحمن) وقد أنهى الكاشيون في عهد الملك أولام بورياش هذه المملكة العمورية التي كانت بعيدة عن منطقة الصراعات السابقة التي كان مركزها المنطقة الوسطى والشمالية من بلاد الرافدين، وبنهايتها انكمش الدور العسكري الرافدي في منطقة الشرق الأدنى القديم لصالح الدور الفرعوني من جهة، ودور ممالك أسيا الصغرى من جهة أخرى، وإمارة أور هي التي عادت وأسست الإمبراطورية الكلدانية في مرحلة لاحقة.

وقد أدت هذه التقلبات السياسية العسكرية التي عمّت المنطقة إلى اضطرابات ديمغرافية شملت الهلال الخصيب، وخاصة بالنسبة لقبائل البدو، أسفرت عن نزوحات شعوبية قبلية متعددة على شكل موجات متلاحقة توجهت نحو الغرب إلى بلاد كنعان أولا، ومنها إلى وادي النيل.

وبعد زمن عادت بلاد الرافدين لتأخذ دورها الدولي على يد الآشوريين الذين، حسب رأي الكثير من الباحثين، كانوا قد تسربوا من البادية السورية واستوطنوا في الحزون الشمالية من بلاد الرافدين (أعالي دجلة) في حدود الألف الثالث قبل الميلاد، الذين تخلصوا من التبعية السياسية للمملكة الحورية الميتانية بعد أن عانت هذه المملكة من صراعات داخلية على السلطة، وقد استطاع أمير آشور المدعو آشور أوبلط الأول (١٣٦٥ - ١٣٣٠ ق.م) أن يضم المملكة الميتانية، وتابع الآشوريون توسعهم ضمن سوريا الشمالية، ووصلوا حتى كركميش

في عهد أدد نيراري الأول (١٣٠٤ - ١٢٧٦ ق.م) وخليفته شلمنصر الأول (١٢٧٦ - ١٢٤٥ ق.م)، أما في عهد خليفته توكولوتي نينورتا الأول (١٢٤٥ - ١٢٠٩ ق.م) فقد استطاع الآشوريون في بداية عهده أن ينتصروا على الكاشيين في بابل، وأن يصلوا إلى البحرين جنوبا، وإلى أرمينيا في الشمال الشرقي، ولكن بموته اغتيالا بدأ الضعف الآشوري وبعد ذلك دخلت المملكة الآشورية مرحلة سبات، استطاع بعد زمن أن يكسرها تغلات فلاصر الأول (١١١٤ - ١٠٧٦ ق.م) ذو الشخصية العسكرية العنيفة، لا سيما بعد أن استخدم العربات السريعة التي استطاع من خلالها أن يهيمن على البلاد السورية كاملة من خلال عدة حملات عسكرية قام بها ضد الوجود الآرامي المتنامي، ووصل حتى بحيرة فان، وفي عهده وحسب ما جاء في الحوليات فقد شن هجومين على بابل واحتلها، كما احتل اثنتين وأربعين دولة وإمارة بما فيها بلاد الحثيين، كما كانت مدن الساحل السوري (جبيل، وصيدا، وأرواد) تقدم له الطاعة والجزية، وبموته عادت آشور إلى كبوتها، وضعفها الشديد ففي عهد الملك آشور رابي الثاني (١٠١١ - ٩٧٠ ق.م) استطاع الآراميون أن يحاصروا ويتوغلوا في الوجود الآشوري ومنهم الفرع الكلداني الذي استوطن في منطقة سومر جنوب بلاد الرافدين، وأن يستقلوا بالكثير من إماراتهم على رأسها إمارة أرباد بالقرب من حلب، وإمارة آرام حماة، وإمارة آرام دمشق، بل وأن تعلن عن نفسها ممالك، ولم يستطع ملوك آشور اللاحقين آشور رابي الثاني، وآشور ريش إشي الثاني (٩٧٠ - ٩٦٥ ق.م)، وتغلات بيليصر الثاني (٩٦٥ - ٩٣٥ ق.م) أن يفعلوا شيئا أمام المد الآرامي.

وقد استطاع الملك آشور دان الثاني (٩٣٥ - ٩١٢ ق.م) أن يوقف التدهور الداخلي الآشوري، ليترك لخليفته أدد نيراري الثاني (٩١٢ - ٨٩١ ق.م) حكما متماسكا استطاع من خلاله أن يهتم بالشؤون العسكرية الخارجية، وأن يبدأ بوقف التمدد الآرامي، وتابع الطريق البطيء وراءه خليفته توكولوتي نينورتا الثاني (٨٩١ - ٨٨٤ ق.م)، ومن بعده آشور ناصربال الثاني (٨٨٤ - ٨٥٨ ق.م) الذي استطاع النهوض بالإمبراطورية الآشورية مرة أخرى، فاستعاد النفوذ والسيطرة الآشورية على سوريا، ووصل حتى شواطئ المتوسط غربا، كما توسع شرقا ووصل حتى شواطئ بحيرة أورميا، وشمالا وصل حتى أرمينيا، وفي عهد خليفته مؤسس الإمبراطورية الآشورية الحديثة شلمنصر الثالث (٨٥٨ - ٨٢٤ ق.م)، حاولت الممالك السورية بقيادة مملكة دمشق التحرر من الهيمنة الآشورية، وشكلت حلفا سوريا ضم اثنتي عشرة مملكة، وقد التقت القوات الآشورية، وقوات الحلف السوري في معركة قرقرة الشهيرة سنة ٨٥٣ ق.م، وقد كانت الغلبة - دون النصر - للملك الآشوري شلمنصر الثالث، وبذلك اضطر إلى العودة بقواته عدة مرات لتأكيد سيطرته على الممالك السورية، التي تمردت في عهد

خليفته شمشي أدد الخامس (٨٢٤ - ٨١٠ ق.م)، ولم تذعن ثانية إلا في عهد حدد نيراري الثالث (٨١٠ - ٧٨٢ ق.م)، وكانت أمه ذات الشخصية الفذة سمّورامات (سمير اميس) قد جلست وصية على عرش ابنها الصغير لمدة خمسة سنوات، وعلى الرغم من أنه استطاع بعد تسلمه الحكم من أمه أن يكرس الهيبة الآشورية في سوريا، إلا أن سنواته الأخيرة شهدت بداية حالة ضعف، استمرت في عهد أبنائه الثلاثة شلمنصر الرابع (٧٨٢ - ٧٧١ ق.م)، وآشور دان الثالث (٧٧١ - ٧٥٣ ق.م)، وأشور نيراري الخامس (٧٥٣ - ٧٤٤ ق.م)، ولكن ابنه الرابع تغلات فلاصر الثالث (٧٤٤ - ٧٢٧ ق.م) استطاع أن يوقف التراجع الآشوري، وبدأ مشواره بإخضاع مملكة دمشق التي كانت قد شكلت في عهد ملكها روزون حلفا سوريا تمرّد على النفوذ الآشوري، فقام تغلات فلاصر الثالث سنة ٧٣٢ بحملة تأديبية على الممالك السورية وصلت حتى الحدود المصرية، واحتل دمشق وهجر ثمانية آلاف من شعبها، ونصّب حاكما آشوريا عليها، وأخضع الممالك السورية ثانية، بل وأوصل الآشوريين إلى قمة مجدهم حيث امتدت إمبراطوريتهم من أفغانستان حتى مصر، واستمرت الإمبراطورية في هيمنتها على عهد شلمنصر الخامس (٧٢٧ - ٧٢٢ ق.م)، ومن بعده أخوه سرجون الثاني (٧٢٢ - ٧٠٥ ق.م) والذي كان قد أنهى مملكة إسرائيل، وسبى شعبها وأسكنهم في مناطق متعددة، وأسكن بدلا عنهم شعوبا أخرى، كما انتصر على المصريين سنة ٧٢٠ ق.م في معركة بالقرب من رفح، وفي عهده تمردت بابل سنة ٧٢١ ق.م، وأعلن أمير مدينة أور مردوخ أبال إدّينا (مردوخ بلادان) نفسه ملكا على بابل، وقد استطاع سرجون الثاني، بعد أن أحكم قبضته على الممالك السورية أن يتفرغ للتمرد البابلي حيث استطاع أن يستعيد النفوذ الآشوري عليها، وفي سنة ٧٠٥ اغتيل سرجون الثاني على يد أحد جنوده، وتسلّم الحكم بعده ابنه سنحاريب (٧٠٥ - ٦٨١ ق.م) فعاد مردوخ ثانية إلى بابل ليعلن نفسه ملكا عليها بالتحالف مع العيلاميين، ولكن سنحاريب استطاع أن ينتصر على هذا التحالف، في الوقت التي بدأت الممالك السورية الجنوبية حركة تمرد على الآشوريين بالتحالف مع مصر، فقام سنحاريب بحدود سنة ٧٠٠ ق.م بتجريد حملة تأديبية على بلاد كنعان، وأعاد إخضاعها للحكم الآشوري كما انتصر في معركة ضد المصريين الذين قدموا بجيش كوشي لمناصرة حلفائهم، ولم تنج من حملة سنحاريب سوى أورشليم التي حاصرها لمدة من الزمن، ولكن وبسبب تفشي الطاعون بين جنوده، اكتفى سنحاريب بأخذ الجزية، والطاعة من أورشليم، وعاد لتأديب بابل التي عادت للتمرد للمرة الثالثة، فلم يكتف باحتلالها، بل وقام بتدميرها سنة ٦٨٩ ق.م، وفي سنة ٦٨١ قام ابنان له بحركة تمرد انتهت بأن قاما باغتياله، واستلم بعده الحكم ابنه الثالث أسرحادون (٦٨١ - ٦٦٩ ق.م) الدكتاتور ذو

القبضة الحديدية، والذي أنهى في البداية تمرد أخويه، ثم سار سنة ٦٧٤ قبل الميلاد بحملة كبيرة نحو مصر رأس الفتنة ولكنه لم يحقق طموحه باحتلالها، فعاد وجرد حملة كبيرة عليها سنة ٦٧١ ق.م واستطاع خلالها احتلال مصر السفلى ووضع وكلاء آشوريين عليها، بل وقدمت مصر العليا الجزية له، وبعد عودة سنحاريب من مصر عاد طهارقا (ترهاقة) الذي كان قد هرب إلى الصعيد إلى ممفيس ثانية ليعلن تمرده على الآشوريين، فعاد إليه سنحاريب، وفي الطريق مات سنة ٦٦٩ ق.م، بعد أن استطاع أن يؤسس أكبر إمبراطورية عُرفت حتى تاريخها، والتي امتدت من شمال أفريقية مرورا بمصر كاملة وبلاد الشام وآسيا الصغرى، والذي قام بإجبار ملوك وأمراء البلاد على العمل بأنفسهم في بناء قصره، وتولى الحكم بعده ابنه آشور بني بعل (٦٦٩ - ٦٢٦ ق.م) الذي قام بحملتين على مصر:

الأولى سنة ٦٦٦ قبل الميلاد

الثانية سنة ٦٦٤ قبل الميلاد

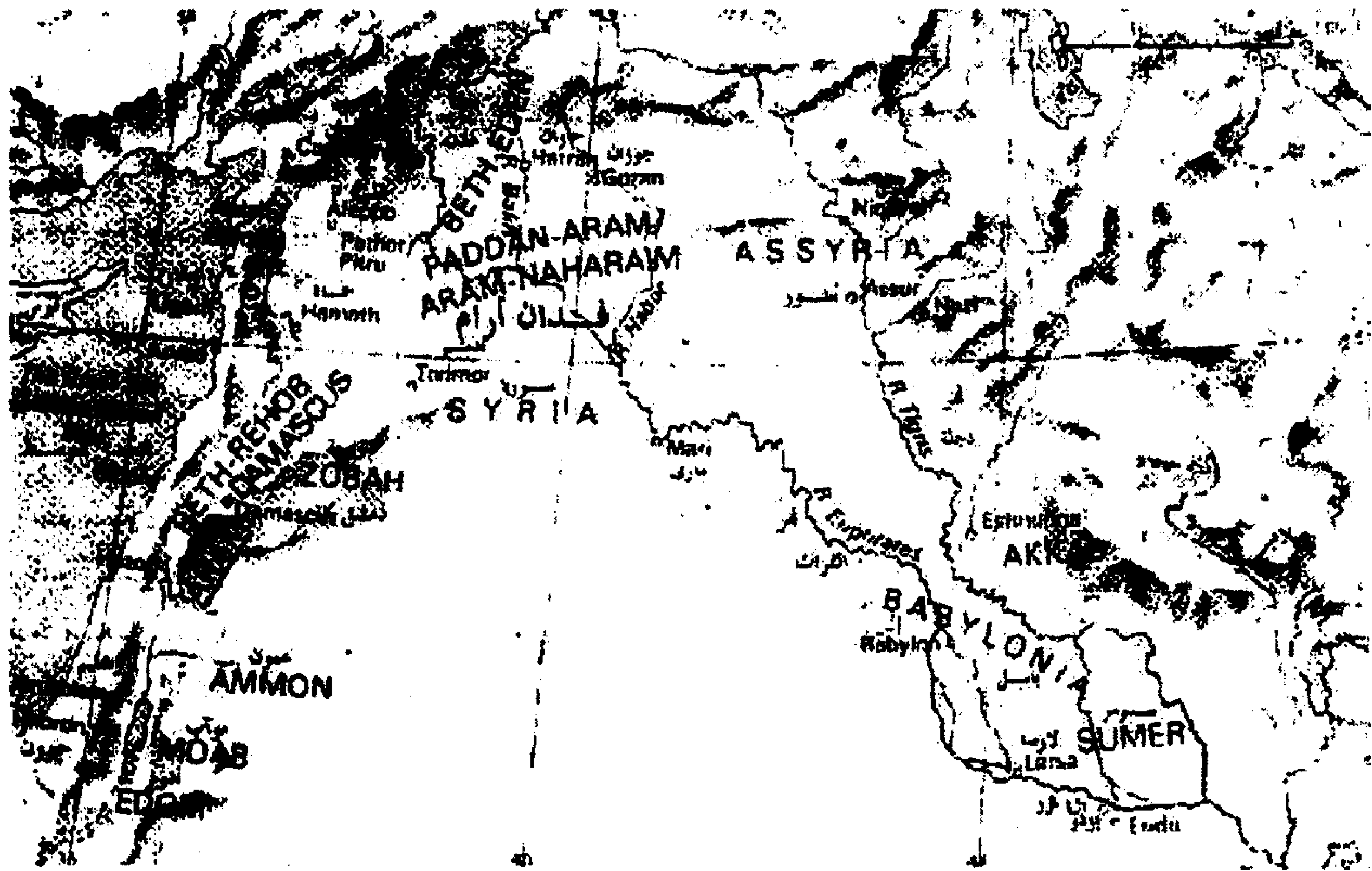
ووصلت قواته حتى الشلال الأول ودمر طيبة بعد أن نهب كنوزها، وكان من أهم مآثر آشور بني بعل هو إنشاء مكتبة نينوى الشهيرة التي أمدت العالم بأهم الوثائق التاريخية، ولكنه لم يستطع الحفاظ على إمبراطورية بلغت من السعة حدا لا يمكن التحكم به من قبل الآشوريين، فبدا الضعف والوهن يدب في أرجائها، وما أن مات أشور بني بال سنة ٦٢٦ ق.م حتى بدأت الإمبراطورية بالتفكك، بعد أن ولي أشور بني بعل ثلاث حكام ضعاف كان آخرهم أشور أوباليط الثاني، وفي النهاية سقطت الإمبراطورية الآشورية من قمة مجدها على يد الكلدانيين بقيادة نابوبلاصر (٦٢٥ - ٦٠٦ ق.م).

كان نابوبلاصر الكلداني زعيما للقبائل الكلدانية في بابل في سياق النصف الثاني من القرن السابع قبل الميلاد، وقد بدأ مشواره كزعيم كلداني بإعلانه التمرد على آشور والآشوريين الذين كانوا يعانون من اضطراب في سيرتهم التاريخية، ومن أعراض التفكك والتحلل الحضاري، ثم بدأ نابو بلاصر بالتوسع في محيطه الجغرافي بعد تحالفه مع العيلاميين الميديين، فهاجم كل من أوروك، ونيبور، ووصل حتى أشور سنة ٦١٦ ق.م، إلا أنه رد على أعقابه، وفي سنة ٦١٤ ق.م جرّد الملك الميدي كياكسيرس (٦٢٥ - ٥٨٥ ق.م) حملة عسكرية على نينوى العاصمة الآشورية الثانية، إلا أنه لم ينل منها، فتوجه إلى العاصمة آشور التي سقطت بيده سريعا، فقام بتدميرها، وتركها ليحتلها حليفه الكلداني نابوبلاصر الذي متّن علاقته مع حليفه كياكسيرس بتزويج ابنه نبوخذ نصر بابنة الملك كياكسيرس، ومن ثم قام الحليفان البابلي والميدي بالتوجه نحو نينوى التي قاومت الحصار لمدة ثلاثة أشهر، وسقطت

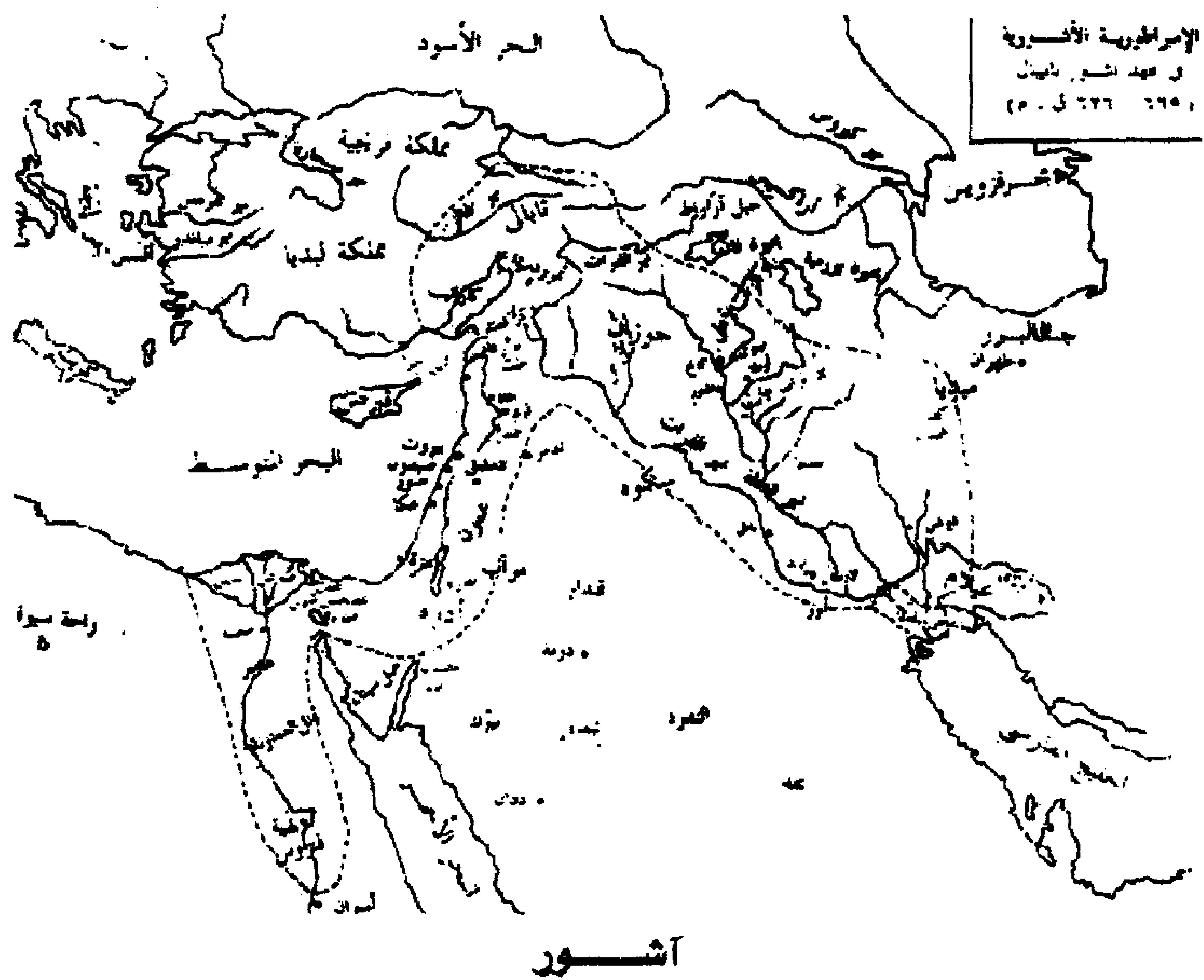
على إثرها، حيث قاما بتدميرها سنة ٦١٢ ق.م، ولم يعد للملك الآشوري آشور أوباليط الثاني سوى مدينة حران ملجأ له، ولكن قوات التحالف لاحقته إلى هناك، فانسحب الملك الآشوري بقواته، وبالقوات المصرية التي كان قد أرسلها له حليفه المصري بسماتيك، واحتلت قوات التحالف الميدية الكلدانية حران سنة ٦٠٩ ق.م، وعلى الرغم من ذلك لم ييأس الملك الآشوري آشور أوباليط، لا سيما بعد أن وصلته قوات دعم أخرى من مصر أرسلها حليفه المصري الملك الجديد نخو الثاني، فحاول استعادة حاران، ولكن نابوبلاصر عاد لنجدة حاميته، ورد المهاجمين، وكان هذا آخر خبر يرد عن الآشوريين.

في ذلك الزمن كان نبوخذ نصر وليا للعرش في عهد أبيه نابوبلاصر، وكان يقوم بمساعدة أبيه في حملاته العسكرية، ولما أثبت جدارته الميدانية، أصبح هو من يقود الحملات العسكرية، وبعد أن استتب الحكم لنابوبلاصر في بلاد الرافدين، بعث بولي عهده نبوخذ نصر في مهمة لاحتلال كركميش التي كانت تحت حكم الحامية المصرية التي قضى عليها نبوخذ نصر، بعد أن لاحقها إلى حماة، وبسقوط كركميش أعلنت الكثير من الممالك خضوعها دون حرب للبابليين الجدد، وفي تلك الأثناء مات الملك نابوبلاصر، فعاد وليه نبوخذ نصر (٦٠٥ - ٥٦٢ ق.م) إلى بابل ليتربع على عرشها، ومن ثم قام بعدة حملات تأديبية نحو سوريا، وخاصة الجنوبية منها، والتي كانت كلما سنحت لها الفرصة تعود وتتمرد على بابل بتحريض من مصر، وفي النهاية قرر نبوخذ نصر أن يشن حربا على مصر، وفي معركة دارت سنة ٦٠١ ق.م بين العاهل البابلي نبوخذ نصر، والعاهل المصري نخو الثاني كبدت الطرفين خسائر فادحة دون أن يتم حسم الأمر، وفي سنة ٥٩٩ ق.م قام نبوخذ نصر بحملة ضد القبائل العربية، وفي سنة ٥٩٨ ق.م قام بحملة على بلاد كنعان، وخلالها احتل مدينة أورشليم، وأسر ملكها يهوياكين (٥٩٨ - ٥٩٧ ق.م) كما أسر الكثير من أعيان المملكة، ووضع صدقيا عم يهوياكين (٥٩٧ - ٥٨٦ ق.م) ملكا على يهوذا، ثم عاد نبوخذ نصر مرة أخرى سنة ٥٨٦ ق.م لقمع حركات التمرد في بلاد كنعان المتحالفة مع مصر، قام خلالها بتدمير أورشليم وسبى الكثير من شعبها، وقام بترحيلهم إلى بابل ومحيطها متبعا سياسة الآشوريين من قبله، وبينما أخضع نبوخذ نصر جميع الممالك السورية لبابل، لم يستطع إخضاع صور التي استمر حصارها ثلاثة عشر عاما من سنة ٥٨٦ ق.م، وحتى سنة ٥٧٣ ق.م، وفكت القوات البابلية حصار صور بعد اعترافها بالسيادة البابلية، مع حفاظها على استقلالها الداخلي، وبذلك أوصل نبوخذ نصر المملكة الكلدانية إلى قمة مجدها، ومن مآثره التاريخية المهمة تدشينه لبرج بابل الشهير الذي كان أبوه نابوبلاصر قد وضع حجر الأساس له، وفي سنة ٥٦٢ ق.م مات نبوخذ نصر بعد أن

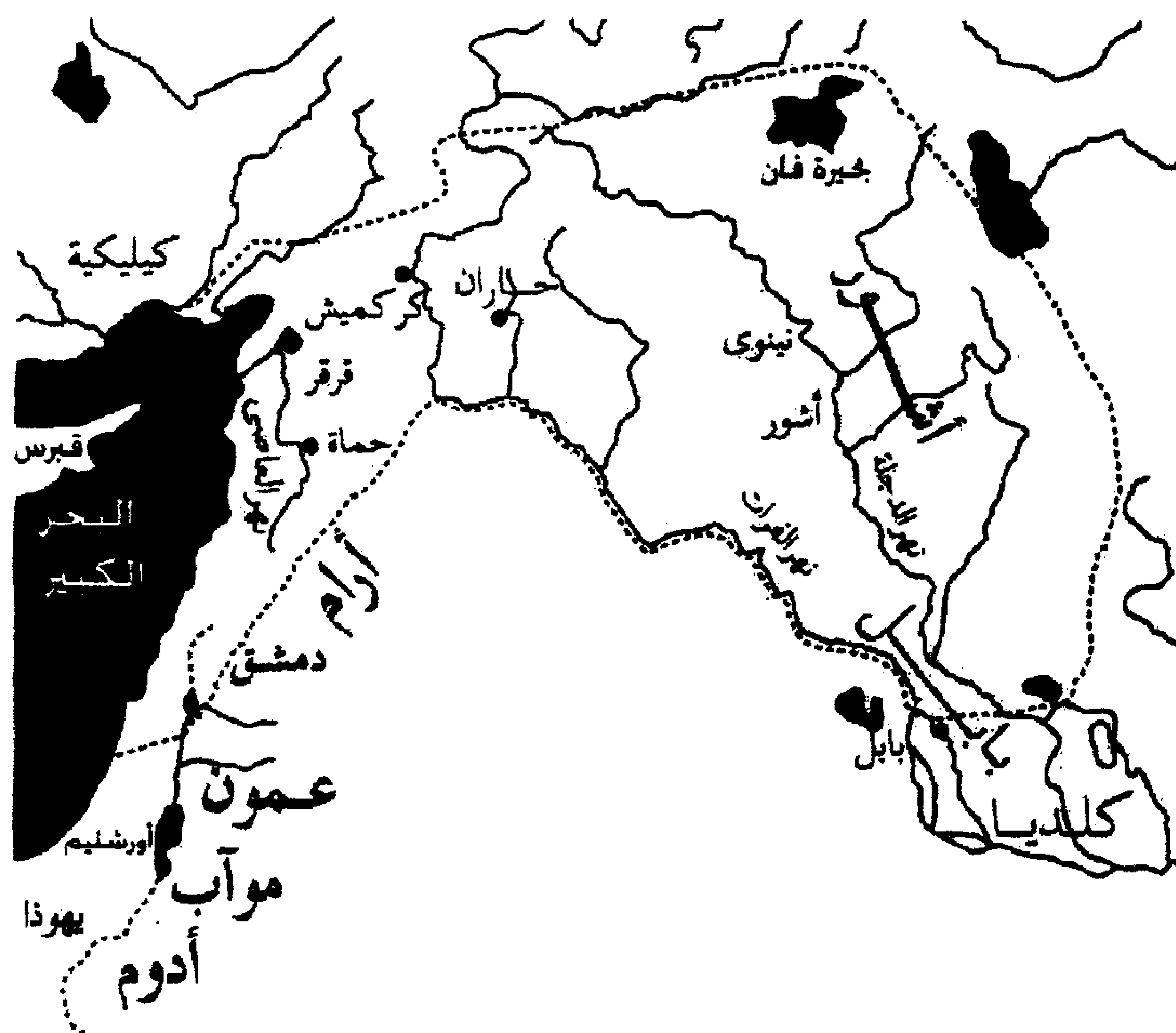
بدأت في نهاية حكمه تظهر بداية علامات الشيخوخة على إمبراطوريته، وولي بعده ابنه أويل مردوخ (٥٦٢ - ٥٦٠ ق.م) لمدة سنتين، وبعد موته تولى العرش القائد العسكري نيرجال شار أوصور (٥٦٠ - ٥٥٦ ق.م)، وتولى الحكم بعده ابنه لاباشي مردوخ (٥٥٦ - ٥٥٦) الذي تم اغتياله بعد ثلاثة أشهر من حكمه، وتولى العرش الذي كان يزداد اهتزازا نابونيد (٥٥٦ - ٥٣٩ ق.م) والذي غادر بابل إلى مدينة تيماء في شمال الجزيرة العربية ليتفرغ لعبادته للإله سين (القمر)، تاركا لابنه وولي عهده بيل سازار (بلطشاصر) إدارة البلاد، ولم يعد إلى بابل إلا حين بدأت جحافل الجيش الفارسي الإخميني بقيادة قورش (٥٥٠ - ٥٢٩ ق.م) بالاقتراب من بابل، ولكن الشعب وبخاصة كهنة الإله مردوخ الناقمين على نابونيد الذي كان يتعبد للإله سين قاموا بفتح أبواب بابل فدخلها قورش دون مقاومة تذكر سنة ٥٣٩ ق.م، وهناك من يفترض أن اليهود الذين كان نبوخذ نصر قد قام بسبيهم، وأسكنهم في بابل، قد تعاونوا مع سواهم من القوى الدينية الرجعية، وتآمروا مع الفرس الأخمينيين، حيث بثوا الفوضى في بابل، وهيؤوها كي تسقط بسهولة في يد الفرس بقيادة كورش، وقد استمر الحكم الفارسي للمنطقة حتى وصل الاسكندر الأكبر إلى المنطقة في نحو سنة ٣٣٢ ق.م.



بلاد الرافدين



آشـــور



الدولة الآشورية في عهد شلمناسر الثالث

بلاد النيل

يؤكد الكثير من علماء الآثار والتاريخ أن مجموعة من النزوحات انطلقت من شبه الجزيرة العربية بحرا عبر برزخ باب المندب، وبرا عبر برزخ السويس، وحطت برحالها في مصر نحو الألف الرابع قبل الميلاد، لتحتل وتختلط حضاريا بالإنسان المحلي المصري، وكانت آخر وأهم هذه الهجرات في العصور القديمة هي هجرة الهكسوس، وقد ذكر ديودورس الصقلي أن جماعات عربية قديمة جنوبية عبرت نحو أفريقيا من مضيق باب المندب، ومن هناك انتقلت نحو مصر، أما جيمس بريستد فيعتقد أن الإنسان المصري القديم قد استعمر وادي النيل بعد قدومه عبر سيناء من منطقة الشرق الأدنى القديم، وهناك من يعتقد أن مركز السامية كان في منطقة نجد، أما مركز الحامية فكان منطقة عمان، وقد نتج من امتزاج دمهما الإنسان المصري القديم بعد وصوله إلى مصر.

ولكن بعض النظريات الحديثة تقول إن الإنسان الأول جاء إلى المنطقة من أفريقيا ومنها دخل نحو بلاد الشام، ثم نحو شبه الجزيرة العربية، وبغض النظر عن أي النظريتين أكثرهما صحة، فقد شكلت الجماعات البشرية في مصر الحضارة الفرعونية القديمة التي تم تقسيمها إلى:

- **عصر ما قبل الأسرات:** تم اكتشاف عدت نويات حضارية سبقت عصر الأسرات، ويرجع أغلبها إلى نحو خمسة آلاف سنة قبل الميلاد، وفي نهاية تلك المرحلة وقبيل حكم الأسرات ظهرت الكتابة الهيروغليفية في مصر.
- **عصر الأسرة الفرعونية الأولى:** كانت مصر تتكون من قطرين منفصلين، هما: مصر العليا ومصر السفلى، وتم توحيدهما نحو عام ٣١٠٠ ق.م بعد أن غزا ملك مصر العليا نعرمر أو مينا، مصر السفلى وأخضعها لحكمه، ووحّد القطرين تحت حكمه، وشكل بذلك الأسرة الفرعونية الأولى، كما شكّل أول مملكة كبرى في التاريخ مستبقا المرحلة في بلاد الرافدين بعدة قرون، وقد قام بنقل العاصمة من مدينة زيس في مصر العليا، إلى مدينة ممفيس في مصر السفلى جنوب القاهرة.
- **عصر الأسرتين الأولى والثانية** (٣١٠٠ - ٢٧٠٠ ق.م)، وكان مقرها في منطقة الكاب على بعد نحو ٣٠٠ ميل إلى الجنوب من القاهرة، ثم أسسوا مدينة منف لتكون عاصمة إدارية أخرى للبلاد.

- **الدولة القديمة** (٢٧٠٠ - ٢٢٠٠ ق.م) وتشمل الأسرات من الثالثة إلى السادسة، وتشتهر هذه الفترة من تاريخ مصر القديم ببناء الأهرامات التي، حسب التصور المصري، تؤمّن بعث، وارتقاء الفرعون إلى مصاف الآلهة، وكانت عاصمة هذه الدولة في منف إلى الجنوب الغربي من القاهرة، وقد أظهرت النقوش التي خلفوها وجود علاقات قوية مع بلاد كنعان، وهناك بعض الدلالات تشير إلى أن القوات المصرية كانت تتغلغل أو تسيطر أحيانا على سيناء، وعلى شمال أثيوبيا، كما كانت تتنازع السيادة على الحدود مع ليبيا، وكان أول ملوك الأسرة الثالثة هو زوسر الذي بنى هرم سقّارة المدرج.

وكان فراعنة الأسرة الرابعة بناة أهرام الجيزة الثلاثة فيما بين ٢٦٠٠ - ٢٥٠٠ ق.م (خوفو - خفرع - منقرع)، وفي عهد الأسرتين الخامسة والسادسة، ظهرت نصوص الأهرامات، وهي نقوش محفورة وملونة، تحتوي على تعاويذ سحرية كانوا يعتقدون أنها تساعد الميت في اجتيازه برازخ الحياة الأخرى.

وفي عصر الأسرة السادسة، بدأت الدولة القديمة في الانحلال مما أضعف شخصية ملوكها وتمرد نبلاؤها، وهذا أدى إلى معاناة السلطة المركزية من متاعب مالية، إضافة لتعرضها إلى غارات عديدة كان يشنها النوبيون سكان المنطقة الجنوبية من مصر، كما عانت مصر في هذه الحقبة من هجمات الأسيويين عبر سيناء، وفي نهاية حكم هذه الأسرة دخلت مصر مرحلة انتقالية استمرت من سنة ٢٢٠٠ ق.م حتى سنة ٢٠٥٠ ق.م.

- **الأسرات من السابعة إلى الحادية عشرة** (٢٢٠٠ - ٢٠٥٠ ق.م)، وقد اتسمت هذه الفترة بتشكيل نظام إقطاعي في مصر، كما اتسمت أيضا باستقرار سياسي، وازدهار اقتصادي، ولكن في النهاية أخذت تعاني السلطة المركزية من الانهيار، وضعفت سلطة الملك، وفي أيام الأسرة العاشرة الأهناسية، ظهرت في طيبة أسرة قوية، استطاعت أن توحّد البلاد، وأن تؤسس الأسرة الحادية عشرة، وكان أول حاكم من تلك الأسرة هو أنيوتف الأول، وكان من أشهر ملوكها منتوحوتب الثاني (٢٠٦١ - ٢٠١٠ ق.م) أول ملك من ملوك طيبة حكم الوجهين القبلي والبحري، وهو الذي أعاد للحكومة هيبتها، ووطد حالة من الأمن والسلام والازدهار، ويُعَدّ هذا الفرعون هو مؤسس الدولة الوسطى.

- **الدولة الوسطى** (٢٠٥٠ - ١٧٨٠ ق.م) والتي كانت بدايتها مع الأسرة الثانية عشرة، فقد كان لمنتوحوتب الرابع آخر ملوك الأسرة الحادية عشرة وزير قوي اسمه أمنمحات وقد استطاع هذا الوزير أن يستولي على العرش وأن يؤسس الأسرة الثانية عشرة، كما استطاع أن يضع حداً لعدم الاستقرار، فاستتب له الحكم، ونشر الأمن في ربوع البلاد، ونقل العاصمة إلى

منطقة الفيوم، وطال حكمه حتى بلغ ثلاثين عاماً (١٩٩١ - ١٩٦١ ق.م)، إلى أن قُتل اغتيالاً في أثناء غياب ابنه في حملة على ليبيا، وخلفه على العرش ابنه سنوسرت الأول بعد أن قضى على قتلة أبيه، وقد تابع سياسة أبيه، وهو الذي شيّد معبداً لرع في منطقة هليوبوليس (عين شمس - أون)، وأقام أمام المعبد مسلتين من الجرانيت، وما زالت إحداهما قائمة في مكانها إلى الآن، وكان من أشهر ملوك هذه الأسرة أمنمحات الثالث، وكانت البلاد بعد موته قد عانت من فترة فوضى امتدت قرابة القرن من الزمان.

وقد امتاز ملوك هذه الأسرة بأنهم عَدَلوا عن بناء الأهرامات، واهتموا ببناء الحصون، ولا سيما في شبه جزيرة سيناء لحماية حدود مصر الشرقية، ومن المؤرخين من يقول إن هذه الأسرات حكمت فلسطين وسورية أو أجزاء منها، وقد تركت الأسرات السابقة لنا رسوما ووثائق كتابية عديدة تظهر علاقتها وانتصاراتها على الأسيويين، فقد جاء في وثيقة تعود إلى الفرعون سينوسرت الثالث (١٨٧٨ - ١٨٤٠ ق.م) {اتجه جلالته نحو الشمال لقهر الأسيويين، فوصل المنطقة الأجنبية المسماة شكيميم (شكيم=نابلس) فسقطت بيده شكميم مع الريتينو (سكان سوريا) الأنذال...}، وقد وُجد الكثير من المنحوتات المصرية في بلاد الشام تدل على وجود علاقات سياسية بين الطرفين، وكان اهتمام الدولة القديمة بمنطقة كنعان اهتماما اقتصاديا من خلال إجبارها على دفع الجزية، ويعتقد التوراتيون أن بني إسرائيل وصلوا إلى مصر نحو سنة ١٨٧٦ قبل الميلاد، أي في أيام سنوسرت الثالث.

وبعد أن كانت مصر تنعم بأمنها، إلا من بعض حالات التسلل البدوي إلى الدلتا، وبعد أن ضعفت السيادة المصرية على حدودها، اجتاحت مصر موجة عنيفة من موجات الهكسوس الذين استطاعوا أن يسيطروا على النيل الأسفل خلال مدة قصيرة.

الهكسوس و الزحف السوري نحو مصر:

لم يتوقف الزحف الآسيوي على مصر منذ بداية التاريخ، وكان هذا الزحف مرتبطاً بعدة حيثيات على رأسها الضعف والوهن الذي كانت تمر بها المملكة المصرية، كما أن الاضطرابات الشعوبية التي كانت تضرب سوريا كان لها الأثر الثاني في هذا الزحف الذي كان تسلليا في بعض الأحيان، وعسكريا في أحيان أخرى، وقد جاء في رسالة موجهة إلى الملك بيوبي أو بيومي من المملكة القديمة من قائد جيشه {وحين أراد جلالته أن يوقع العقوبة على الآسيويين والساكنين على الرمال، جمع جلالته جيشا من عشرات الألوف.. وأرسلني جلالته على رأس ذلك الجيش.. عاد هذا الجيش في سلام.. بعد أن حمل معه جيوشا كثيرة من

الأسرى} ، كما أنه جاء أكثر من نص يعود إلى تلك الفترة يتحدث عن أسر الجيش المصري لكثير من الجماعات الآسيوية ، وتسخيرهم في أعمال البناء وسواه.

وجاء في عهد الملك خيتي الرابع من الأسرة العاشرة (٢١٣٣ - ٢٠٥٢ ق.م) في العصر المتوسط الأول {عامو التعساء إن سوء الطالع يحل حيث يحلون.. إنهم يقومون بالمعارك منذ عهد حورس، ومع ذلك فإنهم لا ينتصرون مطلقا، وهم كذلك لا يغلبون} ، وفي عهد منب الأول (سمنخ إب تاوى) في نهاية الألف الثالثة أو بداية الألف الثانية جاء أيضا {استولى على الأرض كلها، وأقدم على ذبح آسيوي دجاتي} ، كما تمت عملية طرد للآسيويين في عهد منتوحتب الرابع في القرن التاسع عشر قبل الميلاد على يد قائد الجيش آمنحمات آنذاك، وقد جاء في مذكرات سنوحي الذي عاصر الفرعون امنحمات الأول، وهو يتحدث عن هروبه من مصر إلى سوريا {وأعطيت الطريق لقدمي، ولما اقتربت من حائط الحاكم المقاومة لرد الآسيويين والقضاء على عابري الرمال، قعدت القرفصاء تحت أجمة خشبية، خشية أن يراني حراس الأسوار أثناء تأديتهم لخدمتهم اليومية} ، وجاء أيضا في عهد ابنه الفرعون الشهير سنوسرت الثالث (خع كا رع) من الأسرة الثانية عشرة (١٩٩١ - ١٧٧٨ ق.م) {ارتحل الملك بنفسه للقضاء على الآسيويين ووصل إلى إقليم سكمم - شكيم؟ -}.

وبانتهاء عصر الأسرة الثانية عشرة القوية، دخلت مصر في فترة أخرى من الضعف والتفكك، الأمر الذي سمح (للآسيويين) من التسلل سلميا من بلاد الشام عبر سيناء إلى مناطق الدلتا المصرية، وبعد أن ذلك استطاعوا تحت اسم الهكسوس (حكام البلاد الأجنبية) أن يجتاحوا، ويحتلوا مصر السفلى ١٧٣٠ قبل الميلاد بسبب قوتهم وتنظيمهم العسكري المتطور، واستخدامهم للمركبات السريعة ذات العجلتين والتي لم تكن معروفة آنذاك، وكان هو سلاحهم الاستراتيجي الصاعق، وقد أتوا معهم بنظام إداري جديد لم تكن مصر تعرفه يقوم على النمط الإقطاعي، وقد جعل الهكسوس من تانيس أو أفاريس في شرقي الدلتا عاصمة لهم.

والهكسوس، ولأنهم لم يتركوا وثائق، أو مدونات تعرّف بشخصيتهم، ولأن المصريين حاولوا أن يزيلوا كل ما تركه الهكسوس من آثار تذكّر بهم، ولأنهم أرادوا أن ينسوهم تماما، فلم يأت المصريون على ذكر تلك الفترة أبدا، ولذا فما زال يكتنف الهكسوس الكثير من الغموض، ولكن الباحثين وصلوا إلى شبه إجماع على أنهم جماعات عمورية مع جماعات حورية هند أوربية كانت قد قدمت بشكل عائلي سلمي إلى سوريا، وامتزجت مع القبائل العمورية وبذلك تشكل الهكسوس، الذين تغلغلوا أولا في سوريا، ودمروا، وبنوا الكثير من المدن، وفي النهاية اجتاحوا مصر في منتصف القرن الثامن عشر قبل الميلاد.

وحسب رأي البعض، فإن الهكسوس شعوب هند أوربية قدموا من براري آسيا، وحطوا في البداية على محيط بحر قزوين، ثم نزلوا جنوبا نحو الشرق الأدنى، أما لويس عوض فيذهب إلى أنهم قدموا مباشرة من القوقاز، ويعتقد بعض الباحثين أن الهكسوس من الجنس السامي، وهم إما بابليون، أو كنعانيون، أو عرب كما يرى مانثيون، وفليكوفسكي، وقد قدموا في هجرة من الجزيرة العربية كإفاضة من (مستودع الهجرات السامية)، ويرى صموئيل لانج أنهم تشكلوا من العرب مع مزيج من شعوب سامية أخرى، ولكنه يعتقد باشتراك بعض جماعات حثية في الحلف الهكسوسي وكانوا من قيادات الهكسوس، أما الذين يذهبون إلى أن العنصر السامي هبط من أرمينيا، فيعتقدون أن الهكسوس أيضا قدموا من هناك، فسيد القمني يعتقد أن جماعات حثية نزلت جنوبا، واختلطت بجماعات مختلفة، فتشكل الكاشيون الذين احتلوا بابل، وشكلوا الهكسوس (الشاسو) بعد أن تمازجوا في مملكة أدوم (في منطقة مديان) مع جماعات من العرق الكوشي الزنجي الذين جاؤوا حسب سيد القمني من جنوب الجزيرة العربية، وجماعات عمورية عربية، إضافة إلى الجماعات الهند أوربة الأرمنية (العبريين والحوريين والحيثيين)، والجدير ذكره أن المؤرخ هيرودوت قد ذكر أن الفينيقيين كانوا يعيشون في منطقة مديان، ويعتقد القمني أن حكام الهكسوس كان أكثرهم من الجماعات الهند أوربية، وبالتحديد من الجنس الحثي، وهم الذين قاموا باحتلال مصر، ويدعّم سيد القمني رأيه بنتف الوثائق التي تركوها، والتي أظهرت أن لسان الهكسوس، وأسماءهم هي سامية، وآرية، ومنها (يعقوب هار، ويعقوب بعل وجاء ترتيبه الثاني في سلسلة ملوك الهكسوس بعد سالاتيس)، مع الإشارة إلى أن السيد القمني يرى أن الحوريين (الميتانيين) كان موطنهم في أدوم، وليس في الفرات الأوسط ما بين الفرات والخابور كما هو معروف تاريخيا، وقد دعم رأيه، بعدة قرائن، فقد ورد أن أحد أسماء الحوريين هو «الآدمين» أي «الأدوميين»، كما أتى عنهم أنهم من سكان الكهوف، وهذا يتعارض مع منطقة ميتان، ويتماشى مع منطقة أدوم، كما أن الأدوميين وصفوا بأنهم شعب أحمر اللون، وهو يتماشى مع لون الشعوب الهند أوربية (الآرية)، مع أن البعض يعتقد أن كلمة أدوم، والتي تعني اللون الأحمر قد جاءت من لون منطقة أدوم الأحمر التي اكتسبته من لون حجارتها، كما اتخذ سيد القمني قرينة فيما يذهب إليه ما جاء في التوراة «وفي سعير سكن الحوريون، فطردهم بنو عيسو وأبادوهم من قدامهم وسكنوا مكانهم» تثنية ٢ / ١٢، ويُعَدّ سيد قمني أن هناك صلة قرابة عرقية بين بني إسرائيل، وبين بني عيسو، وكلاهما من الشعوب الآرية.

ويرى سيد قمني أن مملكة أدوم التجارية، على الرغم من صغر جغرافيتها حوت خليطا لا حصر له من الشعوب، تشكل من جماعات آرامية (هند أوربية قدمت من أرمينيا)، وعناصر آراية فارسية (حثيين وحوريين)، وعناصر قدمت من جنوب الجزيرة العربية، وشكلوا حلفاً واتحاداً (كونفيدرالي).

كما يعتقد سيد قمني أيضا أن بلاد بونت (بلاد الآلهة) التي جاء ذكرها في النقوش المصرية، والتي صورت رحلة حتشبسوت إليها، والتي يعتقد أكثر الباحثين أنها تقع في الصومال، أو في اليمن، أو جبال عسير، هي - حسب رأي سيد القمني - بلاد أدوم.

أما د. أحمد يوسف داود فيذهب أيضا إلى أن موطن الحوريين كان في جبل سعير حسب ما جاء في التوراة، ولكن جبل سعير عند د. أحمد داود يقع في الجنوب الغربي من شبه الجزيرة العربية، كما يذهب من خلال نظريته التي تقزم التاريخ التوراتي، وتنقل، وتحصر الجغرافيا التوراتية في مكان ضيق من بلاد زهران في شبه الجزيرة العربية، إلى أن الهكسوس هم من العرب من بلدة الصوت في شرقي بلاد زهران، أما فيليب حتي فيرى أن الحوريين أتوا إلى الشرق الأدنى القديم من المنطقة الواقعة بين بحيرة أورمية وجبال زاغروس، وهم ليسوا ساميين، ولا هند أوربيين، وما زال أصلهم مجهولا.

وبصرف النظر عن تلك المقاربات، فقد استطاع الهكسوس من غزو مصر مستغلين حالة الوهن التي كانت تعاني منها في سياق العصر المتوسط الثاني، إضافة إلى استخدامهم العربات السريعة التي تجرها الخيول، التي كانت تشكل قوى كاسحة في ذلك الزمان، إضافة إلى اعتمادهم على الحديد في تصنيع أسلحتهم؟، في الوقت الذي لم تكن مصر تعرفه أو تستخدمه بعد.

وبينما انتشر الهكسوس في *منطقة الدلتا، وأسسوا دولتهم*، كان أمراء طيبة يحكمون الصعيد كنواب للهكسوس، ولكن بعد أن استعاد الفراعنة الجنوبيين (أمراء طيبة) دورهم قاموا بطرد الهكسوس، وكان الأمير كامس أول من بدأ مسيرة التحرر من الحكم الهكسوسي، وقد استطاع أخوه (أو ابنه) أحمس الأول (١٥٧٠ - ١٥٤٦ ق.م) أن يتابع طريق كامس، وأن يطردهم من مصر العليا، والسفلى، وأن يردهم إلى بلاد الشام بعد أن دمر عاصمتهم أفاريس في منطقة الدلتا (تل اليهودية)، وأن يؤسس السلالة الثامنة عشرة، التي في عهدها تأسست المملكة المصرية الجديدة والتي استمرت لمدة ٤٠٠ سنة، وبسبب العداء الشديد الذي كان المصريون يكنونه للهكسوس، فقد قاموا بمحو أي أثر يذكّر بهم، وبذلك بقيت تلك الجماعات يكتنفها الكثير من الغموض خاصة حول أصولهم،

وفصولهم، وفي نص جاء على لسان قائد عسكري في جيش أحمس، وأسمه أيضا أحمس بن أبانا حيث تحدث في البداية كيف أبحر مع الملك أحمس شمالا، وهاجم مقر العامو (الهكسوس) في أفاريس {.. ثم سقطت أفاريس ونهبت، فغنمت رجلا وثلاث نساء وهبهم لي جلالته عبيدا، بعد ذلك حوصرت شاروحين (أو شاروهين وتقع جنوب غرب بلاد كنعان) لمدة ثلاث سنوات سقطت بعدها ونهبت، فغنمت امرأتين ورجلا جعلوا لي عبيدا وأُعطيت ذهبا لشجاعتي. وبعد أن قضى جلالته على الأسيويين اتجه جنوبا لمحق النوبيين. بعد هذه الأمور أتى تحتمس الأول فتوجه إلى بلاد ريتينو ليشفي غلة فؤاده في الأراضي الأجنبية، فوصل جلالته إلى نهارين حيث التقى بالأعداء بينما كان ينظم صفوف الجند، فأعمل فيهم مذبحة عظيمة..}، وقد جاء في سجلات تعود إلى تحتمس الثالث (١٤٦٩ - ١٤٣٦ ق.م) أسماء بعض ملوك الهكسوس، أو قادتهم، أو شيوخهم، وهي أسماء عمورية (يعقوب إيل أو يعقوب هار، يوسف إيل، حيان، وعنات هار أو عنات إيل، وحور، وسير رع) (والبعض يعتقد أن أسمي يعقوب إيل، ويوسف إيل يعودان إلى أسماء مدينتين كنعانيتين كان تحتمس الثالث قد احتلهما).

وقد تفرقت فلول الهكسوس بعد أن تم طردهم من مصر، ولم يعد لهم كيان سياسي، أما أين ذهبوا، فيرى البعض أن قسماً منهم بقي في مصر بشكل مسالم، وبعضهم فر نحو شمال إفريقية، أما الأغلبية فقد طردوا إلى سيناء، ومن هناك تفرقوا في أكثر من مكان بعد أن تفكك إيلافهم، ويعتقد السيد القمني أن الفينيقيين كانوا من الجماعات الهكسوسية الذين دحروا من مصر نحو سوريا حيث قضوا زمنا في وادي عربة ومن ثم انتقلوا من هناك ليستقروا على الساحل السوري، أما لويس عوض فيرى أن الهكسوس بعد أن تم طردهم من مصر، هبطوا من سيناء جنوبا نحو بلاد الحجاز، وحسب رأيه فإن الهكسوس هم الذين أعطوا الحجاز اسمها، ولغتها، على اعتبار أن كلمة حجاز هي تطور لفظي لكلمة هكسوس.

وبشكل موجز يمكن القول أن سوريا الداخلية كانت تُعَدّ المنطقة الحيوية الاستراتيجية بالنسبة للحضارة الرافدية، وفي الوقت نفسه فقد ظلت أيضا المنطقة الجنوبية من سوريا مع الساحل الشرقي للبحر الأبيض المتوسط منطقة استراتيجية بالنسبة لحضارة النيل، لكونها المعبر أو البرزخ الوحيد البري بين آسيا وبالتالي أوربا، وبين أفريقيا، أو (جسر الأمم) وهو الاسم الذي يعطي تعريفا دقيقا ووظيفيا لبلاد كنعان، وشبه جزيرة سيناء، ومنذ مطلع التاريخ كانت بلاد كنعان تخضع لحركتي المد والجزر لحضاراتي وادي الرافدين ووادي

النيل، وكان مسرح صراعات الواديين تتم في بلاد الشام، وكانت بلاد كنعان تحديدا تشكل المنطقة الأكثر استراتيجية للحضارتين بحيث كانت تشكل الميزان الذي يقرأ على مؤشره هيمنة قوة على أخرى.

وكان اهتمام المملكة المصرية القديمة في فلسطين وشاطئ المتوسط يتأتى من رؤية اقتصادية بالدرجة الأولى من خلال دفع الإتاوات والجزيات، ومن خلال السيطرة على الطريق التجارية البرية الوحيدة بين آسيا وأفريقيا، وثانيا، كما كانت تشكل بدرجة ثانية بعدا دفاعيا عن منطقة الدلتا، وبالتالي مصر ككل، وبالتالي نقل منطقة الصراع من منطقة الدلتا إلى بلاد كنعان، أما المملكة الوسيطة فأولت البعد الدفاعي الأمني الاهتمام الأكبر، والأكثر أهمية من الجانب الاقتصادي، بعد التهديدات والاجتياحات الهكسوسية التي تلقتها من بلاد الشام، والتي أنهت مرحلة المملكة القديمة، وبذلك أصبحت رؤية المملكة الوسيطة والحديثة رؤية مختلفة عن رؤية المملكة القديمة، وبالتالي فليس من الأهمية أن تدفع الممالك الكنعانية الجزية، بل الأهمية هو أن تكون هذه الممالك الصغيرة متحالفة عسكريا مع المملكة المصرية، والتي ربما تكون على استعداد أن تقدم مساعدات اقتصادية للممالك الكنعانية الحليفة مقابل أن تشكل خط دفاع متقدم، ولكن، وبشكل عام فقد اتبعت المملكة الوسيطة والحديثة سياسة الترهيب أحيانا، والترغيب أحيانا أخرى لابقاء الممالك الكنعانية تحت سيطرتها، وذلك تبعا للظروف الدولية من جهة، ولقوة ونفوذ الممالك الكنعانية من جهة أخرى، وكانت مصر قد سيطرت عسكريا على سوريا ما بين (١٥٨٠ - ١٣٥٠ ق.م)، وقد كرس المصريون نظام دولة المدينة، كما كانت تحافظ على التنافس فيما بين الممالك السورية، كي تضمن سهولة السيطرة عليها، كما أنها اتبعت سياسة أخذ أبناء ملوك المدن إلى مصر كنوع من الرهائن، وكان أول من عمل بهذه السياسة هو تحتمس الثالث (١٤٦٩ - ١٤٣٦ ق.م)، وابنه أمنحوتب الثاني (١٤٣٦ - ١٤٢٥ ق.م) من بعده، وبذلك فإن السلطة المصرية، وبأقل ما يمكن من الحاميات كانت تستطيع أن تسيطر على ممالك بلاد كنعان.

بعد أن استطاع أحمس الأول طرد الهكسوس، قام أيضا بعدة غزوات ناجحة على جنوب فلسطين كنوع من الحرب الوقائية ضد تسلل الآسيويين نحو دلتا النيل ثانية، وجاء بعده ابنه أمنحوتب الأول (١٥٤٦ - ١٥٢٥ ق.م) الذي مات دون أن يترك ولداً يخلفه على العرش، ولكن ابنة أحمس تزوجت من شخص اسمه تحتمس من أمراء البيت المالك، وبذلك وحسب الأعراف الفرعونية أصبح له الحق في العرش، وقد قام في السنة الأولى من

حكمه بعدة اجتياحات نحو النوبة وطّد من خلالها حكم مصر السفلى فيها، كما قمع ثورة في سورية، وهكذا كوّن أول إمبراطورية امتدت من الفرات إلى الجندل الرابع، ولذلك يُعَدّ تحتمس الأول (١٥٢٥ - ١٤٩٥ ق.م) المؤسس الحقيقي للمملكة الحديثة، والذي أعاد هيمنته على بلاد الشام وبلاد الرافدين وقام بقرابة عشرين حملة على سورية، ويعتقد بعض التوراتيين أن موسى ولد في أوائل حكم تحتمس الأول الذي لم ينجب من زوجته الملكية (أحمس) سوى ابنته الوحيدة حتشبسوت، التي تزوجت بأخيها غير الشقيق تحتمس الثاني، وكان ابناً لتحتمس الأول من زوجة أخرى اسمها موت نفرت، وهكذا تولى تحتمس الثاني العرش (١٤٩٥ - ١٤٩٠ ق.م) مع زوجته وأخته لأبيه حتشبسوت، ولم ينجب تحتمس الثاني من زوجته حتشبسوت سوى ابنتين، وبموته بعد خمس سنوات من حكمه بدأ الصراع بين ابنه تحتمس الثالث - من زوجة أخرى غير ملكية - والذي نصبه الكهنة فرعونا على مصر، وحتشبسوت الملكة الشرعية، ويعتقد البعض أن حتشبسوت تزوجت من (تحتمس الثالث) ابن زوجها تحتمس الثاني، على الرغم من فارق العمر بينهما، كي تبقي السلطة بيدها، كوصية على تحتمس الثالث، والتي ضعف في عهدها المد المصري، ويظن بعض المؤرخين أنها ابنة الفرعون التي أنقذت موسى وتبنته حسب الرواية التوراتية.

وبعد موت الملكة حتشبسوت تفرد تحتمس الثالث (١٤٦٩ - ١٤٣٦ ق.م) بالحكم فقام، انتقاما منها، بإزالة اسمها من كل أثر كانت قد خلفته، وقد قام في بداية حكمه بتشكيل جيش كبير، وزحف به شمالا نحو فلسطين وسورية ليخمد تمرد الأمراء الثائرين هناك، وتقابل في موقعة مجدو الشهيرة (جنوب شرق مدينة حيفا بالقرب من يافا) مع قوات التحالف السوري تحت قيادة مملكة قادش (القريبة من حمص) في وسط سوريا والتي أيضا تحالفت مع مملكة ميتاني، وقد انتصرت فيها القوات المصرية جزئيا من خلال استغلالها عنصر المفاجأة، وقد تمكنت قوات التحالف السورية من التحصن في مدينة مجدو التي حاصرها تحتمس الثالث، وكانت قوات مملكة قادش قد انسحبت قبل أن تتمكن قوات تحتمس الثالث من محاصرتها في مجدو، وفي مجدو تمت المفاوضات بين تحتمس الثالث وقوات التحالف السوري المحاصرة، وتم عقد اتفاقية فرض فيها الفرعون تحتمس الثالث شروطه على قوات التحالف السوري، ووضع ممثلين له في بعض الممالك السورية مدعومين بحاميات عسكرية قليلة، ودفّعها الجزية {وقف جلالتي الملكية، وسمح لهم بالعودة إلى مدنهم وسافروا جميعا يركبون الحمير لأنني أخذت خيولهم}، كما قام تحتمس الثالث بوضع حد للهيمنة الحورية (الميتانية)

في الشمال الشرقي لسورية بعد الحرب التي جرت سنة ١٤٥٧ قبل الميلاد، والتي انتصر فيها تحتمس الثالث بشكل جزئي.

وبذلك أعاد تحتمس الثالث إخضاع الممالك العاصية، ولكن انتصاره هذا لم يكن نهائيا وجازما، بل انتهى على ما يبدو إلى اتفاق هيمن فيه الأكثر انتصارا، وقد استمرت هذه الممالك بإعلان عصياناتها بتحريض من مملكة قادش التي لم توقّع على اتفاقية السلام في مجدو، الأمر الذي أجبر تحتمس الثالث على القيام بعدة حملات عسكرية تأديبية بلغ عددها قرابة خمسة عشر حملة، ومات تحتمس الثالث بعد أن حكم أربعة وخمسين عاماً، شاركته حتشبسوت كوصية لمدة واحد وعشرين عاما، وتفرد بالحكم لمدة ثلاثة وثلاثين عاما.

وملك بعد تحتمس الثالث ابنه أمنحوتب الثاني (١٤٣٦ - ١٤٢٥ ق.م)، ويظن البعض أنه كان فرعون الخروج، فقد اشترك زمناً قصيراً مع أبيه في الحكم، ثم انتقل إليه العرش في يسر فأصبح الحاكم الوحيد للإمبراطورية، ولكنه اضطر للقيام بحملات عسكرية تأديبية في جنوب سورية وفلسطين لإخضاع بعض المدن التي تمردت، وقد جاء في نصب منفيس أن أمنحوتب الثاني قام بغزو بلاد كنعان وأسر ٣٦٠٠ من العبرانيين، ولكن يبدو أن فترة حكمه تميزت - بشكل عام - بالسلام.

وتولى بعده تحتمس الرابع (١٤٢٥ - ١٤١٢ ق.م)، والذي أثبت جدارته كقائد عسكري بذهابه إلى سورية على رأس جيشه لقمع تمرد بعض المدن السورية، وهناك عقد اتفاقا مع الملك الميتاني شوراتا، وتزوج من أميرة ميتانية، وتولى من بعده الحكم ابنه أمنحوتب الثالث (١٤١٢ - ١٣٨٧ ق.م) والذي لم يقم بحملات حربية إلا لإخماد ثورة في بلاد النوبة، ولكنه لم يقم بأي حملة عسكرية في بلاد الشام، وكان على وفاق، مع الميتانيين كما كان الأمر مع أبيه في عهد ملكهم توشراتا، الذي بعث بابنته تاتوحيبا زوجة إلى الفرعون المصري حسب ما جاء في إحدى الرسائل التي اكتشفت في تل العمارنة سنة ١٨٨٧م، وقد أشرك أمنحوتب الثالث ابنه أمنحوتب الرابع (١٣٨٧ - ١٣٦٦ ق.م) في الحكم في آخر أيامه، ولكن أمنحوتب الرابع، بنزعته الفلسفية، انصرف إلى الاهتمام بعبادة الإله أتون (قرص الشمس)، في عاصمة جديدة أنشأها في تل العمارنة، كما غير اسمه من أمنحوتب إلى إخناتون، ولم يلتفت إخناتون إلى رسائل الاستنجاد العديدة (المعروفة باسم رسائل تل العمارنة) التي كان يرسلها إليه أمراء فلسطين وسورية الموالون لمصر، طالبين النجدة لدفع الغزاة والمتمردين الذين عاثوا فسادا في المنطقة، وبالأخص منها ما قامت به الجماعات العبرية من غزوات على الممالك الكنعانية،

وهكذا بدأت الإمبراطورية الفرعونية في عهد إخناتون بالانحلال، ويعتقد التوراتيون أن غزو بني إسرائيل لأرض كنعان واستقرارهم فيها، قد بدأ في عهد أمنحوتب الثالث وابنه أمنحوتب الرابع، عندما ارتخت قبضة مصر على تلك البلاد.

إن حالة الجزر المصري بعد تحتمس الثالث بلغت ذروتها في مرحلة أمنحوتب الرابع (إخناتون) (١٣٨٧ - ١٣٦٦ ق.م) الذي كان منشغلا بحركته الإصلاحية الدينية التوحيدية، وبإقصاء كل رموز الفكر الديني القديم المتعدد الآلهة، وبتشكيل البنية التحتية لمعتقده الديني الجديد الذي اتخذ من الشمس أتون إلها وحيدا (والذي كان له كبير الأثر على الفكر الديني اليهودي)، كما كان لرسائل أو نصوص عاصمته (أخيت أتون) في موقع تل العمارنة كبير الأثر أيضا في إضاءة تاريخ المنطقة، وبالأخص بلاد كنعان، وتحديدا التهديدات، والفوضى التي كانت تعاني منها من قبل جماعات العابيرو في تلك المرحلة.

وفي ذلك الوقت كانت الصراعات الداخلية في سوريا في أوجها، لا سيما وأن سوريا كانت ممزقة، وموزعة على عدة شعوب منها الشعوب الهند أوربية مثل الحوريين الذين أسسوا مملكة ميتاني (١٥٥٠ - ١١٢٠ ق.م) وعاصمتها نوزي قرب كركوك العراقية، وكذلك الكوديين أو الكاشيين وهم سكان شمال غرب سوريا في منطقة كيليكيا، والحثيين (الحاتي) الأناضوليين الذين قاموا ببناء مدينة كركميش كعاصمة محلية بالقرب من مدينة جرابلس على الحدود السورية التركية، وفي مرحلة لاحقة اندخل الفلستيون على الساحل الجنوبي الشرقي للمتوسط.

وقد عانت المنطقة من عدة اضطرابات، ولا سيما من قبل جماعات العابيرو، ومن قبل الأموريين الذين كانوا قد شكلوا مملكة أمورو مع مزيج من الشعوب المتعددة، وكانت عاصمتهم سميرا بالقرب من مدينة طرطوس على الساحل السوري، وخاصة أثناء حكم ملكهم عازيرو الذي كان حليفا للحثيين، تقول نص المعاهدة الحثية الأمورية {أنا الملك الشمس قد جعلتك يا عازيراس تابعي، فإن صنت أرض ملك حاتي فإن سيدك سيقدم لك الحماية. عليك أن تحمي روح مليكك وشخصه وجسمه وأرضه، وملك حاتي سيقدم لك بالمقابل الحماية نفسها. ويتوجب عليك أن تدفع ٣٠٠ شيكل من الذهب الخالص جزية سنوية}.

أما بالنسبة للوثائق التاريخية التي جاءت على ذكر الفوضى التي أحدثتها الجماعات العبرية، فقد وجدت في عاصمة إخناتون (أخيت أتون = أفق الشمس) مجموعة من الرسائل

أهمها رسالة من ملك أورشليم المدعو عبدي خيبا يقول فيها {طالما أن سيدي الملك على قيد الحياة فسوف أقول لمندوب جلالته: لماذا تحب العابيرو وتكره أمير الولاية المقيم}، وفي رسالة أخرى {إلى مولاي الملك. هكذا يقول خادمك عبدي هيبة. انظر يا مولاي إلى ما فعله ميلك - إيلو أمير جازر وشواردانا أمير حبرون في أرضي الملك مولاي، لقد دفعا بقوات من جازر ومن جت ومن كيلة - قيلة - فاستولت على أراضي روبوتو وبذلك حل العابيرو في أراضي مولاي الملك، وهناك بلدة في أراضي أورشليم من أملاك مولاي هي بيت لحمي جرى ضمها إلى كيلة. فليصغ المليك إلى خادمه عبدي هيبه ويرسل قوات تعيد الأراضي الملكية إلى الملك. وإذا لم تصل القوات، فإن أراضي مولاي سوف تغدو للعابيرو}.

وفي رسالة أخرى أيضا يقول فيها {ما الذي اقترفته بحق مولاي الملك؟ إنهم يلومونني عند مولاي قائلين بأن عبدي هيبة قد تألب على سيده الملك. ولكني أقول بأن أبي لم يبوئني هذا المنصب ولا أمي، بل أسلحة مولاي القوي هي التي فعلت. فلماذا أتمرد على مولاي الملك؟.... ليعلم مولاي بأننا نفتقد إلى قوات حماية ترعى أراضيه، فهلا وجه المليك عناية نحو أراضيه التي تمردت هنا بتحريض من إيلي ميلكو}.

وهناك أيضا رسالة من ملك صور تقول {إنني أحمي صور المدينة العظيمة من أجل مولاي الملك، إلى أن تصلني قواته فتهبني ماء لأشرب وحطبا لأدفأ. وإني أحيطكم علما بأن زيميريدا قد كتب مرارا إلى المجرم عازيرو ابن عبدي عشيرته بخصوص كل ما سمعه من مصر وها أنا قد كتبت إليك بكل ما يتوجب عليك معرفته}.

وجاء في رسالة من شارادوتا أمير مدينة حبرون (الخليل) {إلى مولاي الملك الشمس. هكذا يقول شارادوتا خادمك، والتراب الذي تحت قدميك: عند قدمي الملك أسجد سبع مرات، وسبعا أخر، منبطحا بلا حراك. ليعلم مولاي أن زعيم العابيرو قد هاجم الأراضي التي أعطاها لي إله مولاي الملك، ولكني تغلبت عليه. وليعلم مولاي أن كل أخوتي قد تخلو عني، ولم يقف معي في مواجهة العابيرو إلا عبدو هيبة. لقد هب لمساعدتي أولا زوراتا أمير عكا وإنداروتا أمير أكشف، بخمسين عربة، بعد أن تعرضت لنهب العابيرو، ولكنهم انقلبوا بعد ذلك ضدي. أتمنى على مولاي الملك أن يوعز للقائد ينهامو بالوقوف في صفي لنشن معا حملة تسترجع أراضي الملك إلى حدودها السابقة}.

وجاء في رسالة من رب عدي الأمير المخلوع على يد أخيه من مدينة جبيل والملتجئ إلى مدينة بيروت يقول فيها {من رب عدي إلى مولاه الملك الشمس.. لقد كتبت مرارا في طلب المساعدة ولم أحصل عليها، فالملك لا يصغي لكلمات خادمه، ورسولي قد عاد من عند

المقام السامي خالي الوفاض وبلا قوات دعم، وعندما رأى أهل بيتي وأخوتي أن الفضة التي طلبتها لم تصل هزئوا بي واحتقروني. لقد كان أخي يؤلب المدينة ضدي لتصبح تحت سيطرة أبناء عبدي عشيرته، وعندما تأكد أن رسولي قد عاد بدون فضة وقوات دعم، ازدراني وطردني من مدينتي، ... فإذا لم يتدخل الملك من أجل المدينة، فإنه سيفقد كل مدن كنعان}.

وحسب يوسف سامي فإن الحثيين في زمن تل العمارنة قاموا بتحريض الملك (الأموري الميتاني؟) عبدي شراتا على التمرد على مصر، وأخذ هذا الأخير يزحف على ممالك سوريا الداخلية، وقد تحالفت ضده الممالك الفينيقية جبيل وبيروت وصيدا وصور وعكا بقيادة ملك جبيل رب عدي، وقد استطاع من خلال ثعلبيته السياسية أن يستولي على الكثير من المدن والقرى المحيطة به، وبعد موت عبدي شراتا تقلد الحكم ابنه عازيرو الذي تابع زحفه نحو الجنوب الغربي، بعد تحالفه مع جماعات العابيرو، واستطاع عازيرو الوصول إلى جبيل، وهنا بدأت الممالك الموالية لمصر تبعث برسائلها إلى تل العمارنة يستنجدون بحلفائهم المصريين من أجل أن يقدموا لهم يد المساعدة العسكرية للوقوف أمام الجيوش التي بدأت بالزحف نحو الممالك الكنعانية، وحسب الباحث يوسف سامي فإن عازيرو نفسه، كنوع من المراوغة والدهاء، بعث أيضا برسالة إلى البلاط الفرعوني في تل العمارنة يؤكد له فيها تبعيته له، وفي الوقت نفسه تابع زحفه على الممالك الكنعانية، في الوقت الذي استطاعت فيه الجماعات العبرية الاستيلاء على شكيم، وأحكمت حصارها على أورشليم التي كان يحكمها عبدي خيبا، وحسب الباحث فقد أرسل إخناتون قائد الجيش المصري حور محب لنجدة الممالك الكنعانية، حملتين عسكريتين، ولكنهما وبسبب صغرهما فقد أخفقتا في الدفاع عن الممالك الكنعانية.

لم يكن الأمر محصورا في بلاد كنعان فحسب، فقد أدى ضعف الهيمنة الفرعونية على بلاد الشام في عهد فراعنة تل العمارنة إلى جعل الممالك والشعوب الأخرى أن تتململ من قيودها، وبخاصة بالنسبة للقبائل العبرية التي أحدثت عدة اضطرابات في بلاد كنعان، وقد ازداد الانحسار المصري وبخاصة بعد اختفاء إخناتون، وتقلقل العرش لمدة سنوات، فحسب السيد القمني تولى الحكم سمنخ كارع ابن إخناتون لمدة قصيرة، ثم تولى العرش ابن إخناتون الثاني توت عنخ آمون (١٣٦٦ - ١٣٥٧ ق.م)، وبعد موته تولى العرش آي بن يويا (أحد الرجال الذين كانوا مقربين من إخناتون، وهو حسب السيد القمني والد نفرتيتي) لمدة أربع سنوات (١٣٥٧ - ١٣٥٣ق.م) بعد أن تزوج بأرملة توت عنخ آمون.

وقد استلم السلطة بعد ذلك قائد الجيش حور محب (١٣٥٣ - ١٣١٩ق.م)، الذي استطاع أن يعيد الأمن والنظام، ومات دون أن يعقب ولداً، وكان قد عيَّن الفرعون حور محب قائد جيشه ووزيره الأول رعمسيس الأول خليفة له، وقد بذل رعمسيس الأول (١٣١٩ - ١٣١٨ق.م) وخليفته سيتي الأول (١٣١٨ - ١٢٩٩ ق.م) جهوداً جبارة لاستعادة هيبة الإمبراطورية في آسيا التي تمردت على الهيبة المصرية في أيام إخناتون، وتم نقل العاصمة من تل العمارنة إلى تانيس (صان الحجر) في الدلتا لتكون قريبة من أملاك مصر في آسيا، وقد أولى سيتي الأول اهتماما متزايدا باستعادة السيطرة التي تزعزعت في مرحلة تل العمارنة على سوريا، ولا سيما فلسطين، وقد قام بحملة تأديبية على بيت شان = بيسان، وقام بحملة ثانية لصد هجوم من هجمات العابيرو عليها، وقد استطاع أن يسترد شيئا من الهيبة المصرية على الممالك السورية إلا أنه لم يستطع أن يخضع مملكتي عمورو وقادش اللتين كانتا متحالفتين مع الحثيين، وقد أتى برسالة موجهة إلى سيتي الأول تخبره أن {الشاسو يعدّون للقيام بتمرد، فلقد اجتمع رؤساء قبائلهم في مكان واحد يقع عند عتبة بلاد خارو - بلاد الشام أو بلاد كنعان تحديدا - وهم في حالة من الاضطراب والجلبة، يتقاتلون ولا يحترمون القانون الملكي}، وكان المصريون يسمون بدو سيناء شاسو، وأحيانا كانوا يطلقونه على الهكسوس، وقد قام سيتي الأول بحملة تأديبية ضد الشاسو بدءا من سيناء حيث طردهم من أحد الحصون المصرية على طريق حورس (الطريق الساحلي)، ثم لحق بهم في الصحراء (جنوب صحراء النقب) وقد قتل وأسر منهم الكثير {المتمردون لا يعرفون كيف يهربون. المسحوقون من الشاسو أصبحوا وكأنهم لم يكونوا}، وفي نص آخر {ملك مصر العليا ومصر السفلى. الدمار الذي حققه سيف الفرعون الجبار بين الشاسو المهزومين ما بين مدينة زورو المحصنة وكنعان، عندما سار جلالته ضدهم مثل السبع ذي العين الحادة، فجعل جثثهم ودماءهم تتناثر في وديانهم، كما لو لم يكونوا}، وفي ترجمة أخرى {السنة الأولى من حكم ملك الوجه القبلي والبحري من ماعت رع. التخريب الذي ألحقه سيف الفرعون البتار له الحياة والفلاح والصحة بالشاسو الخاسئين من قلعة ثارو حتى باكنعان عندما سار جلالته نحوهم مثل الأسد المفترس وصيرهم أشلاء}، ويرى البعض ومنهم الباحث الفرنسي جان يويوت أن الشاسو الذي ورد ذكرهم في نصوص سيتي الأول هم قوم موسى بعيد خروجهم من مصر، والذي يعيد جان يويوت زمنه إلى الفرعون رعمسيس الأول (١٣١٩ - ١٣١٨ ق.م).

وتولى العرش بعد سيتي الأول ابنه رعمسيس الثاني (١٢٩٩ - ١٢٣٢ ق.م) الذي تابع طريق والده، وزاد من هيمنته على الممالك، واستطاع أن يفرض هيبته على مصر وسوريا، والتقى مع الحثيين الذين كانوا متحالفين مع الكوديين (الكاشيين) (والذين كانوا قد توسعوا في سوريا خلال ضعف القوة البابلية) في السنة الخامسة لحكمه في معركة قرب قادش على نهر العاصي في سورية سنة ١٢٨٦ ق.م، وقد انتهت المعارك دون أن يحقق فيها الطرفان انتصارا واضحا، على الرغم من أن كلا الطرفين قد ترك مدونات يدعي فيها كل طرف أنه هو الذي انتصر في تلك المعركة، وتبعها في مرحلة لاحقة عقد اتفاق سلام بين العاهل المصري رعمسيس الثاني، والعاهل الحثي حاتوشيليش الثالث تنص على: كل من بيده له {هذه كلمات رعمسيس الثاني ملك أرض مصر العظيم قاهر جميع البلدان.. قالها إلى حاتوشيليش الملك العظيم، ملك بلاد الحثيين الشجاع ابن مورشيليش.. بالنسبة لنا فإننا أخوة والسلام بيننا قد عقد وسيكون خيرا من الأخوة} ، كما تنص المعاهدة على اتفاقية للدفاع المشترك، واتفاقية أخرى تنص على الأمن المشترك أيضا بحيث يحق لأحد الطرفين المتعاقدين المطالبة بأحد راغياه أو المطلوبين قضائيا من قبل الطرف الثاني، إضافة إلى تنظيم اللجوء السياسي فيما بينهم، وقد أتى في نص المعاهدة، لأول مرة، تسمية بلاد كنعان، وظلت الاتفاقية سارية المفعول طوال عهد رعمسيس الثاني، وقد كان لهذه الاتفاقية تأثير كبير في العلاقات المصرية السورية بشكل عام، حيث سجّلت مرحلة من الهدوء والأمن أدى إلى تطور العلاقات التجارية وازدهار عام في المنطقة، وتعززت هذه الحالة السلمية بزواج رعمسيس من ابنة الملك الحثي حوتشيلي، ويعتقد البعض أن رعمسيس الثاني هو فرعون الخروج.

وتولى بعد رعمسيس الثاني الحكم ابنه مرنفتاح (١٢٣٢ - ١٢٢٢ ق.م)، والذي في عهده تهدمت حالة السلام التي شاعت في المنطقة بعد معاهدة السلام مع الحثيين بعد دخول واجتياح شعوب البحر القادمين من البحر المتوسط.

ففي تلك الفترة كانت قد انتشرت مجموعة من القبائل البربرية الأوربية (قبائل الدارين) من العمق الأوربي، واجتاحت شواطئ وجزر بحر إيجة ومنطقة البلقان، وقد أدى ذلك إلى نزوحات شعوبية واسعة، وانطلقت بشكل أمواج متعاقبة نحو آسيا الصغرى، وسوريا، ومصر، وشمال أفريقيا، مستغلة فترة ضعف الإمبراطورية الحثية والمصرية، وقامت بتدمير المدن التي واجهتها، باستثناء المدن التي استسلمت مثل جبيل وصيدا وصور، ولم يستطع أحد أن يقف في طريقهم، وهذه الشعوب ذات الأصول المختلفة أنهت بدخولها العصر

البرونزي الثالث (١٦٠٠ - ١٢٠٠ ق.م)، وافتتحت العصر الحديدي الأول (١٢٠٠ - ١٠٠٠ ق.م)، وقد استطاعت أن تنهي الوجود الحثي لمصلحة الوجود الآرامي، وكانت أولى هذه الأمواج قد وصلت إلى ليبيا بحرا، ومن هناك انضم إليها المزيد من الشعوب المحلية الليبية، وتوجهوا بحرا نحو دلتا النيل ووصلوا حتى مدينة عين شمس، لكن القوات المصرية استطاعت أن تردهم على أعقابهم بقيادة الفرعون مرنفتاح (١٢٣٢ - ١٢٢٢ ق.م) من خلال معارك دارت رحاها في البحر والبر، وقد ترك لنا مرنفتاح قصيدة النصر التي دونها بعد انتصاره على اللوبيين في السنة الخامسة لحكمه، والتي اكتشفت في الأقصر (معبد طيبة) على لوح صخري:

إن تحنو (أي لوبيا أو ليبيا) قد خربت
فاتي (حاتي).. أمست مسالمة
عسقلان (أشقلون).. أزيلت
جيزر (جازر).. قبض عليها
ينوم.. أصبحت لا شيء
وإسرائيل.. قد أقفرت وبذرتها قد انقطعت

وتولى بعد مرنفتاح (١٢٣٢ - ١٢٢٢ ق.م) ابنه رعمسيس الثالث (١٢٢٢ - ١١٧٠ ق.م) والذي في عهده قدمت موجة أخرى من موجات شعوب البحر، بعضها وصل برا على طول الساحل السوري، وبعضها وصل بحرا، ولكن وبسبب استغراقهم لوقت طويل في زحفهم الأسري، العائلي من أسيا الصغرى نحو مصر فقد تهيأ رعمسيس الثالث لهم جيدا، فجعل من روافد النيل التي تصب في النيل فوهات مدافع ترد المراكب البحرية، كما جعل من روافد النيل على مدخل مصر من جهة سيناء سياجا أو قلعة أمام المراكب التي تجرها الثيران، وقد استطاع أن يردهم على أعقابهم، إلا أن الجماعة الفلستية، والقليل من التكر من بين جماعات شعوب البحر، استطاعت أن تتمترس في المنطقة الجنوبية من ساحل بلاد كنعان، وكان رعمسيس الثالث هو آخر الفراعنة الذين قاموا بحملات لتدعيم حكم مصر في فلسطين وسورية، ولكن في أواخر أيامه تدهورت أحوال مصر الاقتصادية، وأفلست موارد الدولة، مما أدى إلى قيام مظاهرات شعبية عديدة نتيجة لانتشار المجاعة وظلت الأمور في الانحدار من عهد رعمسيس الرابع حتى رعمسيس الحادي عشر (١١٦٧ - ١٠٨٥ ق.م)، وحتى نهاية الأسرة الحادية والعشرين.

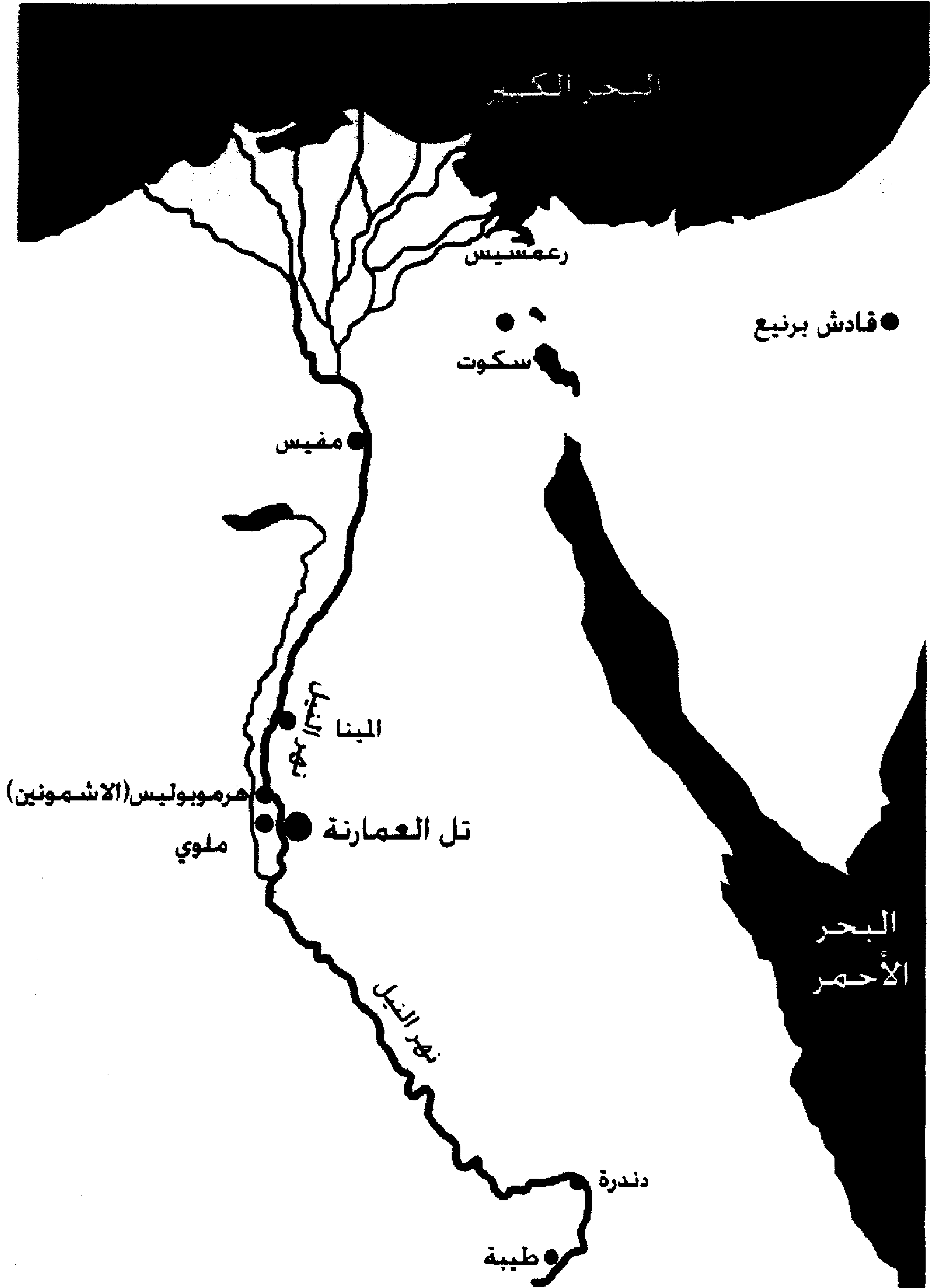
إن آخر عهد للهيمنة المصرية الحقيقية على بلاد كنعان انتهت فعليا بموت مرنفتاح، وإن استطاع رعمسيس الثالث (١٢٣٢ - ١١٧٠ ق.م) أن يستعيد بعض النفوذ، إلى أنه كان نفوذا عابرا ولم يدم طويلا، وبذلك أخذت البلاد السورية بشكل عام، وبلاد كنعان بشكل خاص زمام المبادرة في قيادة نفسها تبعا للقوى والشعوب التي تستوطن فيها، ومنهم الفلستيون، والعابيرو الذين دخلوا ليؤرقوا الوجود الكنعاني، وبينما كان الفلستيون قد اكتفوا بتثبيت أقدامهم في المواقع السهلية الساحلية بين يافا، وغزة، كما استقرت جماعات التكر أو التحاكر المرافقة للبيلست جنوب الكرمل، واستطاع البيلست الدفاع عن الشواطئ التي استقروا فيها دون أن يقوموا بأعمال هجومية أو توسعية، أو فرض سيطرة أو هيمنة، كانت القبائل العبرية عناصر شغبية غازية حاولت فرض هيمنتها على الكنعانيين في الوقت الذي فشلت في أن تقلق الوجود الفلستي نظرا لتفوق الفلسطينيين العسكري من خلال استخدامهم لمعدن الحديد الذي لم يكن مستخدما في بلاد كنعان، ولكن ولعدم وجود أي وثيقة أو نص تاريخي يتحدث عن نمط العلاقات بين قوى بلاد كنعان، فقد تبنى الباحثون التاريخيون الغربيون التوراة نصا حاولوا أن يقرؤوا فيه تاريخ المنطقة على الرغم من افتقاده إلى أدنى درجات النص التاريخي.

وبعد مرحلة الانكماش المصري أسس الجنرال الليبي شيشنق الأول (٩٤٥ - ٩٢٤ ق.م) الأسرة الثانية والعشرين، واستطاع أن يوطد سلطانه على الجنوب والشمال، وهو - على ذمة التوراة - الذي زحف على يهوذا في السنة الخامسة للملك رحبعام بن سليمان، وأخذ خزائن بيت الرب وخزائن بيت الملك وجميع أتراس الذهب التي عملها سليمان، وفي عهد خلفائه سادت المنازعات على الحكم وعمّت الفوضى وانقسمت البلاد طوال عهد الأسرتين الثالثة والعشرين والرابعة والعشرين (٨١٧ - ٧١٥ ق.م) وكان من أشهر ملوكها ترهاقة (طاهارقا).

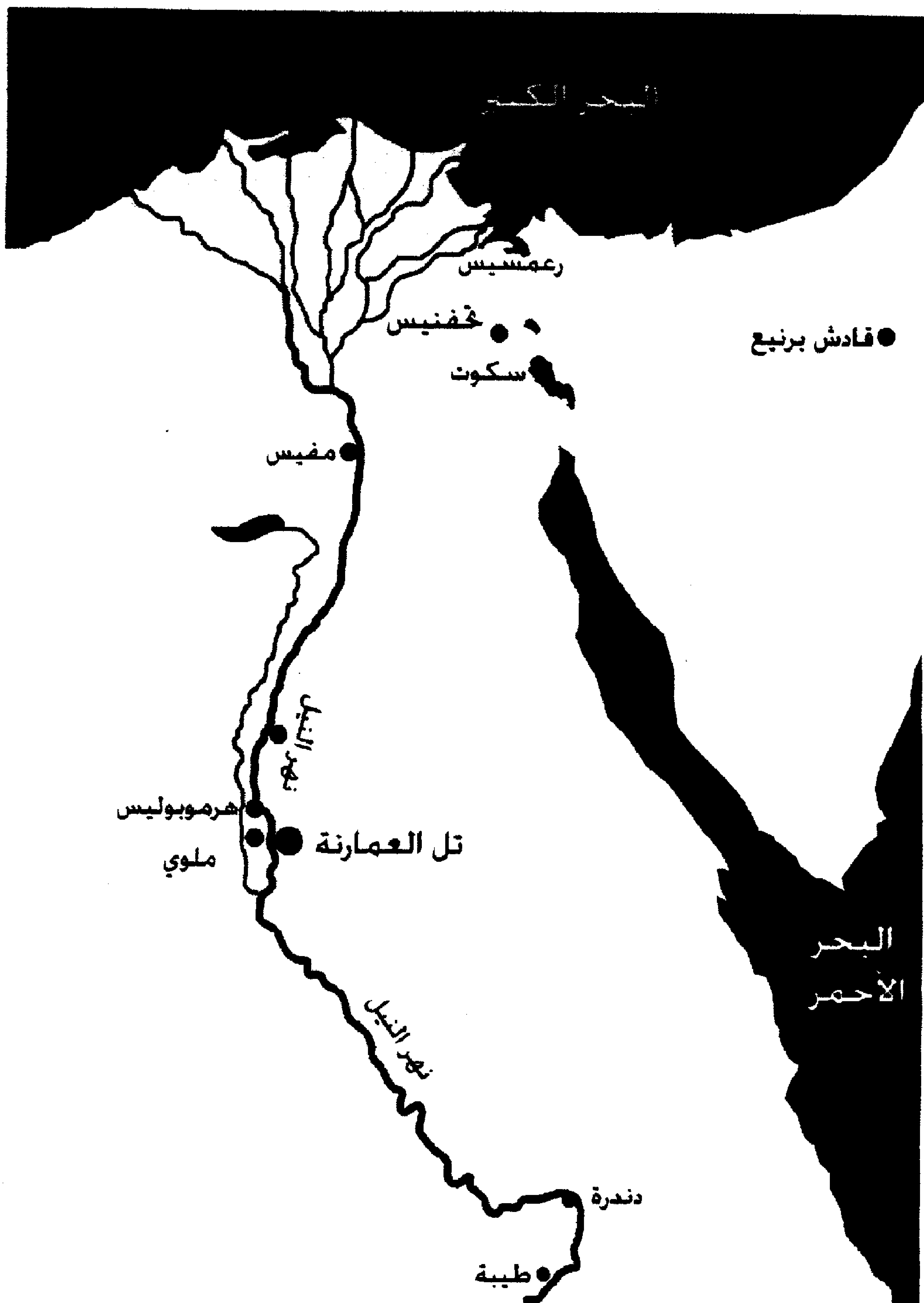
ولما ازداد سوء الأحوال في مصر السفلى زحف بعنخي ملك النوبة شمالاً، واستطاع توحيد البلاد وجمع السلطة في يده، وأسس الأسرة الخامسة والعشرين الأثيوبية (٧١٥ - ٦٧٠ ق.م)، ثم خضعت مصر إلى الحكم الآشوري لمدة قصيرة (٦٧٠ - ٦٦٣ ق.م)، حيث استطاع أسرحدون (٦٨١ - ٦٦٩ ق.م) احتلالها سنة ٦٧٠ قبل الميلاد، وقد تمردت مصر مباشرة بعد عودة أسرحدون، فعاد إلى مصر مباشرة، حيث مات في الطريق، لكن ابنه آشور بني بعل (٦٦٩ - ٦٢٦ ق.م) استطاع في حملتين أن يحتل مصر كاملة كانت الأولى سنة ٦٦٦ قبل الميلاد، أما الثانية فكانت سنة ٦٦٤ قبل الميلاد، حيث استطاع أن يصل بقواته حتى الشلال الأول، ونهب مدينة طيبة ثم قام بتدميرها.

وقد استطاع بسماتيك الأول الذي أسس الأسرة الوطنية السادسة والعشرين (٦٦٣ - ٥٢٥ ق.م) في سايس (صان الحجر)، فاستعادت البلاد استقلالها واستتب الأمن فيها، ومن أهم ملوك هذه الأسرة نخو الثاني (٦١١ - ٥٩٥ ق.م)، ومنهم أيضا أحمس الثاني (أماسيس) (٥٦٩ - ٥٢٥ ق.م) وفي سنة ٥٢٥ قبل الميلاد، في عهد بسماتيك الثالث غزا قمبيز ملك الفرس مصر وأسس الأسرة السابعة والعشرين، ثم أسس حكام وطنيون الأسرتين الثامنة والعشرين في سايس والتاسعة والعشرين في مندس، وفي نهاية الأسرة الثلاثين، وفي عهد نختنبو الثاني عاود الفرس فتح مصر (٣٤١ - ٣٣٢ ق.م) إلى أن جاءها الاسكندر الأكبر في ٣٣٢ ق.م، وبعد موت الاسكندر، حكم مصر البطالمة (٣٢٣ - ٣٠ق.م)، والذي انتهى حكمهم بكليوبترا سنة ٣٠م، وبدء الحكم الرماني.

البحر الكبير (البحر المتوسط)
الاسكندرية
بلوزيوم
العريش
غزة
أشدود
النقب
برية شور
البحيرات المرة
فيثوم
هليوبوليس (أون)
ممفيس
نهر النيل
سيناء
جبل سيناء
إيلات
خليج السويس
خليج العقبة
بنى حسن
هرموبوليس
سيناء


البحر الكبير
رعمسيس
قادش برنيع
سكوت
مفيس
نهر النيل
المينا
هرموبوليس(الاشمونين)
تل العمارنة
ملوي
نهر النيل
البحر
الأحمر
دندرة
طيبة

تل العمارنة



وادي النيل والدلتا

سـوريـة

إن الموقـع الجغـرافي، والمنـاخ همـا العـاملان الأكثـر أهميـة في تحديـد السـمات البيئيـة، والبيئة بتغيراتها تشكل أهم العوامل التي تقوم بصياغة التراكيب السكانية، على اختلاف أنماطها الاجتماعية، والسياسية، والدينية، والفكرية، والثقافية، والحضارية لأبناء المنطقة، والبيئة تقوم بفعلها هذا من خلال ترجمة المورثات الفردية والجمعية، من جهة، ومن جهة ثانية تقوم البيئة بتدجين بطيء، ومتدرج للكائنات على اختلاف بيئاتها الأصلية، بل وإن البيئة هي العامل الأهم في تطبيع الصفات الفردية والجمعية للإنسان، كما أن البيئة تستطيع أن تتدخل حتى في تعديل المورثات الفردية، والجمعية، هذا من جهة، ولكن من جهة أخرى فإن الإنسان من جهته، وبمقدراته الفاعلة في الوجود، يستطيع أن يتدخل أيضا في صناعة البيئة، أو تعديل بعض خصائصها، ومن الأمثلة على ذلك تدخل الإنسان في تفاصيل الوجه السطحي للأرض، ولا سيما تدخله ورعايته للمملكة النباتية، إضافة إلى الحيوانية، ومن جهة ثالثة فإن البيئة والإنسان كلاهما يشكلان رباطا روحيا، عاطفيا، وجدانيا، صوفيا، بحيث يصبح الوطن بكل حيثياته هو الأم، لأن الإنسان منه ولد، ومنه رضع، وعليه شب، وما يهمنا هنا دور البيئة في تحديد الأنماط السياسية تحديدا للمجتمعات التي تعيش فيها.

ولقد سبق ورأينا أن بلاد الرافدين ذات البيئة والطبوغرافيا شبه الموحدة لمساحة واسعة (وكذلك وادي النيل)، والمترافقة مع وجود مقدرات اقتصادية زراعية عالية على عكس منطقة شبه الجزيرة العربية، استطاعت أن تشكل نظام سياسي عسكري إمبراطوري، خلال مرحلة قصيرة من التطور الاجتماعي والاقتصادي والحضاري، خاصة وأن الاعتماد على الزراعة أوجد ضرورة توحيد الطاقات البشرية من أجل ترويض المياه المتدفقة بشكل غير منتظم عبر الأنهار الكبرى، وإقامة السدود وشبكات المياه والري المنظمة، وهذا أدى إلى تشكيل مؤسسة إدارية تنظيمية عسكرية لحماية هذه المشاريع، وتنظيمها، وهو ما يتماثل تماما مع مصر، ويتعاكس مع واقع الحال في بلاد الشام (سوريا الطبيعية) التي تمتد جغرافيا بين جبال طوروس ونهر الفرات شمالاً، ودلتا النيل في الجنوب الغربي، والبحر المتوسط في الغرب، والصحراء السورية في الشرق والجنوب.

وضمن هذه الجغرافية السورية تتراصف مجموعة من الأقاليم المتعددة البيئات، والتي اعتمدت زراعتها على الأمطار الموسمية، وجريان الوديان الموسمية، والأنهار الصغيرة، كما اعتمدت اقتصاديا على الرعي في البوادي، وعلى بعض الأعمال التجارية في المواقع ذات الخصوصية الجغرافية.

وهذا التنوع البيئي الجغرافي الكبير ما بين البيئة البحرية التجارية، والجبلية الشجرية، والصحراوية البدوية، والسهلية الزراعية، المروية والمطرية، إضافة إلى وجود فواصل وحواجز جغرافية، أفرز العديد من الأنماط الحياتية: الرعوية، الزراعية، التجارة البرية، والبحرية، والصناعية مثل صناعة الفخار، واستخلاص وصناعة المعادن، وهو الأمر الذي أفرز أيضا أنماطاً مختلفة من العادات والتقاليد، والأنماط الفكرية الحضارية التي كانت لها رؤيتها الخاصة ومفهومها الخاص عن السلطة والانتماء، أدى إلى تشكيل نظم اجتماعية متعددة، وبالتالي نظم سياسية متعددة تمثلت من خلال نظام (المدينة - الدولة).

وما ساهم بتوطيد نظام (المدينة - الدولة)، وحال دون تشكّل حكم مركزي في سوريا في التاريخ القديم، هو الموقع الجغرافي القاري المروري، الذي أضاف إلى التنوع البيئي تنوعا عرقيا أيضا، فسوريا ككل تُعَدّ ممرا بين القارات الثلاث، الأمر الذي جعلها مسرحا للهجرات الشعوبية التي تطمع في خصوبتها من جهة، ومن جهة أخرى مطمعا لغزوات الجيوش المتعددة التي يمكن أن تجتاح المنطقة من اتجاهاتها الأربع، وأن تمر من خلالها إلى الجهات الأربع أيضا، كما شكلت ميزانا لهيمنة القوى الكبرى، وهذا ما ساهم في عدم تمكن سورية من تشكيل دولة موحدة.

وعلى الرغم من أنه كان للمجتمع السوري بشكل عام نمط حضاري واسع وفضفاض، فقد كان لكل منطقة حالة اجتماعية فكرية دينية لها شيء ما من الخصوصية.

ولأن سوريا لم تستطع أن تشكل عبر تاريخها القديم دولة مركزية تستطيع من خلالها أن تحافظ على كيانها السياسي بين إمبراطوريتي وادي الرافدين، ووادي النيل، فإنها لم تستطع أيضا أن تصنع تاريخا سياسيا مستقلا خاصا بها، بل ظل تاريخها السياسي مرتبطاً بشكل شبه كامل بين حالتي المد والجزر لحضارتي وادي الرافدين، ووادي النيل، وكان يشارك حضارات الواديين في صناعة تاريخ البلاد السورية موجات الاحتلال التي كانت تأتي إليها من منطقة الشمال من شعوب آسيا الصغرى وما يليها، مع اشتراك تأثيرات بسيطة نسبيا كانت تضيفها السفن القادمة من البحر المتوسط، وكان نظام السلطة في بلاد الشام (الدولة

- المدينة) الذي يتسع أو ينحصر قليلا، أو كثيرا، تبعا لحالة المد، والجزر التي كانت تمر بها الإمبراطوريات الكبرى في المنطقة.

وإضافة إلى الإنسان السوري المحلي الذي تكاثر وتطور عبر التاريخ الإنساني، كانت الإمدادات البشرية تأتي إلى بلاد الشام من المحيط، وبخاصة من شبه الجزيرة العربية (المركز)، وكانت أولى، وأهم تلك الشعوب التي استوطنت في سوريا هم العموريون، والذين انتشروا في سياق النصف الثاني من القرن الثالث قبل الميلاد، وكما مر معنا فقد استطاعوا التغلغل شرقا وأقاموا ممالكهم البابلية في بلاد الرافدين على حساب الإمبراطورية الأكادية، واستمرت موجات الشعوب تتغلغل من شبه الجزيرة نحو في بلاد الشام حتى وقت قريب، وقد أتينا على ذكر تلك الشعوب في معرض سرد تاريخ بلاد الرافدين.

إضافة إلى الشعوب العربية (السامية) التي كانت تفيض من شبه الجزيرة العربية على بلاد الشام، كانت بعض الشعوب تفد إلى المنطقة عبر آسيا الوسطى، وكان أهم هذه الشعوب هم الحوريون الذين قدموا من جبال أرمينيا في أواخر الألف الثالثة قبل الميلاد، وكانت الدفعات الأولى قد وصلت على دفعات صغيرة، وبشكل عائلي سلمي تسللي، وقد عاشوا في شمال وادي الرافدين على أطراف الأراضي الزراعية الرافدية، ويذهب البعض أن بعضهم اشتركوا في الإيلاف الهكسوسي، والبعض يرى أنهم اشتركوا أيضا في الإيلاف العبري، وبعد أن قويت شوكتهم، جاءت موجة حورية بشكل عسكري اجتياحي، واستطاعوا أن يؤسسوا أول أمارة لهم في نهاية الألف الثانية قبل الميلاد بعد سقوط الإمبراطورية الأكادية، ثم تكاثرت دويلاتهم في منطقة الفرات الأوسط بعد سقوط مملكة ماري التي كانت تقف عائقا أمام تغلغلهم جنوبا، وفي القرن الخامس عشر قبل الميلاد شكلوا أول مركزا لهم في شمال سوريا، واتخذوا من مدينة واشكاني على الخابور عاصمة لهم، كما أسسوا مركزا آخر في منطقة كركوك العراقية (نوزي)، ومن ثم كونوا مملكة قوية سميت مملكة ميتاني، والتي اعتمدت بغالبيتها على العنصر الحوري إلى جانب العنصر الحثي بالدرجة الثانية، وقد تطورت مملكة ميتاني سريعا، وتوسعت في محيطها الجغرافي، وشكلت الإمبراطورية الحورية الميتانية التي امتدت نحو الجنوب الغربي، ووصلت حتى البحر المتوسط بعد احتلالها مملكة حلب وقد شملت بلاد آشور، وكان المصريون يطلقون عليها مملكة، أو إمارة نهارين.

وقد كانت أولى حروب الحوريين المهمة مع الفرعون المصري تحتمس الثالث (١٤٦٩ - ١٤٣٦ ق.م) في حدود سنة ١٤٥٧ ق.م، حيث انتصر فيها المصريون على الحوريين، واستمر

الصراع على سوريا بين المصريين والحوريين الذين استطاعوا في عهد ملكها ساوشتاتار أن يحتلوا آشور التي كانت حينها حليفة لمصر، ولأن الطرفين أدركا أن الحرب لن تستطيع حسم الصراع على سوريا، فقد عقدا اتفاقا في عهد الفرعون تحتمس الرابع (١٤٢٥ - ١٤١٢ ق.م) والملك الميتاني توشراتا، والذي في مرحلة لاحقة بعث بابنته تاتوحيبا زوجة لأمنحوتب الثالث، أو لابنه أمنحوتب الرابع، وقد اعتبرها البعض هي نفرتيتي زوجة أمنحوتب الرابع (إخناتون)، ومعها رسالة من توشراتا تقول {إلى نيمّوريا ملك مصر، أخي، صهري الذي أحبه والذي يحبني أقول: هكذا يتكلم توشراتا ملك بلاد ميتاني عمك الذي يحبك، أخوك. أحوالي جيدة. أرجو أن تكون أحوالك جيدة أيضا. أرجو أن تكون أحوال زوج ابنتي، نسائك، أولادك، أعيانك، خيولك، عربات قتالك، قواتك، بلادك وممتلكاتك بخير. أخي تمنى زوجة وهاأنذا أرسلها.. أرجو أن يجعلني أخي غنيا في عيون سكان دولتي. وأرجو ألا يُحزن أخي قلبي. لقد تمنيت من أخي تمثالا من الذهب لابنتي. أنا أعرف أن أخي يحبني كثيرا وأعرف أيضا أن الذهب موجود بكثرة في بلد أخي. كما أريد من أخي تمثالا من العاج. في بلادنا يسود السلام. الآن لا يوجد عدو لأخي. ولكن إذا هاجم عدو أخي ودخل في بلاده فعلى أخي أن يخبرني وستكون بلاد الحوريين بأسلحتها وجيوشها تحت تصرفه. من ناحية أخرى إذا وُجد عدو ضدي فسأخبر أخي وستكون مصر وأسلحتها إلى جانبي} ، ويعتقد فيليب حتي أن أخت دوشارتا كانت من نساء أمنحوتب الثالث، كما كانت إحدى بناته أيضا زوجة له، كما أنها تزوجت بأمنحوتب الرابع من بعده، وهي التي يعتقد البعض الآخر أنها نفرتيتي.

وفي عهد إخناتون (١٣٨٧ - ١٣٦٦ ق.م) استطاع الحثيون بقيادة شوبيلوليوما أن يتمددوا على حساب الهيمنة الحورية والمصرية، إلى أن استطاع الآشوريون أن يقفوا للميتانيين بالمرصاد بدءا بـ أشور أوبلط الأول (١٣٦٥ - ١٣٣٠ ق.م)، الذي استرد منهم الأراضي الآشورية التي كانوا قد استولوا عليها، ثم قام أداد نيراري الأول سنة ١٣٠٠ قبل الميلاد بغزوهم أيضا ووصل حتى عاصمتهم واشكاني ودمرها، ثم قام خليفته شلمنصر الأول (١٢٧٦ - ١٢٤٥) بالاستيلاء على ميتاني سنة ١٢٧٦ قبل الميلاد.

ومن الشعوب أيضا الذين قدموا إلى سوريا عبر الأناضول الحثيون في سياق القرن السابع عشر قبل الميلاد، والحثيون من الشعوب الهند أوربية يعتقد أنهم قدموا إلى آسيا الوسطى من مناطق شرق أوربا، وقد بنوا في منطقة الأناضول عاصمتهم حوتوشاش

(بوغازاكي شرقي أنقرة)، وقد بدأ انتشارهم نحو بلاد الرافدين وسوريا، باحتلالهم لمدينة حلب ثم انتشروا من هناك بعد أن شقوا طريقهم ضمن انتشار الحوريين، ووصلوا حتى بابل فدمروها، وأخذوا كنوزها، وأنهوا الإمبراطورية البابلية القديمة نحو سنة ١٥٩٥ قبل الميلاد، ثم نكصوا إلى بلادهم وتركوا بابل للحكم الكاشي، وعادوا مرة أخرى إلى المنطقة في عهد ملكهم شوبيلوليوما في منتصف القرن الخامس عشر قبل الميلاد فزحفوا على الحوريين، ومن ثم توغلوا في سوريا، ووصلوا إلى دمشق وهناك تم عقد اتفاقية مع رؤساء المقاطعات، وقفلوا راجعين إلى كركميش فاحتلوها وأسسوا هناك مملكة قوية جعلوا مركزها كركميش، وفي تلك المرحلة استغل الآشوريون الفرصة وتحرروا من ربقة الميتانيين (الحوريين)، وقد تنافس الحثيون مع المصريين في الهيمنة على سوريا، وكانت أشهر معركة دارت بينهما هي معركة قادش سنة ١٢٨٦ قبل الميلاد في عهد رعمسيس الثاني (١٢٩٩ - ١٢٣٢ ق.م)، وفي النهاية تم عقد معاهدة صلح تنص على أساس كل من بيده له، ومعاهدة دفاع مشترك، وتزوج على إثرها رعمسيس من ابنة الملك الحثي حاتشيلي، وبعد مرحلة طويلة من الضعف والتمزق الحثي استطاع سرجون الثاني (٧٢٢ - ٧٠٥ ق.م) سنة ٧١٧ قبل الميلاد أن ينهي وجودهم في المنطقة.

وكانت قد حصلت عدت اضطرابات في البلاد السورية بعد الضعف الذي أصاب الحضارة الرافدية، وبعد موجة الجفاف التي ضربت القسم الشمالي الشرقي من حوض البحر الأبيض المتوسط بما فيه الأرخبيل الإيجي، في أواخر القرن الثالث عشر قبل الميلاد تزامنت مع حرب طروادة الشهيرة، وقد أدت هذه الأوضاع إلى تحركات شعوبية استيطانية عائلية مختلفة ومختلطة أهمها التحاكر والوشوش والشيكاليش والبيلست أو الفيلست والدينيان، وكانت تبحث برا وبحرا عن موطئ قدم لها، وقد اجتاحت تلك الشعوب جزر المتوسط (قبرص) ومن ثم شواطئه لا سيما منها الغربية والجنوبية حيث وفد جزء منهم بعد أن انضم لهم جماعات ليبية أيضا عبر البحر إلى دلتا مصر ولكن الفرعون مرنفتاح (١٢٣٢ - ١٢٢٢ ق.م) ردهم على أعقابهم، ويبدو أن المجموعات الفلستية استطاعت أن تنزل على الشواطئ الجنوبية لبلاد كنعان، ووفد جزء آخر من تلك الشعوب عبر آسيا الصغرى ونزلوا برا بعد أن قاموا بتدمير الحضارة الحثية بما فيها عاصمتها حوتشاش، ومن ثم الحضارات السورية، ويعتقد أنهم من قاموا بتدمير مدينة أوغاريت، وقد سببت تلك الجماعات اضطرابات واسعة في البلاد، أثناء مرورها على السهول الساحلية السورية متجهة نحو مصر التي لم تستطع تلك الشعوب دخولها

بحرا بعد أن استطاع مرنفتاح دحرها، وتشتيت شملها، كما أنها فشلت في دخولها عندما استطاع رعمسيس الثالث آخر الفراعنة الكبار ردها على أعقابها بعد القضاء على الكثير منهم، وتشتيت الباقي سنة ١١٩١ قبل الميلاد، ولكن على ما يبدو أن انتصار رعمسيس الثالث لم يكن حاسماً، ففي القرنين الثاني عشر والحادي عشر قبل الميلاد، كانت هناك مستعمرات لرجال البحر في الدلتا وفي النوبة عند الحدود الجنوبية لمصر، ولابد أن الفلستيين الذين استقروا في جنوبي كنعان حصلوا على موافقة المصريين في استيطانهم على ساحل بلاد كنعان، إذ كانت مصر تحكم بلاد كنعان في ذلك الوقت، وربما كان رعمسيس الثالث - بعد اتفاقه معهم - قد وظفهم كجنود مرتزقة للدفاع عن مصالحه.

وقد استطاعت هذه الجماعات البيلستية المحارية - التي قدمت بحرا وبرا ولم تستطع أن تدخل مصر - أن تتعسكر على الساحل الجنوبي من بلاد كنعان المتد بين جبل الكرمل وغزة بحدود عام ١١٩٠ ق.م، وبنوا هناك خمس مدن رئيسية شهيرة هي غزة وجت وأشقلون الميناء البيلستي، وأشدود وعقرون، وقد تم بناء هذه المدن على أنقاض المدن الكنعانية التي كانوا قد دمروها جزئيا أثناء مرورهم في طريقهم إلى مصر، ولكنهم لم ينهوا التواجد الكنعاني في مدنهم، وعلى الرغم من أنهم قدموا بشكل عائلي وهذه نقطة ضعفهم التي تجاوزوها من خلال استخدامهم لأسلحتهم الحديدية التي كانوا يصنعون منها الحراب والدروع المستديرة، والسيوف العريضة، والخناجر المثلثة، وهو الأمر الذي جعلهم قادرين على التمترس في مدنهم، والتوسع على حساب شعوب المنطقة التي كانت تستخدم معدن البرونز الضعيف.

وكان حكمهم يعتمد على نظام الأقطاب أو الأمراء، فكان لكل مدينة من المدن الخمس الرئيسية قطب، وكان الأقطاب يشكلون الهيئة الحاكمة، وقد دخل البيلست في صراع مع سكان الجبال (تحالف القبائل العبرية) حسب ما ورد في التوراة، وفي النهاية امتزج الفلستيون مع الكنعانيين وذابوا فيهم تماما، وأخذوا منهم اللغة، وكل مظاهر الحياة الاجتماعية والدينية، ولكنهم أعطوا المنطقة اسمهم (فلسطين)، وقد تنافس كل من البيلست والقبائل العبرية على السيطرة على المنطقة، على ذمة التوراة، ولم يستطع أي منهم أن يقهر الآخر بسبب تعادلهم من حيث القوة، إلا أن البيلست تكنعنوا في النهاية وذابوا في الحضارة الكنعانية.

ويعتقد جورجي كنعان أن البيلست هم في الأصل جماعات كنعانية هاجرت من بلاد كنعان في زمان لم يحدده، وانتشروا على جزر المتوسط، ولكن، وبعد أن ساءت أحوالهم في مستعمراتهم، عادوا ثانية إلى بلادهم التي خرجوا منها، ويسوق على ذلك حجة ورود ذكرهم

في زمن الأباء الأوائل، وكانت أسماؤهم كنعانية (أبيمالك)، والتوراة تذكر أن الفلسطينيين جاؤوا من جزيرة كريت، مع العلم أن جزيرة كريت كانت منذ الألف الثانية قبل الميلاد مستعمرة كنعانية (فينيقية)، وإذا ما وافقنا جورجي كنمان على افتراضه، فيمكن هذا أن يفسر لنا كيف أن جماعات البيلست سرعان ما تكنعت، أو سرعان ما استعادت تلك الجماعات لتراثها، ومعتقدها الكنعاني الأصلي، وقد ورد في التوراة أن موسى أثناء خروجه من مصر حاول أن يتجنب الطريق الساحلي على الرغم من قربه ومباشرته، خوفا من أن يصطدم مع الفلسطينيين، فكيف يمكن أن نقبل ما جاء في التوراة مع التصور الذي يذهب إلى أن البيلست جاؤوا أثناء الحركات الشعوبية، أما د أحمد يوسف داود فيذهب إلى أن الفلسطينيين (الفلشتيم) هم جماعة كنعانية، وكانوا يعيشون إلى جانب الكنعانيين في بلاد غامد وزهران، وقد تهود قسم منهم، وقد تم طردهم على يد نبوخذ نصر إلى الحبشة وعرفوا هناك بيهود الفالاشا.

أما التاريخ الخاص بسوريا فيبدأ بدخول الآراميين البدو (الوثيقي الصلة عرقيا بالعموريين)، والذين شكلوا آخر الأمواج المهاجرة من شمال الجزيرة العربية في الزمن القديم، ويؤرخ البعض لهجرتهم نحو ١١٠٠ ق.م، والبعض يعيدها إلى الفترة ما بين ١٤٠٠ - ١٢٠٠ق.م، وكانوا قد انتشروا بشكل بطيء نسبيا من الأطراف الشمالية للصحراء السورية، وقد استقروا في المنطقة العليا من بلاد ما بين النهرين، والبعض يعيد هجرتهم إلى المرحلة الانتقالية ما بين الألف الثالثة والألف الثانية، وكان يطلق عليهم اسم الأخلام أو الأخلامو في منطقة الفرات الأوسط، وقد جاء في سجلات حداد نيراري الآشوري أن والده كان قد حارب الأخلاموا، كما جاء في سجلات نرام سين ما يشير إلى أنه حارب الآراميين، وهذا يعيد تواجدهم إلى أزمان قديمة معاصرة للعموريين، وقد توغلوا على شكل جماعات متفرقة في سوريا الداخلية في منتصف الألف الثالث قبل الميلاد، واستمروا في تواجدهم الخافت سياسيا حتى القرن الحادي عشر والعاشر قبل الميلاد، حيث استغلوا الأحداث التي وقعت في القرن الثاني عشر قبل الميلاد، والتي أدت إلى انحسار التأثير الإمبراطوري على المنطقة، الأمر الذي قدّم لهم فرصة لا مثيل لها للانتشار الواسع، والمفاجئ في حدود سنة ١٢٠٠ ق.م، فالآشوريون كانوا قد دخلوا كبوتهم بعد انتهاء حكم تغلات فلاصر الأول (١١١٤ - ١٠٧٦ ق.م)، وتقهقر الحكم الفرعوني بعد انتهاء حكم رعمسيس الثالث (١٢٢٢ - ١١٧٠ ق.م)، وتبددت سيطرة الممالك الحثية والميتانية، وقد استطاع الآراميون أن يؤسسوا عدة ممالك ودويلات أهمها، أرام النهرين، وفدان آرام، وأرام دمشق، وأرام صوبة التي لم يأت لها ذكر سوى في التوراة، والتي

يعتقد أنها تقع إلى الشمال من دمشق، والبعض يرجح أن عاصمتها أو مقرها كانت مدينة حمص، ويعتقد البعض أنها في منطقة البقاع الشمالي وكانت تمتد حدودها شرقا حتى البادية السورية، أما سيد القمني فيعتقد أنها بقايا المملكة الأدومية الكبرى جنوب البحر الميت، وأن صوبا هي لهج آخر لـ سبأ، كما انتشر الآراميون في شرقي الأردن تحت اسم المعكيين والجشوريين، كما أنهم انتشروا نحو بلاد الرافدين وأسسوا هناك عدة إمارات بعد امتزاجهم مع القبائل العمورية، وبقايا شعوب الحضارات البائدة كان منها إمارة تشكلت على شواطئ الخليج العربي وهي التي شكلت الدولة الكلدانية في مرحلة لاحقة، وقد تميز الآراميون بثقافتهم المتطورة والتي صبغوا بها المنطقة كاملة، ويعتقد البعض ومنهم (د سيد القمني) أن الآراميين كانوا من الجماعات الهكسوسية التي اندحرت في مصر، وتشتت في بلاد الشام.

ومن القبائل أو الجماعات التي انتشرت في سوريا أيضا الجماعات العبرية المرتبطة بالعموريين والآراميين، وقد انتشرت تلك الجماعات بشكل هامشي على محيط العموريين والآراميين، وتركز وجود العبريين في النهاية في بلاد كنعان متزامنة مع انتشار الآراميين في سوريا الداخلية، وقد استوطن العبرانيون على الجبال المطلة على البحر المتوسط ولا سيما في قسمه الأوسط والجنوبي، حيث زاحموا ونافسوا الكنعانيين على تخومهم، كما أنهم ساهموا بتشكيل حالة من عدم الاستقرار للمالك الكنعانية المطلة على المتوسط، والتي كانت تحت الحماية المصرية، في الوقت الذي كانت مصر تعاني من حالة ضعف وانحسار بسبب الصراعات الداخلية، ولا سيما منها الدينية في مرحلة تل العمارنة، وقد أتى على ذكر العابيرو في الرسائل والنصوص التي حررت في تلك الآونة، وجاء في نصوص أوغاريت حسب رأي فيرولو إشارات غير مؤكدة على احتكاك الأوغاريتين مع القبائل العبرية، يقول فيرولو: {نصوص رأس شمرة المسمارية الحروف تذكر أن تارح أو تارخ أبا إبراهيم قاد العبريين إلى أرض كنعان ولكنها تشعر أيضا بأن قبائل دان وأشير وزويولون كانت في تلك الأرض في القرن الخامس عشر قبل الميلاد، أي قبل خروج الجماعات العبرية من مصر بقيادة موسى كما أتى في التوراة.}.

وقد ورد في أسطورة كرت الفينيقية التي وجدت بين أنقاض مدينة أوغاريت، أن كرت بطل صيدون (صيدا) كان في جيشه كتيبة من سبط آشر الإسرائيلي وكانت تسمى جيش النقب، وقد جاء أن كرت أراد أن يتزوج من ابنة ملك أدوم حسب رؤية إلهية أو أمر إلهي لأنها الوحيدة التي يمكن أن تعيد له الخصب بعد أن كانت عائلته قد أبيدت، وهو قد أصيب بالعقم:

النص الأوغاريتي (بالخط العربي)	ترجمة الشيخ نسيب الخازن	ترجمة الدكتور علي أبو عساف
ويصا صبو صبه نجب	ويخرج الجيش جيش النقب	ويخرج الجيش جيش النجباء
ويصا عدن مع	ويخرج المحتلين معا	وتخرج نجدات مع
صبوك أول مأد	جيشك عظيم بالأشراف	إن جيشك كثير العدد
ثلث مات ربت	ثلاث مئة ربوة	ثلاث مئة ربوة
خفث دبل سفر	سادة بغير عدد	والمرتزقة بغير عدد
ثنن د بل سفر	وتابعون بغير حساب	حاملي الأسنة لا حصر لهم، ولا عدد
هلك لـ لفم خصص	آلاف من الخصص (اسم) يسيرون متمايلين	يخرج بالآلاف الخسيسون (العوام)
ولربة كم يـر	وبربوات مثل نقط المطر	وبالمليارات الجموع
آشر ثن ثن هلك	آشر اثنين اثنين يسير	ليسيروا رتلا ثنائيا
إثر ثلث كلهم	وثلاثة إثر ثلاثة	أو ثلاثيا كلهم

وتتابع الملحمة سردها، حيث وصل الجيش إلى أدوم وحاصرها، ورفض كرت كل الهدايا المقدمة من ملكها ليرجع عن حصار أدوم، وطلب ابنته (الحورية ميثة)، وفي النهاية أخذها زوجة له وولدت له بنين وبنات...

وجاءت جملة في نص أوغاريتي تقول: {يمكث في مدينة شارون، في حي سعت في حقول الحطب}، وشارون هو السهل الساحلي في بلاد كنعان، والذي ورد ذكره في التوراة، كما أن هذا الاسم ورد ذكره أيضا على أنه اسم ملك تزامن مع وصول قوم موسى إلى نهر الأردن.

ومن النصوص أيضا التي اكتشفت والمتعلقة بالموضوع، ماجاء في كتاب اللآلئ (التوراة الكنعانية) الذي دونه كاهن أوغاريت الأكبر ميلكو الذي كان يعمل في تل العمارنة قبل عودته إلى وطنه مدينة أوغاريت، والتي دمرت في زمانه، والنص يظهر أن قبائل العابيرو، والذي ذكرهم باسم الخابيرو، ومرة باسم اليوديم، كانت تهاجم بلاد كنعان في عصري أمنحوتب الثالث والرابع، وهو الذي يشير إلى وجود سبط أشير {ولكنهم ضاعفوا الخلاف هؤلاء الأشيرتم، فخذ شباكا وأنت تنحني.. انشقاق رؤساء اليوديم.. فيما قاسة إيل.. وأبناء إيليم

سوف يدمرون اتباع إيل} {.. لا تعط وجهك إلى العدو القاسي عندما يتقرر جر العدو رئيس اليوديم حتى حلبا لاحتلال رهايتم وسحق بيت الأحرار، إقبل أن يحكموا الأردن} {عندما يتقدم العبريون، حدد حدودا للعبريين، لتكن قيلة للعبرانيين، وشمشراي وأعالي الصحراء لدغي وأشيرة من عاي، حتى قادش، ونحو مصائبك سوف لا تدير نحو مصر القاسية. إنهم باللعنات دمروا كفتور، حجبوا مساكنها بقوى سماوية، وأرض ميراثها، بمساعدة ألف إبليس مقاتل كالجيش، أسقطوها تحت الأقدام، وبسرعة جعلوها تنحني مثقلة بالشقاء.}.

ومن الجدير ذكره أن مدينة أوغاريت، ومن خلال نصوص مكتبتها تبين أن شعبها كان يتألف من مزيج من جماعات تعود إلى عدة شعوب (أكادية - حثية - مينوية - مصرية - عمورية) ولكن الأكثرية فكانوا من الحوريين، وكانوا يتحدثون بلغتين هما السامية الأوغاريتية، والأكادية.

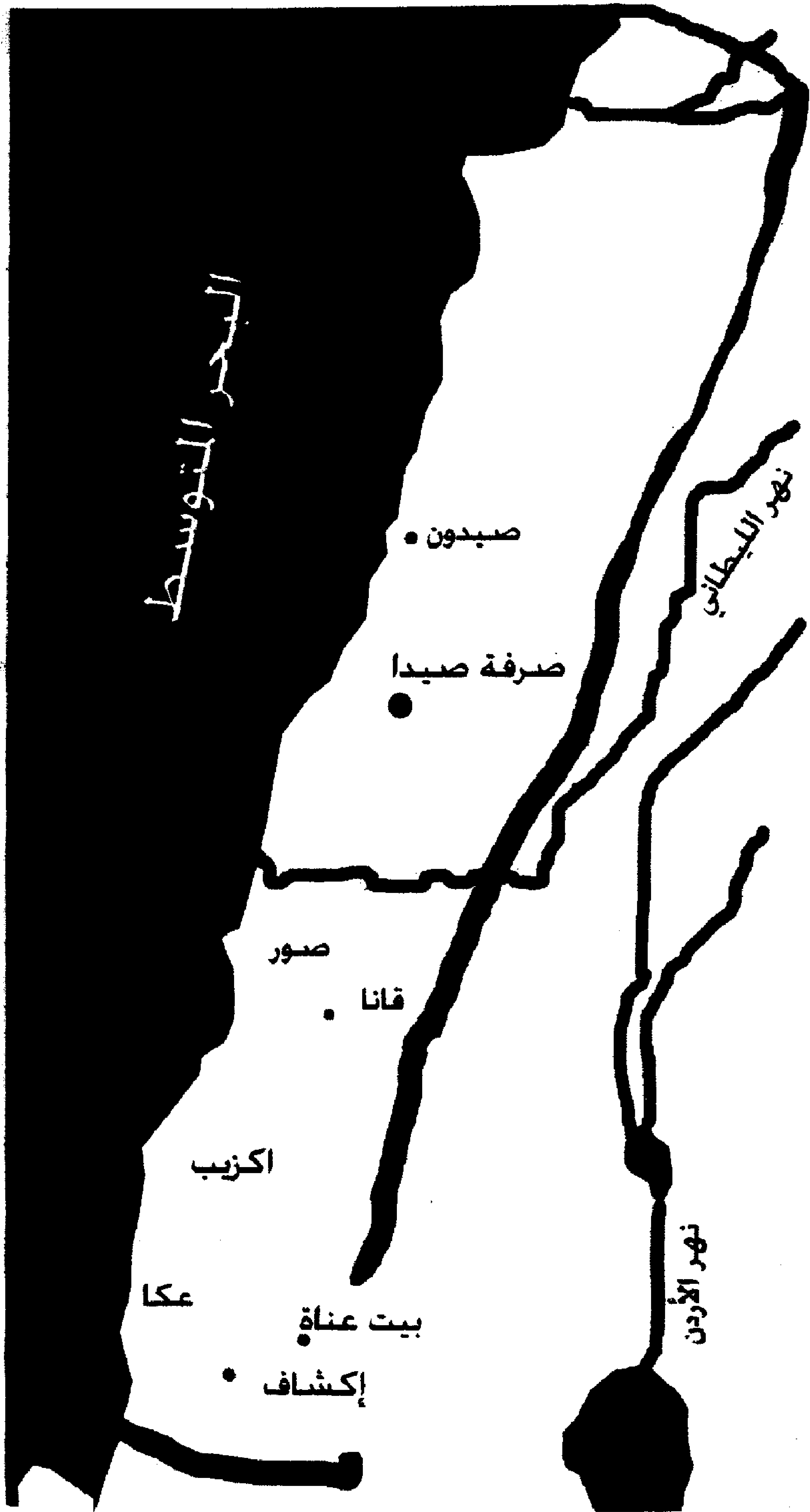
وفي رسائل تل العمارنة التي كان يبعث بها ملوك الساحل السوري إلى ملوك مصر جاء أن الخابيرو كانوا يقودون التمردات ضد الممالك الكنعانية وقد استطاعوا أن يستولوا على مدينة شكيم (نابلس) في القرن الخامس عشر قبل الميلاد.

وبشكل عام استطاعت الجماعات العبرية، والتي كانت منتشرة في البلاد السورية كما جاء في النصوص والسجلات التي تركتها الحضارات، أن تتجمع في القرن الخامس عشر والرابع عشر قبل الميلاد على الجبال المطلة على الشريط الساحلي لشواطئ المتوسط الغربية الجنوبية (بلاد كنعان)، وقد جاء في السجلات المصرية أن رعمسيس استخدم عبيدا من العبرانيين في عمليات البناء، استقدمهم من بلاد كنعان، وجاء في نصب منفيس أن أمنحوتب الثاني (١٤٣٦ - ١٤٢٥ ق.م) قام بغزو بلاد كنعان، وقام بأسر ٣٦٠٠ إنسان من العبرانيين.

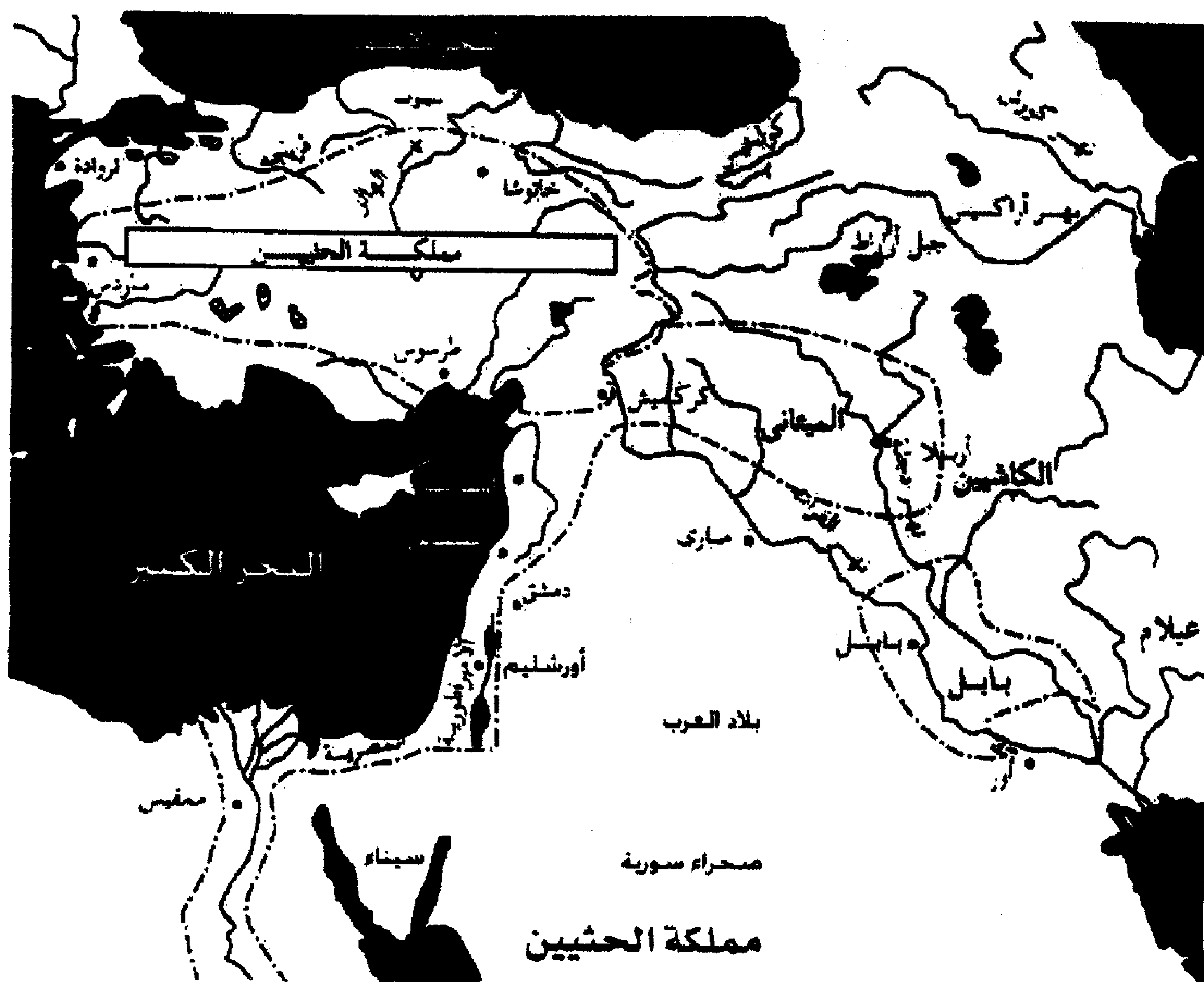
وعودة إلى تاريخ سوريا، والتي كانت مسرحا لصراعات دولية متعددة، وبعد خفوت، وتراجع القوات التي كانت تأتي من الشمال السوري، وبعد انكماش مصر على نفسها، خضعت سوريا للمد الإمبراطوري الآشوري، حتى سقوط الإمبراطورية الآشورية على يد البابليين في سنة ٦١٢ ق.م، فأصبحت سورية جزءاً من الإمبراطورية البابلية الجديدة إلى يوم سقوطها على يد الفرس في ٥٣٩ ق.م، حيث أصبحت دمشق عاصمة الولاية الخامسة في الإمبراطورية الفارسية.

وعندما زحف الإسكندر الأكبر على الإمبراطورية الفارسية، أخضع سورية لحكمه مع سائر ممتلكات فارس، وعند موته في سنة ٣٢٣ قبل الميلاد ترك وراءه مجموعة من القواد الطامعين، حاول كل منهم أن يستولي على إمبراطورية الإسكندر، فحدث نوع من الفوضى، انتهى بأن حكم السلوقيون سوريا، وحكم البطالمة مصر وفلسطين والقيروان وقبرص.

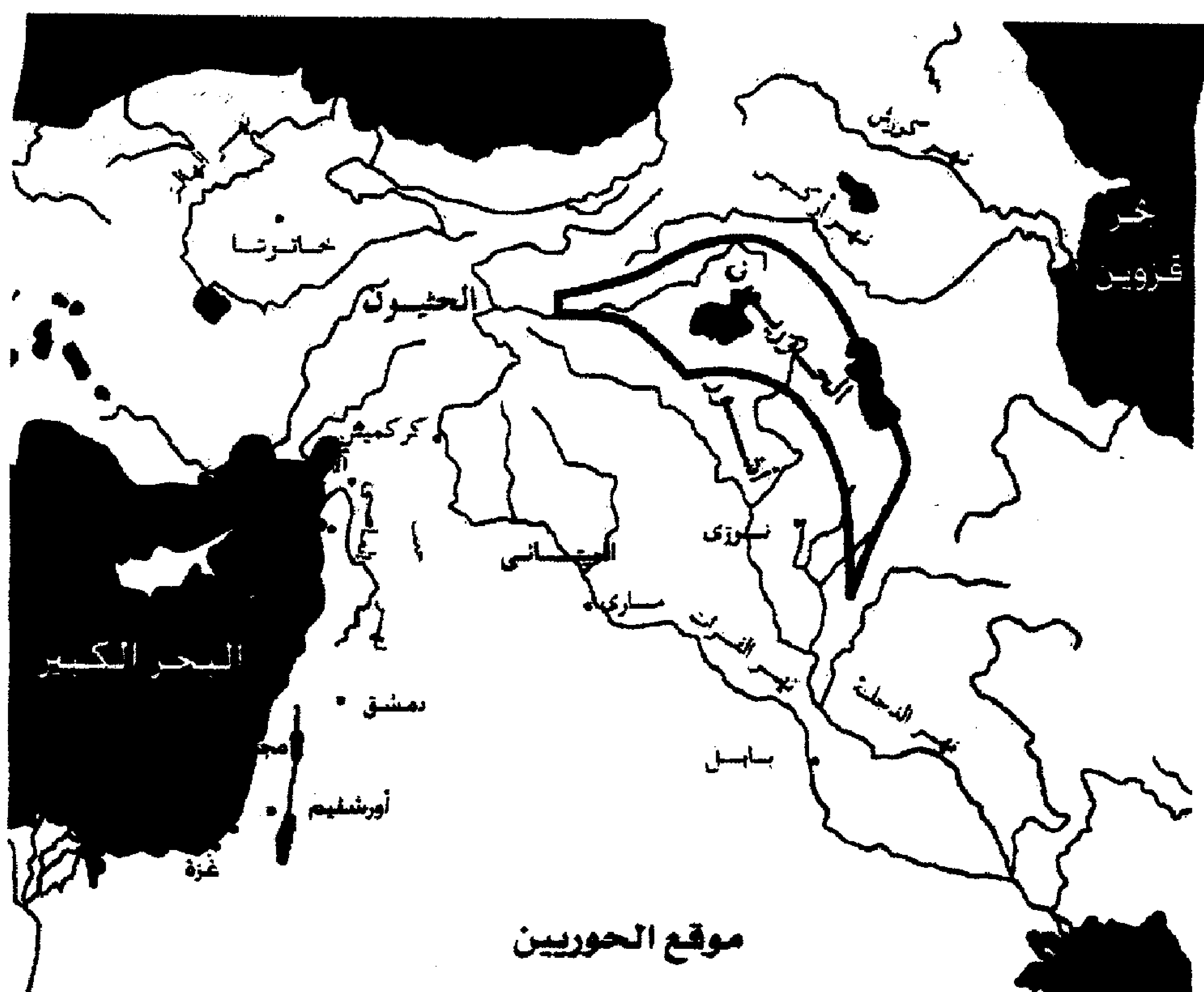
ومن ثم خضعت سوريا في العقد السابع قبل الميلاد للحكم الروماني، ومن ثم جاء الفتح العربي.


البحر المتوسط
صيدون
صرفة صيدا
نهر الليطاني
صور
قانا
اكزيب
عكا
بيت عناة
إكشاف
نهر الأردن

فينيقيا



مملكة الحثيين



موقع الحوريين

مقاربة التاريخ التوراتي مع النصوص التاريخية

إن الحضارات القديمة لم تكن مهتمة كثيرا بالترتيب الزمني الذي نحرص حاليا على أن يكون دقيقا كرونولوجيا دوريا، ولم يكن هناك زمان موحّد تؤرخ به الأمم والشعوب، لأن الغرض من الزمن في تلك الفترة من التاريخ القديم كان ذا طابع أدبي، روائي، والروايات التي كان يسردها التاريخ القديم، لا سيما منها ذات الطابع الديني، لم تكن لتهتم كثيرا بالزمكان بمقدار اهتمامها بالحدث، والفكرة، والعظة التي يمكن استخلاصها من هذا الحدث، ولذلك كانت القصص الشعبية والتي تشبه إلى درجة ما كتابة التاريخ القديم تبدأ بـ (كان يا ما كان، كان في قديم الزمان).

كما كان لكل حضارة طريقتها الخاصة الذاتية في كتابة تاريخها، وزمانها الخاص، الذي كان ذا طابع ومفهوم أدبي أكثر منه تأريخي حدثي، لأن علاقة الإنسان بالحياة كانت تُعَدّ أهم من علاقته بالزمان، وحتى بالمكان.

وقد تباينت الحضارات القديمة في اهتمامها بالزمان، فبعضها كان يعتمد التأريخ الحولي، كما هو الأمر بالنسبة للحضارة الرافدية، والتي اهتمت بشكل أكبر بالمركب الزمني للتاريخ مع مقدار من الدقة بترتيب الأحداث من الحضارة المصرية، التي جاءت حولياتها أقل دقة، أما التوراة فقد أرّخت أحداثها بطريقة التزمين، أي ربط حدثين في مكانيين في وقت واحد، بحيث أن الحدث الأبرز تاريخيا يشكل شاهدا تاريخيا، زمانيا على الحدث الآخر، إضافة إلى اعتمادها على الزمن الكرونولوجي أيضا، وكانت التوراة قد تأثرت بالطريقة الرافدية الحولية للتأريخ، وأضافت إليه البعد التزامني، أو التزميني في الأسفار التاريخية، أما في أسفار التوراة الخمسة الأولى فكان الزمن التوراتي ميثيولوجياً، دينياً، بعيداً كل البعد عن الزمن التاريخي.

وقد أدى اتباع كل حضارة طريقة خاصة في كتابة التاريخ إلى صعوبات في مقاربة، وتشخيص وتزمين تواريخ الأمم القديمة مع بعضها بعضاً، كما أن التقسيمات الزمنية كانت متباينة بين الأمم، فالتزمين الشمسي الذي اعتمدته الحضارات الزراعية على سبيل المثال، يختلف، ويفترق مع التزمين القمري الذي كانت تتبناه الحضارات والمجتمعات البدوية الرعوية، وكما نعلم فإن السنة القمرية تقصر بمقدار عشرة أيام عن السنة الشمسية، وهذا سيؤدي إلى افتراق زمني تراكمي إذا ما أردنا أن نقابل أو نزمن نصوصا تاريخية تعتمد التزمين الشمسي، عن النصوص التاريخية التي تعتمد التزمين القمري، وقد عانى الباحثون كثيرا، وما زالوا، من أجل تزمين تواريخ الحضارات القديمة فيما بينها للوصول إلى زمان تاريخي موحد، وخير مثال على ذلك هو مقاربة الزمان التوراتي في الأسفار التاريخية، مع حوليات، ونصوص حضارات الشرق الأدنى القديم، وما زال هناك الكثير من التواريخ لم يحسم زمانها، وبقيت تساق على وجه التقريب.

ومن جهة أخرى، إن النصوص القديمة على أشكالها كافة كانت تنحو للذاتية، أكثر منها للموضوعية، وعلى الأخص النصوص الدينية، والتاريخية التمجيدية منها، وبما أن التاريخ يكتبه المنتصرون، والذين لم يبق أمامهم من يستطيع محاججتهم فيما يدعونه، فلهم حرية أن يكتبوه كما تمليه عليهم نوازعهم، لا سيما وأن تلك النصوص يمتزج بها التاريخ مع الدين، لأن الرب هو صانع التاريخ حسب تصور الحضارات القديمة.

وإذا ما كانت الحقيقة في نهجنا الحديث لها قوانينها العقلية الفيزيائية الموضوعية، فإنها تخضع في النهج الديني إلى القوانين الروحية الذاتية، ومن هنا، لا يمكن قراءة النص الديني الذاتي بعقلية علمية موضوعية، وبمعنى آخر إن القصص الدينية، أو التاريخية، أو الأدبية المؤسسة على مذهب ديني، لا تُعَدّ بأي حال من الأحوال تاريخا، لأن الزمان السماوي مختلف تماما عن الزمان الأرضي، ولكننا نستطيع أحيانا أن نبحث عن القوانين الفيزيائية في بعض القصص ومقاربتها وتشخيصها تاريخيا، والزمان التوراتي، ولا سيما في سفر التكوين هو زمان ديني، أو يمكن أن نقول عنه إنه زمان مجازي، خاصة حين يتحدث عن قوائم الأجداد، وقد ذُكر في التوراة أن نوحاً على سبيل المثال قد عاش ٩٥٠ سنة، وهذا لا يمكن قبوله عقليا، إلا إذا حاولنا أن نتفهم المجاز فيه، والذي حسب ما ذهب إليه الباحثون يمثل مرحلة قبلية تاريخية، أي أن عمر نوح يمثل عمر قبيلة، أو مرحلة تاريخية على اعتبار أن رأس تلك المرحلة الشجرية الهرمية كان شخص اسمه، أو لقبه نوح، وهو حال كل أسماء الذين عاشوا لمدد غير إنسانية، والذين يمثلون رموزاً مجازية لأسر، أو جماعات قبلية،

وهـذا أيضا يحكـم الأسـباط الاثـني عـشر الـذي أتـى أنهـم كـانوا أخـوة، والـذين يمكـن مقـاربتهم علـى أنهـم مجموعـة مـن القبائـل تنتمـي إلى مـصدر واحـد، أو ربمـا إلى أب مشترك واحـد، أي أن الأسـباط الاثـني عـشر هـم تعـابير مجازيـة لآبـاء مجموعـة مـن القبائـل العبريـة، ولكـن محرري الـنص الـديني التـوراتي حـاولوا أن يمنحـوا تلـك الجماعـات حالـة مـن الوحـدة، والتماسك من خلال إرجاعها إلى أب واحد، وهـذا لا يعني أيضا أن تعدادهم اثنا عشر تماما، بل إن رغبة المحرر التوراتي الدائمة في رد كل الأرقام، إلى أرقام مقدسة (سبعة - اثنا عشر - أربعـون - سـبعون)، وبمثـل هـذا الـنهج في بعـض النـصوص، يمكـن لنـا أن نقـارب الزمـان الميثولوجي، أو الزمان القبلي، إلى زمان تاريخي.

المقارنة التاريخية
لمرحلة الآباء الأوائل

لقد حاول الباحثون التاريخيون التوراتيون إيجاد أي أثر يشير إلى ما يثبت أو حتى يوحي بتاريخية الآباء الأوائل حسب ما جاء في التوراة، إلا أن محاولاتهم لم تقدم شيئا يذكر في هذا المضمار، وقد حاولوا أن يقدموا بعض الحجج الواهية ليؤكدوا تاريخية الآباء الأوائل، منها على سبيل المثال النقش الملون الذي تم اكتشافه في منطقة بني حسن جنوب القاهرة، والذي يمثل أسرة، أو جماعة عائلية سامية مهاجرة من سوريا عبر سيناء إلى مصر مؤلفة من ٣٦ فردا، يرأسها شخص يدعى أبيشاي، وقد جاؤوا ومعهم الهدايا ومنها الكحل ليقدموها إلى الحاكم المصري، وقد اعتبر التوراتيون هذا النقش عبارة عن نقش يرمز، أو يؤرخ قصة الآباء الأوائل.

أما بالنسبة لباقي الباحثين، فبعد فشل البحوث الأركولوجية في إيجاد دلائل تاريخية على صحة الرواية التوراتية فقد حاولوا وضع عدة نظريات، وافتراضات لمقاربة التاريخ التوراتي، ولا سيما بالنسبة لمرحلة الآباء الأوائل.

فالكاتبة والباحثة إبكار سكاف في كتابها (إسرائيل وعقيدة الأرض الموعودة) ذهبت إلى أن الملك العموري البابلي الأول سومو أبوم أو الأب سام (١٨٩٤ - ١٨٨٧ ق.م) هو سام ابن نوح الذي أتى ذكره في التوراة، أما الملك، أو الأمير الملقب بـ (داميق - إيل - يشو) آخر ملوك أو أمراء مدينة أور، والذي كما ذكرنا سابقا أنه يعني بالبابلية خليل الله، هو إبراهيم نفسه (حسب ما أتى عليه فيليبي أيضا)، وقد أتى في سفر التكوين:

وهذه مواليد سام.

لما كان سام ابن مئة سنة ولد أرفكشاد بعد الطوفان بسنتين.

وعاش سام بعدما ولد أرفكشاد خمس مئة سنة وولد بنين وبنات.

وعاش أرفكشاد خمسا وثلاثين سنة وولد شالح.

وعاش شالح ثلاثين سنة وولد عابر.

وعاش شالح بعدما ولد عابر أربع مئة وثلاث سنين وولد بنين وبنات.

وعـــاش عـــابر أربعـــا وثلاثـــين ســـنة وولـــد فـــالج.

وعاش عابر بعدما ولد فالج أربع مئة وثلاثين سنة وولد بنين وبنات.

وعـــاش فـــالج ثلاثـــين ســـنة وولـــد رعـــو.

وعاش فالج بعدما ولد رعو مئتين وتسع سنيين وولد بنين وبنات.

وعـــاش رعـــو اثـــنتين وثلاثـــين ســـنة وولـــد ســـروج.

وعاش رعو بعدما ولد سروج مئتين وسبع سنيين وولد بنين وبنات.

وعـــاش ســـروج ثلـــثين ســـنة وولـــد نـــاحور.

وعاش سروج بعدما ولد ناحور مئتي سنة وولد بنين وبنات.

وعـــاش نـــاحور تـــسعا وعـــشرين ســـنة وولـــد تـــارح.

وعاش ناحور بعدما ولد تارح مئة وتسع عشرة سنة وولد بنين وبنات.

وعـــاش تـــارح ســـبعين ســـنة وولـــد أبـــرام ونـــاحور وهـــاران..

وأخذ تارح أبرام ابنه ولوطا بن هاران ابن ابنه وساراي كنته امرأة أبرام ابنه.

فخرجـــوا معـــا مـــن أور الكلـــدانيين ليـــذهبوا إلى أرض كنعـــان

وبذلك - وحسب ما ذهبت إليه الباحثة إبكار السكاف - تكون الفترة الفاصلة ما بين سومو أبوم (١٨٩٤ - ١٨٨٧ ق.م)، وداميق إيل يشو قرابة نصف قرن، وهي تقريبا نفس الفترة، الفاصلة ما بين سام ابن نوح، وخروج أبرام من أور حسب التأريخ التوراتي الذي أوردته أعلاه.

كانت مدينة أور قد بناها وسكن فيها السومريون، ثم سكنها وحكمها الأكاديون، ثم سكنها وحكمها العموريون البابليون، وقد انفصلت مدينة أور عن مملكة بابل الأولى، وشكلت إمارة مستقلة (إمارة أرض البحر) في نهاية الحكم البابلي العموري، ومن بعده الكاشي بعد أن اندخلت فيها جماعات آرامية كلدانية، وبناء على ذلك فقد كانت مدينة أور تحوي مزيجا من شعوب متعددة (سومريون - أكاديون - عموريون - آراميون) مع عمود فقري رئيسي عموري، وإذا ما عرفنا أن لكل جماعة دينها، وإلهها الخاص بها، وكي تستطيع تلك الجماعات أن تتوحد أثنيا فلا بد لها من توحيد دينها، وبما أن الجماعات العمورية كانت تشكل العمود الفقري لتلك الأمارة، فكان دينها هو المفترض أن يكون الدين الذي سيتبناه الجميع، ويتحلقوا حوله، ويحتكموا إلى قيمه، وشريعته.

ومـن المعـروف أن العمـوريين، والأكـاديين أيـضا كـانوا يـدينون للإلـه إيـل (إلـه الـدين الحنيف)، وهذا ما يمكن ملاحظته من خلال أسماء ملوكهم، وأمرائهم (أيلوما أيلو - إيتي إيلي - نيبي يائع إيل - داميق إيل يشو)، وبذلك فقد حاولت تلك الجماعات الإثنية المختلفة أن تتوحد مع بعضها، من خلال توحيد دينها، بل وتوحيد إلهها، وعلى ما أعتقد أن العموريين في إمارة (أرض البحر) هم أول من ذهبوا بعيدا في توحيد الإله، وبذلك إذا ما تبنينا ما كانت الباحثة إبكار السكاف، ومن شاركها فيما ذهبت إليه، فإن إبراهيم، الذي قد يكون الأمير المندحر داميق إيل يشو (خليل الرحمن) كان موحدا، وكان إلهه الواحد هو الإله إيل، الذي جاءت به القبائل الأكادية، والعمورية من شبه الجزيرة العربية، وربما من منطقة الحجاز تحديدا.

وقد أتى في التوراة «وأما أنت يا إسرائيل عبدي يا يعقوب الذي اخترته نسل إبراهيم خليلي الذي أمسكته من أطراف الأرض ومن أقطارها دعوته وقلت لك أنت عبدي اخترتك ولم أرفضك لا تخف لأني معك. لا تتلفت لأني إلهك. قد أيدتك وأعنتك وعضدتك بيمين بري. إنه سيخزى ويخجل جميع المغتاظين عليك. يكون كل شيء مخاصموك ويبيدون. تفتش على منازعيك ولا تجدهم. يكون محاربوك كلا شيء وكالعدم. لأني أنا الرب إلهك الممسك بيمينك القائل لك لا تخف أنا أعينك» إشعيا ٤١، ومثل هذا الخطاب لا يتطابق مع إبراهيم حسب سيرته التي أتى بها سفر التكوين، حيث لم يكن لإبراهيم أعداء، أو مغتاضين أو محاربين، بل جاء في سفر التكوين أنه رجل فاضل يبارك للآخرين الذين يبادلونه الحب والود حيثما حل وارتحل، وهذا الحديث يمكن أن يكون موجها إلى ملك أو سيد أو قائد لجماعة، أكثر من خطاب يوجه إلى شخص بعينه، فهل هذا يتماشى أكثر مع الأمير داميق إيل يشو الذي قاد من تبقى من شعب إمارته بعد سقوطها، وتدميرها على يد الكاشيين، ومضى بهم مهموما، هائما على وجهه، فجاءه إلهه إيل، ليؤازره، ووعده بأن يعطيه أرضا هي أفضل من الأرض التي خسرها.

وإبراهيم الذي عاش مئة وخمساً وسبعين سنة، هو ككل الأشخاص الذين ورد ذكرهم في سفر التكوين، لا يمثل شخصاً بعينه، بل يمثل مجموعة أو قبيلة أو قبائل انضمت وقادت الإيلاف العبري، وحسب ما أورده د. أحمد يوسف داوود فإن اسم إبراهيم أتى من أبرام، وهو تحريف لفظي من عبرام أو عبرو، وأصبح بصيغة الجمع الآرامية عبراهيم أو إبراهيم، وقد وصف إبراهيم في التوراة بالعبراني، ومن هنا فإن أحمد يوسف داود يعتقد أن إبراهيم هو صفة تعني العابر وليس اسما.

ويبدو أن العبرانيين كما هم الآراميون من اشتقاقات عمورية نظرا لأن النمط القبلي للعبرانيين أكثر ميلا للنمط العموري القتالي المتنقل، أو أنهم من الاشتقاقات الآرامية بالخاصة، وقد جاء في التوراة «آراميا تائها كان أبي»، كما جاء في سفر التكوين أيضا أن الأباء الأوائل قد تزوجوا من آرام النهرين، مع أن شجرة عائلة نوح التوراتية تعيد العموريين إلى حام، وتعيد الآراميين والعبرانيين إلى سام، ويعود ذلك، على ما يبدو، إلى كره اليهود الشديد للكنعانيين العموريين، لذا فقد جعلت التوراة العموريين ينحدرون من حام بن نوح.

ويبدو أن جماعة أو قبيلة إبراهيم هاجرت بعد سقوط إمارة أور، وانطلقت شمالا ووصلت إلى حاران التي كانت تابعة لمدينة ماري العمورية، التي كانت قد ذمرت أيضا في مرحلة سابقة، ومن الجدير ذكره أنه تم ذكر أسماء مدن تابعة لمدينة ماري العاصمة، وهي ناحور، تارحي، ساروخي، تاليكي، كما ورد ذكر أسماء مجموعة من القبائل هي يعقوب، أدبل، أبام، رام، بنيامينا، وهي تتطابق مع أسماء أسلاف إبراهيم (ناحور - تارح - سيروح - تاليك)، وفي حاران لم تجد تلك الجماعة مكانا مناسبا لها، لا سيما وأن تلك المنطقة في الزمان المفترض كانت تحت الحكم العسكري الآشوري العنيف، فتابعت تلك الجماعة طريقها - بعد أن انضمت إليها مجموعات قبلية متنوعة، لا سيما منها الآرامية (قبيلة بنويامينا وغيرها) - نحو الجنوب الغربي تجاه بلاد كنعان وانتشرت هناك، وبسبب ضيق المكان في بلاد كنعان انقسم ذلك الإيلاف إلى مجموعتين، مجموعة إبراهيم التي انتشرت في غربي الأردن، وجماعة لوط التي انتشرت في منطقة البحر الميت، وهي التي تعرضت إلى غزو من قبل ممالك وادي الرافدين، وقد هبّت جماعة إبراهيم لنجدتهم، واستطاعت أن تحررهم وتعيد ممتلكاتهم، ومن هناك وبسبب الجفاف الذي عانت منه المنطقة رحلت مجموعة من القبائل العبرية الإبراهيمية نحو مصر، وربما كانت هذه القبائل جزءا مهما من الإيلاف الهكسوسي ذي الأغلبية العمورية التي كانت على رأس الهرم الاجتماعي الهكسوسي، أما الباقون فكانوا من شعوب وجماعات متفرقة، وقد استطاع الحلف الهكسوسي أن يجتاح مصر سنة ١٧٣٠ ق.م، واستوطنت تلك الجماعات الشعوبية الهكسوسية في منطقة الدلتا في شمال بلاد النيل في سياق المملكة الوسيطة، وقد أتى في سجلات الفرعون تحتمس الثالث ذكر أسماء قادة الهكسوس، وكان منهم يعقوب إيل، ويوسف إيل، وهذه الأسماء والأحداث تتماشى مع ما أتى به سفر التكوين، لا سيما إذا أضفنا أن آخر النظريات التي تبحث عن أصول الهكسوس تؤكد أنهم جماعات إن لم

تكن عمورية صافية، فأكثرهم من القبائل العمورية، ويعتقد البعض أن العموريين كانوا على قمة الهرم الهكسوسي، وقد تم طرد الهكسوس من مصر في سنة ١٥٧٠ ق.م على يد الأمير المصري أحمس.

وتتمة لقراءتنا، ومقاربتنا التاريخية الافتراضية لسفر التكوين، يمكن أن نذهب إلى أن بعض جماعات الإيلاف العبري انضمت إلى الإيلاف الهكسوسي الذي اجتاح مصر، بعدة طرق، وأنماط، وعلى عدة مستويات في البناء الهرمي الهكسوسي، فمنهم من كان في الطبقات العليا، ولنا أن نرى يوسف الذي كان يمثل جماعتين هما جماعة منسّى، وجماعة بنيامين التي كانت تنتشر فيما سبق في محيط مدينة ماري، ومنهم من كان في مصر قبل الاجتياح الهكسوسي، وانضموا إليهم لاحقا، ومنهم من دخل بعد الاجتياح الهكسوسي، وانضم إلى هامش الإيلاف الهكسوسي، وربما كان يعقوب إيل، ويوسف إيل هما اسمان لقائدين، أو قطبين عبريين في جيش الهكسوس، ومنهم من خرج طردا مع الهكسوس، ومنهم من بقي في مصر، ولذلك قام المصريون باضطهادهم انتقاما منهم لارتباطهم مع الهكسوس، وربما كانوا قد أسروا في مصر، أو تم أسرهم في بلاد كنعان، أو سيناء بعد اندحار الهكسوس، لا سيما وأن مصر في مرحلة المملكة المتوسطة كانت قد استطاعت أن تقف على قدميها على يد الأمير أحمس، وقد احتاجت لمزيد من الأيدي العاملة بعد أن تزايد اهتمامها بأعمال البناء العمراني، فقد جاء في نص للفرعون أمنحوتب الثاني (١٤٣٦ - ١٤٢٥ ق.م) أنه أخذ مجموعات من (العفر. و) أي العبرانيين من فلسطين وأحضرهم ليعملوا كأجراء أو ربما رقيق في مصر.

أما بالنسبة لسيد القمني الذي يذهب إلى أن العبرانيين هم جماعات قدمت إلى المنطقة من أرمينيا، فيرى أن مدينة أور التي خرج منها إبراهيم تقع في أرمينيا، وليس في جنوب بلاد الرافدين، وحسب رأي القمني فإن إبراهيم هاجر من أور في أرمينيا إلى حاران في طريقه إلى بلاد كنعان، ومنها إلى الجنوب نحو اليمن، فليس من المنطق، وليس هناك من مسوغ، أن يصعد إبراهيم من مدينة أور الكلدانية شمالا نحو حاران في طريقه إلى بلاد كنعان، وحسب القمني فإن إبراهيم كان من أصل حوري أرميني، وليس من أصل عربي، وهي مقولة دبجت على ما يبدو كي تتماشى مع مقولات التراث الإسلامي، كما أنه ذهب أيضا إلى أن إبراهيم جاء إلى المنطقة في سياق هجرة العدنانيين (الإسماعيليين) الحوريين من أرمينيا في نحو سنة ١٦٠٠ قبل الميلاد، من خلال اجتياح عسكري واستوطنوا في إقليم بابل ثم انتشروا في المنطقة، واتجه البعض منهم نحو الجزيرة العربية.

أما كمال الصليبي، وأحمد يوسف داود، وزياد منى، فقد ذهبوا إلى أن الآباء الأوائل كانوا أشخاصا تاريخيين، وأن قصتهم التوراتية تمسرحت تاريخيا في المنطقة الغربية من شبه الجزيرة العربية، لا في منطقة الهلال الخصيب كما يدعي التوراتيون، ولكن أحمد يوسف داود يعتقد أن إبراهيم كان قد هاجر من أور الكلدانيين في جنوب بلاد الرافدين نحو الجنوب الغربي لشبه الجزيرة العربية، وقد حدثت تلك الهجرة بعد أن تعرضت بابل إلى مجموعة من الاضطرابات الطبيعية مثل الزلازل، إضافة إلى اضطرابات سياسية واجتماعية تلت دخول الكاشيين إلى المنطقة، وهذه الحالة القلقة قادت الكثير من الجماعات إلى الهجرة من منطقة بابل إلى أماكن أكثر استقرار، ومن هؤلاء الذين هاجروا كان إبراهيم الذي توجه نحو الجنوب الغربي لشبه الجزيرة العربية.

مرحلة الخروج

أما بالنسبة لمرحلة الخروج من مصر والتيه في سيناء ووصول القبائل العبرية حتى منطقة شرقي الأردن وموت موسى فإن النصوص التاريخية، وأعمال البحث الأركولوجي قد امتنعت، كما هو الأمر بالنسبة للآباء الأوائل، أن تعطي أي إشارات أو دلالات واضحة ومباشرة على صحة ما جاء في التوراة، فالنصوص المصرية التي لم تكن تترك صغيرة أو كبيرة، في تلك الفترة من التاريخ والتي تمتد ما بين القرنين الثالث والثاني عشر قبل الميلاد، لم تسجلها، سكتت نهائيا، ولم تتحدث أبدا عن أسطورة الخروج التي جاء فيها أن مصر قد لحقها الموت، والهلاك بعد المصائب الاثنتي عشرة التي أصابتهم، والتي أحلها عليها رب موسى (أهيه) أو (يَهْوَه)، حيث أبيدت المحاصيل الزراعية، ولم يبق في مصر من يمشي على أربع من الحيوانات الأهلية، كما لم يبق بكر إنسان، ولا حتى حيوان في مصر، ولم يكتف الرب (يَهْوَه) بإنزال تلك المصائب على مصر، بل قام بإبادة جيشها عن بكرة أبيه، وعلى رأسهم الفرعون ذاته، وبعد أن قام الرب بتلك الأعمال الإبادية التدميرية، وبعد أن استطاع أن يخرج قرابة ثلاثة ملايين (من بني إسرائيل) بقيادة موسى توقف غضب الرب (يَهْوَه) الذي لم يعد متفرغا لمعاقبة المصريين، وتفرغ لمتابعة شؤون شعبه المختار، وتأمين سبل عيشه في ظروف سيناء السيئة، حيث كان عليه تأمين اللحوم، والخبز اليومي ولمدة أربعين سنة، وهي المدة التي سيقضيها قوم موسى في سيناء قبل أن يستطيعوا الوصول إلى منطقة شرقي الأردن، حيث هناك، وبعد وصولهم إلى منطقة أكثر خصوبة تخلى الرب عن منصبه كوزير للتموين، وترك الشعب يعتمد على نفسه في تأمين سبل الحياة، كي يركز جهوده في تقديم الدعم (اللوجستي)، والإعجازي لشعبه المختار في حربه من أجل الاستحواذ على الأرض التي كان قد وعدهم بها.

وتروي التوراة أن (بني إسرائيل) وبقيادة موسى قاموا، وخلال فترة قصيرة جدا، بتدمير الممالك الواقعة شرقي نهر الأردن، وصولا إلى منطقة حوران الواقعة في جنوب سوريا، وهذا التدمير التوراتي الفجائي أيضا لم يستطع البحث الأركولوجي أن يجد آثاره، كما لم يجد أيضا ذكرا للموآبيين والعمونيين (الذين لم يكونوا قد شكلوا كياناتهم السياسية بعد) والتي أتت التوراة على ذكرهم - وبعد ذلك - استطاعت القبائل العبرية الدخول إلى الضفة

الغربية بقيادة يشوع الذي تولى القيادة بعد موت موسى، والذي استطاع أيضا أن يدمر الضفة الغربية، دون أن يترك إنسانا على جبالها وسهولها.

وعلى الرغم من الجهود المضنية للبحث الأركولوجي لإيجاد أي دليل، أو نص، أو علامة واضحة توحي بحدوث أسطورة الخروج ولكن ذلك ذهب دون جدوى، فقد صمت التاريخ بشكل نهائي على هذا الموضوع الخطير، وعلى الرغم من أن الوثائق المصرية التي كانت تسجل صغائر الأحداث أحيانا، ولا سيما فيما يتعلق بأمن مصر الحدودي، نراها تصمت على إبادة جيش مصر برمته مع قيادته، كما أن التاريخ الفرعوني لم يأت على ذكر موت أحد الفراعنة غرقا، وأمام هذه الحالة بدأ الباحثون النصّيون كل يضع نظرية حسب قراءته للنص التوراتي من جهة، وتقاطعات الأحداث التاريخية المصرية من جهة ثانية، بينما قام بعض التوراتيين بلي عنق الحقائق لتتماشى مع التاريخ التوراتي.

وقد جهد الباحثون في وضع نظرياتهم الافتراضية لمقاربة ما جاء في أسفار الخروج مع التاريخ، معتمدين على بعض نظريات المؤرخين القدماء، ومنهم يوسفوس فلافيوس (المؤرخ اليهودي الذي عاش في القرن الأول الميلادي) الذي قام بنقل ما أورده المؤرخون الذين سبقوه، ومنهم المؤرخ والكاهن المصري مانيتو الذي عاش في القرن الثالث قبل الميلاد، والذي كتب تاريخ مصر في ثلاثة مجلدات سنة ٢٦٨ قبل الميلاد، وقد وصلت كتاباته بشكل غير مباشر عن طريق المؤرخ اليهودي يوسفوس الذي اعتبر أن كتابات مانتيو عبارة عن خرافات لا شيء لها من الصحة، كما أن يوسفوس اتهم مانيتو بأنه يكره اليهود، كما وجه يوسفوس نفس التهمة إلى المؤرخ أبيون أيضا، وكان مانيتو قد قال إن جماعات (الهكسوس) هاجمت مصر من الشرق، واستقرت في أفاريس، وقد توالى على حكم مصر ستة ملوك من الهكسوس، إلى أن استطاع الفرعون تيثموزيس من طردهم نحو آسيا، وهناك قاموا ببناء مدينة أورشليم، أما ما تبقى من الهكسوس في مصر فقد تم أسرهم، وتم تسخيرهم في العمل الشاق بمقالع حجارة البناء شرقي وادي النيل، وكان تعدادهم ٨٠ ألفا، وكانوا من المتعلمين والكهنة، وقد وصفهم مانتو بالموبوئين لأنهم لم يكونوا يحترمون الشعائر المصرية، ولا سيما لتقديسهم بعض أنواع الحيونات، فكانوا يأكلون الحيوانات المحرمة والمقدسة عند المصريين، والمعروف أن المصريين يحرمون أكل الحيوانات التي ترمز إلى آلهتهم، وكان رمز حتحور هو البقرة، التي كانت الجماعات العبرية تقدمها كأضاح.

وقد قام في مرحلة لاحقة ملك مصر (بطلب منهم) بجمعهم في مدينة أفاريس (العاصمة القديمة المهجورة للهكسوس)، حيث أنضم إليهم جماعات رعوية آسيوية، وهناك أقنعهم

أحد رجال الدين المصريين (من كهنة هليوبوليس) واسمه أوزرسيف (وهو موسى حسب رأي يوسفوس) أن يتركوا العبادة المصرية التقليدية، كما وضع لهم شريعة خاصة تنظم حياتهم، كما أنه طلب منهم أن يبنوا سورا يحميهم ويكون حصنا لهم، وقد تراسل أوزرسيف سرا مع بعض الكهنة المصريين، كما أنه بعث برسالة إلى الهكسوس الذين تم طردهم وأقاموا في أورشليم، يعرض عليهم اتفاقا بالقيام بحرب ضد القيادة المصرية لاستعادة دولتهم التي كان مركزها أفاريس، وقد استجاب الهكسوس لدعوته، واستطاعوا بواسطة مئتي ألف محارب أن يقوموا بغزوة هكسوسية ثانية، وأن يستولوا على أفاريس بحملة خاطفة، ولما سمع أمنحوتب بذلك سار بثلاث مئة مقاتل نحو أفاريس، ولكن أمنحوتب تراجع عن الحرب لأنه اعتقد أن هذه الحرب هي حرب آلهة، وعاد أدراجه جنوبا بجنوده حتى وصل إلى حدود أثيوبيا التي كانت تحت هيمنته، أما هكسوس أورشليم فقد دمروا بلاد مصر التي غادرها جيشها، وبعد ثلاث عشرة سنة عاد أمنحوتب بجيشه واستطاع أن يهزم الهكسوس ويطاردهم حتى بلاد كنعان.

وهذه الرواية نقلها يوسفوس عن مانيتو، وأضاف إليها في كتابه (العاديات اليهودية)، أن موسى (أوزرسيف) كان في الأساس قائدا أو ضابطا عسكريا في الجيش المصري، وكان قد ساهم بصد هجوم أثيوبي على مصر، وقد رد المصريون الأثيوبيين حتى ديارهم، وهناك حاصر موسى إحدى مدنهم، وأثناء الحصار بعثت ابنة ملك أثيوبيا المحاصرة برسالة إلى موسى تخطبه لنفسها، فوافق على الزواج منها على أن تستسلم المدينة، وهذه الرواية، على ما أعتقد، ليست سوى تبرير ما جاء في سفر الخروج من أن إحدى زوجات موسى كانت كوشية (أثيوبية)، وكانت مريم تعيب على أخيها موسى زواجه من امرأة كوشية.

ويتابع يوسفوس روايته، فيقول إن أوزرسيف (موسى) قام، بعد عودته من حملته على الجنوب، بقيادة بقايا الهكسوس في مدينة أفاريس، وقد استطاع الجيش المصري طرد بقايا الهكسوس مع قائدهم أوزرسيف الذي غير اسمه إلى موسى، وقد تبنى البعض هذه المقولة واقترحوا أن هؤلاء الموبوئين كانوا مصابين بمرض الجذام، وقد تم عزلهم في محاجر صحية.

كما نقل يوسفوس في كتابه (ضد أبيون) مقولة المؤرخ أبيون السكندري الذي ذكر أن قوم موسى هم جماعات بشرية من الأجناس القذرة كانت تعمل كعبيد في مصر، وقد أصابتهم عدة أمراض جلدية معدية، وقد قام المصريون بطردهم خوفا من أن انتشار العدوى إليهم.

أما المؤرخ هروشيوش فقد ذكر، نقلا عن المؤرخ قرناليس، أن ملك مصر بخوريم قد أمر - بعد أن بدأت تتفشى بعض الأمراض الجلدية بين المصريين - بجمع المرضى البرص وعزلهم، وكان على رأسهم شخص يدعى موسى، والذي كردة فعل ثار ضد الديانة المصرية (عبادة الأوثان)، وأحل مكانها عبادة رب السماء.

أما كريمون المؤرخ الإغريقي فيقول إن رعمسيس ابن أمينوفيس (أمنحوتب) قد طرد مجموعة من الناس المرضى وكانوا بقيادة شخصين يدعيان يوسف وموسى.

أما المؤرخ ليسماخوس فذكر أن موسى قد قاد مجموعة من الناس المصابين بمرض جلدي وعبر بهم نحو الصحراء، وهو نفس ما كان قد ذكره المؤرخ ديودور الصقلي سنة ٨ قبل الميلاد، حيث قال إن السلطة الفرعونية قامت بطرد مجموعة من المصابين بالبرص، وقد قادهم موسى عبر الصحراء نحو بلاد كنعان، وقد وضع لهم موسى شريعة تنظم طقوسهم الشريرة.

أما تاسيتوس، والذي عاش في القرن الأول والثاني الميلادي، فيعتقد أن اليهود عبارة عن جماعات جاءت من جزيرة كريت، ووصلت إلى مصر عن طريق ليبيا (وهو بذلك يعيدهم إلى شعوب البحر حسب ما يفهم، وبالذات إلى الموجة التي قام بصدها الفرعون مرنفتاح)، وقد تم طردهم من مصر وكانوا تحت قيادة شخصين واسمهما أورشليم، ويهوذا.

أما الباحثون الأوربيون في العصور الحديثة، فقد ذهبوا في البداية إلى أن قوم موسى هم جماعات العابيرو التي وردت أخبارهم في نصوص مصرية، وأهم ذكر جاء لهم في النقوش المصرية ما بين ١٦٠٠ - ١٢٠٠ ق.م باسم (عفر. و)، وفي نقش أمنوفيس يذكر أن أمنحوتب الثاني في النصف الثاني من القرن الخامس عشر قبل الميلاد أخذ مجموعات من (العفر. و) من فلسطين وأحضرهم إلى مصر كرقيق وعملة.

أما سيجموند فرويد فقد وضع نظريته من خلال تطبيق نظرية التحليل النفسي على نص سفر الخروج دون أن يستعين بأي قرائن تاريخية نصية، وقد طبّق على موسى، وعلى جماعة الخروج نظريته حول عقدة أوديب، وقد ذهب فرويد، والفرويديون من بعده إلى أن موسى كان أميرا مصريا خالصا من حيث أصوله العرقية، ونشأته وتربيته وثقافته الفرعونية، وديانته الأتونية، وكان قائدا عسكريا على منطقة جاسان في عهد إخناتون زوج الأميرة السورية نفرتيتي، والذي قام بانقلاب ديني كان لزوجته السورية أثر مهم على عقيدته الدينية، وقد كان موسى المبشر بالديانة الأتونية في منطقة جاسان التي كان يحكمها، وعندما حصل انقلاب على إخناتون، وكان موسى حينها في حملة عسكرية تبشيرية في الحبشة، عاد على وجه السرعة، ولكنه لم يقدر على إعادة الأمور إلى ما كانت عليه، فجمع أتباعه الذين كان

جلّهم من العبيد والمضطهدين من الآسيويين، والمصريين والأحباش، وفر بهم، أو تم طردهم إلى سيناء، حيث هناك انضم إليه موسى المديني مع جماعات من بني إسرائيل، وفي قادش برنيع قُتل موسى المصري على يد أتباعه الذين تخلوا عن ديانته الأتونية، والبعض يعتقد أن موسى المديني السينائي هو من قام بقتل موسى المصري، وقد قام موسى المديني بفرض الديانة اليهوية على أتباع موسى المصري، وبذلك، وحسب رأي فرويد، والفرويديين قام محررو التوراة بسرد قصتهم بموسى وهمي بدوي، مع رب قبلي عشائري (يَهْوَه)، أدخلته جماعات بدوية سينائية مديانية، انصهرت مع قوم موسى، ومن هذا الاندماج تكوّن الشعب الإسرائيلي، الذين بعد استقرارهم في بلاد كنعان اندمجوا مع الجماعات العبرية في بلاد كنعان، ولكن هذا الاندماج سرعان ما تفكك، وعادت الشعوب إلى ما كانت عليه سابقا: شعب إسرائيل في شمال بلاد كنعان، وشعب يهوذا في جنوب بلاد كنعان، ويرى فرويد أن شعب يهوذا هو الذي قدم من مصر بقيادة موسى، أما الشعب الإسرائيلي الذي استوطن في شمال بلاد كنعان فهو لم يذهب أبدا إلى مصر.

ويعتقد فرويد أيضا أن حاشية موسى الخاصة كقائد ورجل نبيل كانوا من معتنقي الأتونية، وهم الذين عرفوا باسم اللاويين، وبذلك فاللاويون هم جماعات مصرية، ولا يمتون لبني إسرائيل بصلة.

ونظرية فرويد، وإن كانت تجيب على بعض التساؤلات، فإنها تطرح المزيد من الأسئلة، ولا سيما حول مصرية أو أتونية اللاويين، وهو استقراء يدعوا إلى الاستغراب، فاللايون هم الجماعة الأكثر تمسكا بيهوية الرب، ولكن نظرية فرويد، وبوحي من دراساته النفسية، جعلت الكثير من الباحثين يركزون على ما ذهب إليه، وقد تبين لهم وجود حالة تناص بين تاريخ إخناتون، وأسطورة أوديب، وملحمة الخروج الموسوي، وذهبوا إلى أن أسطورة أوديب ما هي سوى هلينة للتاريخ الحقيقي لإخناتون، والذي تم تهويد أجزاء من تاريخه في قصة موسى، لا سيما وأن المؤرخ اليهودي يوسفوس قد ذكر أن أحد الكهنة في مصر قد تنبأ للملك أن ولدا من بني إسرائيل سيهدد العرش الفرعوني، وسيصبح من أعظم الشخصيات في التاريخ.

وهنا لنا أن نذكر أن هوارد كارتر الذي اكتشف مقبرة الفرعون توت عنخ آمون، قد وجد وثائق بردية في المقبرة، وقد هدد، بعد أن مُنع من متابعة أبحاثه الأثرية، أنه سينشر محتويات بعض البرديات التي تتحدث عن القصة الحقيقية لقصة الخروج، والتي سيكون لها أثر كبير على المعتقدات المسيحية واليهودية، وقد اختفت هذه البرديات بظروف غامضة

ترافقت مع صمت كارتر، ولم يعرف حتى الآن مصيرها، ويعتقد كل من أندرو كولينيز، وكريس هيرالد أن البرديات كانت تتحدث عن الذين كانوا قد خرجوا من مصر، وهم كانوا من أتباع الملك إخناتون، وغالبيتهم كانوا من المضطهدين المصريين، والمديانيين، ومعهم بعض العبرانيين، ولفيف من الشعوب الآسيوية، على عهد خليفة إخناتون الفرعون توت عنخ آمون بعد أن قام كهنة آمون باضطهاد أتباع إخناتون.

وهناك من يعتقد أن الديانة الإخناتونية بعد انهيارها على أيدي الكهنوت التقليدي، تحولت إلى ديانة سرية انتشرت بين الغرباء والمضطهدين، وقد حدث لها تطورات واسعة، وأخذت شكلها النهائي على يد موسى، بحيث تحول الإله الإخناتوني العالمي، إلى الرب (يَهْوَه)، الذي أصبح ربا قبليا، أو على الأصح أثنيا خاصا بالعبرانيين، ومن التف حولهم من الأمم والشعوب التي كانت تعاني من اضطهاد الحكم والدين الفرعوني، وقام الكاهن الأتوني موسى، بعد انهيار الديانة في مصر، بقيادة العبرانيين الذين كان تنتشر بينهم الديانة الإخناتونية، وخرج أو فر بهم من مصر.

وهناك من عدلوا، على ما سبق، وأضافوا إلى أن جماعة موسى قد قاموا بانتفاضة شعبية مسلحة، وقد نهبوا ما استطاعوا من الحاميات المصرية، ومن بيوت المصريين، وفروا قبل وصول القوات الفرعونية من العاصمة لقمع الانتفاضة.

أما المؤرخ وول ديورانت فقد أورد عدة مقولات تذهب إلى أن موسى هو ابن الأميرة حتشبسوت، وقد اعتنق الأتونية وذهب إلى سيناء ليبشر بها، وأثناء غيابه استطاع الكهنة المصريون أن ينتصروا على الدين التوحيدي الإخناتوني وأن يضطهدوا أتباع الأتونية، فعاد موسى إلى مصر وقام بثورة مع العبيد، وفر مع العبرانيين والمضطهدين على اختلاف دمائهم ومعتقداتهم، وقادهم نحو بلاد كنعان، وهذا الافتراض تبناه بعض الباحثين بعد تنقيته من الخلط التاريخي.

أما جار ستانج الذي كان قد اكتشف نقوشاً في مقابر أريحا، اعتقد من خلالها أن موسى هو ابن الأميرة حتشبسوت قبل أن تتسلم الحكم كوصية على تحتمس الثالث ابن زوجها تحتمس الثاني، وتربى موسى في البلاط الملكي، وقد فر موسى ابن حتشبسوت بعد أن قام تحتمس الثالث بانقلاب على حتشبسوت، وتسلّم مقاليد الحكم، لكن موسى استطاع العودة في مرحلة لاحقة، وقام بثورة هناك وقاد اتباعه نحو سيناء، وهذه النظرية لم يعد أحد يأخذ بها على الرغم من أنها تجيب، أو تفسر ورود كلمة إسرائيل في قصيدة النصر لمرنفتاح، لكنها تعجز عن الإجابة على الكثير من الأسئلة.

إلا أن الباحث الدانمركي سبايت أعاد لهذا الاعتقاد حيويته، حيث ذهب إلى أن موسى هو ابن الملكة حتشبسوت، وهو بذلك ولي العهد، ويذهب (بطريقة افتراضية)، حسب حساب فلكي يتعلق بحدث قمري حدث فيما بين فبراير مارس ١٥٣٧قبل الميلاد، إلى أن موسى ولد يوم الثامن من آذار سنة ١٥٢٤ قبل الميلاد، ومات سنة ١٤١٥ قبيل عيد الفصح مباشرة، كما ذهب إلى أن رواية السفط هي في الأصل شعيرة، أو طقس مصري فرعوني قديم، يتم من خلاله، حسب التصور الديني المصري، فصل ميلاد ولي العهد السماوي، عن ميلاده الأرضي (من أم أرضية، أي أم بيولوجية)، وهو طقس عرفته أكثر من حضارة، وفي أكثر من مكان، وعلى مر التاريخ، وأقدم نص جاء على ذكر هذا الطقس يعود إلى الحضارة الآكادية، والذي يتحدث عن مولد سارجون الأول، واستمرت تلك الطقوس الدينية التمثيلية حتى القرون الوسطى في أوربا، مرورا بقصص يونانية متشابهة تقريبا، منها رواية أتيس وديونيسوس، ورومولس، أي أن رواية ولادة موسى التوراتية هي في الأصل طقس، أو مسرحية دينية كانت تقام لولي العهد في مصر، حيث تقوم الأم البيولوجية (حتشبسوت) / أم موسى في التوراة / بلعب دور الإلهة إيزيس، أم الابن الملكي (موسى، أي الابن) فيقوم بتمثيل دور الابن - الإله حورس، أما الأب الملك فيقوم بتمثيل دور الإله آمون رع، ومن الجدير ذكره أن الفراعنة كانوا يضعون في مقابرهم سفنا كي تعبر بهم إلى العالم الآخر، كما أنه اكتشف في مدينة أور الملكية، وفي مقبرة الملك أبارجي على سفينتين، أو مركبين صغيرين أحدهما من الفضة، والآخر من النحاس، كما أن بقايا جثة الملك كانت مفقودة، بينما جثث حاشيته، وزوجته (المدعوة شبعد) فكانت ما زالت في مكانها.

تُعَدّ حتشبسوت أهم ملكة في التاريخ المصري فقد كانت ابنة تحتمس الأول، وزوجة أخيها غير الشقيق تحتمس الثاني، كما أنها كانت وصية على تحتمس الثالث، بعد موت زوجها تحتمس الثاني سنة ١٥٠٩ قبل الميلاد، ويرى سبايت أن حتشبسوت تعرضت إلى عدة مؤامرات للنيل من سلطتها، ولإجهاض استلام ابنها الأمير موسى العرش بعدها، وقد استطاع في النهاية تحتمس الثالث (ابن أخ، وزوج حتشبسوت تحتمس الثاني) من اغتصاب العرش منها سنة ١٤٩٣ ق.م، وهو حسب رأيه الزمن الذي اضطر الأمير، وولي العهد الشرعي موسى للهروب من وجه الفرعون الجديد تحتمس الثالث، الذي أهدر دم ولي العهد السابق موسى، وقد التجأ موسى إلى كاهن سيناء يثرون (حيثرو) الذي أخفاه في المعبد المعروف في سيناء، والذي يعود زمن بنائه إلى عهد الملكة حتشبسوت، واستمر في خدمته الدينية في عهد تحتمس الثالث أيضا.

أما ألبرايت فيذهب إلى أن العقائد التوحيدية بلغت أوج انتشارها في المنطقة بعد القرن الخامس عشر قبل الميلاد، ومنها الديانة الأتونية التي نادى بها إخناتون، واعتنقها موسى، ولكن بعد اندحارها على يد الديانة التقليدية المصرية، تحولت إلى ديانة سرية بعد اضطهاد أتباعها من قبل الكهنة التقليدين، وكان أكثر أتباعها من الطبقات المثقفة، وفي النهاية قام موسى بالخروج بهم من مصر إلى سيناء.

أما أحمد سوسة فيعتقد أن العبرانيين قد دخلوا مع الهكسوس أو لحقوا بهم، وبعد أن تم طرد الهكسوس تبقى بقايا منهم كأسرى، وكمسخرين، وقد تبنت تلك الجماعات الديانة الأتونية، ولكن بانهيار تلك الديانة تعرضوا لأعمال اضطهاد، وقد استطاعت تلك الجماعات المضطهدة من بقايا الهكسوس، ومن المصريين الذين يشكلون أغلبية قوم موسى، أن تتمرد وتتحصن في أفاريس، ولما لم يستطع الجيش الفرعوني أن يقتحم حصنهم، فقد اتفقت السلطة الفرعونية معهم أن يخرجوا من مصر، وهو أمر مستبعد لأن الجيش الفرعوني لا يمكن أن يكون عاجزا عن اقتحام حصن صغير ضمن مصر، وبذلك فإن أحمد سوسة يذهب إلى أن قوم موسى هم من المصريين مع القليل من الهكسوس، ومع هؤلاء الهكسوس جماعات عبرية إسرائيلية ذابت في المجتمع الهكسوسي، وقد خرجت تلك الجماعات بعد اتفاق مع السلطة الفرعونية كحملة عسكرية مصرية غير فرعونية، غير قانونية، انشقاقية.

وقد أختلف الباحثون في تحديد زمن الخروج، والفرعون الذي عاصر أحداث الخروج التوراتية، فالبعض من الباحثين التاريخيين أرجعوا ملحمة الخروج إلى زمن غارق في القدم، منهم الباحث فليكوفسكي الذي، حسب نظريته التي جاءت في كتابه (عصور في فوضى)، يعتقد أن الإسرائيليين خرجوا من مصر قبل دخول الهكسوس، بحيث أعطى للعبرانيين دور بناء الأهرامات، كما أعطاهم دور تحرير مصر من الهكسوس من خلال حملة قادها الملك شاول، ومن بعده داود بعد أن كانوا قد أسسوا مملكة إسرائيل في بلاد كنعان، وقد استشهد على ذلك ببردية لادن الذي جاء فيها {.. والوباء قد أنبت في كل الأراضي، والدم صار في كل مكان، .. حقا لقد تحول النهر دما.. والعمد والجدران قد التهمتها النيران.. حقا إن قلوب الماشية تبكي والقطعان تندب البلاد.. انظر إن النار قد اشتعل لهيبها عاليا ضد أعداء البلاد}، وقد ذهب فليكوفسكي إلى أن هذه البردية كُتبت في العهد المتوسط الثاني، بينما أعادها د. سيد القمني إلى العهد المتوسط الأول، وقد اعتبر فليكوفسكي هذه البردية بمثابة تسجيل مصري لخروج العبرانيين من مصر، أي أنه اعتبرها ملحمة الخروج المصرية.

وبعض الباحثين أعتبر أن بردية الأرميتاج في لينينجراد، هي تسجيل مصري لملحمة الخروج، والتي أختلف الباحثون كثيرا في تزمينها، فهي أصلا وصلت من خلال نسخة دُوِّنت في عهد المملكة الحديثة، وقد نسخت في حدود القرن الخامس عشر قبل الميلاد عن نص أصلي كان قد دوّن، وسجّل في عهد الملك أو الفرعون سنفرو من الأسرة الرابعة من المملكة القديمة، ويعتقد المؤرخون أن هذه البردية يعود تسجيلها إلى الفرعون أمنمحات الأول مؤسس الأسرة الثانية عشرة من المملكة الوسطى، ونسبها مدونها إلى عهد سنفرو، وقد جاء فيها {ملء قلبي رثاء لهذه الأرض التي نبع منها الفن... ستهلك. هذه البلاد وما عليها ولن يبقى سوى الشر. فانية هذه البلاد. ستحجب الشمس ولن يرى إنسان نوراً.. لن يبقى أحد حيا. النهر جاف. ستهب الرياح الجنوبية ضد الرياح الشمالية. وتكابد الأرض بؤسا لم تعرفه. ويحتل البلاد البدو حين يأتون من الشرق. سينزل الآسيويون أرض مصر. ستشرب وحوش الصحراء وحيواناتها من نهر مصر. أرى هناك الأرض مقلوبة رأسا على عقب.}.

وفي نص مجهول يتحدث عن حالة فوضى تعم مصر {إن العبيد والفقراء قد ثاروا ضد الأمراء والأغنياء وراحوا يقتلون أولادهم أو يفجون رؤوسهم بالحجارة والذين لم يملكوا في السابق الثيران للفلاحة، أو بيوتا للسكن، أو قاربا للنقل، قد أصبحوا الآن يملكون قطيعا وقصورا وأسطولا ومن كان يملك هذه الممتلكات في السابق أخذ الآن ينظر إليها فقط من بعيد، ومن كان يرتدي الثياب الفاخرة، أصبح يتجول بثياب رثة، والفتاة التي كانت سابقا تنظر في الماء كي ترى شكلها أصبحت تملك مرآة الآن، وقد أصبح الذهب والفضة واللازورد والعقيق يزين رقاب النساء من العبيد بينما النساء الأميرات يتضورون جوعا، كذلك نهبت صالة المحكمة ووثائقها، وتبعثر الجهاز الإداري، ومزقت قوائم الضرائب، وقتل الموظفون، وخطفت أوراقهم وهوجم القصر الملكي}، وحسب اعتقادي يعود هذا النص، أو يتحدث عن سقوط مصر في يد الهكسوس، أو أنه نص أدبي شعري، وليس انقلابا سياسيا عسكريا حقيقيا كما يمكن أن يستوحي منه القارئ.

وحسب اعتقادي فإن هذه النصوص التي تتحدث عن المصائب التي تحل في مصر بشكل متكرر، ما هي سوى رثائيات أدبية شعرية كانت شائعة في كل العهود المصرية القديمة، فلا يمكن الاتكاء عليها للبحث عن زمن ملحمة الخروج التوراتية، بل يمكن القول أن التوراة قد اقتبست هذه النصوص، ودستها في التوراة، واعتبرت أن هذه المصائب قام بها الرب (يَهْوَه) انتقاما من المصريين على ما فعلوه ببني إسرائيل.

إضافة إلى ذلك فإن بعض الباحثين التاريخيين حاولوا أن يربطوا ما بين مرحلة المصائب التي حلت بمصر قبيل الخروج مباشرة، وما أتى به العالم كولن همفرس من أن انفجار بركان (سانتوريني) قد حصل في جزيرة ثيرا في البحر الأبيض المتوسط نحو سنة ١٦٢٨ قبل الميلاد، وقد أدى هذا الانفجار الرهيب في النهاية إلى تشظي الجزيرة، كما أدى إلى نزول مطر حامضي كبريتي أثر على كل العناصر البيئية، والنمو الحيوي والنباتي لحوض المتوسط، بل وتعداه إلى العالم، حتى وصل تأثيره إلى القارة الأمريكية كما لو كان انفجارا نوويا، واستمر تأثيره لمدة سبع سنوات، وقد تم رصد هذا التأثير من خلال دراسة حلقات جذوع أشجار البلوط المعمرة، وقد اعتبر بعض الباحثين أن هذا الانفجار هو الذي تسبب في حدوث المصائب التي حلت على مصر إبان مرحلة الخروج التوراتية، بل وذهب أصحاب هذا الرأي إلى أن ما جاء في حجر الرشيد الشهير، ليس سوى تسجيل لتلك المحنة {لقد مرت البلاد ببلوى عظيمة، سقط الشر على أرضها، وثارت الأرض ثورة عنيفة شملت عاصمة البلاد، ولم يغادر أحد القصر الملكي لمدة تسعة أيام كاملة، وأثناء هذه الأيام التسعة من جيشان الأرض، كانت هناك عاصفة بلغت قوتها حدا لا يستطيع معه الإنسان ولا الإله أن يرى وجوه الآخرين}، وبناء على هذه النصوص المصرية التي تتحدث عن مجموعة مصائب كانت قد حدثت في مصر ذهب بعض الباحثين إلى أن الخروج التوراتي من مصر حدث في العهد الهكسوسي، وهو ما يتعارض مع أغلبية ما ذهب إليه الباحثون لتعارضه مع الحيثيات التوراتية، والحيثيات البحثية.

أما بعض الباحثين فقد أعادوا زمن خروج بني إسرائيل التوراتي بقيادة موسى إلى زمن خروج الهكسوس من مصر على يد أحمس الأول (١٥٧٠ - ١٥٤٦ ق.م)، والبعض أعادوه إلى فترة قصيرة لاحقة بعيد خروج الهكسوس، وحددوه في عهد تحتمس الثاني (١٥٢٥ - ١٤٩٠) على اعتبار أن العبرانيين قد تعرضوا للاضطهاد المصري بعد طرد الهكسوس.

أما الباحث هانز جيدك على وجه التحديد فقد افترض أن الخروج تم في عهد الأميرة حتشبسوت (١٤٩٠ - ١٤٦٩ ق.م) معتمدا في تزمينه لمرحلة الخروج على الانفجار البركاني الذي حصل في جزيرة ثيرا (سانتوريني) شمالي جزيرة كريت، والذي أعاد تزمينه إلى مرحلة أحدث مما زمنه العالم كولن همفرس، حيث افترض هانز جيدك أن لحظة الخروج تزامنت مع مرور قوم موسى إلى جنوب بحيرة المنزلة أثناء رحلة الخروج، فبينما كان الجيش الفرعوني في موازاة منتصف البحيرة، وصل المد الهائل الناتج عن الانفجار البركاني فأغرق الجيش الفرعوني، وقد تبنى الباحث أحد النصوص التي نقشت في عهد الملكة حتشبسوت على جدار أحد المعابد، والذي جاء فيه {أصغ إلي، إن جميع الناس من البدو هم على ترحالهم، وإني لم آخذ

في اعتباري أعمالهم الشاذة، ولم تشغل خاطري، فإني لم أنس أن أشيد وأصلح ما قد دمروه وأتلفوه من قبل، وكان من بينهم حشود تقوم بهدم ما سبق تشييده، كانوا يحكمون بغير مشورة رع، ولم يحدث أن تم التصرف طبقا للأمر الإلهي حتى عصر جلالتي. وحكم جلالتي الآن ثابت بقوة رع، لأنه قد سبقت النبوءة بمولدي، بأني سأكون من الملوك القادرين المنتصرين، ولذلك جئت كالحية النارية الملتهبة ضد أعدائي، ولما سمحت لأولئك الذين أغضبوا الآلهة بالخروج، فكأن الأرض ابتلعت آثار أقدامهم، وهذه إرادة أبي الآلهة}.

والبعض يعتقد أن فرعون الاضطهاد كان تحتمس الثالث (١٤٦٩ - ١٤٣٦ ق.م) عدو الأسيويين اللدود، أما فرعون الخروج فهو أمنحوتب الثاني (١٤٣٦ - ١٤٢٥ ق.م)، أو تحتمس الرابع (١٤٢٥ - ١٤١٢ ق.م)، وبما أن عُمْر موسى عند الخروج كان ثمانين عاما، فهذا يعني، بناء على ما سبق، فإن موسى كان قد وُلِد في عهد حتشبسوت (١٤٩٠ - ١٤٦٩ ق.م) التي كانت وصية على تحتمس الثالث الذي كان صغيرا.

أما الباحث الفرنسي جان يويوت فيذهب إلى أن الخروج حصل في عهد الفرعون رعمسيس الأول (١٣١٩ - ١٣١٨ ق.م)، وأن أتباع موسى هم الشاسو أنفسهم، الذي شن سيتي الأول حملات تأديبية ضدهم في سيناء، بعد أن كانوا قد احتلوا أحد الحصون الفرعونية على الطريق الساحلي بين سيناء، وبلاد كنعان.

وهناك من تبنى (لوح إسرائيل) أي نقش مرنفتاح (١٢٣٢ - ١٢٢٢ ق.م) لتزمين الخروج، والذي كتب تخليدا لانتصار الفرعون مرنفتاح على اللوبيين، والتي كان قد دونها في السنة الخامسة لاعتلائه العرش، أي سنة ١٢٢٧ ق.م، والتي ذكرناها سابقا:

إن تحنـــو - أي لوبيـــا - قـــد خربـــت
حـــاتي.. أمـــست مـــسالمة
عـــسقلان.. أزيلـــت
جيـــزر.. قـــبض عليهـــا
ينـــوم.. أصـــبحت لا شـــيء
وإســرائيل.. قــد أقفــرت وبــذرتها قــد انقطعــت
خـــار أصـــبحت مثـــل أرامـــل مـــصر

وفي ترجمة أخرى {يقول الملوك وهم منطرحون أرضا: السلام / ولم يعد واحد من بين قبائل البدو (الأقواس التسعة) / يرفع رأسه / والتحنو قد خربت / وبلاد حاتي (الحثيين)

أصبحت مسالمة / وكنعان أسرت مع كل خبيث / وأزيلت عسقلان / وجازر قبض عليها / وينو عام أصبحت لاشيء / وإسرائيل خربت وليس لها بذر / وخارو أصبحت أرملة لمصر}.

وقد حاول الباحثون مقاربة كلمة إسرائيل التي وردت في هذا النقش، فالبعض يعتقد أن كلمة إسرائيل هي اسم لإحدى المدن أو القبائل الكنعانية، أما عبد المجيد همو فيعتقد أن كلمة إسرائيل التي وردت في هذا النقش هي اسم قديم لسهل يزرعيل (سهل مرج ابن عامر) في شمال فلسطين، ويرى البعض ومنهم ماكسويل ميللر أن إسرائيل هذه التي أتى ذكرها في قصيدة النصر، هي إسرائيل التي كانت قد تشكلت من اتحاد القبائل الكنعانية الأربع في الهضاب المركزية، وهي أفرايم ومنسى وجلعاد وبنيامين، وإذا ما أخذنا رأي ماكسويل ميللر بالحسبان، وإذا ما كان مرنفتاح قد قام بحملته على بلاد كنعان في السنة الخامسة لحكمه الذي ابتدأ سنة ١٢٣٢ ق.م، أي في سنة ١٢٢٧ ق.م، وإن كلمة إسرائيل التي ورد ذكرها في القصيدة تمثل بني إسرائيل الذين كانوا قد خرجوا من مصر حسب المقولة التوراتية، وتاهوا في سيناء لمدة أربعين سنة، قبل دخولهم إلى أرض كنعان، وبعد يشوع الذي مات بعد الدخول بعشرين سنة على وجه التخمين، وخضع بنو إسرائيل لحكم القضاة، وبعد كل هذه الأحداث، قام مرنفتاح بحملته على بلاد كنعان، *فهذا يعني أن زمن الخروج يعود إلى زمن يزيد عن سبعين سنة بزمن ما، من المفترض أنه يعود إلى مرحلة تل العمارنة.*

لكن البعض فسر ذكر كلمة إسرائيل في قصيدة مرنفتاح بأنه إشارة إلى طرد (الإسرائيليين) من مصر، والتي تأتي متوافقة تقريبا مع زمن الخروج المفترض حسب التزمين التوراتي، على الرغم من أن النص يوضح أن مرنفتاح قام بتدمير منطقة - أو شعب في بلاد كنعان - تدعى إسرائيل، كما قام أيضا بتدمير مناطق ثانية في بلاد كنعان منها جازر (جيزر)، وعسقلان (أشقلون)، والتي ما زالت تحتفظ بأسمائها حتى الآن.

ويعتقد البعض أن نقش مرنفتاح يثبت ويدعم مقولة التاريخ المتأخر للخروج، وهم يعتمدون على أن كلمة إسرائيل تعني شعب إسرائيل، وليس موقعا باسم إسرائيل، وتلك الكلمة جاءت بين كلمتي أشقلون وخار (وخار تشير إلى كنعان على طريق البحر الميت)، وبذلك يكون موقع إسرائيل (الإسرائيليون) في قادش برنيع، وهم يذهبون إلى أن قوم موسى في مرحلة كتابة النقش كانوا في صحراء سيناء، وبما أن موسى عاد إلى مصر بعد موت الفرعون الذي كان يطلب دمه، أي في السنة الأولى للفرعون الجديد (مرنفتاح)، وقد بقي موسى سنتين في مصر قبل الخروج، كما بقي سنتين في جنوب صحراء سيناء قبل أن يصعد نحو الشمال، فهذا يعني أن موسى ومعه قومه كان في منطقة قادش برنيع بعد خمس سنوات من موت

الفرعون الذي هدر دمه، وهذا يتطابق مع تاريخ هذا النقش الذي كتب في السنة الخامسة لحكم مرنفتاح.

وبذلك، فإذا ما اعتمدنا على أن خروج بني إسرائيل من مصر حصل في السنوات الأولى لعهد الفرعون مرنفتاح، الذي قام بتدمير بلاد كنعان، فيكون قوم موسى قد دخلوا إلى فلسطين في مرحلة كانت فيه الكثافة السكانية منخفضة بعد حملة مرنفتاح، وحملة الجفاف الميسيني على بلاد كنعان، مما أتاح لهم الاستيطان بشيء من السهولة على أماكن لم تكن قد رمّمت نفسها ديموغرافيا.

والنظرية الأكثر رواجا وقبولا لدى أكثر الباحثين حول زمن الخروج هي التي تعيده إلى الفرعون مرنفتاح، والتي تتماشى مع ما أتى في التوراة التي ذكرت أن الفرعون رعمسيس هو فرعون الاضطهاد، وبذلك فإن الخروج تم في عهد الفرعون الذي تولى العرش بعد رعمسيس، ويعتقد أصحاب هذا الرأي أن بني إسرائيل هم جماعات هكسوسية كانت قد أُسرت أثناء طرد الهكسوس، وبقيت حتى خرجت في عهد مرنفتاح، وما يؤيد هذا الافتراض هو النص الذي كتب في عهد الفرعون مرنفتاح، والذي جاء فيه {إن بعض بدو إيتام (شاسو أدوم)، قد سُمح لهم على حسب التعليمات التي لديه، أن يجتازوا حصن إقليم سكوت، ليتاح لهم رعي ماشيتهم بالقرب من بلدة بتوم، في ضياع الفرعون العظيم}، وفي ترجمة أخرى {كن مسرور الخاطر يا سيدي، فإن ساشو آدوم قد مروا بحرية تامة من حصن الفرعون مرنبتاح الذي في إقليم سوكوت بالقرب من برك بيثوم التابعة للملك مرنبتاح الموجودة في أرض سوكوت. ولقد صرف لهم ولدوابهم الزاد، الذي هو أرزاق فرعون شمس العالم}، ويذهب أصحاب هذا الافتراض إلى أن مرنفتاح كان أُنهك في الحروب ضد شعوب البحر، وهو الأمر الذي سمح للشعوب المضطهدة في مصر أن تتململ من قيودها، وأن تهرب من مصر في الفترة الواهنة من تاريخ مرنفتاح.

ومن أهم أصحاب هذه الفرضية هو ديبوا إيميه الذي اعتمد على فرضية مانيتو التي سبق ذكرها، حيث يعتقد ديبوا إيميه أن الإسرائيليين كانوا جزءا من الزحف الهكسوسي على مصر، وقد وصلوا متأخرين قليلا عنهم، ولكن بعد أن استطاع المصريون طرد الهكسوس، قاموا باضطهاد الإسرائيليين لارتباطهم بالهكسوس، وفي عهد أمنحوتب تم تجميعهم في جاسان، وترأس عليهم قائد كهنوتي مصري هو موسى (أوزرسيف)، مع بعض الكهنة المصريين المعارضين، وقد التحق بهم أيضا بعض الجماعات المصرية، وقد وضع أوزرسيف شريعة خاصة بهم منتحلة من ديانتي المصريين، والإسرائيليين، وقد كان

الإسرائيليون محتقرين من قبل المصريين لأنهم كانوا يذبحون بعض الحيوانات المقدسة عند المصريين مثل الأبقار، وبسبب ذلك وخوفا من الانتقام المصري منهم، فقد طلبوا النجدة من هكسوس أورشليم، الذين لبوا النداء وقاموا بغزو كاسح لمصر دمروا فيه منطقة الدلتا، وقتلوا الحيوانات المقدسة، بل وجعلوا الكهنة يذبحونها بأيديهم، وجردوهم من ملابسهم وأجبروهم على المشي عراة، وحطموا تماثيل الآلهة، وما كان من أمنحوتب وجيشه سوى الانسحاب نحو الجنوب، ولكن وبعد ثلاثة عشر عاما، وبمساعدة الأثيوبيين استطاع أمنحوتب أن يقوم بالزحف شمالا، وأن يطرد الهكسوس ويلاحق جماعة أوزرسيف (موسى)، وقد وقع الكثير منهم في الأسر، ولا سيما الإسرائيليين منهم، وقد انتقم منهم أمنحوتب وأجبرهم على العمل القاسي، وظلوا على هذه الحال حتى تولى العهد رعمسيس، الذي زاد في اضطهادهم، وقد أدى ذلك إلى تفشي عدة أمراض جلدية مُعدية فيما بينهم، أهمها البرص والجذام، وقد قام المصريون بطردهم من مصر خوفا من انتقال العدوى إلى المصريين، وقد حصل ذلك في عهد الملك المصري فيروس حسب هيرودوس، وهو يعني فيرون، والذي يمكن لفظه فرعون، وهو اسم وليس لقب، وإن أصبح لقبا فيما بعد، وفيروس أو فيرون أو فرعون هو مرنفتاح، صاحب قصيدة النصر، وهو ما يتماشى مع التوراة التي ذكرت أن فرعون الاضطهاد كان رعمسيس، وأن الخروج تم على عهد الفرعون الذي تربع على العرش بعد الفرعون رعمسيس مباشرة.

وهذا أيضا ما ذهب إليه الباحث لويس عوض الذي يعتقد أن دخول العبرانيين إلى مصر كان سنة ١٦٥٠ قبل الميلاد، وكان الخروج في عهد الفرعون مرنفتاح، وكذلك الأمر بالنسبة لعلي شافعي، وأيضا بالنسبة ليسيوس الذي يعتقد أن الخروج حدث عام ١٢١٤ قبل الميلاد، في السنة الخامسة عشرة لحكم مرنفتاح من الأسرة التاسعة عشرة (على اعتبار أن مرنفتاح تسلم العرش سنة ١٢٢٩ قبل الميلاد)، وهو نفس الزمن الذي حدده بيوا أيضا، أما فلندرز بتري فيعتقد أن الخروج حصل سنة ١١٩٢ قبل الميلاد.

مكان الخروج

هذا بالنسبة للحيثيات التاريخية للخروج، أما بالنسبة لموضع أو مكان الخروج، فلا بد في البداية من الحديث عن الوضع الجغرافي لمنطقة الدلتا في ذلك الزمان، والذي كان فيه برزخ السويس يفصل بين قارتي آسيا، وأفريقيا بحاجز مائي شبه كامل مؤلف من امتدادات خليج السويس التي كانت تتصل شمالا مع البحيرات المرة، وكانت المستنقعات، والمسطحات المائية الفيضية تصل ما بين البحيرات المرة، وبين بحيرة التمساح عند الإسماعيلية والتي كانت تمتد شمالا حتى منطقة القنطرة (والتي يعتقد أنها منطقة جاسان)، أما شمال منطقة القنطرة فكانت بحيرة المنزلة (الشرقية) تمتد جنوبا لتصل حتى منطقة القنطرة، كما كان هناك فرع من فروع الدلتا (الفرع البلوظي) يمر بين منطقة القنطرة، وبين بحيرة المنزلة، وينتهي في البحر الأبيض المتوسط شرقي بور سعيد، وهذا يعني أن المنطقة البرية الوحيدة التي تربط مصر السفلى بصحراء سيناء، وبالأحرى بين قارتي آسيا وأفريقيا (على اعتبار أن صحراء سيناء هي جزء من القارة الآسيوية جغرافيا وديموغرافيا) كانت هي منطقة القنطرة (جاسان)، وهي التي قام الهكسوس فيها ببناء مدينة أفاريس كعاصمة لهم في موقع حصن مصري قديم، وهي التي حوّلها المصريون بعد طرد الهكسوس إلى مقر حامية عسكرية، وأسموها مدينة زارو، ومن ثم طور بناءها رعمسيس وأسماها مدينة رعمسيس وجعلها عاصمة له، وهي التي أتى ذكرها في التوراة، وقد وجد في بيت شان (بيسان) في فلسطين لوح يتحدث فيه رعمسيس الثاني (١٢٩٩ - ١٢٣٢ ق.م) أنه قام ببناء مدينة رعمسيس، وأنه سخر في ذلك العبيد الأسيويين {أعط الجنود قوتهم، وأعط أيضا العبيرو الذين ينقلون الحجارة لبناء الملك رع موسى}، وفي رسالة أخرى {أطعت ما أمرني به سيدي قائلا أعط الجنود أرزاقهم والعبيرو أيضا، الذين ينقلون الحجارة لهيكل الشمس الذي انصرفت إليه عناية رع موسى العظيم، تحت ملاحظة إفمان رئيس الضباط، وأعطيتهم القمح كل شهر، طبقا للأمر الصادر} وهي عبارة عن رسائل موجهة من الكاتب كويسر أو كوسيرا إلى الموظف بكنبتاح.

وقد اختلف الباحثون في تحديد مدينة رعمسيس، والتي تذكر في أكثر من اسم، وحسب هنري بروجش فإن أفاريس، أو أواريس، صوعن، زارو، قصر رعمسيس، تانيس

باليونانية، صان الحجر (تل اليهودية) هي أسماء متعددة لموقع واحد، وهو المكان الذي قام أمنحوتب الثالث ببناء قصر فرعوني لزوجته تي، وحسب ما يعتقد حاليا، فإن هذا الموقع، أو هذه المدينة تقع على الشاطئ الجنوبي لبحيرة المنزلة، حيث وجدت عدة آثار كان قد بناها رعمسيس الثاني الذي كان مولعا بالبناء، ومولعا بتسجيل اسمه عليها أيضا، لكن دي بيوا إيميه يعتقد أنها مدينة هيروبوليس (تل المسخوطة)، أما بتري فحددها في تل رطابه في النصف الشرقي من وادي طميلات غربي تل المسخوطة، حيث عثر هناك على آثار تعود إلى رعمسيس الثاني، وعلى نص يقول {.. ملك مصر العليا والسفلى رعمسيس ابن الشمس معطي الحياة، الذي أوقع مذبحة في أرض الشاسو ونهب تلالهم وقتلهم، قد بنى مدينة باسمه إلى الأبد}.

وكان المصريون، وتوقيا من غزو، أو تسلل آسيوي محتمل، وبعد أن تم طرد الهكسوس خوفا من تكرار دخول القوات القادمة من آسيا عبر هذه المنطقة، قد قاموا بحفر قناة (ترعة القدماء أو قناة سيزوستريس)، ذكرها هيرودوت، تصل بين فرع النيل البلوظي وبين بحيرة التمساح التي كانت تتصل بخليج السويس في ذلك الزمان، بحيث تم عزل منطقة القنطرة (جاسان) عن الدلتا بحاجز مائي دفاعي بشكل نهائي، وقاموا ببناء جسر أو قنطرة أعطت المنطقة اسمها على القناة التي قاموا بحفرها، وعبر هذا الجسر المحروس من قبل الحرس الفرعوني يمر الطريق الساحلي (طريق حورس) من مصر إلى بلاد كنعان، وكان الفرعون حور محب، وهو آخر فراعنة تل العمارنة، قد أوكل إلى وزيره وقائد جيشه رعمسيس مهمات حراسة المنطقة وبناء، أو توسيع الأبنية الدفاعية في منطقة القنطرة (جاسان)، وقد قام رعمسيس بتوسيع مدينة زارو، وبنى فيها قصره، وأصبحت تعرف بمدينة رعمسيس، وقد استخدم في ذلك المساجين من أتباع إخناتون حسب ما يذهب إليه الكثيرون، وحسب التوراة كان من بين من تم تسخيرهم في أعمال البناء هم العبرانيون، في الوقت الذي كان فيه موسى في سيناء يعمل كراعٍ للغنم عند حميه كاهن منطقة مدين راعوئيل، أو يثرون، وبعد عودته إلى مصر قام بحركة تمرد واسعة، وقام بقيادة المسخرين وخرج بهم من أرض مصر نحو سيناء، وحسب رأي البعض فإن أتباع موسى كانوا قد تجمعوا في مدينة رعمسيس قادمين من أماكن متعددة من منطقة الدلتا وسواها، وقد قام موسى بقيادتهم فاتجه، في البداية، جنوبا نحو الإسماعيلية، ومن هناك انتقلوا إلى منطقة سكوت، ثم نحو أثام غربي البحيرات المرة بالقرب من مصبّات مياه النيل في تلك البحيرات، حيث في تلك المنطقة تكون المياه صالحة للشرب، والمعتقد أن رأس خليج السويس في تلك المرحلة كان يمتد شمالا أكثر مما هو عليه الآن، ويعتقد أن البحيرات المرة كانت تمتلئ بالمياه العذبة التي كان يأتي بها النيل من خلال وادي طميلات، كما كانت تأتي

محملة بالطمي الذي طمس تقريبا فرع وادي النيل الذي يصب في البحيرات، ومن المعتقد أن المنطقة التي تم العبور منها هي القناة الضيقة التي تمر عبرها مياه البحيرات نحو البحر والتي تقع إلى الشمال من خليج السويس بقرابة عشرة أميال، أو من خلال المستنقعات التي تصل ما بين خليج السويس، وما بين البحيرات المرة، ويعتقد أصحاب هذا الرأي أن توقيت المرور قد تزامن مع هبوب ريح شديدة أدى إلى انغلاق البحر عن المستنقعات والبحيرات المتصلة به، وما أن عبر قوم موسى حتى توقفت الريح فاندفعت المياه ثانية، وأغرقت جيش الفرعون.

أما البعض الآخر فيرى أن العبور تم من خلال بحيرة المنزلة في شمال وادي النيل، والتي تهب عليها الرياح فتؤدي إلى تمدد شديد فيها، وبالتالي تصبح المياه ضحلة، وفي تلك اللحظة مر أتباع موسى، وبعد مدة لحق بهم جيش الفرعون، وما أن خرج الموسويون حتى توقفت الريح وارتفع منسوب المياه الذي ربما أغرق البعض من جنود الفرعون، ولكن التوراة وكعادتها ضخمت الحدث ليرقى إلى مصاف الأحداث الميثولوجية، وهذا ما يذهب إليه هنري بورغش الذي يعتقد أن العبور تم عبر سهل الطينة الذي يقع إلى الجنوب من خليج الطينة شرقي بحيرة المنزلة.

ويعتقد دي بوا إيميه أنه في مرحلة الخروج كان يوجد بحيرة في منطقة العجرود يفصلها عن خليج السويس برزخ من الرمال، ولكن حين كانت تهب الرياح، ويتمدد خليج السويس شمالا ينفتح البحر ليلتحم بالبحيرات المرة وبحيرة التمساح، وأن الخروج تم من ذلك البرزخ، فبينما كانت البحيرة منغلقة عن الخليج بسبب الجزر مر موسى وجماعته، ولما لحق جيش الفرعون بجماعة موسى وتوغلوا في البرزخ، انطلق المد، في الوقت الذي ثارت فيه الريح، الأمر الذي فتح الخليج على البحيرة وأغرق المتقدمين من جيش الفرعون، أما الباقون فنكصوا عائدين نحو اليابسة.

أما المستشرق الفرنسي بيير مونتيه، فقد وضع فرضية تقول إن موسى انطلق مع جماعته من مدينة رعمسيس نحو الشمال، ومر من خلال الشريط الضيق الذي يفصل بين البحر الأبيض المتوسط وبين بحيرة البروديل (سيربونيس) التي تمتد بطول سبعين كيلومتر، وبعرض عشرين كيلو متر، ولما اقترب منهم الجيش الفرعوني حاول اللحاق بهم قبل اجتيازهم البرزخ فدخل الجيش ضمن البحيرة التي كانت شديدة الضحالة في تلك اللحظة، كي يختصر المسافة ويقطع الطريق على قوم موسى، ولما وصل الجيش الفرعوني إلى قاع البحيرة الضحل هبت ريح قوية عمقت قاع البحيرة، وبذلك غرق الجيش الفرعوني.

والآن يذهب الكثير من الباحثين إلى أن خروج بني إسرائيل تم بمرحلتين، وبطريقين للخروج، وحسب الأب دو فو فإن طريق الخروج الأول كان طريقا ساحليا مباشرا، حيث دخل بنو إسرائيل مباشرة إلى بلاد كنعان من الجنوب الغربي، وهو الخروج الذي قام به بني

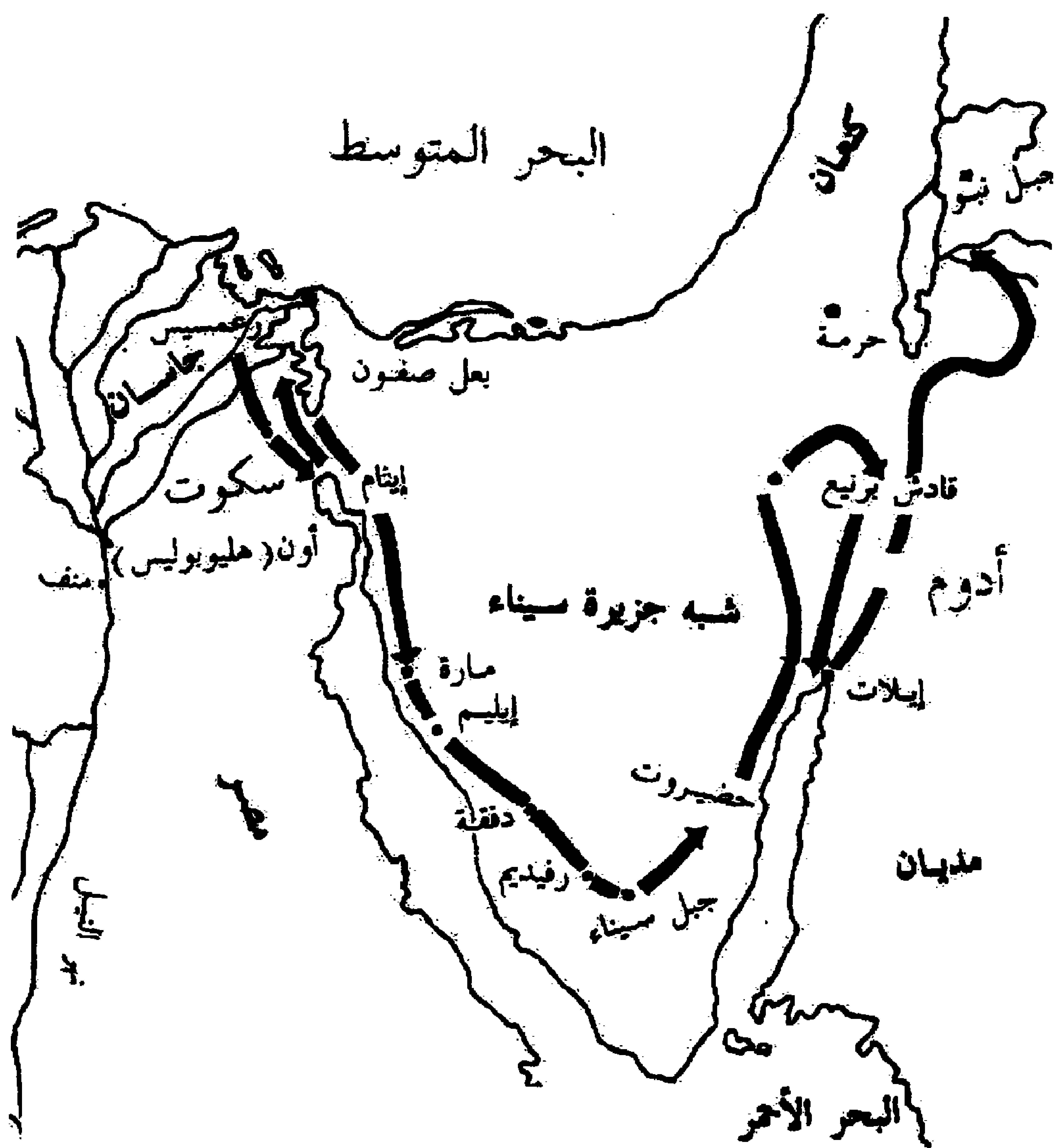
إسرائيل بعد ٢١٥ سنة من إقامتهم في مصر بعد دخولهم في عهد يوسف، وهو الزمن الذي بقي فيه بنو إسرائيل في مصر حسب ما أتت به الترجمة السبعونية، أما الخروج الثاني الموسوي فهو الذي اتخذ طريقا يتجه جنوبا نحو سيناء عبر وادي طليمات، ودخلت تلك الجماعات إلى بلاد كنعان من الشرق، وهو ما يتفق أيضا مع رأي كاثلين كينون.

أما السيد القمني فيذهب إلى إن طريق الخروج الأول، انطلق من صان الحجر مرورا بجنوب بحيرة المنزلة، ثم على الشريط الساحلي نحو بلاد كنعان، والذين سلكوا هذا الطريق حسب القمني الجماعات اليهوذية العبرية الهكسوسية الذين استقروا في جنوب بلاد كنعان، أما طريق الخروج الثاني فهو خط الخروج التوراتي الذي تم حسب السيد القمني من خلال برزخ أو خصر ضمن بحيرة التمساح، وصولا إلى سيناء، ثم شرقي الأردن، ثم إلى شمال بلاد كنعان وهم الجماعات الإسرائيلية التي استوطنت في شمال بلاد كنعان.

وإن كانت هذه المقولات صحيحة، وأن حادثة الخروج التوراتية هي حادثة تاريخية، وبغض النظر إن كانت حادثة العبور قد تمت عبر بحيرة المنزلة، أو عبر مستنقعات البوص بالقرب من الإسماعيلية، أو عبر الشريط الضيق بين البحر المتوسط، وبين بحيرة البردويل، أو سواها من الأماكن التي لا بد أن أتباع موسى الذين كانوا يعيشون في منطقة الدلتا يخبرونها جيدا، والتي ترافقت في تلك السنة بأحوال بيئة طقسية دراماتيكية أدت إلى توسع المسطحات المائية بسبب الفيضانات في وادي النيل من جهة، ونزول الأمطار الرعدية من جهة ثانية حسب ما يمكن استقراؤه من التوراة في معرض حديثها عن المصائب التي سبقت مرحلة، أو رحلة الخروج، وهنا يمكن لي أن أضيف أن موسى عندما قام بضرب الماء في تلك البحيرة، أو في المستنقعات كان الغاية من ذلك هو استرشاد عمق المياه الضحلة التي كانوا يعبرونها خشية وجود حفر عميقة قد يسقط بها الشعب الذين يلحقون به، لا سيما وأن العبور قد تم في العتمة، أي أن معنى ضرب الماء بالعصا ما هو سوى فحص لعمق المياه السطحية التي يعبرون ضمنها، كما أن موسى أيضا، حسب ما جاء في سفر الخروج، كان قد طلب من أتباعه أن يصطحبوا في أيديهم العصي عند الخروج «أحقاؤكم مشدودة وأحذيتكم في أرجلكم وعصيكم في أيديكم» خروج ١٢، ويبدوا أن وظيفة هذه العصي كانت من أجل استرشاد عمق المسطحات المائية التي سيعبرون ضمنها.

وفي نهاية هذه الدراسة سآتي على ذكر نظرية د. سيد القمني التي حاول أن يقارب، ويشخص فيها ملحمة الخروج، وتلك النظرية لا يمكن تفهمها بشكل واضح دون معرفة التاريخ المصري في مرحلة تل العمارنة على وجه الخصوص، وتحديدا المرحلة الإخناتونية.

البحر الكبير
انشقلون
غزة
حبرون
بير سبع
عراد
حرمة
برية صين
وادي أرنون
مـوآب
وادي زارد
النقب
ادوم
الدلتا
هوارة
قنتير
أرض جاسان
بوبسطا
الطريق الى أرض الفلسطينيين
برية شور
بحيرة التمساح
طريق شور
جبل هلال
جبل هور
قادش برنيع
ايثام
سكوت
فيثوم
البحيرات المرة
مجدل ؟
فم الحيروث
برية فاران
جبال سعير
اهرام الجيزة
أون
(هليوبوليس)
منف
جبل عتاقة
عين موسى
طريق البحر الأحمر
بطبات
تمنه
عصيون جابر (إيلات)
هضبة جبرية
عين هوارة (مارة)
مصر
سرابيط الخادم ايليم
حضيروت
برية سين
تلال رملية
الى بلاد العرب
الوش
تبعيرة
رفيديم
جبل سربال
جبل موسى
جبل سينا
مديان
مسار بني إسرائيل عند الخروج



طريق الخروج ورحلات البرية
لشعب إسرائيل

إخناتون

كانت المملكة المصرية في عهد أمنحوتب الثالث (١٤١٢ - ١٣٨٧ ق.م) قد بدأ الضعف يدب في أوصالها، متزامنا مع بدء ضعف الدولة الميتانية، حليفة مصر الكبرى في سوريا، التي كانت قد بدأت بالتلاشي أمام المد الحثي، الأمر الذي أضعف الهيبة المصرية في الممالك السورية التي كانت تدين لمصر.

وكان من أهم أسباب هذا الضعف المصري في الخارج، هو انشغال السلطة بأمور القصر الفرعوني، لا سيما بعد اندخال العنصر الميتاني السوري في البلاط الفرعوني، وكان أول من أدخل الميتانيين إلى القصر الفرعوني هو تحتمس الرابع بزواجه من أميرة ميتانية، والتي أنجب منها أمنحوتب الثالث، الذي تزوج أيضا من تي بنت يويا الكاهن الأكبر للإله مين، وقائد فرقة الفرسان وحامل ختم الملك، وفم الملك، وأذن الملك، وكاتم سر الملك، والأب المقدس أي الحاكم من وراء الكواليس، وكانت زوجة يويا واسمها تويا المشرفة على ملابس القصر الملكي، (والبعض يُعَدّهما من عموم الشعب المصري)، وكان قد أعلن الفرعون أمنحوتب الثالث أن سيت آمون (أخته الملكية الشرعية غير الشقيقة) زوجة ملكية، وكانت حينها سيت آمون ما زالت طفلة صغيرة، وبذلك فهي تُعَدّ ملكة شرعية، وأمنحوتب الثالث من خلال هذه الزوجة يأخذ شرعية ملكه حسب التقاليد الفرعونية، لكن زوجته الفعلية كانت تي الميتانية ذات الشخصية المميزة - على الرغم من أنها ليست من الدم الملكي - وهذا يعني أن أبناء تي من زوجها الفرعون أمنحوتب الثالث لن يكون لهم حق في تسلم العرش بعده، ولكن أمنحوتب الثالث استطاع إرضاء الكهنة، من خلال ادعائه أن رب الدولة آمون تمثّل في والده الملك تحتمس الرابع، وقد نام آمون بجسد تحتمس الرابع مع موت أم أويا، وبذلك أصبح ابنها أمنحوتب الثالث هو ابن الإله آمون، بل واعتبر نفسه إلها على اعتبار أنه ابن الإله الأكبر آمون، وبذلك فقد جعل شرعية فرعونيته لا تتأتى من زوجته الملكية سيت آمون، بل من كونه ابن الفرعون من جهة، وابن إله الدولة الرسمي آمون من جهة ثانية، وبما أنه إله، فزوجته الفعلية تي إلهة أيضا، وبذلك كان أخوال، وأنسباء أمنحوتب الثالث من الميتانيين السوريين، كما أنه تزوج من الأميرة الميتانية جليوخيبا ابنة

الملك الميتاني شوراتا ، كما تزوج أمنحوتب الثالث بالكثير من أميرات ممالك الشرق القديم، ولكن زوجته تي بقيت الملكة الفعلية ، وهي التي أنجبت له ابنه الأول البكر تحتمس الذي أعلنه أمنحوتب الثالث وليا للعهد بشكل مخالف للتقاليد الفرعونية ، لأن تحتمس وُلد من أم غير ملكية ، وقد اختفى تحتمس بشكل غامض مباشرة بعد أن أعلنه أبوه وليا للعهد ، ويعتقد البعض أن الكهنة قاموا بقتله ، ثم ولدت زوجته تي أمنحوتب الرابع، وقامت أمه تي بعد ولادته بالذهاب به إلى قصر زارو في منطقة الدلتا ، ثم بعثت به ليتربى على يد خاله (آنن) في مدينة عين شمس، ولما بلغ أمنحوتب الرابع من العمر ستة عشر عاما ، عاد إلى القصر الفرعوني في طيبة ليساعد والده في الحكم، وقد قام أمنحوتب الرابع ببناء مدينة أخت آتون (أفق الشمس) في عهد أبيه، وانتقل ليحكم من هناك المنطقة المحيطة بها ، ويعتقد أن المكان الذي قام ببناء المدينة فيه كان يسكن فيه السوريون العموريون وهم الذين أعطوا المكان اسمه الذي اشتهر به (تل العمارنة) ، وقد قام أمنحوتب الرابع بتغير اسمه إلى إخناتون، كما أنه تزوّج أيضا من نفرتيتي الميتانية بنت آي ابن يويا وتويا ، وبذلك أيضا كان أخواله، وأنسباؤه من الميتانيين السوريين، وهم الذين جعلوا الثقافة البلاطية ثقافة سورية ، أكثر منها مصرية.

وبعد موت أمنحوتب الثالث أصبح إخناتون هو الفرعون، وكان عمره حينها لا يزيد عن ستة عشر عاماً ، وقد ساعدته في الحكم أمه السورية تي، كما كانت إلى جانبه زوجته السورية نفرتيتي التي أثرت كثيرا في معتقده الديني الأموني التقليدي، والذي في النهاية زاوج الديانة السورية الميتانية، مع الديانة المصرية التقليدية، واختلق منها الديانة الأتونية، التي تأخذ من الشمس (أتون) إلها واحدا ، مجردا ، لا تمثال له، لأنه أصلا هو مجسد ماديا بقرص الشمس الذي كانت من رموزه الدفء ، والضوء في آن معا ، وهو منبع الحياة على الأرض، وكما أن الشمس هي لكل البشر، كذلك هو آتون إلها واحدا لكل البشر، وليس لمصر، والشعب المصري فحسب، وإذا كان الرب أتون في السماء، فإن إخناتون هو رب (غير صنمي) لآتون على الأرض، وقد جاء في أحد الترنيمات على لسان أحد نبلاء إخناتون {.. وليتني أخدم الإله الطيب إخناتون حتى يمنحني القبر الذي يعطيه} .

كانت عبادة الشمس من العبادات الرئيسية في مصر منذ الزمن القديم، وقد كانت من العبادات الرئيسية في عهد ما قبل الأسرات، ولكنها لم تكن من الديانات الشعبية الواسعة الانتشار، وكانت بسيطة وبدائية ، وقد انتشرت تلك العبادة بشكل مضطرد ، وكان مقرها في عين شمس، ورمزها أبو الهول، وممثلها الإله رع الذي كان المعبود المهم لملوك الأسرة

الخامسة (٢٥٦٠ - ٢٤٢٠ ق.م) وكان يُعَدّ إله السماء الأعظم، وملكاً وأبا الآلهة، وخالق العالم، وقد جاء في بردية آني {هللوا لرع، رب السماء وخالق الآلهة}، أما في بردية هو نفر فقد جاء عن رع {أيها المتوج ملكا على جميع الآلهة، أنت رب السماء والأرض.. أنت المتوج أميرا على السماء، وأنت الواحد الذي يظهر في السماء.. أنت وارث الأبدية، المولود بذاته.. رب الأزل وحاكم الأبدية}،

ولكن هذا الإله (رع) شحب تأثيره لاحقا أمام الإله آمون، إله العاصمة المصرية طيبة، {الإله القدوس} رب جميع الآلهة، وقد عاد الإله رع للبروز ثانية من خلال اندماجه مع الإله آمون (أمون - رع) في مرحلة ما قبل وصول الهكسوس، وتطورت هذه العبادة - حسب ما يرى البعض - بعد دخول الهكسوس السوريين، وزاد تعظيم الإله (أمون - رع)، وأصبح يلقب بملك الآلهة، ورب عروش العالم، ملك الآلهة، أو الروح القدس، الوجود في البدء، الإله العظيم الذي يحيا بالحق والحقيقة، الكائن الذي يوجد فيه كل إله، الواحد، خالق الأشياء، رب المكان، رب الزمان، عابر وصانع الأبدية، وبذلك فإن المصريين كانوا يدينون برب واحد، هو رب وخالق الأرباب الذين كانوا من نسله، ومن مساعديه، وهؤلاء الأرباب لا يمتلكون حق التصرف إلا بمشورته، وبذلك يمكن تصنيفها، أو توصيفها بأنها عقيدة شبه توحيدية، أو توحيدية بدائية، وهناك نص يبرز فيه الجانب التوحيدي للإله الأكبر، قبل الأخناتونية بكثير

واحد، ولا ثاني له. واحد خالق كل شيء
قائم منذ البدء، عندما لم يكن حوله شيء
والموجودات خلقها بعدما أظهر نفسه إلى الوجود
أبو البدايات، أزلي أبدي، دائم قائم
خفي لا يعرف له شكل، وليس له من شبيه
سر لا تدركه المخلوقات، خفي على الناس والآلهة
سرٌ اسمه، ولا يدري الإنسان كيف يعرفه
سرُ خفي اسمه. وهو الكثير الأسماء
هو الحقيقة، يحيا في الحقيقة، إنه ملك الحقيقة
هو الحياة الأبدية به يحيا الإنسان، ينفخ في أنفه نسمة الحياة

هـو الأب والأم، أبـو الآبـاء وأم الأمهـات
يلـد ولم يولـد. ينجـب ولم ينجبـه أحـد
خـالق ولم يخلقـه أحـد. صـنع نفـسه بنفـسه
هـو الوجـود بذاتـه، لا يزيـد ولا يـنقص
خـالق الكـون، صـانع مـا كـان والـذي يكـون ومـا سـيكون
عنـدما يتـصور في قلبـه شيئا يظهـر إلى الوجـود
ومـا يـنجم عـن كلمتـه يبقـى أبـد الـدهور
أبـو الآلهـة رحـيم بعبـاده، يـسمع دعـوة الـداعي
يجـزي العبـاد الـشكورين ويبـسط رعايتـه علـيهم

وبذلك فإن التصور التوحيدي في مصر الفرعوني كان شائعا منذ البداية، ولم يكن الآلهة الذين تتغير أسماؤهم، وصفاتهم عبر الأزمان، والأسرات الفرعونية، سوى آلهة عابرين، وحسب شامبيليون الذي كان قد قال في زمن مبكر سنة ١٨٣٩م {الدين المصري يقوم على معتقد توحيدي صاف، يعبّر عن نفسه خارجيا بصيغة شركية تعددية}، وهذا الكلام هو أكثر دقة في وصف عقائد منطقة الهلال الخصيب من العقائد المصرية.

وبعد اندحار الهكسوسية، أصبح (آمون رع) الإله الشعبي والرسمي في مصر

هـو الـروح القـدس الموجـود منـذ البـدايات
هو الإله المعظم الذي يحيا في الحقيقة، وبه يحيا الآلهة
الواحد الذي صنع كل ما ظهر في البدايات الأولى
ميلاده سر، وأشكاله لا حصر لها، وأبعاده لا تقاس
كـان، عنـدما لم يكـن هنالـك شـيء

وقد برز الجانب الشمسي (رع) في عهد الفرعون أمنحوتب الثالث، أما في عهد إخناتون فقد استطاع الجانب الشمسي (رع) أن ينتصر على الإله آمون، وأن يعلن حربا على كل الآلهة، وأن يصبح الإله الوحيد باسم أتون، بتأثير سوري جاء عن طريق هيمنة العائلة السورية الميتانية على فراعنة تل العمارنة، وقد قام أتون بابتلاع جميع الآلهة أبنائه، وأصبح هو الإله الواحد، الوحيد، وكلمة أتون تعني قرص الشمس، ومن الصعب التمييز بين رع (الشمس)، وأتون (قرص الشمس)، ويبدو أن الفارق بينهما هو فارق كهنوتي.

وقد وضع إخناتون على رأس اهتماماته نشر هذه الديانة، ليس على مستوى البلاط الفرعوني، بل حاول أن يبشر بها في الأوساط الشعبية، وشن حربا ضد الديانة الآمونية، بل يمكن اعتبار الأتونية الأخناتونية التوحيدية في بعض جوانبها حرباً غير معلنة ضد الجهاز الكهنوتي التقليدي.

لقد كان المعتقد الأتوني معتقدا عنصريا، فقد قام إخناتون بمحاولة إقصاء حقدي لكل آثار ونقوش الديانة المصرية التقليدية وبالأخص ما يتعلق بالإله آمون، حيث قام بشطب جذر آمون من جميع النقوش المصرية أينما وجدت، وحتى من اسم والده آمون حوتب، وشن حربا واسعة ضد الجهاز الكهنوتي الآموني على وجه التحديد، وهو الجهاز الضخم الذي كان له نفوذ واسع في أوساط السلطة والشعب، وهذا الجهاز الكهنوتي الذي تضرر كثيرا من العقيدة الأتونية ساهم، وبشكل رئيسي، في إسقاط الأتونية التي اقتصر معتنقوها على الملك وحاشيته، والجاليات الأجنبية المستفيدة، لأن الشعب المصري الوطني لم يتقبل هذه العقيدة الأجنبية، لا سيما وأن الكاهن الأتوني الأكبر كان أجنبيا (سوريا)، وكان جلّ من آمن به هم حاشيته، وجاليات من الأجانب الآسيويين، وبعض المثقفين المصريين، ولم يكتف إخناتون عند ذلك، بل حاول نشرها في الشرق الأدنى القديم، وقد أتى في رسالة من الملك البابلي الكوشي بورياش الثاني (١٣٧٥ - ١٣٧٤ ق.م) إلى إخناتون {إني باذل الآن جهدا كبيرا في بناء المعبد وسوف أنجز العمل بدقة، فارسل لي قدرا وافيا من الذهب}.

وقد أدى انشغال الفرعون إخناتون بنشر عقيدته الجديدة، على حساب اهتمامه بالشؤون السياسية والعسكرية الداخلية والخارجية، إلى ازدياد، وتفاقم الضعف المصري السياسي، والعسكري، في مصر، وفي الممالك التي كانت تحت هيمنة السلطة المصرية، وعلى وجه الخصوص في بلاد كنعان، وهو ما عكسته رسائل الاستنجاد التي كان يبعث بها حلفاء مصر في بلاد كنعان، والتي بسبب ضعف القوة المصرية، وفقدان مصر لهيبتها العسكرية، وعدم اهتمامه بالأمور العسكرية والسياسية الخارجية، لم تلق هذه الاستغاثات أذنا صاغية، على اعتبار أن للشعوب الحق في أخذ حريتها، حسب التصور والمعتقد الآتوني الأممي، وكنت قد أوردت بعض هذه الرسائل المهمة، وجاء في رسالة من أحد ولاة إخناتون في بلاد كنعان {اصغ إلي.. لماذا ركنت إلى الانعزال على حين أنهم يأخذون أرضك، لا تدع هذه الأقاويل تقال عنك في المستقبل، وهي أنك قادرا على إنقاذ ممتلكاتك}، وجاء في رسالة من رسائل تل العمارنة، والتي كانت تكتب باللغة الآرامية وبالخط المسماري البابلي،

بعث بها نفس الملك البابلي الكوشي بورنا بورياش الثاني يقول فيها {في عهد أبي كوريكالزو أرسل إليه الكنعانيون يقول: لنذهب إلى مصر ولنغزوها جميعا، وسوف نعقد معك حلفا، أما أبي فقد أجاب على رسالتهم قائلا: ليكن الحلف ما بينكم، لكن لتحذروا جانبي إذا لما كان ملك مصر حليفي فمن ذا الذي يصدني عن غزوكم، وهكذا من أجل أبيك لم يسمع أبي قولهم} ، لكن إخناتون لم يول أي اهتمام بتلك الرسائل، لا سيما وأن إخناتون كان منشغلا إلى جانب ثورته الدينية، بأمور قصره وغوانيه وكتابة الشعر والصلوات.

ولأن إخناتون كان ذا فكر أممي، فقد جند في جيشه المصري، الكثير من الجنود من جنسيات مختلفة، سورية بالدرجة الأولى، ونوبية أفريقية بالدرجة الثانية حسب ما يتبين من بعض اللوحات الجدارية، وكان خال إخناتون آي ابن يويا له الدور الأكبر في سياسة ودين إخناتون، وقد كان يشغل منصب قائد الخيالة، ورئيس الحرس الفرعوني، والذي يتألف في غالبيته، إن لم يكن في مجمله، من الأجانب الذين كانت تعج بهم مصر التي كانت محج الشعوب بسبب غناها، وهم الذين زعزعوا النظام والدين التقليدي المصري، الذي بدأ يُعدّ العدة سرا لاسترجاع السحنة الدينية والثقافية والسياسية المصرية، بعد أن أصبحت ذات سحنة سورية.

وقد بدا إخناتون كما لو أنه ضرب بعرض الحائط كل القيم والأعراف المصرية، وحسب ما أورده السيد القمني، تزوج إخناتون من والدته وانجب منها ابنته (بكتاتن)، كما أنه تزوج أو ضاجع إحدى بناته، وكانت رسومه العائلية مع زوجته نفرتيتي، وأمه أيضا، وبناته، وهن عاريات أو شبه ذلك، وبالتحديد كانت فروجهن عارية، وفي النهاية، ولأسباب غامضة اختفت نفرتيتي عن المسرح، ويعتقد أن ذلك كان نتيجة لفضيحة جنسية، وهذا أدى إلى تعمق دور الملكة الأم تي، ويعتقد أن نفرتيتي قد أقامت في قصر متطرف خاص بها وهناك اعتزلت.

ولا بد أن هذا التمرد الكبير، والوقح على الديانة، والقيم التقليدية المصرية، الذي قام به إخناتون قد أثار حفيظة المصريين، ولا سيما الأقطاب الدينية، والاجتماعية، والسياسية ذات الطباع المبالغة في الاعتزاز بالنفس، والترفع الذي يصل حدا شوفينيا، ولذلك فقد تمسكوا بديانتهم، وبآلهتم المصرية، ورفضوا الركوع لآلهة أجنبية، ولذا فقد استطاع الكهنة التقليديون بالتعاون مع القيادات العسكرية في النهاية التآمر على إخناتون (الهرطقي الكافر).

وفجأة اختفى إخناتون من القصر، واختفاؤه ما زال لغزا يحاول الباحثون الوصول لحله، فالبعض يعتقد أنه مات، ولكن لم يحظ موته بالتقدير، ولذا لم يدفن في مدفنه الخاص الذي كان قد أشرف على حفره إبان وجوده على العرش، لا سيما وأن البعض يعتقد أن إخناتون كان مصابا بمرض عضوي أدى إلى تشوهه الجسدي، حسب ما تبينه رسوم صوره قبل اختفائه، وربما أصيب بالعمى في نهاية حياته البلاطية، وهنا لي أن أشير إلى وجود تشابه ما بين اختفاء محنطة إخناتون، واختفاء جسد السيد المسيح الإنجيلي من مدفنه، كما لي أن أذكر أيضا أنه اكتشف في مدينة أور الملكية، وفي مقبرة الملك أبارجي على سفينتين، أو مركبين صغيرين أحدهما من الفضة، والآخر من النحاس، كما أن بقايا جثة الملك أبارجي كانت مفقودة، بينما جثث حاشيته، وزوجته (المدعوة شبعد) فكانت ما زالت في مكانها، وهذا التنويه له ما يسوغه، والذي سأعود إلى نقاشه في فصل لاحق.

ويعتقد البعض، ومنهم أحمد عثمان، أن إخناتون كان قد تخلى - حسب نصيحة مستشاره آي بن يويا - عن العرش المهتز تحت ضغط القوى المصرية المحافظة، وعاش منفيا في سيناء في منطقة سرابيط الخادم حيث هناك عثر على معبد إخناتوني يعود تاريخه إلى زمن لاحق لحكم إخناتون، أما بالنسبة لأتباعه فقد تم اعتقالهم، وأجبروا بعد مرحلة على أعمال السخرة في منطقة الدلتا حسب ما جاء به المؤرخون القدماء، وحسب ما تبناه بعض الباحثين أيضا.

وحسب فراس السواح فقد تحالف الجهاز الكهنوتي التقليدي المصري، والقيادات العسكرية الذين لم يرق لهم انهيار الهيبة العسكرية المصرية، وقد أحكم هذا التحالف الكهنوتي العسكري الطوق على إخناتون، وجعلوه يتنازل عن سدة الحكم، ومات بعدها بوقت قصير، وحينها قام الجهاز الكهنوتي بإزالة آثار تلك المرحلة، وقد تم محو اسم إخناتون من النقوش الجدارية، ومن تابوته أيضا، بل ومن عن الصفيحة الذهبية التي كان يجب أن يكفن بها، وحسب سواح فقد تم نقل جثمان إخناتون من مقبرته في مدينته، ودفن في مقابر الملوك بمدينة طيبة.

وبعد اختفاء إخناتون، عادت نفرتيتي إلى ساحة الأحداث، وحاولت أن تسترد ما ضاع منها، فأرسلت إلى الملك الحثي شوبيلوليما رسالة تطلب منه أن يبعث بأحد أبنائه لتكون له زوجة، وبذلك يتولى عرش مصر، وقد قام الملك الحثي شوبيلوليما بتنفيذ رغبتها، ولكن تلك الخطة كانت قد كشفت للقائمين على القصر، فقاموا بقتل الشخص الذي بعث به شوبيلوليما على الحدود المصرية، ويعتقد أن وراء إحباط تلك المحاولة كان حور محب، وقد

وجد نص حثي في بوغازكي من عهد مورسيل الثالث ابن شوبيلوليما، سجل هذه الأحداث {بعثت ملكة مصر إلى أبي رسولا وكتبت في رسالتها تقول: مات زوجي وليس لي ابن، فلو منحتني أحد أبنائك لصار لي زوجا، ولن أختار قط واحدا من خدمي ليكون لي زوجا. وأنا خائفة. وعندما سمع أبي هذا دعا إليه العظماء للتشاور وقال لهم: إن شيئا مثل هذا لم يحدث لي في حياتي قط}، ويعتقد البعض أن هذه الرسالة كانت موجهة من (عنخ اسن ان باتون) أرملة توت عنخ آمون.

وبعد اختفاء إخناتون، تولى الحكم بدعم من كهنة آمون الوريث الشرعي سمنخ كا رع ابن إخناتون، والذي كان قد تزوج بأخته مريتاتن بنت نفرتيتي، وبعد بضعة شهور، وبشكل مفاجئ أصبح توت عنخ أتون هو الملك، والذي كان قد تزوج بأخته انخسنياتن بنت نفرتيتي أيضا، وقد بدأ بحرب على رموز الديانة الأتونية، وبدأها بتغيير اسمه من توت عنخ أتون، إلى توت عنخ أمون، وأزال آثار الديانة الأتونية النقشية، والنصية، ولكن، وبشكل مفاجئ مات توت عنخ آمون، ويعتقد البعض أن موته تم قتلا على يد أحد المقربين، أو بيد أحد خدمه، وأهم المتهمين في تدبير قتله هما آي بن يويا، أو حور محب، والبعض يذهب إلى أنه قتل في حرب مجهولة، ويعتقد أن ذلك كان من خلال هجمة أجنبية استقدمها أخوه سمنخ كا رع، وحسب سيد قمني، فإن هذه الأحداث تتقاطع مع حملة الهكسوس الثانية التي قامت بها مدينة أورشليم الهكسوسية بالتحالف مع أوزرسيف على بلاد مصر، حسب رواية مانتون، وفي النهاية استطاع آي بن يويا الذي كان يحرك الأحداث من وراء الكواليس، وبعد أن تزوّج بأرملة توت عنخ آمون ابنة إخناتون انخسنياتن، أن يتسلم عرش مصر، وقد سدد الضربة الأخيرة على الأتونية، واسترجع الديانة الآمونية، وقد جاء في أحد النقوش أن حور محب قائد الجيش في عهد توت عنخ آمون {كان يحرس قدمي سيده في ميدان القتال يوم ذبح الآسيويين}، وهذا يشير إلى معركة دارت بين الآسيويين وبين الجيش المصري.

ومن قصة إخناتون هذه، والتي تمت كتاباتها بطريقة استقرائية للنقوش، والرسوم التي تركها إخناتون، مع الاستئناس ببعض النصوص، والسياق العام لتاريخ مصر، ومن خلال بعض الخطوط العامة التي وردت في هذه القراءة التاريخية لإخناتون استقرأ بعض الباحثين وجود خطوط عامة مشتركة بينها وبين أسطورة أوديب الإغريقية، وقد ذهب بعض الباحثين، وبإيحاء من فرويد، ومنهم فليكوفسكي أن أسطورة أوديب ليست سوى هلينة لتاريخ إخناتون، والجدير ذكره أن هيرودوت لاحظ وجود تشابه بين أسطورة سوفكليس أوديب،

وبين ميلاد الملك الفارسي قورش، وبما أن هؤلاء الباحثين قد سبق وبينوا الخطوط الكبرى التي تجمع بين أسطورة أوديب، وقصة موسى التوراتية، فقد انتهوا أيضا إلى أن قصة موسى التوراتية هي أيضا تهويد لتاريخ إخناتون.

كان فرويد أول من ربط بين أسطورة أوديب، وتاريخية إخناتون، أما فليكوفسكي فقد اكتشف تناصاً ما بين أسطورة أوديب وما بين قصة إخناتون، أما أحمد عثمان فقد ربط بين إخناتون وموسى، وقد ذهب إلى أن إخناتون بعد خلعه عن العرش تم نفيه إلى سرابيط الخادم على مقربة من جبل سيناء، وقد ذهب السيد القمني في كتابه (النبي موسى وآخر أيام تل العمارنة)، أن موسى، وأوديب هما وجهان أدبيان لإخناتون التاريخي نفسه، وهو يرى أن الكهنة المصريين التقليديين (كهنة أمون)، تحالفوا سرا مع بعض شخصيات البلاط الفرعوني، ضد إخناتون، وضد أقطاب الديانة اليهوية السينائية الميتانية، والجدير ذكره أن سيد القمني يذهب إلى أن مملكة ميتان الحورية كانت في سيناء، وليست في الفرات الأوسط كما هو شائع.

واستطاع المتآمرون بالتعاون مع كهنة آمون من اغتصاب العرش، وقاموا بنفي إخناتون إلى مدينة حواريس مع من تبعه من الآسيويين من معتنقي الديانة اليهوية السينائية الميتانية، وهناك وُضع إخناتون تحت الإقامة الجبرية لمدة أربع سنوات، وهناك التف حوله إضافة إلى أتباعه بقايا الهكسوس والعبرانيين، وإخناتون هو نفسه أوزرسيف الذي أورده المؤرخ مانتون حسب رأي سيد القمبي.

وقد حاول إخناتون أن يسترد عرشه المغتصب، وراسل هكسوس سيناء، وبلاد كنعان، وتحديدا مدينة أورشليم، وقد استجاب الهكسوس لذلك النداء، وزحفوا نحو مصر في عهد توت عنخ آمون (الغزوة الهكسوسية الثانية) وانتهت الحملة بفرار المتمردين والهكسوس الغازين نحو سيناء عبر برزخ أو خصر ضمن بحيرة التمساح، وقد تم تأريخ تلك الأحداث بشكل أسطوري من خلال سفر الخروج التوراتي، وبطولة موسى.

والجدير ذكره أن سيد القمني يذهب إلى أن يوسف قد دخل مصر على عهد آخر حاكم هكسوسي المدعو أسيس (أبوفيس) = عزيز، وقد لحق به الكثير من الجماعات العبرية حيث استوطنوا على مقربة من العاصمة الهكسوسية، كما أنهم انظموا إلى التحالف الهكسوسي، وأصبحوا جزءاً منه، لكن المحرر التوراتي أراد أن يحجب هذا، ولذا قام بصياغة شجرة عائلة إسرائيل نسب إليها يهوذا الآرامي الهكسوسي، الذي كان قد دخل بجماعته إلى مصر أولا، ثم لحق به جماعة إسرائيل، وقد خرج من مصر اليهوذيين الهكسوس

أولا بعد بقائهم ٢١٥ سنة في سياق الاندحار الهكسوسي (الخروج الأول)، وهم الذين استقروا في جنوب بلاد كنعان (حسب ما ذهبت إليه أيضا كاثلين كينون)، وقد تم في سياق طرد الهكسوس أسر الجماعات الإسرائيلية في مصر على اعتبار أنهم كانوا جزءا من التحالف الهكسوسي، أو على الأقل كانوا قد تواطؤوا مع الهكسوس أثناء احتلالهم لمصر، وبسبب مشاعر البغضاء التي كنها المصريون للجماعات الإسرائيلية، فقد قام المصريون باستعباد الجماعات الإسرائيلية، وهذه الجماعات هي التي خرجت من مصر بعد ٢١٥ سنة من اندحار الهكسوس، أي بعد ٤٣٠ سنة من دخولهم إلى مصر (الخروج الثاني)، وبعد اختفاء إخناتون بعشر سنوات، وهم الذين استقروا في شمال بلاد كنعان (منطقة إسرائيل)، والقمني في هذا يخالف فرويد الذي ذهب إلى أن الذين خرجوا من مصر مع موسى استقروا في الجنوب.

وجميع هذه الطروحات حول ارتباط أسطورة أوديب، وموسى، بتاريخية إخناتون، هي اعتقادات افتراضية، ولكن أحيانا يتحول الاعتقاد الافتراضي الاحتمالي، إلى تصور أكثر رسوخا، ويصبح من الصعب على صاحب التصور، بل من الاستحالة التخلي عن اعتقاده الشخصي الذاتي، حتى لو تم اكتشاف دلائل ومعطيات موضوعية تدحر هذا الاعتقاد، وخير مثال على ذلك هو ما ذهب إليه د سيد القمني الذي ذهب بعيدا في بحثه عن عناصر أوديب، وموسى النصيين الأدبيين، في النص التاريخي لإخناتون، وأصبح بحثه رجوعا إلى الوراء، أي راح يبحث عن عناصر النص الأوديبي في التاريخ الإخناتوني، فعلى سبيل المثال فقد حاول سيد القمني أن يحفر في التاريخ الأخناتوني عله يكتشف، أي شيء يوحي بإصابة إخناتون بالعمى على غرار ما حصل مع أوديب، وقد افترض أن إصابة إخناتون بالمرض العضوي الذي أدى إلى تشوهه الجسدي، أدى أيضا إلى حدوث العمى لديه، وإذا ما سلّمنا بصحة هذا الافتراض، فمن الممكن أن نذهب إلى أن تشوه إخناتون الجسدي الذي جعل شكله كما لو أنه ليس من طينة بشرية أسبغ عليه مزيدا من القدسية، وعزز ادعاء إخناتون بالألوهية، كما من الممكن أن نذهب إلى أن عصا موسى التوراتية، لم تكن سوى عصا إخناتون الذي أصيب بالعمى، والتي كان يسترشد بها طريقه، إلى جانب رمزيتها الملكية على اعتبارها صولجانا، والتي اختفى ذكرها تماما بعد وصول إيلاف الخروج إلى جبل سيناء، كما يمكن لنا، وتمشيا مع افتراض القمني بإصابة إخناتون بالعمى، أن نفترض أن إخناتون كان يعاني من مشكلات في الرؤية، وربما تحديدا من ضعف في النظر، ومن عشى ليلي، وهو الأمر الذي قد يكون من أحد الأسباب التي دعته لتبني عبادة الشمس (أتون) رمز الضوء، والرؤية التي كان يعاني إخناتون من ضعف فيها.

والقمني بميله نحو الذاتية أكثر من ميله نحو الموضوعية حوّل افتراضاته إلى حالة تصورية عقيدية، وقد جاء في كتابه (النبي موسى وآخر أيام تل العمارنة) {إن فليكوفسكي الذي نعى على فرويد عدم التقاطه لأوديب باعتباره إخناتون، لم يلتقط بدوره وعلى الرغم من اهتمامه بالشخصيات الثلاث أن من الممكن أن يكون إخناتون هو موسى أيضا، ولم يلتقط أحمد عثمان بدوره أنه من الممكن أن يكون إخناتون هو ذات أوديب، بينما فليكوفسكي نفسه على الرغم من اهتمامه بالشخصيات الثلاث موسى وأوديب وإخناتون فإنه لم يستطع أن يرى أنهم كانوا شخصا واحد}، وهنا يمكن لي أن أقول بصيغة العتب، على سيد القمني تعيبه على من سبقوه بعدم إمساكهم بما كانوا قد لمسوه، وهو الذي كان قد شخص تعبير أحمد عثمان، وبيّن أن أحمد عثمان قد اختار التلميح، لا التصريح وسيلة تعبيرية لما يريد إيصاله إلى القارئ ملتفا بذلك على حراس وسدنة النص الديني، كما لم يأخذ بالحسبان أن الباحثين يقومون ببناء طبقات هرم معرفي، على ما يؤسس له السابقون، وإن كان هو قد استغرب عدم اكتشاف الآخرين تصورا كان بين أعينهم، ولم يروه، كذلك يمكن لي أن أقول، كيف لم يكتشف سيد القمني العلاقة التي تجمع بين إخناتون، وبين الرب (يَهْوَه)؟، والذي كان أحمد عثمان قد قاربه دون أن يشخص أو يضع تصورا له، وكذلك بالنسبة لسيد القمني نفسه، الذي قارب أو لمس تصورا، بل وربما رآه أيضا، ولم يمسك به، أو لم يشأ أن يفعل ذلك، ولكنه لم يلامس، أو يحاول أن يشخص تطابق أسطورة الرب (يَهْوَه)، وموسى من جهة، والمسيح من جهة أخرى.

وتتمة لما تقدم في الفصول السابقة، ولا سيما في معرض تحليلي لشخصية موسى، والرب (يَهْوَه)، واستنتاجا على ما ذهب به بعض الباحثين، فلي أن أذهب إلى أن:

ملحمة الخروج التوراتية، ما هي سوى أسطورة أدبية تم استقراض أجزائها من أكثر من تراث، فأسطورة ولادة موسى، تم استقراضها من أسطورة مولد العاهل الأكادي سرجون الأول.

أما المصائب الاثنتي عشرة، فقد تم استقراضها من أسطورة مصرية تعود نواتها الأولى التاريخية إلى مرحلة المملكة القديمة، وقد تطورت كأسطورة في مرحلة المملكة الوسطى، أي تعود إلى الفترة قبل الهكسوسية، وقد تم ذكر أجزاء منها في بردية لايدن، وبردية الارمتاج، ونقش حجر الرشيد، وجميع هذه النصوص تصف حالة مصر بشكل قريب إلى وصف المصائب الاثنتي عشرة التي وردت في سفر الخروج، وكان محررو التوراة قد قاموا

بتهويدها، ودسوها في سياق سرد ملحمة الخروج التي تعود إلى حادثة تاريخية تمت في سياق النصف الثاني من الألف الثانية قبل الميلاد.

وبناء، وافتراقا، على ما أتى به السيد القمني بالدرجة الأولى، وسواه من الباحثين ولا سيما أحمد عثمان بالدرجة الثانية، يمكن لي طرح عدة تصورات افتراضية، بعد أن أشير إلى أن إخناتون تولى العرش وكان عمره بحدود ١٦ سنة، وحكم قرابة عشرين سنة بين (١٣٨٧ - ١٣٦٦ ق.م)، أي اختفى وعمره بحدود خمس وثلاثين سنة، وقد جلس على العرش بعده سمنخ كا رع لمدة قصيرة، ثم وليه توت عنخ آمون (١٣٦٦ - ١٣٥٧ ق.م)، ثم آي بن يويا (١٣٥٧ - ١٣٥٣ق.م)، ثم حور محب (١٣٥٣ - ١٣١٩ق.م)، ثم رعمسيس الأول (١٣١٩ - ١٣١٨ق.م)، ثم سيتي الأول (١٣١٨ - ١٢٩٩ ق.م).

إن اختفاء إخناتون المفاجئ والغامض، دون أي إشارة إلى مصيره، إضافة إلى عدم وجود موميائه في مقبرته، إضافة إلى وجود بعض النصوص التي تركها بعض أتباع إخناتون، والتي كانت تؤرخ لتلك النصوص كما لو أن إخناتون ما زال على عرشه، يمكّننا من وضع عدة افتراضات لاختفاء الفرعون إخناتون، منها تنازله عن العرش، أو موته، أو اغتياله، أو فراره من محاولة اغتيال، أو خلعه عن العرش واعتقاله، أو إجباره على الإقامة في مكان ما، أو نفيه خارج حدود مصر حسب ما ذهب إليه أحمد عثمان، أو فراره من محاولة اغتيال، وهو الافتراض الأكثر احتمالا من بين الافتراضات السابقة، وأفضل مكان يمكن لنا أن نخمن أن إخناتون اختاره كمخبأ له بعيدا عن السلطة الفرعونية، سيكون أقرب مكان إلى مصر، وخارج حدود هيمنتها المباشرة، وغير المباشرة، كما أنه سيختار مكانا يمكنه من خلاله أن يتابع مجريات الأحداث في مصر عن كثب، وخير موقع يتصف بما سبق هو جنوب سيناء، فهذا المكان النائي، والذي على الرغم من قربه من مصر لم يكن قط تحت الحماية المصرية، أو حتى الرافدية، لوضعه الجغرافي والديمغرافي الخاص، وصعوبة الحياة المستقرة فيه، وكل ما كان لمصر في جنوب سيناء هو وجود بعض مناجم الأحجار الكريمة التي كانت لا تحتاج إلا إلى القليل من الحرس.

إن صعوبة الظروف البيئية في سيناء ككل، وجنوبها بالخاصة جعلت الكثافة الديمغرافية فيها ضعيفة، فلم يكن هناك سوى بعض الجماعات البدوية المديانية التي تأتي، وتنكص إلى شمال الجزيرة العربية حسب المواسم المطرية، وبعض الجماعات الهكسوسية التي كانت قد طردت من مصر، وفي مثل هكذا مكان يمكن لإخناتون أن يختفي فيه هو وأتباعه من الكهنة، والجنود، دون أدنى مساءلة، وهو في الوقت نفسه

يشكل مكانا مناسبا لممارسة طقوسه الدينية، كما يمكن لرسله أن يتنقلوا بين مصر، وهذا المكان بحرية ودون الخوف من تعقبهم، وهم يأتون بأخبار العرش الفرعوني، وأخبار أتباعه الذين تم اعتقالهم من قبل السلطة المصرية، وقد وضعوهم تحت الإقامة الجبرية في الدلتا، وأجبروهم على القيام بأعمال السخرة، مع بعض الجماعات الأخرى من العبيد، والأسرى، لا سيما منهم العبرانيون الذين تم اعتقالهم، واضطهادهم بعد الانحدار الهكسوسي، والذين تعرضوا لمزيد من الاضطهاد بعد الانحدار الإخناتوني على اعتبارهم من الأجانب، والأجانب هم الذين شكلوا القاعدة، والعمق العقيدي للديانة الأتونية، وقد برز من بينهم أحد أتباع إخناتون المهمين، وحسب المؤرخين القدامى كان اسمه أوزرسيف، وفي مرحلة لاحقة بدأ هذا اللفيف ينظم صفوفه وراء أوزرسيف الذي كان يشكل صوت تذمرات المضطهدين، لا سيما بعد موت الفرعون توت عنخ أمون بن إخناتون، واستيلاء آي بن يويا، والذي تسلم بعده العرش قائد الجيش حور محب، الذي تابع سياسة من سبقه في كنس كل آثار، وتأثيرات المرحلة، والديانة الإخناتونية، وزاد من اضطهاده لأتباع إخناتون.

وفي ذلك الوقت كان إخناتون يتابع مجريات الأمور في منطقة الدلتا، من خلال بعض اتباعه الذين كانوا ينقلون له رسائل سرية تصله تباعا، وأنا أذهب إلى أن هارون كان أحد هؤلاء الرسل، كما أن إخناتون تعرّف في سيناء على الديانة السينائية، كما تعرّف على شيوخ الجماعات المديانية، والهكسوسية، وعلى ديانتهم، وآلهتهم، وعاداتهم، وتقاليدهم، واطلع على الديانة المديانية، ولا بد أنه تأثر بها، كما تعرف على شخصية مهمة جدا من الشخصيات الهكسوسية في سيناء، أُطلق عليها في التوراة اسم موسى والذي يعني بالمصرية الابن (ابن الإله، أو راعي الإله)، والذي يعني في الوقت نفسه الرب على اعتباره ابن، أو معيل، أو راعي الإله على الأرض، وهو من الألقاب التي اختص بها الفراعنة، وإن كان قد لقب به بعض الشخصيات المهمة غير الفرعونية، وأنا أذهب إلى أن موسى يمثل صفة، أو لقبا، وليس اسما.

وموسى السينائي هذا، حسب اعتقادي، يعود بجذوره إلى الجماعات الهكسوسية التي كانت قد طردت من مصر، وهو الذي كان يعمل راعيا عند يثرون (راعوئيل)، والذي يبدو أنه الكاهن الأكبر للجماعات اليهوذية في سيناء، أي أن يثرون حمو موسى السينائي.

وقد عرّف إخناتون نفسه إلى (موسى السينائي) على أنه الرب، ولأنه لا يستطيع أن يفشي له بحقيقة أمره، وحقيقة اسمه، بعد أن فقد اسمه الفرعوني الملكي، فقد قال له الرب (أنا)، أنا هو الرب، أنا هو أنا، وبذلك يكون في صيغة الغائب (هو) أو (يَهْوَه) أي هو الذي هو، أي هو (الرب الذي تعرفونه) وليس سواه، وهي الصيغة التي سوف يقوم موسى بإيصال رسائل الرب، وتعليماته، إلى أتباعه الذين تواً سيعرفون من هو (أنه هو إخناتون، أو هو الذي كان الفرعون إخناتون)، ولأن إخناتون كان قد مر عليه زمان طويل خارج مصر فإن الجيل الجديد من أبناء وأحفاد أتباع إخناتون لا يعرفونه، بل يعرفه آباؤهم «إله آبائكم أرسلني إليكم»، أي الملك الذي كان يحكم على آبائكم، ومن أجل التأكيد على ذلك أعطى إخناتون صولجانه الفرعوني (عصى موسى) إلى موسى ليكون شاهداً على ادعاء موسى بأنه رسول (الرب) إخناتون إليهم صدق، وحسب أحمد عثمان فإن إخناتون بعد سقوطه عن العرش أصبح بلا اسم، إنه هو فحسب، أي إنه الرب فحسب، وحسب القمني {الإله كان فعلا، ولم يكن اسما وليس له اسم، إنه فقط (هو)}، وهو لا ينادى باسمه إجلالا وإكراما ورهبة، بل هو (الكائن)، (هو الذي هو)، أو (أنا الذي أنا)، (أكون الذي أكون)، أو الفعل المضارع منه (يَهْوَه)، أي يكون، وهنا نفترض أن (يَهْوَه) أول ما عرف في مرحلة موسى، على الرغم من أن هناك الكثير من النقوش التي توحي بمعرفة الرب (يَهْوَه) في زمن سابق، وفي أماكن متعددة من الشرق الأدنى القديم، وهنا من الواجب أن نذكر أن الكثير من الباحثين يعتقدون أن الإله (يَهْوَه) كان معروفا من قبل عدة شعوب، وفي أكثر من مكان، وفي زمن أقدم من زمن إخناتون، والبعض يعتقد أن (يَهْوَه) كان إله الحرب عند المديانيين، وقد قام محررو التوراة بتدبيج الحوار بين الرب، وبين موسى من أجل إعطاء تبرير لغوي لتسمية الرب بـ (يَهْوَه).

وبعد أن طلب إخناتون من موسى أن يذهب إلى مصر، طلب منه أن يعلن للجماعات الإسرائيلية، على وجه التحديد، أن الرب (يَهْوَه) هو في الحقيقة الإله إيل نفسه الذي يعبده الإسرائيليون، وكان إخناتون قد تذكر تلك الجماعات العبرية، وتذكر معاناتهم التي رآها بأم عينه أثناء إقامته في القصر الملكي في منطقة جاسان في طفولته، فقرر تحريرهم من عبوديتهم.

وقد تم الاتفاق بين الطرفين (الرب إخناتون، والرسول موسى) على تحرير جماعتيهما، أتباع إخناتون (الرب هو) الذين تم اضطهادهم بعد خلعه عن العرش، والجماعات العبرية الذين تم أسرهم بعد طرد الهكسوس، على أن يقوم هذا الحلف بقيادة الرب باجتياح بلاد كنعان،

كي تعود الجماعات العبرية (في مصر، وفي سيناء التي يقودها موسى) إلى حيث كانت من قبل.

وبعد هذا الاتفاق طلب إخناتون من موسى أن يعود برفقة هارون الذي ربما قد أتى مستنجدا بإخناتون لينصر أتباعه في منطقة الدلتا، الذين بدأوا انتفاضتهم في مرحلة كان البلاط الفرعوني مشغولاً بترتيب أمور العرش بعد موت الفرعون حور محب (١٣٥٣ - ١٣١٩ق.م)، الذي كان قد اضطهد الجماعات العبرية والإخناتونية في سياق تكنيس ما تبقى من آثار الديانة الأتونية، واستلام وزيره الأول، وقائد جيشه رعمسيس الذي كان قد قام باضطهاد تلك الجماعات أثناء قيامه ببناء الحصون والمخازن في منطقة الدلتا في عهد الفرعون حور محب.

ولكن على ما يبدو أن (موسى السينائي) في الطريق قرر ألا يذهب في هذه المغامرة، فهو لا يعرف اللغة التي تتحدث بها الجماعات العبرية، كما أنه لا يعرف لغة الفراعنة، فقرر العودة إلى بيته، لكن إخناتون الذي كان قد أعطى موسى بعض أسراره لحق به، وهدده بالقتل، ولكن تدخل زوجة موسى حال دون ذلك «وحدث في الطريق في المنزل أن الرب التقاه وطلب أن يقتله. فأخذت صفورة صوانة وقطعت غرلة ابنها ومسّت رجليه. فقالت إنك عريس دم لي. فانفك عنه. حينئذ قالت عريس دم من أجل الختان» خروج ٤، وربما وصل الرب إخناتون وموسى السينائي إلى اتفاق، بحيث يأخذ الرب بعض جنود موسى السينائي، فينضموا إلى جنود الرب إخناتون الذين كانوا برفقته.

وقد قامت زوجة موسى حسب ما يفهم من تلك الجملة المفككة بختان ابنها، أو زوجها، تعبيرا عن الإذعان للرب إخناتون وشريعته، وهذه الجملة جعلت سيد القمني يتساءل فيما إذا كانت زوجة موسى هي أمه، لإيجاد مزيد من خطوط الاشتراك بين أوديب وموسى.

ولكن، على ما يبدو، فقد قرر إخناتون (الرب (هو)، أو (يَهْوَه» أن يعود إلى مصر بنفسه في محاولة لاسترداد عرشه، مباشرة بعد موت آخر فراعنة تل العمارنة حور محب، وتسلم رعمسيس، وهو شخصية من غير شخصيات تل العمارنة، عرش مصر.

وهكذا عاد إخناتون (الرب هو) بعد أن غاب عن مصر قرابة نصف قرن إلا قليلا، وحسب ما يمكن استقراؤه من التوراة فقد كانت عودته في نهاية فصل الصيف لسنة ١٣١٩ ق.م حيث كان عمال البناء في مصر يجمعون التبن، وبقايا القش لصناعة قوالب اللبن، وكان يرافقه في رحلة عودته هارون والجنود (حرسه الخاص، وبعض أتباع موسى السينائي الذي ربما بقي في سيناء)، والذين إما دخلوا إلى مصر تسللا من خلال الحدود المصرية السينائية، أو أنهم

قضوا على جنود الحاميات الحدودية المصرية في مرحلة كانت مصر تعاني من تمرد الجماعات المضطهدة، وقبل تمكن السلطة الجديدة من الاستقرار في البلاط الفرعوني.

وفي الدلتا انضم إخناتون (الذي دخل متخفيا باسم الرب (هو)، أو (يَهْوَه) ومن معه إلى أتباع الديانة الأتونية في الدلتا، وإلى الجماعات العبرية، وما تبقى من الهكسوس الذين كان يترأس عليهم ما يمكن أن نطلق عليه اسم موسى المصري، أو ما أطلق عليه المؤرخون القدماء أوزرسيف، والذين كانوا قد أعلنوا التمرد على السلطة الفرعونية الجديدة، في الوقت الذي كان القصر مشغولا بموت حور محب، واستلام رعمسيس العرش، وازدادت الفوضى في منطقة الدلتا في خريف ذلك العام، مرورا بالشتاء، وقد شاءت الظروف البيئية الطقسية في سياق التبدل الشتائي الربيعي أن تشكل حلفا، مع إيلاف الرب، فعاثوا فسادا في منطقة الدلتا، وفقدت السلطة المركزية السيطرة عليها، ولكن محاولة الرب إخناتون باستعادة العرش بائت بالفشل فلم يستطع السيطرة تماما على منطقة الدلتا، بعد معارك صغيرة غير حاسمة بين المتمردين، وجنود العرش الفرعوني في الدلتا، ودخل الرب المتخفي في مفاوضات سياسية مع العرش الجديد، كان عرابها موسى المصري (أوزرسيف) ممثلا عن الجماعات الإخناتونية، وهارون ممثلا عن الجماعات العبرانية الإسرائيلية الهكسوسية، وعلى ما يبدو فقد وافقت السلطة على خروج الجماعات الإخناتونية، ولم توافق على خروج الجماعات العبرية الهكسوسية، وبذلك لم يتوقف التمرد، فلم تجد السلطة الفرعونية بدا من تجريد حملة عسكرية مركزية للقضاء على التمرد، وأثناء ذلك، وقبل وصول الحملة العسكرية من العاصمة الفرعونية، قرر الرب (إخناتون) الانسحاب بجنوده نحو الشرق، وقد قام الجنود، والمتمردون من أتباع إخناتون بسلب الأملاك العامة للسلطة، والخاصة بالشعب المصري، وقتلوا ما استطاعوا من الشعب المصري مستثنين العائلات العبرية الإسرائيلية الذين قاموا بوضع علامات على منازلهم كي لا يقوم أتباع إخناتون باقتحامها، ولما وصلت الحملة المركزية دارت بعض المعارك بين المتمردين من جهة، وبين جنود الفرعون من جهة أخرى، وقد استطاع جنود الفرعون من دحر جنود الرب، وفي هذه المعمعة قررت الجماعات الأسرية العبرية الإسرائيلية الهكسوسية الهروب من مصر بسبب تخوفهم من الانتقام الفرعوني كما حصل لهم أثناء الاندحار الهكسوسي قبل ما يزيد على مئتي سنة، وبذلك وبينما كان جنود الرب ينسحبون مطرودين، مدحورين نحو الشمال الشرقي، كانت الجماعات العبرية ترافقهم هارية من مصر، وعلى ما يبدو لم يكن هناك تنسيق مسبق مع جنود الرب، بل تم اتخاذ

قرار الهروب في نفس ليلة انسحاب الرب بجنوده من منطقة الدلتا نحو الشرق بالقرب من ساحل البحر الأبيض المتوسط.

وفجأة اكتشف الرب إخناتون، وجنوده أنهم أصبحوا بين فكي كماشة، فأمامهم الحاميات المصرية على الطريق الساحلي ومن بعدهم الممالك الفلسطينية الساحلية المتحالفة مع الحكم المصري، ووراءهم جنود الحملة المصرية، فعادوا وانعطفوا جنوبا على ضفاف المسطحات المائية، ولما كاد جنود الفرعون إدراكهم، كان المساء قد حل، في الوقت الذي قام جنود الرب بحماية العائلات العبرية بتمركزهم بين العائلات، وبين جنود الفرعون، ولما كان بقاؤهم في مكانهم حتى الصباح يعني موتهم، فقد قرروا، فجرا، وقبل أن ينقشع الضوء، خوض المسطحات المائية، وقد تزامن هذا مع حالة جزر شديدة، آزرته هبوب رياح شديدة، وبمعونة العصي التي كانوا قد أحضروها معهم كما كان قد طلب منهم الرب (إخناتون) تحسبا لمثل هكذا موقف، والتي يمكن الاسترشاد بها لمعرفة عمق المسطحات المائية، قامت جماعات الخروج بالدخول في المخاضات والمسطحات المائية، بينما كان جنود الرب إخناتون يحمون مؤخرة الركب، ولما أدرك جنود الفرعون ذلك، حاولوا اللحاق بهم، وما أن خرجت الشمس (أتون) حتى كان الجميع في بر الأمان، أما بالنسبة لمركبات فرعون فقد غاصت في الطين، ولم يستطيع الجيش المصري الاستمرار في ملاحقة إيلاف الخروج، فعادوا أدراجهم، بعد أن نجحوا في طرد جنود غزوة الرب الأخناتونية الهكسوسية، وبعد أن فشلوا في استرجاع الجماعات العبرية التي فرّت برفقة جنود الرب، وقد تزامنت هذه الأحداث مع موت الفرعون رعمسيس (١٣١٩ - ١٣١٨ ق.م)، والذي ربما تم قتله في سياق أحداث أعمال الفوضى التي دبت في البلاد.

وأخيرا وصل الجميع، المطرودون، والهاربون إلى بر الأمان في سيناء سنة ١٣١٨ ق.م، لكن على ما يبدو قام سيتي الأول (١٣١٨ - ١٢٩٩ ق.م) الذي تربع على العرش حديثا بملاحقتهم، وقام بقتل وأسر ما استطاع منهم، قبل أن ينسحبوا هاربين نحو الجنوب الغربي إلى عمق صحراء سيناء، على خط مواز للشواطئ الشرقية لخليج السويس، كما أوعز إلى حلفاء مصر من العمالقة الذين ينتشرون في صحراء النقب، وصولا إلى مدينة حبرون، وبمساعدة بعض جنوده من حاميات الطريق الساحلي أن يشنوا حربا على جماعات الخروج، وبينما كان العمالقة في طريقهم الطويل، استطاع الرب أن يطلب المؤازرة من موسى السينائي (حور) الذي ذهب ومعه جنوده، لحماية جماعات الخروج، وفي رفيديم التي تقع على بعد بضع كيلومترات من جبل سيناء، دارت معركة قصيرة، بين العمالقة من جهة، وتحالف جماعات الخروج العبرية بقيادة هارون، وجنود من الجماعات الهكسوسية

السينائية بقيادة حور، وكان القائد الميداني هو (هوشع بن نون؟)، وانتهت في المساء دون أن تؤدي إلى شيء.

وتابع الركب (إيلاف الرب إخناتون) طريقهم إلى جبل سيناء، الذي وصلوه بعد خروجهم بثلاثة أشهر، حيث هناك صعد الرب مباشرة إلى مقره في الجبل، وبقي الشعب أمام الجبل، وكانت القيادة في تلك الفترة تتألف من:

إخناتون: الذي كان متخفيا باسم الرب على رأس القيادة.

موسى المصري (أوزرسيف): قائد جنود الرب، وممثل أتباع الديانة الأتونية (أتباع إخناتون)، والذين يعودون إلى عدة شعوب، وأثنيات، والذين من بينهم جماعات عبرية أيضا، وربما كان موسى المصري، هو أوزرسيف الذي كان قد ذكره المؤرخون القدامى.

وربما كان أوزرسيف، هو (تحوت موسى) ابن أمنحوتب الثالث، شقيق إخناتون الذي اختفى وهو طفل صغير، والذي يذهب البعض، ومنهم أحمد عثمان، أن الكهنة قاموا بقتله بعد أن عينه والده الفرعون أمنحوتب الثالث وليا للعرش، وهو ما يخالف التقاليد الفرعونية لأنه ابن الفرعون من زوجته غير الملكية تي، والذي لنا الحق أن نخمن أن أمه قامت بإخفائه عن أعين الكهنة خوفا من أن يتم قتله، وأرسلته بمركب ليتربى في منطقة الدلتا، كما فعلت الأمر نفسه مع أمنحوتب الرابع (إخناتون) والذي تسلم السلطة.

ويذهب البعض أن أوزرسيف (موسى المصري) كان واليا على منطقة الدلتا في عهد إخناتون، وقد قاد تمردا على السلطة الفرعونية، أثناء موت الفرعون حور محب واستلام رعمسيس الأول السلطة، ويمكن لنا بناء على ما سبق أن نفترض أن موسى المصري (أوزرسيف) بعث برسائل نجدة إلى إخناتون، والمعروف أن رعمسيس كان قائد الجيش في عهد حور محب، كما كان والي حور محب في منطقة جاسان، وبعد ذهاب رعمسيس إلى العاصمة لاستلام السلطة، وغياب والي الفرعون في منطقة الدلتا، أعلن موسى المصري (أوزرسيف) تمرده في منطقة جاسان.

موسى السينائي (حور): نائب، وممثل، ووكيل الجماعات العبرية الهكسوسية المديانية التي كانت قد طُردت من مصر قبل قرابة مئتي سنة، والتي انضمت إلى إيلاف إخناتون في سيناء، وموسى السينائي هو نفسه حور الذي انضم بجنوده إلى جنود إيلاف الخروج من أتباع إخناتون، والعبرانيين في رفيديم أثناء صدهم لغزو العماليق، وقد ذكرت التوراة أول مرة حور في رفيديم، على أنه المعادل لهارون، وممثل لأحد جماعات إيلاف سيناء، أما ذكره الثاني فكان في سيناء بعد أن دُعي مع شيوخ إسرائيل لمقابلة الرب، وقبل أن يصعد موسى (المصري)،

وحارسه الشخصي يشوع لمقابلة الرب هناك بعد أن انفض اجتماعهم مع الرب على سفح الجبل، ولّى موسى (المصري) هارون، وحور، قيادة الشعب حتى يعود من مقابلة الرب.

ولكن هارون عندما تفرد في السلطة قام بالانقلاب الديني، ومنذ ذلك الوقت اختفى حور فجأة بطريقة غامضة، ولم تأت التوراة على تعليل اختفائه المفاجئ، كما أنها لم تعلل وصوله إلى منصب قيادي تمثيلي رفيع.

فمن هو حور..؟

هل كان في مصر، وخرج مع شعب الرب..؟

أم أنه انضم إلى إيلاف سيناء بعد وصولهم إلى رفيديم حيث هناك ساهم في صد غزو العماليق لهم..؟

وأين اختفى بعد الانقلاب الديني الهاروني؟

هل تم قتله على يد رجال التمرد الديني؟

أم أن لاختفائه سرا آخر حاولت التوراة أن تخفيه، والذي تزامن مع غياب موسى القديم، وظهور موسى جديد، فهل لنا أن نخمن أن حور هو الذي قام بالانقلاب الدموي على قيادة الإيلاف، وتشكيل قيادة جديدة، كان هو على رأسها.

وهل لنا أن نخمن أن حور هو نفسه موسى الذي كان - كما ذهبت - قد رفض الذهاب مع الرب وهارون إلى مصر؟، والجدير ذكره أن اسم حور قد ورد ذكره في سجلات تعود إلى تحتمس الثالث (١٤٦٩ - ١٤٣٦ ق.م) على أنه أحد القادة الهكسوس، وكما كنت قد ذكرت فإن كلمة حور بالأكادية تعني الابن، كما هو الأمر بالنسبة لكلمة موسى.

هارون: ممثل الجماعات العبرية الإسرائيلية الذين تم اضطهادهم بعد اندحار الهكسوس، وبعد الاندحار الأتوني، كما عيّن رئيسا على الكهنة (اللاويين) الذين حسب ما يذهب إليه الكثير من الباحثين يمثلون الديانات الرئيسية الثلاث: الأتونية المصرية، البعلية العبرانية، اليهوية السينائية، ويعتقد باول ديفيس أن هارون هو الكاهن الأكبر للعبادة اليهوية، وقد جعل منه الكهنة جدها الأكبر، ولذا فقد حاولوا تبرئته بادعائهم أنه أجبر تحت ضغط الشعب على صنع العجل، أما أنا فأذهب عكس ذلك تماما، فهارون كان الكاهن الأكبر للديانة الإسرائيلية الكنعانية، وقد حاول محررو التوراة الإساءة إليه، وإلى الشعب الإسرائيلي من خلال إلصاق تهمة الارتداد عن اليهوية إلى البعلية الكنعانية على كاهنهم الأكبر هارون.

وهارون على ما أعتقد له ارتباط نصي، وليس تاريخي مع تحوت موسى شقيق إخناتون، في مرحلة التوراة الشفوية، ولكن التوراة في شكلها النصي الذي وصلنا، وبعد عمليات

التحرير المتعددة التي خضعت لها طمست معالم الارتباط ما بين هارون التوراتي، وتحوت موسى الفرعوني.

يشوع بن نون: شكّل يشوع في سيناء، الذراع التنفيذي، وأمين سر لقائد الإيلاف موسى، وشخصية يشوع في مرحلة سيناء اتسمت بسلبيتها، فما كان عليه سوى تنفيذ أوامر موسى، والقيام على تأمين الحماية له وللرب، وتنفيذ عمليات الاغتيال، ولكن الأمور اختلفت تماما مع شخصية يشوع التي تمسرحت في مرحلة الدخول إلى بلاد كنعان، بحيث يمكن لنا أن نذهب إلى أن يشوع التوراتي هو نتاج جمع، أو دمج شخصيتين، شخصية يشوع السينائي، وشخصية يشوع الكنعاني، أو يشوع الإسرائيلي، بطل أسطورة الدخول، ولكن المحرر التوراتي الذي كان قد وظّف قصة يوسف كي يصل بين المرحلة العبرية الكنعانية، والمرحلة العبرية المصرية، ووظف موسى بشخصياته المتعددة كي يصل بين المرحلة العبرية المصرية والمرحلة العبرية السينائية، قام أيضا بوصل المرحلة العبرية السينائية، والمرحلة العبرية الكنعانية من خلال دمج شخصيتين، إحداهما تمسرحت تاريخيا في مرحلة سيناء، والثانية تمسرحت تاريخيا في مرحلة كنعان، ومن تلك الشخصيتين صنعوا شخصية يشوع بن نون.

وكان يشوع بن نون الشخصية الأكثر شحوبا لا سيما في جانبها الاجتماعي من بين الشخصيات التي قادت إيلاف سيناء، والذين كان على رأسهم:

الرب إخناتون، ثم موسى المصري، ثم موسى السينائي، ثم هارون، وأخيرا يشوع، وكان الإيلاف يتشكل من عدة جماعات:

أتباع هارون من بني إسرائيل، وهم العبرانيون الذين خرجوا من مصر هاربين، برفقة أتباع الرب إخناتون المطرودين.

- **العبرانيون الهكسوس اليهوذيين**، ومعهم جزء من القينيين الهكسوس، وبعض الجماعات الهكسوسية الأخرى، وهم الجماعات التي انضمت إلى إيلاف التيه في سيناء.

- **اللاويون الكهنة**، والذي يذهب الكثير من الباحثين إلى أنهم مجموعة من الكهنة يعودون إلى كل جماعات الإيلاف، وهم لا يشكلون قبيلة عبرية كما شاء المحرر التوراتي أن يجعلهم، وقد أفرزهم سفر التثنية عن بني إسرائيل، ولم يعطهم نصيباً خاصاً في بلاد كنعان، بل وزعهم على الأسباط الإسرائيلية، لأنهم يعودون أصلا إلى: كهنة أتون من أتباع إخناتون، وكهنة بعل العبريون من أتباع هارون، وكهنة مديانيون يهويون من أتباع موسى السينائي، وقد ترأس عليهم هارون الإسرائيلي، إلا أن تبعيتهم الحقيقية فكانت لموسى

السيناتي اليهوذي، بينما يعتقد زينون أن اللاويين هم كهنة مديانيون قادشيون، وقد بينت الكتابات العربية التي اكتشفت بالقرب من مديان أن كهنة الإله (واد) كانوا يلقبون بـ (لوي)، أما سيد قمني فيرى أن اللاويين مصريون أو هجناء نتجوا عن امتزاج دم مصري ودم سامي، وكانوا يسكنون في المنطقة الحدودية بين الدلتا وسيناء، وأنهم كانوا يعبدون الأفعى في مصر، ولم يتخلوا تماما عن عبادتهم هذه حتى بعد أن أصبحوا كهنة لقوم موسى، وقد جاء أن موسى جعل أتباعه يُصلّون إلى الأفعى النحاسية التي رفعها موسى على راية في سيناء كي تكف أذاها عنهم، وبقي هذا السلوك الوثني، وبقي صنم هذه الأفعى النحاسية، حتى مرحلة انقسام المملكة حيث قام الملك حزقيا (٧١٥ - ٦٩٨ ق.م) بتحطيمها كما جاء في التوراة، ويبدو أن المحرر التوراتي من أجل ذلك قام بجعل الأفعى معادلا للشيطان، بل هي شكل من أشكال الشيطان الذي أغوى حواء، ولذا فقد لعنت الأفعى من قبل الرب، والجدير ذكره أن المصريين في عين شمس كانوا يعبدون إلها باسم سبأحور على شكل أفعى، كما أن عصا موسى كانت قد تحولت إلى أفعى التهمت الأفاعي السحرية للسحرة المصريين كما جاء في الرواية التوراتية، كما أن الأفعى كانت تُعَدّ رب الطب، أو رمزا للترياق والأدوية.

ويؤيد القمني افتراضه بأن اللاويين كانوا من أصول مصرية، هو وجود كثير من الأشخاص اللاويين ذوي أسماء مصرية، أما فرويد فيذهب إلى أن اللاويين هم من المصريين الذين كانوا يشكلون حاشية الأمير موسى المصري الذي تم قتله في سيناء.

واللاويون إضافة إلى أنهم كهنة، وسدنة، فإنهم أيضا شكلوا فصيلا مسلحا استطاع أن يضبط الأمن في سياق الانقلاب الديني البعلي الهاروني، وهم الوحيدون الذين وقفوا إلى جانب موسى المصري ضد هارون وجماعة الانقلاب، على الرغم من أن هارون كان رئيسا على اللاويين حسب التوراة، وهنا لنا أن نتساءل ما إذا كان هارون قد تسلّم قيادة اللاويين بعد الانقلاب الديني؟، وقد قام اللاويون أنفسهم بالمشاركة بالتمرد على موسى في مرحلة لاحقة للانقلاب، وهنا لنا أن نأخذ ذلك حجة في إثبات مقتل موسى المصري، حيث وقف اللاويون إلى جانب موسى المصري في سياق الانقلاب البعلي، على يد موسى السيناتي الذي قاموا بالتمرد عليه بعد ذلك.

منذ بداية وصول الإيلاف إلى جبل سيناء بدأت النزعات الأنانية تطفوا على السطح، وقد حاول الرب إخناتون أن يخفف من هذه النزعات من خلال اجتماعه وجها لوجه مع قياداته الدينية والعسكرية، ومع شيوخ الإيلاف، ولكن، وعلى ما يبدو أن خطاب الرب الذي ضمّنه الشريعة، أو القوانين التي سوف يحتكم لها الإيلاف، والتي قام بتدوينها على

(لوحي الشهادة) لم تأخذ بالحسبان المعتقدات المختلفة لجماعات الإيلاف، خاصة منهم الجماعات البعلية العبرية التي كانت قد خرجت من مصر، والجماعات العبرية السينائية المديانية، وانفجر صراع أثني ديني بين أتباع الديانات الثلاث سابقة الذكر، وقد فجر هذا الصراع الجماعات البعلية العبرية، وفي معمعة هذه الأحداث قام موسى المصري (أو السينائي)، وبمساعدة اللاويين بقتل أقطاب الديانة الحنيفية العبرية، ثم قام موسى السينائي باغتيال الرب إخناتون، وقائده العسكري موسى المصري (أوزرسيف) ممثل الديانة الأتونية، وقام موسى السينائي (حور) بتنصيب نفسه ربا مستلبا شخصية، وقصة الرب إخناتون التي نسبها إلى نفسه، والتي تم تهويدها في مرحلة لاحقة، وهكذا تداخل تاريخ الرب إخناتون مع تاريخ موسى المصري، وتكامل مع تاريخ موسى السينائي، وأصبح هو الرب (يَهْوَه).

وبعد أن اعتلى موسى السينائي منصب الرب قام بتعيين موسى سينائي يهوذي جديد بدلا عنه رئيسا تنفيذيا على الإيلاف، وسن شريعة جديدة، فرض فيها العقيدة اليهوية السينائية، ولم يأخذ من الديانة الأتونية سوى الوحدانية التي أضيف إليها بعد عنصري شوفيني، وأخذ من الحنيفية الإيلية بعض صفات الإله بعل وألصقها بـ (يَهْوَه)، الذي أصبح ربا وحيدا، مع بعض الصفات البعلية.

ومن المفترض، على إثر ذلك أن بعض الجماعات قد خرجت من الإيلاف، ولا سيما منها الأتونية التي تم تصفية قادتها، ومضت في حال سبيلها، ومن المنطقي أيضا أن تلك الجماعات التي انفصلت، إن لم تبق في سيناء، فإنها سوف تتوجه نحو شبه الجزيرة العربية، وهو المكان الوحيد الممكن لها أن تجد فيه موطئ قدم، فهي لن تستطيع، كما أنها لن ترضى، العودة إلى مصر، كما لا يمكن لها الصعود شمالا نحو بلاد كنعان التي تخضع للهيمنة المصرية، كما لا يمكن لها أن تتوجه شرقا نحو بلاد الرافدين حيث كان الأشوريون في تلك المرحلة في حالة فورة عسكرية، ويذهب سيد القمني إلى أن بعض من خرج عن إيلاف سيناء تفرقوا من هناك فاتجه قسم منهم نحو اليونان، وقسم آخر توجه نحو الحجاز، أما الإيلاف المركزي فقد تابع التفافه حول الرب الجديد، وموسى الجديد.

وبذلك اختفى موسى السينائي (حور) الذي تحول إلى الرب، والذي اتخذ من خيمة الاجتماع مقرا له، وعيّن أحد أتباعه في منصب موسى بدلا عنه (موسى اليهوذي السينائي) الذي أخذ يضع قناعا على وجهه، أما الرب (حور)، فكان مقره في خيمة الاجتماع التي كانت تنصب بعيدا عن المضارب، وكان يتخذ من التابوت منبرا سريا يخاطب فيه الرب

(حور) وكيله موسى اليهوذي أمام البعض، في الوقت الذي كان يحدثه وجها لوجه حين يكونان وحيدين، «يكلم الربُّ موسى وجها لوجه كما يكلم الرجل صاحبه. وإذا رجع موسى إلى المحلة كان خادمه يشوع بن نون الغلام لا يبرح من داخل الخيمة» خروج ٣٣، وكان موسى اليهوذي يخلع قناعه بحضرة الرب حور «وكان موسى عند دخوله أمام الرب ليتكلم معه ينزع البرقع حتى يخرج»، في الوقت الذي كان يشوع بن نون الحارس الشخصي للرب حور، ولموسى اليهوذي، كما كان مع جنوده مسؤولا عن إحاطة خيمة الاجتماع بسور من الرجال، والخيمة هي مكان لإقامة الحرس وجنود الرب حور، الذين سيعاقبون دون أدنى رحمة أي شخص، أو جماعة لا تذعن لتعليمات الرب حور، وكان على الشعب تقديم الطعام اليومي لهم، والضرائب الكبيرة التي كانت تثقل كاهل الشعب، وهو الأمر الذي قاد الشعب، بما فيهم اللاويون، إلى القيام بعدة تمردات، كانت تنتهي بمزيد من البطش، والقتل على يد جنود الرب.

وبعد عدة ترحلات لإيلاف التيه في صحراء سيناء، وبعد فشلهم في إحدى محاولاتهم لدخولهم بلاد كنعان من الجنوب، حطت في قادش خيام الإيلاف على الحدود الشرقية لسيناء، بالقرب من تخوم أدوم، وقد استطاع الرب (يَهْوَه) (حور)، وموسى أن يوحدا، ويدمجا جماعات الإيلاف في مجتمع أثني واحد.

وقد بقي الإيلاف في قادش مرحلة طويلة من الزمن بعد أن استقرت أمورهم الداخلية وأذعنوا للشريعة السينائية، حيث سمحت لهم الظروف الطقسية أن يستقروا، ولكن، ونتيجة لتغيرات بيئية، وسياسية عامة، تحرك الإيلاف نحو شرقي الأردن، حيث استقر جزء منهم هناك، ومن لم يجد موطئ قدم، تسلل نحو الضفة الغربية للأردن.

وقد تم تدوين تاريخ هذه المرحلة في كتاب التوراة بيد أحفاد اليهوذيين تحديدا، في مرحلة السبي البابلي وما بعده، وكان هؤلاء المسبيين، في تلك المرحلة، يعانون من حالة نفسية شخصية وجمعية غير سوية، فقد كانت الأنا الجمعية تعاني من حالة نفاس حادة، ومن هذيانات اضطهاد، وعظمة في آن واحد، ساهمت في صنعها الهزيمة التاريخية الكبرى لليهود على يد الكلدانيين، وهذه الحالة الذهانية هي التي قامت بتدوين التوراة ككل، ومنها أسفار الخروج الأربع، وقامت بتهويد الشخصيات القيادية التي قامت بتحريرهم من الاضطهاد الفرعوني، وعمليات تهويد الشخصيات التاريخية، إضافة إلى تهويد الأحداث التاريخية، كان قد بدأ بطريقة شفوية منذ انتهاء مرحلة الخروج، وبقيت عمليات التهويد الشفوي مستمرة حتى مرحلة تدوين هذا التراث الشفوي في بابل، حيث قاموا بوضع أو بإدخال شخصيات الخروج

التاريخية في المسرح الذهني اليهودي المتأزم نفسيا، وأخرجوها مهودة دون أن يتقنوا تماما رسم هذه المخارج.

وبالنسبة لموسى تحديدا، والذي يمكن اعتباره منصبا، أكثر منه اسما، فقد جمعوا ضمنه عدة شخصيات تاريخية كانت قد تبوأته (إخناتون بن أمنحوتب الثالث - تحوت موسى ابن أمنحوتب الثالث، أوزرسيف أو موسى المصري - حور أو موسى السيناتي - موسى اليهوذي):

كانت تي زوجة أمنحوتب الثالث غير الملكية قد ولدت مولودها البكر تحوت موسى (تحتمس)، وقد اختفى هذا الولد بشكل غامض، ويُعتقد أن الكهنة قاموا بقتله بعد أن عينه والده أمنحوتب الثالث وليا للعهد بطريقة غير شرعية، وربما أن أمه قامت بإخفائه.

ثم ولدت (تي) ابنها الثاني أمنحوتب الرابع، وخوفا من أن يلقى نفس مصير ابنها البكر تحتمس، قامت بإرساله بمركب من العاصمة طيبة إلى القصر الفرعوني في زارو، في الدلتا حيث تقيم الجماعات العبرية الهكسوسية، وقد لحقت به أمه (تي) لتشرف على حمايته، وتربيته، وهناك ترعرع أمنحوتب الرابع، ورأى بأم عينه ما تعانيه الجماعات الأجنبية من اضطهاد، وهناك انتشرت أسطورة مولد البطل من خلال قصة إخناتون، بعد تزاوجها مع أسطورة مولد سرجون الأكادي التي كانت الجماعات العبرية تعرفها بحكم تجوالها في المرحلة السابقة لدخولها إلى مصر، وتم استقراض اختفاء تحوت موسى شقيق إخناتون الأكبر، وأدمجت مع سيرة البطل، كما تم استقراض جزء من اسمه (موسى)، وقد قاموا بتهويده، وبذلك تم إخراج قصة موسى الأدبية التوراتية:

ولد موسى التوراتي لأبوين عبريين، في الوقت الذي كانت - حسب المؤرخ اليهودي يوسوفوس - تنتشر فيه نبوءة تقول إن ولدا من العبرانيين سيولد، ويهدد العرش الفرعوني، ويصبح أعظم شخصية في التاريخ، وبناء على ذلك سن الفرعون قانونا يقضي بقتل المواليد الذكور من العبرانيين.

ولما ولدت يوكابد (أم هارون) ابنها الثاني، وخوفا من أن يقتل حسب القرار الفرعوني، قامت الأم بوضعه في مركب، ووضعته في النيل، وانتهى في القصر الفرعوني حيث تربى هناك، أما هارون فقد لعب دورا مخالفا نسبيا لتحتمس شقيق إخناتون الأكبر (أو أن النصوص التاريخية ربما تكشف في يوم ما مصير تحتمس).

أما تتمة قصة إخناتون الذي أصبح حاكما، والذي تنصر للجماعات الأجنبية (العبرية) على حساب الجماعات المصرية، فقد اختفى أيضا بشكل لغزي، وكما ذكرنا سابقا فقد فر إلى سيناء خوفا من أن يتم قتله، وربما أنه فر إلى سيناء عبر البحر الأحمر ليحط مركبه على مهمازه الشمالي بالقرب من جبل سيناء، بعد أن أُهدر دمه من قبل ممثلي الشخصية المصرية من القادة العسكريين، والكهنة التقليديين، وهم أنفسهم الذين جعلوا (تي) زوجة أمنحوتب الثالث تهرب بابنها أمنحوتب الرابع (إخناتون) عندما كان طفلا صغيرا، أي أن اختفاءه هو إعادة لقصة ولادته.

وبعد مدة طويلة من الزمن، وقد تغير الحكام، ونُسي إخناتون من قبل السلطة، والشعب المصري، وبعد أن ازداد اضطهاد أتباعه ولا سيما من الجاليات الأجنبية، حسب رسالة وصلته عبر هارون، وبعد أن رفض موسى السيناني (حور) طلب الرب إخناتون بالذهاب معه، عاد إخناتون إلى مصر، والذي كان عمره قرابة ثمانين عاما، بعد غياب دام قرابة نصف قرن في محاولة لاسترداد عرشه، وكان برفقته هارون الذي كان قد أتى ليبلغه رسالة من موسى أوزرسيف (على اعتبار أن موسى هو منصب، ويعني المخلص)، وفي مصر، وبعد أن فشل إخناتون، أو أدرك عدم جدوى محاولة استرداد عرشه، انسحب مدحورا من مصر، بعد أن استطاع أن يحرر أتباعه المضطهدين، وقد استغلت الجماعات حالة الفوضى السياسية، والعسكرية التي عمت مصر، ففرت من مصر برفقة إخناتون الذي استطاع أن يصل بتلك الجماعات إلى بر الأمان في سيناء.

وقد تم تهويد هذا الحدث من خلال قصة قيام موسى التوراتي بقتل رجل مصري استنصارا لرجل عبري، وفر موسى التوراتي على إثر ذلك إلى سيناء، ثم عاد إلى مصر ليحرر أبناء قومه بعد غياب يقرب من نصف قرن، ويصل بهم إلى بر الأمان في سيناء، وكان عمر موسى التوراتي ثمانين عاما.

وبينما عاد إخناتون متخفيا على أنه الرب، وكان موسى أوزرسيف يمثل رسوله، كما عمل ممثلا عن الجماعات الأتونية، وهو الذي بقي في مصر، وكان قائد أتباع إخناتون المضطهدين في مصر، بالتعاون مع هارون الذي كان يمثل الجماعات العبرية، عاد موسى التوراتي، بشكل علني، ولكن هارون كان نبيه، ورسوله، وهنا قام موسى التوراتي، وهارون بدور موسى أوزرسيف، أما إخناتون فقد أخذ دور أو منصب الرب (يَهْوَه) في القصة التوراتية.

وفي سيناء، في رفيديم تحديدا دخلت ساحة الأحداث شخصية سينائية تدعى حور، وقد قاد جنوده، مع جنود العبرانيين بقيادة هارون، إضافة إلى موسى المصري (أوزرسيف)، الذي كان يأتمر أيضا على جنود الرب إخناتون، وقاموا بصد الغزو العماليقي، وكان كل جنود الإيلاف بقيادة موسى المصري أوزرسيف، ومن رفيديم انتقلوا إلى جبل سيناء، وهناك وحسب ما ذكرنا حصلت ثورة دينة انتهت إلى اغتيال الرب إخناتون، إضافة إلى موسى المصري (أوزرسيف)، وقد تولى (حور) منصب الرب، أما منصب موسى، فقد تقلده أحد أتباع الرب حور، وهما اللذان قادا إيلاف سيناء، لمدة أربعين سنة، وحسب اعتقادي فإن الرب حور مات، أو اغتيل في قادش على يد موسى اليهوذي، أو على يد قائده العسكري يشوع بن نون الإسرائيلي، واللذين قاما أيضا باغتيال هارون الإسرائيلي أيضا، وفي قادش تم دفن الرب حور، والكاهن هارون، وقد شغل منصب الرب بعد حور، رب وهمي، وفي النهاية قام يشوع باغتيال موسى اليهوذي بعد وصول الإيلاف إلى شرقي الأردن.

وهكذا يمكن أن نذهب - حسب الافتراضات التي أخذنا بها - إلى أن الفرعون إخناتون، وموسى المصري (أوزرسيف) قتلا، ودفنا على جبل سيناء، أما موسى السينائي فقد مات أو قتل، ودفن في قادش، أما موسى اليهوذي فقد تم اغتياله، ودفنه على جبل عباريم (جبل نبو) في موآب، وجميع هذه التصورات، عبارة عن افتراضات، يمكن العمل عليها، من أجل الوصول إلى مقاربة تاريخية، أكثر دقة، لما جاء في أسطورة الخروج التوراتية.

الرب..
و تابوت العهد

من الأشياء المهمة التي ورد ذكرها في التشريع الموسوي، هو توصيف تابوت العهد (تابوت الشهادة، تابوت عهد الرب)، الذي يبلغ طوله ٢، ٥ ذراع، وعرضه ١، ٥ ذراع، وارتفاعه ١، ٥ ذراع، وهو مغشى بالذهب، ويستند عليه ملاكان مجنحان، وتزينات ذات نمط مصري، والغاية من التابوت، حسب ما جاء في التوراة، وضع لوحي الشريعة فيه، وهو أمر يبدو غير مسوغ، ولا بد من وجود وظيفة أخرى للتابوت، قام المحرر التوراتي بإخفائها، ويعتقد القمني أن التابوت المقدس ما هو سوى تابوت إخناتون الذي في النهاية وضعوه على جبل صهيون، وقد صرح سيد القمني بوضوح {ويبدو أن في تقديس موضع آخر هو عاصمة الهكسوس /الخابيرو/ يهوذا (أورشليم) وعلى جبل صهيون يقيمون هيكلهم ويضعون فيه تابوتاً لا شك أنه كان يحمل رفات الفرعون إخناتون وحيث يعتقد أنه الممكن الأزلي لـ (يَهْوَه)، نحن إذا نقول بوضوح إن الكامن في التابوت بوصفه الرب (يَهْوَه) (الكائن، الذي لا اسم له) كان هو إخناتون بذاته بعد موته} ، وهي فكرة تحمل من الطرافة، وحتى الدهشة، أكثر مما تحمل من الجدة، ولا نعرف تماما إن كان سيد القمني أراد أن يقول إن تابوت العهد كان يحوي جثة إخناتون، وقد تم وضعه في الهيكل بعد أن كانت قد اختفت منه الجثة قبل زمن سابق؟، أم كان يحوي على عظام إخناتون عندما تم وضعه في النهاية في جبل صهيون؟، ذلك لأن تابوت العهد كان قد أهمل تماما في مرحلة القضاة التوراتية، كما أن الفلسطينيين استولوا عليه، ولا بد أنهم فتحوه، وعاثوا بمحتوياته، حتى لو كان فيه الرب إخناتون، وقد أتى في سفر الملوك الأول أن داود عندما أتى بتابوت الرب أول مرة إلى أورشليم «لم يكن في التابوت إلا لوحا الحجر اللذان وضعهما موسى هناك في حوريب حين عاهد الرب بني إسرائيل»، فلو ذهبنا مع سيد القمني في أن التابوت كان يحوي على جثة إخناتون، فمن المؤكد أنه لم يتم دفنه في جبل صهيون، كما لنا أن نتساءل لماذا لم يذهب سيد القمني إلى أن تابوت العهد هو المكان الذي وضعت فيه مومياء يوسف، «واستحلف

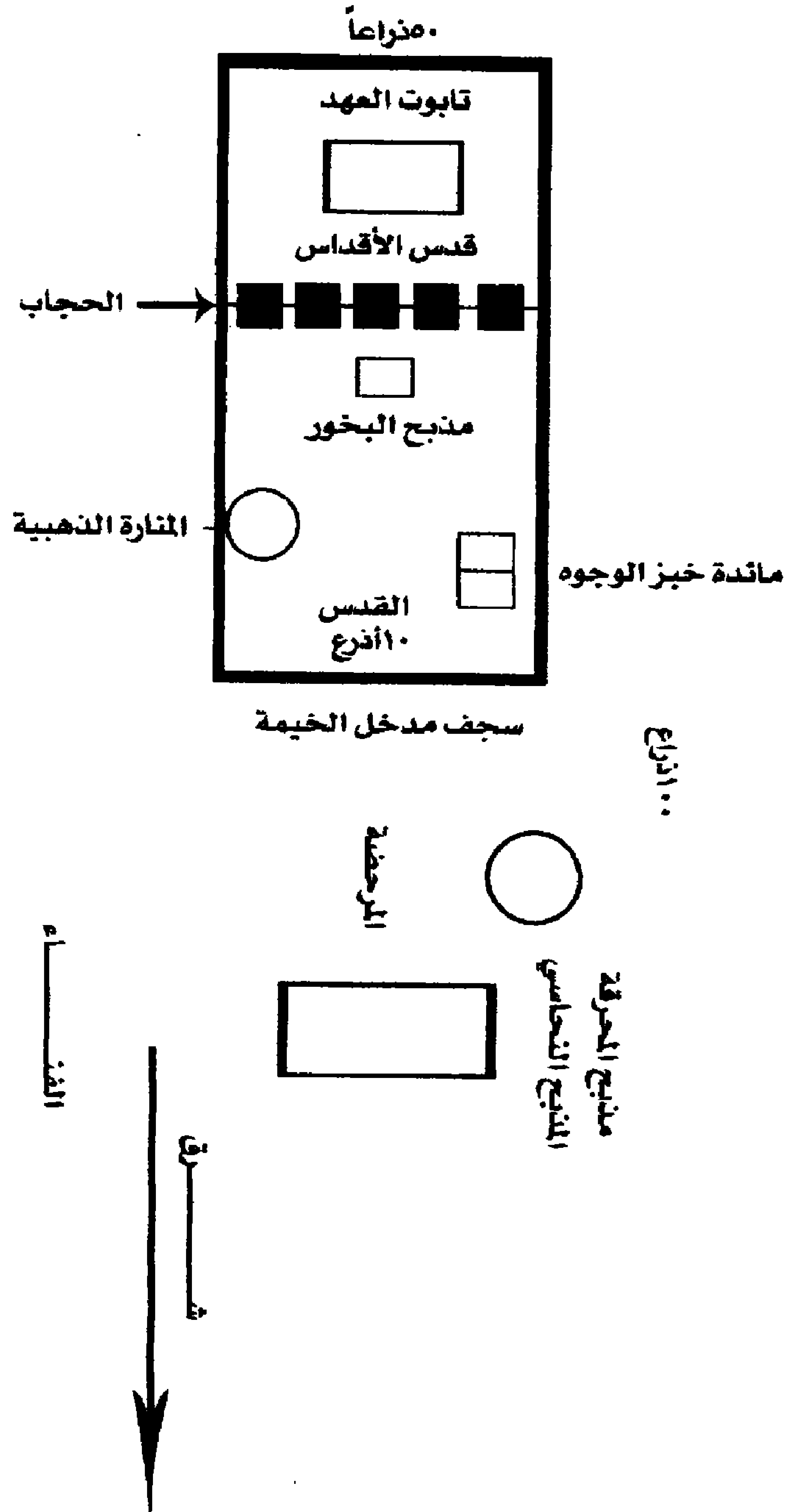
يوسف بني إسرائيل قائلا الله سيفتقدكم. فتصعدون عظامي من هنا. ثم مات يوسف وهو ابن مئة وعشر سنين. فحنطوه ووضع في تابوت في مصر» تكوين ٥٠، «وصعد بنو إسرائيل متجهزين من أرض مصر. وأخذ موسى عظام يوسف معه.» خروج ١٣، ولكن التوراة لم تعد تذكر أين وضعت تلك المومياء.

أما أنا فأذهب إلى أن التابوت كان منبرا خفيا أو مستورا للرب، فحسب ما جاء في سفر الخروج أن موسى كان يجتمع بالرب أمام التابوت، وببني إسرائيل، ومن خلاله أيضا يسكن الرب مع بني إسرائيل «إن وجدت نعمة في عينيك أيها السيد فليسر السيد في وسطنا.. واغفر إثمنا وخطيتنا واتخذنا ملكا» ٣٤، «حيث أجتمع بكم لأكلمك هناك، وأجتمع هناك ببني إسرائيل فيقدس بمجدي، وأقدس خيمة الاجتماع والمذبح. وهارون وبنوه أقدسهم لكي يكهنوا لي. وأسكن في وسط بني إسرائيل وأكون لهم إلها» خروج ٢٩، «وتصنع مذبحا لإيقاد البخور.. وتجعله قدام الحجاب الذي أمام تابوت الشهادة. قدام الغطاء الذي على الشهادة حيث أجتمع بك» خروج ٣٠، «فلما دخل موسى إلى خيمة الاجتماع ليتكلم معه كان يسمع الصوت يكلمه من على الغطاء الذي على تابوت الشهادة من بين الكروبين» عدد ٧، وهنا لي أن أؤكد أن هذا الغطاء، أو الحجاب كانت وظيفته حجب شخصية الرب عن الشعب الذين يحضرون إلى خيمة الاجتماع، ليقدموا عطاياهم، ويستمعوا إلى حوار الرب مع نبيه موسى، ولما قام ابنا هارون ناداب وأبيهو بكشف الحجاب واكتشفا من هو الرب، تم قتلهما مباشرة قبل أن يخرجا من الخيمة مباشرة، وقبل أن يكشفا السر «وكلم الرب موسى بعد موت ابني هارون عندما اقتربا أمام الرب وماتا وقال الرب لموسى كلم هارون أخاك أن لا يدخل كل وقت إلى القدس داخل الحجاب أمام الغطاء الذي على التابوت لئلا يموت. لأني في السحاب أتراءى على الغطاء» لاويين، وبذلك مُنع هارون من كشف الحجاب، إلا في أوقات معينة يكون حينها الرب غائبا من خيمة الاجتماع، وإلا فسيكون مصيره كمصير ابنيه.

وعندما طلب هارون ومريم أن يكلما الرب مباشرة، قال لهما «إن كان منكم نبي للرب فبالرؤيا أستعلن له في الحلم أكلمه. وأما عبدي موسى فليس هكذا بل هو أمين في كل بيتي. فما إلى فم وعيانا أتكلم معه لا بالألغاز. وشبهَ الرب يعاين. فلماذا لا تخشيان أن تتكلما على عبدي موسى فحمي غضب الرب عليهما ومضى» عدد ١٢.

«وتصنع حجابا من أسمانجوني وأرجوان وقرمز وبوص مبروم.. وتجعله على أربعة أعمدة من سنط مغشاة بذهب. رززها من ذهب. على أربع قواعد من فضة. وتجعل الحجاب تحت الأشظة. وتدخل إلى هناك داخل الحجاب تابوت الشهادة» خروج ٢٦.

وإضافة إلى أن الرب اتخذ منه منبرا، استغله أيضا كهودج، أو عرش كان الكهنة يحملون الرب فيه بطريقة، أو أخرى، أثناء تنقلاتهم كي لا يتعب كثيرا من وعثاء السفر، وهكذا فهو كرب، يحتاج إلى من يحمله في أثناء الانتقال «وعند ارتحال التابوت كان موسى يقول قم يا رب فلتبدد أعداءك ويهرب مبغضوك من أمامك. وعند حلوله كان يقول ارجع يا رب إلى ربوات ألوف إسرائيل»، ولكن هنا أريد أن أشير إلى أن الرب كان يقيم مع بطانته في خيمة الاجتماع، كما كان يغيب عنها أحيانا لغايات شخصية، وفي مهمات سرية أيضا، وقد جاء في سفر العدد أن الشعب قرر بشكل جماعي الدخول إلى بلاد كنعان، ولم يكن حينها الرب برفقة الشعب، ولم يوافق موسى على هذا القرار، وطلب منهم التمهل لأن الرب ليس معهم، وهو، أي موسى، لا يستطيع اتخاذ قرار خطير دون وجوده، وهذا يؤكد أن الرب كان يتمثل بشخص من لحم ودم «لا تصعدوا. لأن الرب ليس في وسطكم لئلا تهزموا أمام أعدائكم.. لكنهم تجبروا وصعدوا إلى رأس الجبل. وأما تابوت عهد الرب وموسى فلم يبرحا وسط المحلة. فنزل العمالقة والكنعانيون الساكنون في ذلك الجبل وضربوهم وكسروهم إلى حرمة» عدد ١٤



رسم تخطيطي لخيمة الشهادة وموقع تابوت العهد

المسيحية
بين الأخناتونية و اليهوية

سأكتفي هنا بإيراد موجز عن بحث مطول أقارب فيه علاقة المسيحية بالأتونية بالدرجة الأولى، وبالعقائد المسيحانية البعلية، في الهلال الخصيب، وبالعقيدة الزرادشتية، والبوذية، وبالفلسفات المثالية الإغريقية، ولذا سأكتفي، هنا، بتعريف الأتونية من خلال مجموعة من مقتطفات من النصوص الأتونية، تعطي فكرة عامة عن شمولية الرب أتون:

{يا آتون الحي الوحيد إنك أنت الأبدية والسماء هي معبدك الذي تشرق فيه كل يوم لتلد ابنك الذي خرج من جسدك.. إنك الأبدية وابنك مثلك.. ابنك الذي خرج من أعضائك}

{المجد لك يا شمس النهار التي خلقت كل الكائنات الحية وتكفلت بما يحتاجون إليه.. أنت الأم الرائعة الممتازة للآلهة والناس. أنت الخالق الطيب الذي يتعب نفسه من أجل مخلوقاته العديدة. أيها الراعي القوي الذي يقود قطعانه. أنت ملجؤهم الذي تحفظ عليهم الحياة}

{وعندما يطلع النهار تبزغين عند الأفق وتتألقين في النهار لكونك شمسا تطرد الظلام وتهدي شعاعك. القطران يفرحان. الناس يستيقظون من النوم ويقفون على أرجلهم عندما توقظيهم}

{كل له طعامه وأيامه معدودة وألسنتهم مختلفة مثل أشكالهم. وجلدهم مختلف لأنك ميزت الشعوب}

{أنت سيد البلاد جميعا وتشرق من أجلها}

{كم هي طيبة أفكارك يا سيد الأبدية}

{الإله الطيب الذي يحب الحق سيد السماء والأرض أتون الكبير الحي الذي ينير القطرين}

وبطريقة مماثلة سأقتطف مجموعة من النصوص التوراتية تظهر عنصرية، وضيق، وخصوصية، وقبلية، ودموية، الرب (يَهْوَه):

«تكونون لي خاصة من بين جميع الشعوب. فإن لي كل الأرض. وأنتم تكونون لي مملكة كهنة وأمة مقدسة» خروج ١٩.

«وأسير بينكم وأكون لكم إلها وأنتم تكونون لي شعبا» لاويين ٢٦.

«وواعدك الرب اليوم أن تكون له شعبا خاصا» تثنية ٢٦.

«يقيمك الرب اليوم لنفسه شعبا، وهو يكون لكم إلها» تثنية ٢٩.

«وقد اختارك الرب لكي تكون له شعبا خاصا فوق جميع الشعوب الذين على وجه الأرض» تثنية ١٤، «وأكون لكم إلها، وأنتم تكونون لي شعبا» لاويين ٢٦.

«أنا الرب الذي ميزكم من الشعوب» لاويين ٢..

«أنا الرب إلهكم الذي أخرجكم من أرض مصر ليكون لكم إلها. أنا الرب إلهكم» عدد ١٥.

«حين تقترب من مدينة لكي تحاربها استدعها إلى الصلح. فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ويستعبد لك. وإن لم تسالمك بل عملت معك حربا فحاصرها. وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف. وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة كل غنيمتها لنفسك وتأكل غنيمة أعدائك التي أعطاك الرب إلهك. هكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك جدا التي ليست من مدن هؤلاء الأمم هنا. وأما مدن هؤلاء الشعوب التي يعطيك الرب إلهك نصيبا فلا تستبق منها نسمة ما بل تحرمها تحريما الحثيين والأموريين والكنعانيين والفرزيين والحويين واليبوسيين كما أمرك الرب إلهك لكي لا يعلموكم أن تعملوا حسب جميع أرجاسهم التي عملوا لآلهتهم فتخطئوا إلى الرب إلهكم» تثنية ٢٠.

«تخربون جميع الأماكن حيث عبدت الأمم التي ترثونها آلهتها على الجبال الشامخة وعلى التلال وتحت كل شجرة خضراء. وتهدمون مذابحهم وتكسرون أنصابهم وتحرقون سواريهم بالنار وتقطعون تماثيل آلهتهم وتمحون اسمهم من ذلك المكان.» تثنية ١٢.

«لا تقل في قلبك حين ينفيهم الرب إلهك من أمامك قائلا لأجل بري أدخلني الرب لأمتلك هذه الأرض. ولأجل إثم هؤلاء الشعوب يطردهم الرب من أمامك ليس لأجل برك وعدالة قلبك تدخل لتمتلك أرضهم بل لأجل إثم أولئك الشعوب يطردهم الرب إلهك من أمامك ولكي يفي بالكلام الذي أقسم الرب عليه لآبائك إبراهيم وإسحق ويعقوب. فاعلم أنه ليس لأجل برك يعطيك الرب إلهك هذه الأرض الجيدة لتمتلكها لأنك شعب صلب الرقبة» تثنية ٩.

«وإن لم تطردوا سكان الأرض من أمامكم يكون الذين تستبقون منهم أشواكا في أعينكم ومناخس في جوانبكم ويضايقونكم على الأرض التي أنتم ساكنون فيها فيكون أني أفعل بكم كما هممت أن أفعل بهم» عدد ٣٣.

ومن خلال الشواهد السابقة يظهر الفارق بين (يَهْوَه) إله الجنود والحرب، وبين أتون إله الحب والسلام، بين الإله الشامل الواحد المتحد مع ذاته، وبين الإله، أو الزعيم البدوي المتناقض، يقول فرويد {إن الإله (يَهْوَه) هو الذي أهداه موسى المدياني شعبا جديدا لم يكن كائنا أعلى، بل كان إلها محليا محدودا وشرسا، عنيفا ودمويا}.

لقد استطاع موسى السينائي أن يدحر الأتونية، وأن يفرض الديانة اليهوية المديانية على إئتلاف الخروج بالقوة، ولكن الأتونية بقيت تتسلل بشكل خفي غير مرئي، وبقيت مورثات الأتونية تنتقل بشكل مدحور عبر التراث اليهوي، وبدأت الأتونية، وفي سياق عدة تطورات تاريخية، وروحية، وبالتعاون مع كثير من التصورات الدينية المعتقدية المدحورة التي قامت اليهودية بقمعها، بالظهور بشكل تسللي عبر فكرة المسيح المخلص، فكما ستشرق الشمس بعد ليل دامس يملؤه الخوف، والفوضى، والضياع، كذلك المسيح سيعود بعد مرحلة من القهر والهزيمة ليجمع ما تفرق من الشعب، ويهديهم إلى الطريق السليم للعودة إلى الوطن، حيث سيكون المسيح ملكا على كل الأمم، مع بعض الخصوصية للشعب المختار، وفيه سيحل السلام والأمن العالمي.

وقد تشربت فكرة المسيحية الأتونية الشمسية (إلى جانب المسيحية البعثية القمرية) في ضمير اليهودية، إلى أن انتصرت على اليهودية العنصرية على يد المسيح عيسى الذي يمثل عودة إنتاج تاريخي لإخناتون مع بعض التبدلات المتوائمة مع عدة حيثيات تاريخية، أي أن المسيح (أوزريس، تموز، بعل، أدونيس) هو إله البعث المختفي داخل أتون، أو هو ابن

الرب إخناتون، أو شكل من أشكاله، وهذا يتماشى مع الافتراضات الحديثة التي تذهب إلى أن السيد المسيح هو سرد أسطوري لسيرة ابن إخناتون توت عنخ آمون.

وإذا ما تبنينا أن موسى منذ ولادته، وحتى خروجه بأتباعه من مصر، وحتى وصولهم إلى سيناء، كان هو إخناتون نفسه، فإننا سنكتشف وجود تناص بين موسى التوراتي على اعتبار أنه كان إعادة إنتاج لسيرة (إخناتون)، والمسيح كما أتى في العهد الجديد، ويمكن إيجاز الخطوط العريضة المشتركة بين الأتونية (كما أتت في النصوص المصرية، والأتونية المتخفية في التوراة)، والمسيحية في التصور المسيحي، والإسلامي أيضا:

- التشابه اللفظي بين عيسى، وموسى.
- كلاهما كان مستهدفا للقتل من قبل السلطة السياسية حتى قبل ولادتهما، بعد انتشار نبوءة تقول إن طفلا سيولد في هذا الزمن، وسيقوم بقتل الملك، أو زعزعة العرش الملكي، وكان المؤرخ يوسفوس قد ذكر أن كاهنا مصريا تنبأ للملك المصري بأن ولدا من الإسرائيليين سيولد في هذه الفترة، وسيهدد عرش الملك، وسيصبح أشهر شخصية تاريخية، ولذا فقد أصدر الملك المصري فرمانا يقضي بقتل جميع الأطفال الذكور الذين يلدون لعائلات إسرائيلية.

كذلك هو الأمر بالنسبة للمسيحية، فقد كان المجوس (كهنة الديانة الزرادشتية) قد تنبئوا بأن ذكرا يهوديا سيولد في بيت لحم، ويهدد عرش الملك، ولذا قام الملك هيرودوس بقتل جميع الأطفال من دون السنتين في بيت لحم ومحيطها، ولكن المسيح نجا من القتل، كما كان موسى قد نجا أيضا من القتل بتدبير إلهي.

- مريم أخت موسى، أخت هارون، بنت عمرام.
- مريم أم عيسى، أخت هارون، بنت عمران (من آل عمران).
- موسى التوراتي بعد ولادته غاب في القصر الفرعوني، ثم في سيناء، ثم عاد برسالته إلى أبناء قومه ليخلصهم من عتمة حياتهم، ويعبر بهم البحر في الفجر ليصلوا إلى بر الأمان مع شروق الشمس، وهداهم إلى الديانة اليهودية، وهو الذي وقّع بالنيابة عنهم العهد القديم، وقدّم لهم الشريعة التوراتية.

عيسى غاب بعد ولادته في مصر ثم عاد برسالته ليخلص أبناء قومه، وهداهم إلى الديانة المسيحية، ووقع بالنيابة عنهم العهد الجديد، وقدّم لهم البشارة الإنجيلية، وقد حقق عيس لأتباعه الخلاص النهائي الذي تمثل بصعود (خروج) المسيح من آلام الأرض إلى

ملكوت السماء، أما موسى فقد خلّص الشعب اليهودي من الاضطهاد الفرعوني بخروجه من مصر.

- عيسى وموسى كلاهما تتلمذا في مصر، وكلاهما اعتمدا على المعجزات في تأكيد علاقتهما بالسماء.
- عيسى (الابن - الرب) اختفى بعمر ٣٣ سنة، وسيعود ليخلص الشعب أيضا في نهاية التاريخ، وبينما اختفى إخناتون (الابن - الرب) من مصر وعمره يقرب من ٣٣ سنة، ومضى إلى سيناء، ومن هناك عاد بعد غيبته الأرضية.

إخناتون كان الرب - الملك، وهو الذي وُلد من زواج الإله السماوي (آمون الذي تشخص بأمنحوتب الثالث) بالأم الأرضية تي.

كذلك الأمر بالنسبة للمسيح الذي ولد من زواج السماء، بالأم الأرضية مريم، وعاد إلى مصر ليعلن نفسه ربا، وملكا على اليهودية.

اختفى المسيح من مدفنه، ولم يعثر على مومياء إخناتون في مدفنه أيضا.

- جاء نص لإخناتون {يا آتون الحي الوحيد إنك أنت الأبدية والسماء هي معبدك الذي تشرق فيه كل يوم لتلد ابنك الذي خرج من جسدك.. إنك الأبدية وابنك مثلك.. إنك تعمل طبقا لما يخرج من فمك، إنك تلبي طلباته، إنك تحبه وقد صنعته مثل أتون.. ابنك الذي خرج من أعضائك}، وهو نص ينطبق على المسيح نفسه.
- أتون (الشمس) تغيب فتحل العتمة والظلام والفوضى، ثم تعود ليحل النور حيث لا يتعثر المرء في طريقه، وعلى المرء أن ينتظر عودة الشمس كي يتابع حياته الصحيحة.

وعلى البشر أيضا انتظار عودة المسيح لينشر الحب والسلام.

- الشمس هي التي تعيد للعيون رؤيتها، وللخطى سدادتها، وتقي الإنسان من الإصابة بالكساح، كما وتعيد للجلد لونه ونظارته.
- وعيسى المسيح كان يعالج المصابين بالعمى ليعودوا يرون تحت ضوء الشمس، وكان يعالج المشلولين والعرج ليمضوا دون أن يتعثروا، وكان يعالج البرص، ويعيد للجلد نظارته.

- الديانة اليهودية تشكلت من انتصار الديانة السينائية على الأتونية المصرية، والديانة المسيحية هي انتصار (الأتونية) على اليهودية.

- أدخلت اليهودية التقويم القمري السينائي على التقويم الشمسي الأتوني.

واستطاعت المسيحية (الأتونية الجديدة) استرجاع التقويم الشمسي.

كما أن اليهودية كانت تقدس يوم السبت.

أما المسيحية فقد اعتبرت يوم الأحد هو اليوم المقدس، وهما كانا اليومين المقدسين في العقائد المصرية، وقد جاء في برديات المقابر {أجل، يا أبتاه، كانت الرحمة تنزل على المعذبين في كل يوم سبت وأحد}.

وأخيرا يمكن لنا أن نفترض أيضا أن إخناتون عاد عودة مسيحية (من خلال أحد أتباع الأتونية، على اعتبار أنه إخناتون المسيح) إلى مصر، أي عودة الرب ابن أتون، وليس عودة تاريخية لإخناتون التاريخي بل عودة المسيح الإخناتوني، والذي تم تهويده في شخصية موسى، وشخصية الرب (يَهْوَه) معا.

والآن تنتشر نظرية تذهب إلى أن السيد المسيح هو تناص أو إعادة إنتاج لسيرة الفرعون توت عنخ آمون، وهذا الافتراض يمكن أن أسوقه أيضا لتوكيد مقولتي من أن الرب (يَهْوَه) لم يكن سوى إخناتون نفسه بعد سقوطه عن العرش، وكما أن توت عنخ آمون، هو ابن إخناتون (الرب يَهْوَه)، كذلك هو المسيح ابن الرب.

(يَهْوَه)
بين الحنيفية و اليهودية

كانت الديانات في العالم القديم تعتمد على تعدد الآلهة، وكان لكل حضارة أو مجتمع إله قومي رسمي، وآخر شعبي، إلى جانب وجود مجموعة رئيسية تشكل الصف الأول في البانثيون، ومجموعة ثانوية تشكل الصف الثاني، وكان الإله الرسمي عند السومريين هو (آن) وهو اسم آخر للإله إيل، أما عند الآكاديين فكان اسم الإله الرسمي آن أو آنوا، وكان البانثيون الأكادي يتألف من (آن رب السماء - أنليل سيد الرياح - أيا سيد الأرض)، أما عند العموريين، والفينيقيين الكنعانيين فكان الإله الرسمي هو إيل، أما الإله الشعبي فكان الإله بعل (رب الغيوم والمطر)، إلى جانب زوجته عشتار، كما كان الإله الرسمي هو الإله آشور عند الآشوريين، والإله مردوخ عند الكلدانيين، والإله كموش عند المؤابيين، والإله ملكوم عند العمونيين، والإله (يَهْوَه) عند العبرانيين، وآمون عند المصريين، والذي أصبح آتون في عهد إخناتون، وكان الإله الشعبي هو الإله الثاني في البانثيون، وكان هذا الإله الشعبي، في كثير من الحضارات يتقدم على الإله الرسمي الذي تتبناه السلطة الرسمية، أو كان يغتصب بعض صلاحيات الإله الأكبر الرسمي، بل قد يصبح هو الإله الرسمي في بعض الأحيان.

وكان هناك ميل في الشرق الأدنى القديم إلى دمج الآلهة مع بعضهم، وهو الأمر الذي أسفر في النهاية، وبعد المرور بالمرحلة، أو بالعقيدة التفريدية، عن تشكيل الديانات السماوية التوحيدية، ويمكن اعتبار العقيدة الحنيفية أول المعتقدات التوحيدية، أو أنها تُعَدّ الطبقة الأولى في المعتقد التوحيدي، أو على الأقل أصفى العبادات التفريدية، والحنيفية هي المعتقد الديني الذي كان سائدا في الشرق العربي والذي جعل من الإله الأكبر (إيل) إلها وحيدا، وإن كان في بعض الأحيان هناك وجود شاحب للآلهة من الترتيب الثاني يأتمرون بأمر الإله الأكبر إيل، إي أن الحنيفية هي عقيدة توحيدية في جوهرها، وإن كانت أحيانا تبدو على غير ذلك في مظهرها، أو على الأقل هي عقيدة لم تصل تماما إلى التوحيد المطلق، وقد كانت هذه العقيدة منتشرة بشكل واسع في الشرق الأدنى، وقد وصلت إلى مصر عن طريق الهجرات من سوريا إلى مصر، وعن طريق الغزو المصري لسورية، ومن ثم الغزو السوري الهكسوسي لمصر السفلى، وهناك تجلت العقيدة الحنيفية من خلال الإله آمون، وأحيانا رع، وأحيانا آمون رع.

يُعَدّ إيل (الله)، الإله الرئيس في الدين أو المعتقد الديني الحنيف، وكانت عبادته تنتشر في الجزيرة العربية، وقد خرج من هناك إلى سوريا، ومن ثم إلى بلاد الرافدين على يد العموريين السوريين، في سياق الألف الثالثة قبل الميلاد، وهو ما نلحظه في أسمائهم (أمرافيل، يعقوب إيل، يوسف إيل)، كما نلحظ ذلك بوضوح في أسماء أمراء مدينة أور (أيلوما أيلو = الإله هو الإله الواحد، إيتي إيلي نيبي = الله هو حسبي، أو أنت يا إيل ربي، ياثع إيل، أو ياثي إيل = إلهه الواحد صديق له أو صديق إيل، داميق إيل يشو، ومن ثم، وعلى يد العموريين انتشرت عبادته في كل أنحاء الشرق العربي القديم، وقد تعبدت له أيضا كل الشعوب التي استوطنت أو غزت المنطقة، فقد تعبد له الحثيون، وهذا ما نلحظه من خلال أسمائهم (حتوسيل بن موسيل بن سوبيليو ليوما) أو ما يترجم أحيانا بحاتوشيلش الثالث، وهو الملك الذي عقد اتفاقية السلام الشهيرة مع رعمسيس الثاني (١٢٩٩ - ١٢٣٢ ق.م)، وعلى يد الكنعانيين انتشرت عبادت الإله إيل في أرجاء العالم من خلال التجار الفينيقيين (مرسيليا = مرسى إيل، هرقيل، فرجيل، أخيل)، ومن بعدهم على يد الآراميين، وبينما كان اسم إيل يدخل كسابقة على الاسم إيليسار - إليزابيت - إيليمازر، كان اسم إيل يأتي كلاحقة عند الآراميين، والعبرانيين (هابيل، راحيل، إسرائيل، إسماعيل).

والإله إيل بشكل عام كان في التصور الديني القديم يتمثل ذهنيا، وبشكل مجرد، إلا أن الفينيقيين كانوا يجسدونه على هيئة الثور حين كانوا يمزجونه مع ابنه بعل، وأحيانا كانوا يجسدونه على هيئة شيخ جليل يضع على رأسه التاج الملكي السماوي، والفينيقيون هم من عمموا، ورفعوا الإله إيل إلى السماء العالية، ونصّبوه على رأس البانثيون، وهو الوحيد من بين الآلهة الذي استفردوه، وأسكنوه في السماء العليا، ومنحوه صفاته الشمولية، فهو خالق الوجود، وأبو البشر، وهو القادر على كل شيء، والذي بيده مقاليد الحكم على الأرض، هو مجري الأنهار، ومحيي الأرض من مواتها، وباعث المطر لتسيل به الأودية عسلا، كما أنه طيب، ورحيم، ومعزي ومخفف آلام الإنسان، وهو الذي يَرى ولا يُرى، ولا يتبدى للبشر إلا من خلال الحلم، أو الوحي، أو الملائكة، وهو من يعطي التصاريح لبناء المعابد، وكانوا يُعَدّون أرض كنعان ملكا خاصا به، وقد تزوج الإله إيل من عشيرة، أو عشتار (إلهة البحر)، وأنجب منها بعل وعناة، وكان بعل (إله البعث) يعبد في كل أنحاء العالم القديم بأسماء متعددة، فكان اسمه دموزي (تموز) عند السومريين، والأكاديين، أو مردوخ كإله رسمي، أو تموز كإله شعبي عند البابليين، وحدد أو هدد عند الآراميين، وأدون (أدونيس)، وبعل عند الفينيقيين، وأوزريس عند المصريين، ويمكن اعتبار (يَهْوَه) شكلاً متطرفاً، ومنقوصاً من أشكال إله البعث، وقد اشتهر بعل بشعبيته الواسعة عند الكنعانيين الجنوبيين (بلاد كنعان)، حيث كانوا يُعَدّونه إله العواصف والأمطار، القوي،

الغاضب، المتطي صهوة الغيوم، ومقره في المرتفعات وأعالي الجبال، وبينما كانت الديانة الحنيفية الإيلية أكثر سماوية، وذات طبيعة روحية، وكان الإله إيل يعيش على أعلى قمة جبلية، ومن ثم صعد إلى السماء، فقد مال المذهب البعلي إلى المادية، وكان بعل الذي يُجَسَّد على هيئة ثور، يسكن على المرتفعات الأرضية على مقربة من القرى الزراعية، وكان لكل منطقة بعلها الخاص بها، (بعلبك، بعل صافون، بعل شمين)، وكان اهتمامه منصباً على تأمين الحياة للأراضي الفقيرة، أو المحرومة من المياه الجوفية والنهرية، وقد استطاع إله البعث بعل أن يحقق مكانة مهمة على حساب إيل، وذلك تبعا لحالة الاقتصاد السوري:

ففي المجتمعات المدنية الزراعية الكنعانية والعبرية على حد سواء على الهضاب، والسفوح، والسهول الشمالية لبلاد كنعان، وكذلك الأمر بالنسبة للمجتمعات التجارية الفينيقية على الساحل السوري، كان الإله الرسمي هو الإله إيل، وكان الإله الشعبي في تلك المجتمعات هو الإله بعل إلى جانب زوجته عناة.

أما في المجتمعات البدوية الرعوية العبرية في المنطقة الجنوبية من بلاد كنعان فكان الإله الرئيسي هو الرب (يَهْوَه)، أما بالنسبة للمجتمعات الكنعانية في نفس المنطقة، والتي كانت تسكن في المدن (أورشليم، وحبرون، ومحيطهما) وتعمل في الزراعة، إلى جانب تربية بعض الحيوانات فكان الإله الرسمي هو الإله إيل شأنهم شأن كنعانيي الهضاب المركزية الشمالية، أما الإله الشعبي عند كلا المجتمعين (الكنعاني، والعبراني) فكان الإله بعل أيضا، والإله بعل هو أحد التجليات الشعبية للإله إيل، وعبادة بعل مرتبطة بعبادة إيل، أي أن بعل هو أقرب ما يمكن إلى ملاك من ملائكة الإله إيل، وليس إلها له شخصيته المستقلة، وكان نفوذه يزداد، ويتقلص على حساب إيل حسب نمط الحياة، بحيث أن إيل أصبح ربا وحيدا، أو شبه ذلك في مدينة أوغاريت الكنعانية التجارية، وقد تم توظيف باقي الآلهة في البانثيون القديم كملائكة للإله الأوحد إيل، وبمعنى آخر فقد كان نفوذ إيل يزداد في المجتمعات الحضرية المدنية الأكثر استقرارا، لا سيما المجتمعات التجارية، أما المجتمعات الزراعية خاصة التي تعتمد على الأمطار الموسمية، فكان الإله إيل ينسحب لصالح نفوذ الإله بعل.

ومما سبق، ومن قراءة تفريقية بين الديانة اليهودية والكنعانية، يمكن أن نستنتج أن الرب (يَهْوَه) ليس سوى الرب الكنعاني بعل، إلا أنه تميّز عن الرب بعل قليلا بعد أن قام الرب (يَهْوَه) بابتلاع الإله إيل دون أن يستطيع هضمه، وبعد أن كان الرب (يَهْوَه) أيضا قد اكتسب بعض الصفات الشخصية الخاصة به أثناء تجواله مع شعبه البدوي العبراني بين الشعوب المتعددة، وفي البيئات المختلفة، وقد بينت الأبحاث الأركولوجية أن الرب (يَهْوَه) كان يصنَّم، أو يجسّد بشكل عجل، وهو التجسيد الكنعاني للرب بعل أيضا، ومن المعروف أن العبرانيين كانوا يعبدون العجل

في سيناء، وقد اعتقد بعض الباحثين أن عبادة العجل أتت بها جماعات الخروج من مصر، على اعتبار أن العجل كان يجسد الرب المصري أبيس، وهو استنتاج لا يمتلك الحجج الكافية لأن المصريين كانوا يقدسون البقرة، وليس العجل، كما أن الرب أبيس لم يكن يمثل عقيدة، بل كان يمثل تصورا ضمن العقيدة، وأنا اعتقد أن العجل الذي تعبّد له العبرانيون في سيناء لم يكن سوى تجسيدا للرب الكنعاني بعل الذي كانت تدين له بعض الجماعات العبرية التي كانت تقيم في منطقة إسرائيل (منطقة الهضاب الشمالية من بلاد كنعان)، بل إن بعل و (يَهْوَه) كانا يعبدان في منطقة إسرائيل كما لو أنهما اسمان لإله واحد، وحسب اعتقادي فقد كان الإسرائيليون الكنعانيون يعبدون بعل، أما الإسرائيليون العبريون فكانوا يعبدونه باسم (يَهْوَه)، ولم يكن هناك من فارق جوهري بين صفات وخصائص الإلهين في منطقة إسرائيل، وكلاهما كان الإله الشعبي في المعتقد الإسرائيلي الحنيفي، إلى جانب الإله إيل الذي يمثل الإله الرسمي، أما (يَهْوَه) عند العبرانيين اليهوذيين، فلم يكن سوى بعل الذي تغيرت صفاته بما يتماشى مع طبيعة، ونمط المجتمع العبري اليهوذي البدوي، أو شبه البدوي، وبمعنى ما فقد تحول الإله بعل المزارع المستقر، إلى الرب (يَهْوَه) راعي الأغنام المتنقل، أي أنه تخلى عن صفته البعثية، واتخذ صفات جديدة تتواءم والطبيعة القاسية للبوادي، ولكن طبيعته البعثية التي انفصلت عنه، عادت للظهور من خلال العقيدة المسيحانية في الديانة اليهودية، والجدير ذكره أن الباحث فراس السواح يذهب إلى أن {يَهْوَه العبراني ليس إلا إيل الكنعاني في حلة جديدة وتحت اسم جديد فرضته طبيعة الإصلاح الديني الموسوي ورغبة العبرانيين فيما بعد بالتميز عن جيرانهم الكنعانيين}، وهو ما ذهب إليه بعض الباحثين، وأضافوا إلى ذلك أن اليهود جعلوا من الرب بعل هو إبليس اليهودية.

وقد كان هناك صراع ديني بين الديانة الكنعانية الزراعية الحنيفية الإيلية البعلية، والتي تعتمد على الزراعة أكثر من اعتمادها على الرعي، والعبرية البدوية القبلية اليهوية التي تعتمد على أعمال الرعي بالدرجة الأولى، وعلى الزراعة بالدرجة الثانية، أي بين نمطين اجتماعيين هما النمط الزراعي المدني، والنمط البدوي القبلي، وكانت النصرة دائما للجماعات الشمالية الإيلية، مما اضطر الجنوبيون أن يطوروا في شخصية الإله (يَهْوَه)، بحيث أصبح (يَهْوَه) يسكن في السماء، ويرعى أراضيه الزراعية، إضافة إلى خصوصيته كإله قومي قبلي عشائري، ولكن هذه الاستعارات لم تمتزج في شخصية الإله (يَهْوَه) تماما، بل بقيت عبارة عن إلصاقات، ولم يستطع (يَهْوَه) أن يهضم داخله العقيدة الحنيفية تماما، وهكذا بدا الإله (يَهْوَه) ذا طبيعة فصامية، تمثلت في مجموعة من الثنائيات المتصارعة في التوراة، بل وفي الشخصية اليهودية الفردية، والجماعية: الإله إيل والرب (يَهْوَه)، قابيل وهابيل، هاجر وسارة، إسماعيل وإسحاق، عيسو ويعقوب، الأسباط العشرة وسبطا بنيامين ويوسف، إسرائيل ويهوذا، الصدوقيون والفريسيون، ولكن، وبعد سقوط

منطقة السامرة على يد الآشوريين، بدأ المعتقد اليهوي بالبروز على حساب المعتقد البعلي، وقد استطاع المعتقد اليهوي أن يحقق انتصاره في محيط مرحلة السبي، كما استطاع أن يستوعب إلى درجة ما المعتقد الحنيفي، دون أن يستطيع هضمه تماما، بحيث تم توظيف الإله إيل كمجموعة من الملائكة في الديانة اليهوية، وقد كانت الصلوات ترفع إلى الإله إيل الذي في السماء، ولا سيما تلك التي كان يتلوها الأنبياء الكبار الذين استطاعوا أن يصالحوا، ويزاوجوا بين التيار اليهوي العنصري الضيق، وبين التيار الإيلي الإنساني الواسع، «أنا الأول وأنا الآخر ولا إله غيري.. أنا الرب صانع كل شيء ناشر السموات وحدي باسط الأرض» إشعيا ٤٤، «لا إله سواي.. مصوّر النور وخالق الظلمة صانع السلام وخالق البشر» إشعيا ٤٥، وكان على رأس هؤلاء الأنبياء النبي إشعيا، والذي لم يتخل تماما عن عنصريته العبرية اليهوية تماما، على الرغم من أنه حاول أن يؤمم الرب (يَهْوَه)، وقد وجد في محاولته تلك، مقاومة الكهنة اليهويين، والذين كانت مصالحهم الطبقية الاقتصادية تتماشى مع التيار اليهوي، أكثر من تمشيها مع التيار الإيلي، وهذا ما لاحظناه أيضا في موقف كهنة آمون المصريين، إزاء الديانة الأتونية الأممية، ولكن الكهنة اليهود في السبي اضطروا إلى التنازل أمام التيار الإيلي من أجل جمع أكبر عدد ممكن من المسبيين في بوتقة واحدة، من شأنها اندماجهم في شعوب ومعتقدات بابل.

وقد عاد التيار الإيلي للبروز ثانية من خلال المسيحية (ذات الجذور الإسرائيلية) التي انبثقت من حضن التيار اليهوي القومي، والذي مزج بين ذكورية الرب (يَهْوَه)، والجانب الأمومي الأنثوي في الديانة البعلية، واستطاع في النهاية أن يسترد زمام المبادرة بعد ثلاثة عشر قرنا، وأن ينتصر على التيار اليهوي في الديانة اليهودية، في القرن السادس الميلادي، على يد الإسلام، الذي انبثق من أتون الصراع بين مسيحية الحبشة التي كانت تمثل روما، وبين يهودية اليمن التي تمثل فارس، والذي أعاد إلى المعتقد الحنيفي جانبه الذكوري الذي كان قد ضعف في الديانة المسيحية، أما ضمن اليهودية فقد حافظت إلى درجة ما الطائفة السامرية، التي تمثل الديانة الإسرائيلية، على المعتقد الحنيفي الإيلي، الذي برز على حساب التيار اليهوي العنصري، أما المعتقد الصابئي المعمداني فقد شكل المرحلة الوسيطة بين المعتقد اليهوي الذكوري الختاني، والمعتقد المسيحي المعمداني.

كان الإله في التوراة قد بدأ تاريخه على الأرض باسم إيل، حيث كان يتجسد بصورة إنسان يتمشى، ويأكل على موائد البشر في مرحلة الأباء الأوائل، ومنهم خليله إبراهيم، كما أنه يمكن أن يتجادل مع البشر، بل ويدخل معهم في صراع جسدي، وقد يخسر هذا الصراع كما حصل في عراكه مع يعقوب، كما أنه كان يتحكم أحيانا ببعض القوى المدمرة، مثل البراكين، والزلازل والتي دمر من خلالها سدوم، وعمورة.

وبعد أن ارتحل الآباء الأوائل إلى مصر، انتقل الإله ليسكن في جبل سيناء، حيث هناك أصبح أكثر قدرة على التحكم بمظاهر الطبيعة بعد أن تحول إلى الإله (يَهْوَه)، ولكنه اضطر إلى أن ينزل إلى الأرض، وأن يتجسد كرجل، أو ملك خفي، وأن ينتقل إلى مصر، ويصحبته موسى لتحرير العبرانيين من الاضطهاد المصري، وأن يعود بهم إلى مسكنه على جبل سيناء، وهناك اتفق الرب (يَهْوَه) مع العبرانيين من قوم موسى على أن يكون لهم الرب الوحيد، وأن يكونوا له شعبه المختار، وبذلك تم الربط الأبدي بين الرب (يَهْوَه)، وبين العبرانيين الشعب المختار، ولأن هذا الشعب المختار كان من البدو الرحل، فقد اضطر الرب أن ينزل من قمة الجبل ليرافق شعبه في ترحالهم في البوادي، والقفار، وصار يسكن في خيمة مثله مثل شعبه، كي يكون فيما بينهم، وكي يشرف بشكل مباشر على صناعة تاريخه، وكان الوسيط بين الرب والشعب النبي موسى الذي كان يقابل الرب وجها لوجه في خيمة الاجتماع، كما كان الرب يتمثل في حالة الترحال في عمود من سحاب في النهار، وعمود نار في الليل، ولكن وبعد استقرار شعبه المختار في بلاد كنعان، فقد تمثل بهم أيضا، وسكن في هيكله لمدة ما من الزمن، ولكن، ولأن الشعب المختار بدأ ينكث بعهوده مع الرب، فقد غادر الرب (يَهْوَه) مسكنه وصعد إلى السماء القريبة، أو السماء الأولى أي السماء الكنعانية، إلا أنه كان يقضي معظم وقته على الأرض ليبلغ بعض رسائله، وليتقوت مقابل خدمات كان يقدمها لبعض المحتاجين، ومن ثم صار يبعث بملائكته إلى الأرض، ومن ثم اعتمد على الأنبياء في إبلاغ رسائله إلى الشعب الذين أداروا ظهرهم تماما لنص الاتفاق معه، على الرغم من التهديد، والوعيد، وفي النهاية قرر معاقبة شعبه، كما قرر أن يتخلى عنهم، كما تخلى شعبه عنه، بل وأنه ارتفع إلى سموات أعلى، وبينما كانت صلاحياته محصورة في شعبه المختار فقط، فقد أصبح مسؤولا عن كل الشعوب، بل وتسيير الحياة بكل أشكالها على الأرض، وعن صناعة تاريخ الأرض، ولكن ولخصوصية شعبه المختار، وبعد أن فشل من خلال الأنبياء في فرض إرادته عليهم، فقد قرر أن يعود ثانية إلى الأرض، ومن أجل ذلك فقد قرر أن يتزوج بصفته السماء، من إسرائيل (شعبه المختار)، متمثلا في امرأة من لحم ودم بصفتها الأرض، وينجب منها الرب المسيح، الذي سيكون وكيل (الآب) في إدارة شؤون شعبه المختار، حيث سيجمع الرب بصفته المسيح ما تفرق من شعب الرب بين الأمم، ويرجعهم إلى فردوسهم في الأرض المقدسة، وسيكون ملكا في قصره (الهيكل) على جميع الشعوب، وسيكون شعبه المختار كهنة الهيكل، أما (الآب) فسوف يتفرغ في السماء السابعة لإدارة شؤون الكون بكافة عناصره، وهكذا، ومع هذا التطور، فقد تجاوزت اليهودية عقيدة التفريد والتخصيص، وأصبحت أقرب إلى عقيدة التوحيد والتعميم.

اليهودية
بين التعديد، و التفريد، و التوحيد

تُعَدّ الديانة اليهودية بمجملها ديانة تفريدية، إلا أنها دنت كثيرا من الديانة التوحيدية في المراحل الأخيرة من تاريخ نشوئها، كما أن اليهودية لم تكن الديانة التفريدية الأولى، بل سبقتها في ذلك عدة معتقدات دينية في الشرق الأدنى القديم، منها العقيدة الحنيفية، وكان العبرانيون قد تشبعوا بالمعتقد الإيلي الحنيف، والذي كان منتشرا في منطقة الهلال الخصيب، وقد تعرف العبرانيون عليه في بلاد كنعان منذ زمن الآباء الأوائل، وقد جاء في سفر التكوين «وملكي صادق ملك شاليم أخرج خبزا وخمرا. وكان كاهنا لله العلي وباركه وقال مبارك إبرام من الله العلي مالك السموات والأرض» ١٤: ١٨ - ١٩، والذي كانت تدين به مملكة إسرائيل الكنعانية، وكان هذا المعتقد قد دخل إلى مصر على يد الهكسوس العموريين، وهناك تمصر، أو ترك أثره بعبادة إخناتون.

وكان المديانيون قد زاوجوا بين العقيدة الإيلية الحنيفية، والأتونية المصرية في سيناء، وقد تبنت الجماعات العبرية اليهوذية التي انفصلت عن الإيلاف الهكسوسي بعد طردهم من مصر، العقيدة السينائية المتمثلة بالرب (يَهْوَه)، ربا خاصا بهم، ولأن تلك الجماعات كانت عبارة عن قبائل بدوية عشائرية تقدس الماضي، ورموزه الأبوية، فلم يتنكروا، ولم يتخلوا عن الإله إيل الحنيف الذين كانوا يطلقون عليه اسم أيلهيم، ولكن وبعد قدوم قوم موسى إلى سيناء مطرودين، وهاربين من مصر، ومعهم عقائد متنوعة، وبعد أن دخل في الإيلاف الجماعات العبرية اليهوذية الهكسوسية، ولأن الإله إيل لا يتناسب كثيرا ونمط حياتهم في بيئة سيناء الصحراوية القاسية، فقد شحب الإله إيل في بانثيون إيلاف سيناء، وقاموا بدمجه مع الرب (يَهْوَه)، الذي حاول أن يبتلع في جوفه آلهة الجماعات الإيلافية، وعلى رأسهم الإله إيل «أنا أنا وحدي يَهْوَه.... أنتم شهودي وأنا إيل»، «قال له أنا الرب وأنا ظهرت لإبراهيم وإسحق ويعقوب... وأما اسمي فلم أعرف عندهم» خروج: ٦، «فقال موسى لله ها أنا آتي إلى بني إسرائيل وأقول لهم إله آبائكم أرسلني إليكم. فإذا قالوا لي ما اسمه فماذا أقول لهم. فقال الله لموسى أهيه الذي أهيه. وقال هكذا تقول لبني

إسرائيل أهيه أرسلني إليكم. وقال الله أيضا لموسى هكذا تقول لبني إسرائيل (يَهْوَه) إله آبائكم إله إبراهيم وإله إسحق وإله يعقوب أرسلني إليكم. هذا اسمي إلى الأبد وهذا ذكري إلى دور فدور.» خروج ٣.

ويذهب الكثير من الباحثين إلى أن عبادة الرب (يَهْوَه) كانت منتشرة قبل تشكل اليهودية، في شرقي مصر، وفي سيناء، ومديان، إلى جانب عبادة الإله إيل الذي يمكن رصده في اسم نبيها أو كاهنها الأكبر (راعئيل = يثرون)، كما انتشرت عبادة (يَهْوَه) كإله ثانوي عند الأنباط، وثمود باسم يهو، والحبشة، واليمن، وفي بعض المناطق الجنوبية من مصر، وبلاد كنعان، وكان يرمز له بالثور، والبعض يعتقد حسب بعض النقوش أن (يَهْوَه) كان معروفا في بلاد الرافدين منذ الألف الثالثة قبل الميلاد، ولأن العبرانيين في تلك المرحلة كانوا قبائل بدوية متنقلة، فقد جردوا الرب (يَهْوَه)، ولم يصنموه، لأن التصنيم يحتاج إلى معبد، والمعبد يحتاج إلى استقرار، وهو الأمر الذي كان العبرانيون يفتقدونه في مرحلة التيه في سيناء، إلا أنهم رمّزوه من خلال الملاكين الذين كانا يظللان تابوت العهد، وعلى الرغم من أن الرب (يَهْوَه) برز على حساب الإله إيل في سيناء، إلا أن موسى وهارون لم يغيرا أسماء أبنائهما الإيلية من أليعازر، إلى عزريا.

وبعد أن دخل العبرانيون إلى بلاد كنعان، ودخلوا صراعا مع الكنعانيين، دخل أيضا الإله (يَهْوَه) صراعا مع الإله بعل، لا سيما بعد انضمام بعض الجماعات العبرية (أفرايم) التي كانت تعيش في بلاد كنعان، والتي كانت تدين بالكنعانية، مع الجماعات التي قدمت من سيناء إلى بلاد كنعان ومعها الإله (يَهْوَه)، وبينما شكّل الإله إيل الذات الإلهية اليهوية، شكل بعل الذي يمثل الإله الشعبي في المجتمعات ذات النمط الحياتي الزراعي، الصفات البشرية النزوية للرب (يَهْوَه)، وقد حافظ (يَهْوَه) على صفاته القبلية العشائرية المتزمتة، الغاضبة، الساخطة، المدمرة، الحاقدة، وكان لا هم له سوى مصلحة شعبه المختار، وعلى الرغم من أن (يَهْوَه) كان الإله الرسمي القومي للعبرانيين في بلاد كنعان، إلا أنهم حافظوا على تعبدهم لإيل، وهذا ما نجده في أسماء بعض قادتهم مثل صموئيل الأفرايمي، وابنه يوئيل، وقد بقيت هذه الأسماء الإيلية الحنيفية شائعة حتى عصر انقسام المملكة المتحدة، ولكن من الأسماء الغريبة التي وردت في عصر المملكة هو اسم تلماي بن عميهود ملك جشور الكنعاني، وهو الذي عاصر داود، وعميهود يعني شعب يهود، وهذا يشير إلى أن الإله (يَهْوَه) كان أحد الآلهة في البانثيون الكنعاني.

وقد استمرت الأسماء الإيلية عند اليهود حتى مرحلة الانقسام، والسبي حيث نجد أسماء الأنبياء: حزقيال، إيليا، أليشع، يوئيل، دانيال، إلى جانب الأسماء اليهوية: نحميا - إشعيا - إرميا - عوبيديا - زكريا - يونان - صفنيا - هوشع، وهنا نلاحظ أن اسم (يَهْوَه) يدخل كسابقة، وكلاحقة في أسماء الأشخاص.

كان (يَهْوَه) في البداية رب الحرب في مجمع البانثيون اليهودي، إلى جانب عدة آلهة، على رأسهم إيل، وملكوم، وبعل، وسواهم، ولكن وبعد عدة صراعات بين تلك الآلهة، وبسبب الظروف التي أحاقت بالجماعات العبرية، فقد انتصر، وتفرد الإله (يَهْوَه) في النهاية على باقي الآلهة، وأصبح هو الإله الرسمي، والأثني العبري، على الرغم من أن إيل بقي الرب الأعلى الذي صعد إلى سماء بعيدة، وترك شؤون الأرض لـ (يَهْوَه)، حيث قامت الجماعات العبرية باستفراده دون سواه من الآلهة الأخرى، والجماعات العبرية لم ينكروا وجود الآلهة الأخرى، إلا أنهم اعتبروا أن الرب (يَهْوَه) هو إله فوق كل الآلهة، وهو المختص بهم، وهذا ما يدعى بعقيدة التفريد أو وحدانية العبادة.

وهذا يختلف عن عقيدة التوحيد التي تجزم بوجود إله واحد فقط، لا ثاني له في الوجود، وعقيدة التفريد سادت عند كل شعوب العالم القديم في سياق الألف الثاني قبل الميلاد، وهي العقيدة التي انتهت إلى عقيدة التوحيد، بعد أن تحول بعض الآلهة في البانثيون إلى ملائكة يعملون تحت إمرة الرب، والكثير من الآلهة اندمجوا في الإله الأوحد، بحيث أصبح الآلهة عبارة عن صفات (أسماء الله الحسنى) للإله الأوحد كما هو الأمر في العقيدة الإسلامية.

وتقوم عقيدة التفريد (وحدانية العبادة) على استفراد جماعة معينة، أو مدينة معينة لرب معين من البانثيون الذي تدين له شعوب المنطقة، بحيث يصبح أحد الآلهة (الذي قد يكون من الصف الثاني في البانثيون) هو الإله الأكبر الذي يصبح إلها قوميا لتلك الجماعة، أو المنطقة، أو المدينة، أما بقية الآلهة في البانثيون فيشحبون حتى درجة الاختفاء، ويتحولون إلى مأمورين للإله الأكبر، أو تحديدا يمكن اعتبارهم ملائكة يأتمرون باسم الإله الأكبر، بل ويصبحون أبناء، كما هم البشر، للإله الأكبر الأوحد الذي أوجد نفسه بنفسه، وعقيدة التفريد (التخصيص) تمثل، أو تعبّر عن نظام سياسي مركزي، نتج عن إئتلاف مجموعة من الشعوب، والثقافات، والأثنيات المتعددة، ولكل جماعة من جماعة الإيلاف إلهها الخاص الذي تموضع، كصيغة توفيقية، في البانثيون حسب نفوذ الجماعة السياسية التي تدين له، ومع الزمن تداخلت بعض الجماعات مع بعضها، وبدأت مجموعة من

الآلهة بالتلاشي، من خلال اندماج بعض الآلهة مع بعضها، ومع تشكل حكومة مركزية، كان لا بد من استقراد، أو تمركز تلك الجماعات حول إله مركزي يعبر عن التطور المجتمعي السياسي لجماعة الإيلاف، وهذا الإله يكون إله الجماعة التي استطاعت أن تسيد على باقي جماعات الإيلاف، وعندما وصلت السلطة إلى الوحدة والتمركز فقد تطورت عقيدة التفريد نحو عقيدة التوحيد، لا سيما في الحضارات ذات الطابع السياسي العسكري الديكتاتوري، وهذا التاريخ اللاهوتي يمكن تتبعه، ومقارنته مع التاريخ السياسي لبلاد مصر، وبلاد الرافدين، حيث كانت العقائد التي تدين بها المجتمعات ذات عقيدة تعددية، ثم تطورت نحو التفريدية، ثم نحو التوحيدية في النهاية، وبشكل عام كانت عقائد الشرق الأدنى القديم، ولا سيما منها عقائد الهلال الخصيب تميل نحو التوحيد، بينما كانت العقائد الهندية، والإغريقية، والرومانية عقائد تعددية، بل كانت تميل نحو المزيد من التعديد، إلى درجة أن الإغريق، والرومان كانوا يقومون باستقراض آلهة الشعوب الأخرى والتعبد لها، وهناك كثير من الباحثين، ولا سيما التوراتيين منهم يحاولون أن يظهروا أن معتقدات الشرق الأدنى القديم، باستثناء اليهودية، معتقدات تعددية، وحسب اعتقادي فقد نتج هذا التصور الخاطئ عن سببين:

الأول هو رغبة الباحثين التوراتيين في أن يظهروا أن الديانة اليهودية (التوحيدية) نشأت في منطقة حضارية كانت ذات معتقدات دينية تعددية، وذات طبيعة وثنية، وغايتهم من ذلك هو الحط من أخلاقية المعتقدات الدينية لشعوب المنطقة، وهو ما كانوا ينعتون به المعتقدات الكنعانية على وجه التحديد، وهذا ما يرفع من شأن الديانة اليهودية، في محاولة لفصلها عن سياقها التاريخي، الاجتماعي التطوري، على اعتبار أنها ديانة هبطت من السماء في حلتها النهائية.

أما السبب الثاني فقد نتج عن سوء فهم المستشرقين لتعدد أسماء الآلهة، وليس لعدد الآلهة، والتي هي في الحقيقة صفات، وتسميات متعددة لنفس الآلهة، أي أن الكثير من أسماء الآلهة في الحقيقة لم يكونوا سوى وجوه متعددة لإله واحد، فعلى سبيل المثال كان لإله البعث (الخصب) اسم خاص لدى كل شعب من شعوب المنطقة، ومن هذه الأسماء (بعل، تموز، أدون، أوزريس، حدد، أدد..)، وكذلك الأمر بالنسبة للآلهة الأم (عشتار، عشتاروت، عناة، عشتر، أشتر، أو أستر، عثتر، اللات، مريم، ..)، بينما في واقع الأمر فقد كان البانثيون في الهلال الخصيب القديم، وخاصة المجتمعات (السامية)، يضم بشكل عام ثلاثة آلهة هم:

الإله (إيل) على رأس المثلث وهو أب لجميع الآلهة، والبشر جميعا (رب العالمين).

أما قاعدة المثلث فتتألف من إله البعث بأسمائه المتعددة، ومن خليلته عشتار بأسمائها المتعددة، وهي التي عادت للبروز وبشكل واضح في العقيدة المسيحية التثليثية (الآب الله، الرب يسوع، الأم مريم)، أما في العقائد التفريدية، فكان لكل جماعة، أو شعب إله قومي خاص بكل شعب يختزل، وبشكل غير نهائي باقي الآلهة.

أما في العقيدة السومرية فقد كان الثالوث السومري يتألف من: (آن) كبير الآلهة، ومن أنليل، وأنكي، مع مجموعة من آلهة المدن التفريدية، مثل الإله (شمّاس) أو شمس الإله الرئيسي الذي كان يعبد في مدينة سيبار، والإله سن (القمر) في مدينة أور، والإله أنوم في مدينة أوروك، والإله إيا في مدينة أريدو، وإضافة إلى الثالوث الرسمي السومري، كان الشعب السومري يتعبد إلى الإلهة إنانا، والتي كانت تُعَدّ أحد آلهة مدينة أوروك، أما زوجها الإله دموزي فقد كان يمثل الإله الشعبي السومري.

أما عند البابليين، فبينما كان مردوخ هو الإله الرسمي في الإمبراطورية البابلية، فقد كان الشعب يتعبدون لتموز، إله العقيدة البعثية، ولزوجته عشتار، شأنهم شأن باقي شعوب المنطقة الذين كانوا يدينون إلى إله الخصب (الشعبي)، بينما كانت السلطة تدين، وتفرض دينها، للإله الرسمي (الكهنوتي) مردوخ الذي كان يختزل عدداً من الآلهة على رأسهم الإله السومري أنليل، ودموزي، أو تموز.

أما في مصر فكانت عقائد التعديد أكثر وضوحا مما عليه في منطقة الهلال الخصيب، بحيث كان لكل إقليم مصري إلهه الخاص، ولكل مدينة إله، ولكل قرية إله، ولكل عائلة إله، وحتى لكل شخص إله خاص به، وكان المصريون ينظمون آلهتهم في ثواليث، وتواسيع ولكن حسب فراس السواح لم يكن هذا التعدد له معنى حقيقي، وهي لم تكن سوى متحولات للرب المطلق الأزلي، وذلك يعني أن الآلهة هي تجليات أو صفات أو (جزئيات) من الإله الأكبر رع (الشمس) تحديدا، والذي كان له العديد من الأسماء، لكل مرحلة أو وقت من أوقات اليوم، ففي الصباح يكون اسمه خبيرا، وفي الظهيرة اسمه رع، وفي المساء اسمه أتوم، إضافة إلى أسماء متعددة أخرى

الثناء لك يا رع، أنت القدرة المجيدة التي تسري في مساكن أمنت، هو ذا جسدك فهو طيمو.

الثناء لك يا رع، أنت القدرة المجيدة التي تسري في مخبأ أنوبيس، هو ذا جسدك فهو خبيرا.

الثناء لك يا رع، أنت القدرة المجيدة، الذي تدوم حياته أكثر من كل الكائنات الخفية، هو ذا جسدك فهو شو.

الثناء لك يا رع، أنت القدرة المجيدة، هو ذا جسدك، فهو طفنوت.

والعقائد المصرية، شأنها شأن عقائد الشرق الأدنى القديم، سارت قدما على طريق التوحيد، فعلى سبيل المثال كان إله االقمر يمثل الإله رع في الليل، وإله الخصب أوزريس، والإله حورس (حور، أو حيرو) الذي كان يمثل أيضا شكلاً من أشكال الشمس، بل كان اسم إله الشمس قبل أن يتحول إلى رع، وهو الذي كان يشخص بطائر الصقر، حيث كانت عيناه تمثلان الشمس والقمر، كما تم دمج الإله رع مع الإله آمون إله مدينة طيبة، وفي الدولة الوسيطة وحد المصريون الإله بتاح، وسكر، وأوزريس في إله واحد، وفي الدولة الحديثة قام المصريون بتوحيد آمون، مع حوريس، وخنوم إله جزيرة ألفنتين، وأتوم إله مدينة هليوبوليس في إله واحد هو رع، والجدير ذكره أن الكهنة المصريين التقليديين، وعلى رأسهم كهنة الإله آمون كانوا يقفون ضد هذه التيارات التوحيدية لأن الكهنة كانوا أكثر المستفيدين من تعدد الآلهة في البانثيون المصري، أما الطفرة التوحيدية في العقيدة المصرية فكانت العقيدة التوحيدية الأتونية، والتي وصلت وفي وقت مبكر من تاريخ تطور المعتقدات الدينية إلى حالة أكثر صفاء من وحدانية الديانة اليهودية (التفريدية)، والمسيحية (التثليثية)، وقد خضعت جميع العقائد إلى السياقات التاريخية للتطور العام للعقائد الدينية في الشرق الأدنى القديم، حيث ظهرت العقيدة أو الديانة الزرادشتية التثنوية، وفي النهاية ظهر الإسلام الذي شكّل أكثر العقائد الدينية توحيدا.

ويمكن ان نستشهد بكثير من النصوص الدينية التي تعكس المرحلة التفريدية الوسيطة التي عبَرت من خلالها العقائد التعددية، إلى التوحيد، منها على سبيل المثال، الترتيلة أو الصلاة السومرية المرفوعة إلى الإله إنليل:

إنليل ذو الكلمة المقدسة والأوامر النافذة
يقدر المصائر للمستقبل البعيد، وأحكامه لا مبدل لها
عيناه الشاخصتان تمسح الأمصار..
ينحني أمامه آلهة الأرض طوعا..
إنليل راعي الجموع المؤلفة
راعي جميع الكائنات الحية وحاكمهم..
لا يجرؤ أحد من الآلهة على رفع البصر إليه..
لولا إنليل، الجبل العظيم، لم تبن المدن ولا القرى

ولم يفـــض البحـــر بكنـــوزه الـــوفيرة

ولم يـضع الـسمك بيوضـه بـين أجمـات القـصب

ولم تصنع طيور الجو أعشاشها في طول البلاد وعرضها

لـولاه لم تفـتح الغيـوم المـاطرة أفواههـا في الـسماء

ولم تمتلـئ الحقـول والمـروج بخـيرات الحبـوب

ولـــــــــــم.. ولم..ولم..

أنـــت قاضـــي الكـــون وصـــاحب الأمـــر فيـــه

ومن نص سومري آكادي مرفوع إلى رب السماء نانا، وهو آن عند السومريين، وآنو عند الأكاديين:

أيها الرب، بطل الآلهة، من مثلك معظم في السماء والأرض..

أنت المولود الذي أنجب نفسه بنفسه، تاما كامل الهيئة

أنـــت الـــرحم الـــذي أنجـــب كـــل شـــيء

الـــذي يقـــيم بـــين البـــشر في مـــسكنه المقـــدس

الوالد الرحيم في قضائه، من يمسك بيديه حياة البلاد..

أيهـــا الأب الـــذي أنجـــب البـــشر والآلهـــة..

أنـــت مقـــرر المـــصائر إلى نهايـــة الأزمـــان..

أيهـــا الـــرب الـــذي يقـــدر مـــصائر الـــسماء والأرض..

أنت المتحكم بالماء وبالنار، وليس لك بين الآلهة شبيه..

لـــيس لـــك بـــين الآلهـــة مـــن نـــد ولا مـــن مـــزاحم

كما جاء في ترتيلة بابلية كلدانية كان قد بعث بها الملك نابونيد إلى الإله سن:

سن يا سيد الآلهة. أنت الذي يمسك بيديه قوى الإله آنو، ويستخدم كل قوى الإله إنليل، ويسيطر على قوى الإله إيا، فيجمع بذلك إليه كل القوى السماوية. أيها السيد بين الآلهة يا ملك الملوك ويا رب الأرباب، أمرك لا يعارضه أحد وكلمتك لا يطالها تغيير. سن ملك الآلهة ورب الأرباب في السماء، أؤلئك الأرباب المعينين من قبله المنفذين لأوامر الهلال المقدس.

وهناك الكثير من النصوص المماثلة عن الإله البابلي الشهير مردوخ.

هذا بالنسبة للعقائد في بلاد الرافدين، والهلال الخصيب، أو تحديدا في العقائد التي يغلب عليها الطبيعة القمرية، أما في مصر ذات العقيدة الشمسية، ومن ترتيلة كتبت نحو سنة ١٣٠٠ قبل الميلاد، أي بعد اندحار العقيدة الأخناتونية التوحيدية، مرفوعة إلى الإله آمون:

آمــــــــــــــــــون..

لم يأت إلى الوجود إله قبله، ولم يكن معه أحد

لم يكن معه، في ذلك الوقت، إله ليخبرنا عن شكله

بلا أم ينتسب إليها، بلا أب يقول: هذا أنا

صنع البيضة التي خرج منها، بنفسه

روح غامضة في ميلادها. صنع جماله بنفسه، وصنع الآلهة..

محجوب عن الآلهة ولا يعرفون لونه..

لا يعرف أحد من الآلهة شكله الحقيقي

صورته لا ترسمها الكتابة، وما له من شهود

من تلفظ باسمه، سهوا أم عمدا، يموت لتوه.

ولم تقتصر النزعات التوحيدية على الشرق الأدنى القديم، بل كانت منتشرة في مجمل العالم القديم، وقد جاء في الفيدا الهندية

هو الذي خلق كل الكائنات، وهو يحتويهم جميعا. إنه إله وحيد، وهو الذي يضع الآلهة الأخرى، وكل من هو موجود يعرف فيه سيده..

أما بالنسبة للديانة اليهودية، وتحديدا في سيناء عندما تشكل إيلاف سيناء، فقد حاول اللاويون أن يفرضوا الإله (يَهْوَه) على الإيلاف (العبري)، ولكن الجماعات التي لم تدخل في النسيج الاجتماعي الديني للإيلاف فقد قامت بعدة تمردات دينية على الرب اللاوي (يَهْوَه)، ولكن مع الزمن، ومع مزيد من تشابك الجماعات الإيلافية، ومع الشعور بوجوب التوحد، والتكتل في المجتمع اليهودي، وبعد أن تعرضت تلك الجماعات إلى عدة مخاطر خارجية، فقد توطدت العقيدة اليهودية التفريدية، إلا أنها عادت مرة أخرى إلى التعددية عندما تعرفت العقيدة اليهودية على العقيدة الكنعانية، وقد أثبتت الأبحاث الإركولوجية أن الجماعات العبرية في بلاد كنعان كانت تعبد الربة عشتار إلى جانب الرب (يَهْوَه)، ويبدو أن محرري التوراة قاموا بطمس هذه الحقيقة، وأحالوا الآلهة الأنثى إلى (إسرائيل)، أو شعب

إسرائيل الذي مثّل الزوجة الخائنة للرب (يَهْوَه) كما وصفها أنبياء اليهود في سياق التحولات التاريخية الكبرى للمملكة اليهوذية، وقد عادت اليهودية إلى التمسك بعقيدة التفريد في سياق السبي البابلي، ومضت قدما نحو التوحيد، ويعتقد بعض الباحثين أن عقيدة التفريد اليهودية بدأت بالتطور نحو التوحيد على يدي النبي عاموس في القرن الثامن قبل الميلاد، ثم على يد الأنبياء الكبار في محيط السبي البابلي، ولكنها لم تتمكن من الوصول إلى التوحيد، إلا أن اليهودية في تلك المرحلة اعترفت بأن الرب (يَهْوَه) موجود أيضا خارج الأرض المقدسة (بلاد كنعان)، وخارج شعب الله المختار (العائلة اليهودية)، ولكن اليهودية، حتى مع النبي إشعيا، لم تتنازل عن العلاقة الخاصة بين العائلة اليهودية وبين الرب (يَهْوَه)، بحيث جعلت العائلة اليهودية هم حصرا كهنة الرب (يَهْوَه)، والأرض المقدسة هي حصرا مسكنه المركزي.

وقد بقيت النزعات التعديدية كامنة، أو متخفية في العقيدة اليهودية، ولا سيما بالنسبة لتعبدهم إلى آلهة أنثى (عشتار) إلى جانب الرب (يَهْوَه)، وقد برزت التعددية اليهودية في العقيدة القبالية اليهودية التي تذهب إلى أن الكون يحكمه مجموعة كبيرة من القوى الإلهية التي انبثقت من مصدر واحد مبهم، وحول تعبدهم للآلهة الأنثى جاء في ترنيمة قبالية وضعها إسحق لوريا (١٥٣٤ - ١٥٧٢م):

يرتل اليهود ممجدين الملكة العروس المتوجة بتيجانها السبعين
تاجا فوق تاج في قدس الأقداس
السيدة التي منها كل العالمين.

لم تدعِ التوراة في كل أسفارها أنها عقيدة توحيدية، ولم يدّعِ الرب (يَهْوَه) وحدانيته، بل على العكس تماما، كان يصر على أنه المعبود الوحيد من دون بقية الآلهة لشعبه المختار، وقد برزت عقيدة التفريد في كل أسفار التوراة، بدءا بسفر التكوين، وانتهاء بسفر ملاخي «وقال الرب الإله هوذا الإنسان قد صار كواحد منا عارفا الخير والشر» تكوين ٣، «ليس مثل يَهْوَه إلهنا» خروج ٨، «ليس مثلي في كل الأرض» خروج ٩، «وأصنع أحكاما بكل آلهة المصريين. أنا يَهْوَه» خروج ١٢، «من مثلك يا يَهْوَه بين الآلهة، من مثلك قدير بقداسته» خروج ١٥، «إني متيقن الآن أن يَهْوَه أكبر من كل إله» خروج ١٨، «الآن علمت أن يَهْوَه أعظم من جميع الآلهة» خروج ١٨، «لا يكن لك آلهة أخرى أمامي.. لأني أنا يَهْوَه إلهك إله غيور» خروج ٢٠، «أي إله في السماء وعلى الأرض يعمل كأعمالك وكجبروتك» تثنية ٣.

«أي إله عظيم مثل الله» مزمور ٧٧، «الله قائم في مجمع الله، في وسط الآلهة يقضي، حتى متى تقضون جورا وترفعون وجوه الأشرار. سلاه.

اقضوا للذليل ولليتيم. أنصفوا المسكين والبائس. نجوا المسكين والفقير. من يد الأشرار أنقذوا

لا يعلمون ولا يفهمون. في الظلمة يتمشون. تتزعزع كل أسس الأرض. أنا قلت إنكم آلهة وبنو العلي كلكم. لكن مثل الناس تموتون وكأحد الرؤساء تسقطون. قم يا الله. دن الأرض. لأنك أنت تمتلك كل الأمم.» مزمور ٨٢.

«لا مثيل لك بين الآلهة يا يَهْوَه» مزمور ٨٦، «من يشبه يَهْوَه بين أبناء الله» مزامير ٨٩، «لأن الرب إله عظيم ملك كبير على كل الآلهة.. لأن الرب عظيم وحميد جدا مهوب هو على كل الآلهة» مزمور ٩٥، «احمدوا إله الآلهة لأن إلى الأبد رحمته. احمدوا رب الأرباب لأن إلى الأبد رحمته» مزمور ١٣٦، «اسجدوا له يا جميع الآلهة. إله الآلهة، رب الأرباب، ليس مثلك بين الآلهة، الرب إله عظيم كبير على كل الآلهة، مهوّب هو على كل الآلهة، علوت جدا على كل الآلهة، احمدوا إله الآلهة، قدام الآلهة أرنم لك» مزامير، وكان الشعب (بنو إسرائيل) قد «سقطوا على وجوههم وقالوا الرب - يَهْوَه - هو الله الرب - يهو - هو الله.» عندما استطاع النبي إيليا أن ينتصر على أنبياء البعل على جبل الكرمل.

وهذا الإله (يَهْوَه) الذي قامت الجماعات العبرية باستفراده من بين جميع الآلهة، وركعوا له كإله واحد مختار، قام هو أيضا بالالتزام بالشعب الذي خضع له، واعتبرهم شعبه المختار، وكان اللقاء قد تم في سيناء، حيث كان الإله (يَهْوَه) على جبل سيناء منفيا، لا شيء يؤنسه في وحدته سوى أطياف ذكريات عن مجد زائل، ومن هناك مرّت جماعات تائهة، هائمة على وجهها، وبواسطة موسى تم التعارف بين الرب المنفي، والشعب التائه، واتفقوا على الالتزام أو التكامل فيما بينهما، وكان الميثاق أو نص المعاهدة يتضمن بنودا تحفظ المصلحة المتبادلة بين الطرفين، فالطرف الأول عليه أن يقدم الحماية والمساعدة والدعم (كرب جنود) لشعبه المختار في أي صراع مع شعب آخر، وعلى الطرف الثاني، إضافة إلى خضوعه التام لإرادة، ومشيئة الطرف الأول، أن يقدم له الطعام، وبالذات اللحم والشحم، مع الخضوع والخنوع لنظم أحكامه، «أنا الرب إلهكم الذي ميزكم عن الشعوب. وتكونون لي قديسين لأني قدوس أنا الرب. وقد ميزتكم عن الشعوب لتكونوا لي» لاويين٢٠، بل أن الرب (يَهْوَه) ذهب إلى أبعد من ذلك «أنا قلت *إنكم آلهة وبنو العلي كلكم. لكن مثل الناس تموتون وكأحد الرؤساء تسقطون»*

المزمور ٨٢، «أنتم أولاد الرب إلهكم» التثنية١٤، «قال لي الرب أنت ابني» مزمور، وقد جاء في التلمود «إن اليهود أحب إلى الله من الملائكة، فالذي يصفع اليهودي كمن يصفع العناية الإلهية سواء بسواء. وهذا يفسر لنا استحقاق الموت لغير اليهودي إذا ضرب يهوديا»، وبما أن الرب أبدي، كذلك هو الشعب المختار مثل الرب، لا أول لهم، ولا آخر، ولا بداية لهم، ولا آخرة.

إن عقيدة شعب الله المختار تتعارض، ولا يمكن تفهمها من خلال عقيدة التوحيد، بل يمكن إدراكها من خلال عقيدة التفريد، فـ (يَهْوَه) ليس هو الرب، أو الإله الذي لا إله سواه، بل هو إله من بين الآلهة، ربط نفسه بشعب معين اختاره (يَهْوَه) من بين الشعوب، بل وقد جاء في التلمود إن الرب (يَهْوَه) كان قد عرض نفسه، ورسالته على الشعوب فلم يقبل به، وبرسالته أحد سوى اليهود، أي أن اليهود هم من اختاروا الإله مقابل اختياره لهم كشعب مقدس، وعقيدة شعب الله المختار كانت منتشرة بين كل الشعوب التي تبنت عقيدة التفريد، إلا أنها لم تذهب إلى حد العنصرية اليهودية، بل كانت أكثر إنسانية وشمولية، وأقل عنصرية، كما جاء في التلمود أن اليهود أحب إلى الله من ملائكته، كما ينص التلمود على أن من يصفع اليهودي فهو قد صفع الله، وأن كل الخير الذي في الأرض ما كان ليوجدها الله لولا وجود اليهود.

وأثناء التفاوض بين الرب، والشعب، وبسبب حاجة الجماعات العبرية لـ (يَهْوَه) في البداية وتحديدا في متاهتهم على رمال صحراء سيناء، فقد وافقت تلك الجماعات على أن يكون (يَهْوَه) ربهم، ورمزهم، ومثلهم الأوحد، ولكن بعد مدة طويلة من الزمن، استطاع الشعب أن يفرض على الرب (يَهْوَه) شروطه، بحيث يمكن القول أنه بينما خلق الله الإنسان على شاكلته، قام اليهود بصورة معاكسة بأن اختلقوا الرب (يَهْوَه) على صورتهم البشرية بشكل عام، والعبرية على وجه الخصوص، فقد وصف الرب في التوراة على هيئة كائن بشري، يعمل، ويتعب، وقد احتاج إلى أن يرتاح، (ويسبت) بعد ستة أيام من العمل المتواصل في عملية خلق الوجود، كما أنهم صوروه على هيئة رجل يسير في الجنة، ورؤيته لم تكن تتعدى رؤية أي إنسان، بحيث لم يستطع رؤية آدم وحواء، اللذين حاولا أن يتخفيا عنه بعد أن أكلا من الشجرة المحظورة، ولم يكن يعلم أن آدم وحواء أكلا من الشجرة المحرمة، بل استنتج ذلك من خلال ما فعلاه حين تخفيا عنه بعد أن حصلا على المعرفة، وتفتحت أعينهما وأدركا أنهما عاريان، ولم يتأكد من تخمينه إلا بعد التحقيق معهما، كما أنه لم يكن يعرف منازل العبرانيين، من بين منازل المصريين أثناء قيامه بتحريرهم من الاضطهاد

الفرعوني، لذلك طلب منهم أن يضعوا دما على أبواب منازلهم كي يتعرف عليها أثناء انتقامه من المصريين.

كما صورت التوراة الرب (يَهْوَه) على أنه قليل الحكمة، سريع الغضب، متسرع في اتخاذ قراراته، والتي كثيرا ما يندم عليها، وربما يتراجع عنها إذا استدركها قبل حصولها، فقد ندم على أنه خلق الإنسان، وقرر أن يمحو الوجود البشري من الأرض من خلال طوفان شامل، ولكنه عاد وندم على نفس القرار، وأفشى بسر الطوفان لنوح، كما أنه في مرحلة لاحقة ندم على اختياره لبني إسرائيل شعبا دون كل الشعوب، وقد قرر عقابهم بسبب تخليهم عنه، وفعل ما نوى، ولكنه ندم كثيرا أيضا على ما فعله بهم، وكان يعود إليهم ليؤكد لهم أنه ما زال على عهده معهم، بل وأنه سيجدد العهد حسب المعطيات التاريخية الجديدة، إذا ما رجعوا إلى حظيرته «من أيام آبائكم حدتم عن فرائضي ولم تحفظوها. ارجعوا إلي أرجع إليكم قال رب الجنود» ملاخي ٢.

وفي مرحلة الأباء الأوائل كان الرب (يَهْوَه) يتمشى في الأرض، ويأكل على موائد البشر، ويدخل في صراعات جسدية معهم، وقد ظهر ضعف مقدراته الجسدية في صراعه الخاسر مع يعقوب، واضطر الرب (يَهْوَه) إلى أن يتذلل له، وأن يخضع لشروطه، مقابل أن يقوم يعقوب بإطلاق سراحه قبل انبلاج الضوء، كما لو أن الرب (يَهْوَه) كان شيطانا، يخاف من النور.

كما صوّر الرب (يَهْوَه) في التوراة كأي إنسان ينسى، ويتذكر، فقد نسي شعبه المختار في مصر، وعاد ليتذكره أثناء إقامته في جبل سيناء، فقام بتحريرهم من عبودية مصر، ووقع عقدا معهم، وأصبح شغله الشاغل تحقيق مصالح شعبه، بما يمتلك من قوى غاشمة، وظالمة، ومتوحشة، وحاقدة، وعنصرية، وانتقامية، «الرب غيور ومنتقم. الرب منتقم وذو سخط. الرب منتقم من مبغضيه» ناحوم١، وهو يبيح لنفسه فعل أي شيء هو في مصلحة شعبه، أو أبنائه، كأي أب أناني تجاه أولاده، كما أنه سيسوغ لهم أي فعل لا إنساني بحق الأمم والشعوب الأخرى «إن للرب سخطا على كل الأمم، ومحوا على كل جيشهم، قد حرمهم، دفعهم إلى الذبح، فقتلاهم تطرح، وجيفهم تصعد نتانتها، وتسيل الجبال بدمائهم» إشعيا ٣٤، وعلى الرغم من محبة الرب (يَهْوَه) لشعبه إلى أنه يقرر - بنزعته الشريرة - أن يعتدي على شعبه المختار، فقام بالإيحاء لداود أن يقوم بإحصاء الشعب، وبذلك فهو يخالف ما جاء في وثيقة العهد، وبذلك يصبح للرب (يَهْوَه) شرعية تأديب الشعب، وعلى الرغم من اعتذار داود إلا أن الرب (يَهْوَه) أدار ظهره لذلك الاعتذار

وأحلّ وباء مات بسببه سبعون ألفا من الرجال فحسب، حسب ما جاء في سفر صموئيل الثاني.

و (يَهْوَه) ليس أباً محصوراً بمفهوم الأبوة فقط، بل يتعداه إلى الأب الرمزي، أي بمعنى المعيل، أو الحامي، أو المسؤول، أو الراعي لشعبه المختار، وبالمختصر إن (يَهْوَه) هو رب أكثر منه إله، لا يهمه سوى مصلحة رعيته الخاصة بغض النظر عن المفهوم الأخلاقي، مقابل أن تقوم الرعية أو الشعب (أبناؤه) بعبادته، وإطعامه لحوم الضحايا من الحيوانات ومن بني الإنسان أيضا، ومهما أخطأ الشعب (المختار) بحقه، فإنه ولو قام الرب (يَهْوَه) بعقابه وتأديبه، فسرعان ما يتراجع (كأب) عن موقفه الغاضب الساخط، المتشنج ويصالح أبناءه ثانية، فقد جاء في سفر الخروج، بعد أن تخلى أتباع النبي موسى عن عبادة الرب (يَهْوَه)، «فقال الرب لموسى.. فالآن اتركني ليحمى غضبي عليهم وأفنيهم، فتضرع موسى.. ارجع عن حمو غضبك، واندم على الشر بشعبك.. فندم الرب على الشر الذي قال إنه يفعله بشعبه» خروج ٣٢.

ويبدا الرب (يَهْوَه) عصبي المزاج، وقاسي القلب، لا يعرف الرحمة أو الشفقة، إنه خبيث، ومخادع، وغيور، ومظلل، وأرعن، ومتردد، وصعب المراس، وذو أخلاق بدائية، يحب أكل اللحوم المشوية، وشم رائحة الشواء، كما لم يكن ينقصه الكثير من التوجس، والوحشية، والهياج الشديد لأي هاجس يستشعره بالخطر مهما كان بسيطا، وعلى الرغم من قدرته البدائية الغاشمة على زهق الأرواح، وتعطشه الشديد لشرب الدماء البشرية، فإنه أحيانا يكون قابلا للتفاوض والنقاش، ويمكن للبعض، مثل موسى، أن يقنعه بالعدول عن بعض القرارات، كما أنه كثيرا ما كان يخضع للتهديدات التي كان موسى يتوعده بها فيما هو لم يرضِ، أو يخضع لمتطلبات شعبه المختار، وكثيرا ما كان يتراجع عن قراراته تحت التهديد، وربما لا يندم فحسب على قراراته، بل ويعتذر خوفا من أن يذهبوا ليتعبدوا إلى إله آخر سواه، كما فعلوا ذلك أكثر من مرة، ويتركوه وحيدا تأكله العزلة والوحشة والوحدة، وينكثوا بالعهد الذي بينهم وبينه، إلا أنه، ونتيجة لشخصيته المتناقضة، فقد يستدرجهم إلى الخطيئة ليقوم بعقابهم.

كما أنه يصبح أحياناً شديد الضعف إلى درجة أنه «لم يقو على دحر سكان الوادي لأن لهم مركبات حديد» قضاة، وأحيانا يمكن له أن يبرم اتفاقات مشروطة مع حلفائه، وأعدائه «فسأل داود من الله قائلا أأصعد على الفلسطينيين فتدفعهم ليدي. فقال له الرب اصعد فأدفعهم ليدك» أخبار الملوك الأول، ومرة أخرى يتفق معه «فسأل أيضا داود من الله

فقال له لا تصعد وراءهم تحول عنهم وهلم عليهم مقابل أشجار البكا. وعندما تسمع صوت خطوات في رؤوس أشجار البكا فاخرج حينئذ للحرب لأن الله يخرج أمامك لضرب محلة الفلسطينيين» أخبار الملوك الأول.

وبينما في البداية كان الرب (يَهْوَه) يفضل السكن في الخيمة، إلا أنه وافق على أن يسكن في الهيكل أخيرا، وفي الوقت الذي استطاع بعض الأنبياء مثل إيليا وخليفته إيليشع، أن يجعلوه خادما لهم، فقد قام بتظليل، وبخديعة بعض أنبيائه «فجمع ملك إسرائيل كل الأنبياء، نحو أربعمائة رجل واستشارهم أيذهب للقتال أم لا. ولكن الرب ضلل هؤلاء الأنبياء ووضع على فمهم مشورة كاذبة، فقالوا للملك أن يذهب للقتال لأن الرب سيقف إلى جانبه وأنه سيدفع إليه براموت جلعاد) الملوك الأول ٢٢، وهو بلا ميثاق، فقد كان قد ورّط النبي يونان بنبوءة تقول إن الرب سيقوم بتدمير بابل قريبا، ولكن الرب تراجع عما قرر، الأمر الذي أحرج النبي يونان، وأفقده مصداقيته.

وحسب التلمود، فإن الرب (يَهْوَه) يقضي يوميا ثلاث ساعات في قراءة التوراة، وثلاث ساعات لحكم العالم، ويفكر حينها في إفناء العالم، وثلاث ساعات يوزع الأرزاق والخيرات على الكائنات، وهو ربما يستشير الحاخامات في حل بعض القضايا على الأرض عندما يعجز عن حلها في السماء، وقد جاء أن إرادة الرب لا تعلو على إرادة الحاخامات، فقد حدث أن الرب (يَهْوَه) اختلف مع بعض الحاخامات حول بعض القضايا، فالتجأ الرب (يَهْوَه) والحاخام الذي اختلف معه للحكم بينهما إلى أحد الحاخامات الذي حكم على الرب (يَهْوَه) أن يقدم اعتذاره للحاخامات لأنه كان على خطأ، والتلمود مليء بمثل هذه الخزعبلات، ومنها أن القمر عاتب الرب (يَهْوَه) لأنه خلقه أصغر من الشمس، وقد اعترف الرب بخطيئته للقمر، وطلب أن يقدم ذبيحة تكفيرا عن خطئه.

كما أن الرب (يَهْوَه) يقضي ثلاث ساعات يلهو مع التنين أو الحوت، ولكنه يزهد أحيانا باللعب مع التنين عندما يتذكر شعبه المختار، ويجهش بالبكاء، ويلطم على وجهه نادما على ما فعله بشعبه المختار، وعلى هدمه للهيكل، وعلى خلقه للمنفى، والكلدانيين، والإسماعيليين (العرب)، وحين يبكي تسقط دمعتاه في البحر الذي يضطرب، وترتجف الأرض، وتتشكل الزلازل، كما أنه يقضي بعض الليل بتعلم التلمود مع زملائه من الملائكة والشياطين، وجاء في التلمود أيضا أن الرب مصدر للشر كما هو مصدر للخير، وإضافة إلى ذلك هو أيضا متساو مع الشيطان، وربما كان كالبشر فيه جزء من الشيطان ضمن تركيبته التكوينية، وقد يوسوس له الشيطان كما يوسوس للبشر، وقد يتحالف مع

الشيطان ضد الإنسان، أو قد يستطيع الشيطان خداعه، أو التأثير عليه حيث استطاع الشيطان أن يشكك الرب باستقامة أيوب، وادعى الشيطان أن استقامة أيوب نتاج العطاء والرغد الذي يعيش فيه، وطلب الشيطان من الرب أن يُذهب من بين يدي أيوب النعمة كي يتأكد من مدى صدق استقامة، ومحبة أيوب للرب، ويذعن الرب لطلب الشيطان، وسأورد نصا طويلا ليتبين للقارئ العلاقة بين (يَهْوَه) والشيطان: «وكان ذات يوم أنه جاء بنو الله ليمثلوا أمام الرب (يَهْوَه). فقال الرب (يَهْوَه) للشيطان من أين جئت. فأجاب الشيطان وقال من الجولان في الأرض ومن التمشي فيها. فقال الرب (يَهْوَه) للشيطان هل جعلت قلبك على عبدي أيوب. لأنه ليس مثله في الأرض. رجل كامل ومستقيم يتقي الله ويحيد عن الشر. وإلى الآن هو متمسك بكماله وقد هيجتني عليه بلا سبب. فأجاب الشيطانُ الربَ (يَهْوَه) وقال. جِلْدٌ بجلدٍ وكل ما للإنسان يعطيه لأجل نفسه. ولكن ابسط الآن يدك ومسّ عظمه ولحمه فإنه في وجهك يجدف عليك. فقال الربُ (يَهْوَه) للشيطان ها هو في يدك ولكن احفظ نفسه.» أيوب.

وإذا ما كان سفر أيوب قد جعل من الشيطان، واحداً من بني الله، كما جعل منه صديقا، أو مستشارا للرب (يَهْوَه)، فيمكن لنا أن نرى أن (يَهْوَه) هو الشيطان نفسه متنكرا بقناع، أو بمساحيق واهية ليبدوا كما لو أنه الإله إيل، وإذا ما حاولنا أن نطبق نظرية فرويد التثليثية في علم نفس الذات على العقيدة اليهودية كما أتت في التوراة، والتلمود، فيمكن لنا أن نعتبر أن الإله إيل يمثل الأنا العليا في الذات الإلهية اليهودية، أما الرب (يَهْوَه)، فيمثل (الهو)، حسب الصفات التي سبق ذكرها، والتي تكشف التشابه الكبير، الذي يصل حد التطابق ما بين صفات (الهو) في التكوين النفسي الإنساني، وصفات (يَهْوَه) في التكوين العقيدي اليهودي، والصراع بين (الأنا العليا)، و (الهو) يمثل (الأنا) في الشخصية اليهودية التي تعاني من حالة فصامية زورية، وبما أن (الهو) في الذات الإنسانية بنوازعها الشريرة الأنانية تمثل الشيطان، فإن (يَهْوَه) يمثل في الذات الإلهية اليهودية الشيطان أيضا، وهنا لنا أن نتأمل التشابه أو التطابق ما بين لفظي (هو)، و (يَهْوَه).

لقد تبنت العقيدة اليهودية حالة ثنائية في طريقة التعامل مع الآخر، فإذا كان الآخر يهوديا فيجب أن يكون الحكم فيه لـ (الأنا العليا) المتمثل بالإله إيل (الرحمن)، أما إذا كان الآخر من غير اليهود فيجب أن يكون الحكم فيه لـ (الهو) الذي يسكن في الأنانية، التي تمثل القوة الغريزية الشريرة المدمرة الإقصائية، والمتمثل بالرب (يَهْوَه) (الشيطان)، وقد كنت قد أتيت على ذكر الأمثلة في سياق الحديث عن الشريعة اليهودية.

إن (الأنا العليا)، والتي تمثل الإله إيل في العقيدة اليهودية، تسكن بالضمير، وتمثل القوة الخيرة المُحبة في الإنسان، وهي من خلال تفهمها لوجهة نظر الآخر، تسن شريعة العلاقات العامة بين أفراد المجتمع الواحد، وإزجاء النصح للأنا لتقوم بضبط رعونة (الهو) لصالح رغبات الآخر الأخلاقية، كما وأنها تشكل الشرطي الرقيب الصارم الذي ينظر باحتقار لرغبات (الهو)، ولذا فهي التي تتحمل عقدة الذنب تجاه ما يفعله (الهو).

إن (الهو) يمثل الحالة الإرثية البيولوجية الغريزية الجسدية الحيوانية (البشرية) في الإنسان، كذلك الأمر بالنسبة للرب (يَهْوَه) الذي يمثل ربا قبليا عشائريا في العقيدة اليهودية.

و (الهو) يمثل قوى الظلام والفوضى في الإنسان، كما أن الرب (يَهْوَه) يمثل إله الحرب، المتعطش لشرب الدماء البشرية، ولحوم الأضاحي المشوية على النار ليشتم رائحتها التي تزكي أنفه، وأنف شعبه المختار.

و (الهو) وجودي، لا يعرف سبل الترشيد، آني، مبدؤه الوحيد لا يتعدى تخفيض التوتر داخل الجسد، والحصول على اللذة، والتخلص من الألم بغض النظر عن الموضوع، والوضع الملائم، وغير الملائم، والقيم والتقاليد والأعراف والأخلاق، وبمعنى آخر إن (الهو) لا يدرك الزمن سوى هنا - الآن، كذلك هو الرب (يَهْوَه) المخادع، الذي لا هم له سوى إشباع جوعه، وجوع شعبه المختار، دون أدنى درجة من المعايير الأخلاقية.

و (الهو) يكره المجتمع بكل نظمه، ولا سيما المدنية منها، والتي تحد من حريته، ولديه رغبة دائمة في العودة إلى الغابة ليدخل في صراع البقاء، والذي من خلاله يستطيع أن يفجر الطاقة العدوانية الكامنة فيه، كما أنه يمثل الصياد الذي يرغب في قتل الآخر الذي ينافسه ويحد من حريته، وكذلك الرب (يَهْوَه) الذي لا يستطيع ترشيد رغباته في تدمير البشرية، وإقصاء الأمم والشعوب من أجل أن يسّيد شعبه المختار في صراعه على البقاء.

و (الهو) أيضا الذي يقوم بقتل الأب الرمزي الذي يمثل الضمير، ليحل محله، ويستأثر بأمه الرمزية التي تمثل الطبيعة، كذلك الرب (يَهْوَه) حاول جاهدا إقصاء الإله إيل، ليحل مكانه، كي يستأثر وحده، دون منافس بزوجته (إسرائيل).

و (يَهْوَه) كرجل، له صفاته البشرية الذكرية، فقد تزوج بالقبيلتين العبريتين، إسرائيل، ويهوذا، وهكذا برز دوره كأب (رب الأسرة) لأبناء القبيلة، وكان ككل

رجل غيور، بل كان شديد الغيرة على زوجته (الشعب الإسرائيلي)، ولذا فقد كان لا يمل من استعراض إمكاناته الذكرية أمامها، خوفا من أن تخونه زوجتاه العبريتان، مع سواه من آلهة الأمم، وقد كانت زوجتاه (الضرتان إسرائيل، و «يَهْوَه» بحكم الغيرة، على خلاف دائم، وكانت مملكة إسرائيل في أكثر مراحل وجودها، مغرمة بالرب الكنعاني، وقد قام (يَهْوَه) بتهديدها عدة مرات، ولكن دون جدوى، مما اضطره في النهاية، وفي حالة غضب، مشوبة مع فقدان الأمل، إلى أن يطلقها، بل وأنه أنكر أبوته لأبناء زوجته إسرائيل التي لم تترك موبقة إلا وفعلتها، ولم تترك رجلا (ربا) آخر إلا وذهبت طواعية بكل زينتها لتزني به في معبده، وبذلك تركها مع أبنائها (أبناء الزنى) كقطيع خراف ضالة، وكمشاع للأمم (الوحوش) تفعل بها ما تريد، وكما جاء في سفر هوشع الإصحاح الثاني «لأن أمهم قد زنت. التي حبلت بهم صنعت خزيا. لأنها قالت أذهب وراء محبيّ الذين يعطون خبزي ومائي وكتاني وزيتي وأشربتي. لذلك هاأنذا أسيج طريقها بالشوك وأبني حائطها حتى لا تجد مسالكها. فتتبع محبيها ولا تدركهم وتفتش عليهم ولا تجدهم»، ولم يتخل عنها الرب ويتركها لمشيئة التاريخ، بل قام أيضا بإرسال الآشوريين إليها، فقاموا بانتهاك حرمتها، ومن ثم أبادوها عن بكرة أبيها سنة ٧٢١ قبل الميلاد، ولكنه لم يتخل عن زوجته يهوذا التي كانت أصلح حالا من زوجته الأولى (مملكة إسرائيل)، والتي أيضا بعد قرن ونصف من الزمان، وبعد أن ذهبت مذهب ضرتها السابقة إسرائيل، بعث إليها الكلدانيين في سنة ٥٨٦ قبل الميلاد ليسبوها، ولكنه في هذه المرة لم يتخل عن أبوته لأبنائه منها، كما كان قد فعل مع أبناء زوجته الأولى (إسرائيل)، كما أنه ندم على فعلته، كما ندم على خلقه للكلدانيين، والعرب أيضا، وقد أعاد أبناءه، بعد العقاب، مع أمهم يهوذا على يد مسيحه كورش، ولكن زوجته يهوذا لم تتعظ من عقابها السابق، فبعث بالرومان إليها، فسبوها، وشتتوا أبناءها بين الأمم، والشعوب، وحسب ما جاء في التلمود، أن الرب ندم، بل وإنه لعن نفسه، ووصل به الأمر إلى أن يبكي ويلطم على أفعاله المتسرعة الطائشة بحق شعبه المختار «تبا لي لأنني صرحت بخراب بيتي وإحراق الهيكل ونهب أولادي»، وبعد ندمه الشديد هذا قرر أن يعيد أبناءه على يد المسيح، وحين يستطيع ذلك فسيشعر بارتياح شديد، بل، وحسب ما جاء في التلمود سيجلس على عرشه مقهقها بعد أن يعيد المسيح شعبه المختار إلى أرضه المقدسة (حيث هو سيسكن)، ولكن الرب واجه صعوبات عديدة في استعادتهم من شتاتهم، ولم يستطع فعل ذلك إلا بعد ألفي عام، وبعد حصول أحداث تاريخية كبرى استطاع الرب (يَهْوَه) أن يستغلها، وأن يعيدهم على يد

المسيح السياسي (الصهيونية، والغريب أن من أعادهم هم أبناؤه من زوجته يهوذا، إلا أنه أعادهم إلى زوجته (إسرائيل).

وقد أصبح الرب (يَهْوَه)، بعد أن تجسد في المسيح اليهودي القادم، يمثل أي قوة يمكن لليهود أن يتعاقدوا معها على أساس مصلحة متبادلة، تقوم على تبني إحدى القوى العظمى للمشروع اليهودي، مقابل توظيف متقدرات اليهود على اختلاف أشكالها لصالح الدولة الراعية، التي ستُعَدّ هي المسيح، أي الرب (يَهْوَه) في تجسده الأرضي.

(يَهْوَه)
بين الربوبية و الألوهية

جميع الشعوب والأثنيات في الشرق الأدنى بشكل عام كانت تدين للإله إيل الذي يمثل الأنا العليا لدى الفرد (الضمير)، ولدى الجماعة (العادات، والأعراف)، وكان كل شعب، إلى جانب تعبدها للإله إيل، يتفرد بعبادة رب قومي خاص به دون سائر الشعوب، وهذا الرب يمثل ويشابه شعبه بل هو صورة عنهم، كما أن صفاته تتوائم والجغرافيا والبيئة (المكان) الذي يعيش فيه شعبه، والرب لا هم له سوى كونه ملكا على شعب معين، ومن هنا، فعلينا في كثير من المواقع والنصوص أن نميز بين مفهومي الرب، والإله، واليهودية حاولت أن تمزج بين الإله (إيل) والرب (يَهْوَه)، بل حاولت أن تغتصب عرش إيل لتسيّد عليه الرب القومي العبراني (يَهْوَه)، ومن هنا يمكن لنا أن ننظر إلى اليهودية على أنها ذات بنية أوديبية، لأن الرب (يَهْوَه) (الابن) قام باغتيال الإله إيل (أبو الآلهة، والبشر جميعا)، ومن ثم قام بابتلاعه، وأصبح الإله إيل جزءاً من الرب (يَهْوَه) الذي تزوّج بأمه التي أنجبته، وربته (شعب إسرائيل)، وأصبحت العقيدة اليهودية التفريدية في جانب من جوانبها شبيهة بالعقيدة التثنوية، إلا أن المسيحية التي خرجت من حضن اليهودية، أخرجت، أو حررت الإله إيل من بطن الرب (يَهْوَه)، كما قامت بقتل، أو إزاحة الرب (يَهْوَه)، ونصّبت بدلا عنه المسيح الذي ولد من زواج غير شرعي بين الرب (يَهْوَه)، وزوجته إسرائيل (التي أصبحت مريم أم المسيح في المسيحية).

والفوارق المختلفة بين الإله، والرب، تتأتى من كون الإله أكثر شمولية، ومطلقية، من الرب المحدود زمكانيا، فالإله هو سيد الزمكان، خالق الوجود، وواضع القوانين الأولية الأزلية للوجود، وهو خالق الحياة، أما الرب فهو سيد الجغرافيا، والتاريخ، والشعب، والرب يمكن تشخيصه بقوى الطبيعة مثل الريح والأمطار التي ارتبطت بالرب بعل، أو بأحد عناصر الوجود كما هو الأمر بين الشمس والرب آتون، والقمر والرب سن، والزهرة والربة عشتار، وهؤلاء الأرباب كثيرا ما نجد لهم نواة تاريخية، أي بمعنى أنهم كانوا أشخاصا

حقيقيين يمثلون الآباء الأوائل للشعب الذي جعلهم أربابا، ومن صفات الرب هو ارتباطه بأرض جغرافية محددة، وغالبا ما يقيم عليها بشكل دائم، وبالذات على أحد مرتفعاتها، إلى أنه قد يصعد أحيانا إلى السماء القريبة والتي تسقّف الأرض التي يقيم عليها الشعب الذي يدين له، أو قد يتنقل مع شعبه المختار كما هو الأمر بالنسبة للجماعات البدوية، وكان لكل رب قومي زوجة أو حبيبة أو قرينة له، فهو الذكر، وهي الأنثى، وغالبا ما يكون ارتباطهما ذا طبيعة درامية لها تأثيرات كبيرة على الإنسان والطبيعة في المكان العضوي المرتبطين به.

وإذا كان الإله يمثل السلطة التشريعية المطلقة، فإن الرب يمثل السلطة التنفيذية (الملك)، والرب له هامش في تنفيذ مشيئته على الإقليم والشعب الذي يحكمه، ويُعَدّ الرب هو الملك الغائب الذي يحكم الشعب، أما الملك فيُعَدّ هو الرب الذي يحكم الشعب حضوريا، وكثيرا ما تحول بعض الملوك المميزين إلى أرباب عند شعوبهم، كما أن الكثير من الملوك ادعوا أنهم أرباب.

وإذا كان الإله يمثل قمة الهرم في البانثيون الحضاري للشعب، وإذا ما كان الشعب يمثل قاعدة الهرم، فإن الرب هو الذي يشغل الفراغ الهرمي، وكثيرا ما يشاركه أيضا مجموعة من الملائكة، أو الأرباب الثانويين، ومجموعة من الشياطين، والجان وسواها من الكائنات الميتافيزيقية الماورائية، وغالبا ما يقوم الرب بالادعاء أنه هو الإله، كما يقوم الملك بالادعاء أنه هو الرب.

والرب هو المعيل لشعب ومكان محددين فحسب، ويمكن هنا أن أورد قصة من التراث العربي هي قصة عبد المطلب زعيم مكة:

فعندما قدم أبرهة الحبشي مع جيشه الجرار نحو مكة كي يهدمها، قام بالاستيلاء على إبل عبد المطلب، فذهب عبد المطلب ليقابل أبرهة الحبشي قبل وصوله إلى مكة، وطلب من أبرهة الحبشي أن يخلي سبيل إبله، فاستغرب أبرهة الحبشي من عقيد القوم الذي جاء يطلب إبله بدل أن يطلب منه العدول عن غزو مكة، فأجابه عبد المطلب:

إني رب الإبل، وإن للبيت ربا سيحميه، وبغض النظر عن المبدأ العقيدي، أو الأخلاقي في هذا الرد، ولكني أريد أن أبين أن الرب يعني تحديدا المعيل (رب الأسرة، رب البلاد، رب العمل).

وبينما يكون الإله مجردا في الغالب، فإن الرب غالبا ما يتم تجسيده، أو تصنيمه على شكل ما، غالبا ما يكون شكلا حيوانيا، أو إنسانيا، أو مزيجا من أكثر من حيوان، أو من حيوان وإنسان، والأصنام ليست أكثر من رموز أيقونية للرب، أو تمثيل لما في البصيرة بصريا، كي يستطيع الإنسان أن يمتلك المفهوم والمعنى بشكل كلاني.

وهذه الفوارق بين الإله، والرب يمكن رصدها، من خلال الفارق بين إنسانية وشمولية وأزلية الإله إيل الذي خلق الوجود ووضع قوانينه الكونية، وأخرجه من العماء والفوضى، وبشرية محدودية وزمكنة الرب يَهْوَه الذي وضع الشريعة التي تختص بشعبه المختار فحسب، والذي يسكن في أرضه المقدسة فحسب، على الرغم من أن هذا الفارق بين يَهْوَه وإيل شابهُ الكثير من الغموض في التوراة، وهو الأمر الذي جعل الكثير من الباحثين التوراتيين يختلفون حول إرجاع الكثير من النصوص التوراتية إلى أحد المصدرين الألوهيمي، واليهوي، وقد جعلت بعض النصوص التوراتية من الرب يَهْوَه ابنا للإله إيل «من يشبه يَهْوَه بين أبناء الله» مزمور ٨٩، وهناك الكثير من النصوص التي تؤكد على أن الرب يَهْوَه هو الرب الأعلى بين الأرباب، والذين هم جميعا أبناء الإله الأوحد إيل، ومن هنا ذهبنا إلى أن الرب يَهْوَه كان أوديبيا، وقد جاء في المزمور أن بني إسرائيل هم أبناء الله أيضا «إنكم بنو العلي كلكم» مزمور ٨٢، ولكن وفي نفس المزمور جاء أن بني إسرائيل هم آلهة أيضا «أنا قلت أنكم آلهة»، وكان الرب يَهْوَه قد اعتبر موسى إلها، وهارون نبيا حسب ما جاء في أسفار الخروج «أنا جعلتك إلها لفرعون. وهارون أخوك يكون نبيك» «.. أليس هارون أخاك.. هو يكون لك فما، وأنت تكون له إلها»

كما أن التوراة جعلت من داود ربا أيضا حسب قراءة تحليلية لأحد المزامير الغامضة «قال الرب لربي اجلس على يميني حتى أضع أعداءك موطئا لقدميك. يرسل الرب قضيب عزك من صهيون. تسلط في وسط أعدائك. شعبك منتدب في يوم قوتك في زينة مقدسة من رحم الفجر لك طل حداثتك أقسم الرب ولن يندم. أنت كاهن إلى الأبد على رتبة ملكي صادق. الرب عن يمينك يحطم في يوم رجزه ملوكه. يدين بين الأمم. ملأ جثثا أرضا واسعة سحق رؤوسها. من النهر يشرب في الطريق لذلك يرفع الرأس» مزمور ١١٠، والإنجيليون يذهبون إلى أن الرب الذي يتحدث عنه هذا المزمور هو المسيح.

وقد حاول الأنبياء المتأخرون أن يوحدوا بين الرب (يَهْوَه)، والإله إيل، ولكن العقلية العنصرية اليهودية التي لم يستطع هؤلاء الأنبياء أن يتخلوا عنها، حال دون الاتحاد الكامل بين إيل، و (يَهْوَه)، إلا أن المسيحية استطاعت أن تجلي هذا الغموض من خلال فصلها ما بين الإله إيل (الله)، والرب الذي شغله المسيح بدل الرب (يَهْوَه).

الرب..
و عبادة الأباء

لقد مرت البشرية في سياق تطورها الروحي في عدة مراحل، بدءا بالمرحلة الإرواحية، وانتهاء بالمرحلة التوحيدية السماوية، وتُعَدّ مرحلة عبادة الآباء مرحلة وسيطة في تاريخ تطور الدين، وهي التي تطورت إلى مرحلة الآلهة المشخصة، ومنها إلى المجردة، وحسب تيلور فقد تطورت عقيدة عبادة أرواح الأسلاف، نحو عبادة أرواح الطبيعة، وعبادة الأسلاف، ولكن بعض الباحثين يذهبون إلى أن عبادة الأسلاف (الموتى) عند الإنسان البدائي لا تُعَدّ ضمن النشاط الديني لأنها لا تتضمن التوسل أو التفاعل مع قوى خارج الزمكان، وهم الذين يذهبون إلى أن الدين عبارة عن توسل، واسترضاء لقوى أو كائنات ما ورائية مدركة لما تفعله، ويبدو أن هؤلاء الباحثين لم يأخذوا بالحسبان أن هؤلاء الأسلاف، حسب تصور أحفادهم، تحولوا إلى آلهة، أي أنهم تخلوا عن جانبهم الناسوتي، واكتسبوا صفات لاهوتية، وبذلك أصبح آباؤهم الأوائل كائنات ميتافيزيقة.

وحسب ما يمكن استقراؤه مما خلفه لنا الإنسان في العصر الحجري الحديث، فإن الإنسان كان يعتقد أن الأسلاف هم الذين يساهمون بتصريف حاضر الأحفاد الحياتية، من خلال مساهمتهم بتأمين الغذاء لأحفادهم، وهو ما يمكن استقراؤه عند نطوفيي فلسطين والهلال الخصيب بشكل عام، وعلى ما يبدو، وحسب رأي بعض العلماء فإن النطوفيين كانوا يمارسون عبادة الأسلاف، وهو الأمر الذي يفسر الاهتمام الشديد بدفن الأباء عند الإنسان الحجري، ويمكن اعتبار قيام الإنسان في العصر الحجري بفصل جماجم الموتى ودفنها منفصلة عن باقي الجسد وبشكل جماعي، وبأماكن معينة نمطاً من أنماط عبادة الآباء، وقد شكّلت هذه المدافن النوى الأولى في بناء المعابد.

وقد انتشرت واستمرت عبادة الأسلاف، وبأشكال عديدة عند المجتمعات القبلية العشائرية بشكل أكثر خصوصية، وما زالت بقايا هذه العبادات مستمرة من خلال الحج إلى أضرحة، ومقامات، ومزارات الأنبياء، والأولياء، وحتى الرجال العظماء، والآباء الأوائل، حيث في البداية كان الأبناء يقومون بتخليد وتعظيم آبائهم المميزين وتضخيم دورهم في الحفاظ على بقاء الجماعة القبلية التي ترتبط بعلاقة دموية، أو حتى بعلاقة أثنية، أو روحية، ثم يقوم الأحفاد

بتقديسهم، ثم يقوم الأنسال بتأليههم، وبذلك يتم رفع الآباء الأوائل بطريقة متدرجة من واقعية الأرض، إلى ميتافيزيقيا السماء، ولا سيما في المراحل التي تستشعر فيه بعض القبائل بوجود خطر يتهدد وجودها الجمعي، حيث يصبح هؤلاء (الأباء - الأرباب) عواصم روحية يتكوثر حولها الأشخاص المتحدرين من شجرة أثنية واحدة، وحينها كان الأسلاف يشكلون تصورا يذهب إلى أن آبائهم الأوائل كانوا آلهة يعيشون على الأرض، ويشكل لصيق مع البشر، كي يتسنى لهم إدارة شؤون البشر عن كثب، كما يتصور الأبناء أيضا أن الآباء - الآلهة قاموا بوضع القوانين، وسن الشرائع والأعراف للجماعة، ومن ثم، صعدوا إلى السماء كي يتسنى لهم من هناك أن يراقبوا، ويعاقبوا، ويحموا الجماعة التي تكاثرت، وانتشرت على أماكن جغرافية واسعة.

كان الأبناء يقومون بدفن آبائهم، وأجدادهم المميزين في أماكن مرتفعة ومميزة، بل ويجعلون منها مزارات للتبرك، وفي بعض الأحيان، يقوم الأنسال ببناء مقامات لأجدادهم حيثما حلوا وارتحلوا، على اعتبار أن الأحفاد بمقدار ما يقدمون لأسلافهم من احترام، وتقدير، وتبجيل، وهي أنماط بدائية من العبادة، فإن الأسلاف سوف يقدمون المساعدة باعتبارهم آلهة أو وسطاء للأحفاد، وقد ساهم سدنة المزارات المستفيدون من تقديم الأضاحي والهبات، في تأليه أصحاب الضريح، من خلال اختلاقهم، ونسجهم لبعض القصص التي تهوّل من أمر هذه الأضرحة، ومن أمر أصحابها، وكانت تلك القصص، ومع تناقلها المضخم عن الألسنة، تصبح أساطير فيما بعد، متزامنة مع ارتفاع أصحاب الضريح من الأرض نحو السماء، أو على الأقل يصبح هؤلاء الأسلاف وسطاء أو شفعاء بين السماء والأرض، ومن هنا فقد تشكّل حيز كبير من التصورات والتمازجات ما بين السماء والأرض (من أنصاف الآلهة)، أو من الآلهة الذين نزلوا إلى الأرض، أو من البشر الذين أصبحوا آلهة، وكانت تلك المزارات تشكل أماكن اتصال (مسرى) ما بين الأرض والسماء، وهي الأماكن التي صعد منها الآباء نحو السماء وأصبحوا آلهة، أو نصف آلهة، أو التي نزل إليها الآلهة وأصبحوا ملوكا على الأرض، وكنت قد ذهبت إلى أن إسرائيل هي المكان الذي نزل فيه الإله على الأرض (إسراء إيل).

وقد شخّص العلماء والباحثون منذ القدم النوى التاريخية للآلهة، فهوميروس كان قد ذهب إلى أن الآلهة في الماضي كانوا رجالا بارزين تم تقديسهم بعد موتهم، وتبعه في رأيه المفكر فيلو الجبيلي أيضا، أما المؤرخ فيلون الجبيلي (٦١ - ١٤١م) فقد قال في هذا السياق {إن أقدم الشعوب.. كانوا يرون أن الآلهة الكبار هم أولئك الذين حققوا اكتشافات لمساعدة وجودنا، أو الذين عمموا الخير، مهما تكن طبيعته، بين الشعوب. وقد دعي هؤلاء محسنين بسبب أعمال الخير الكثيرة التي يدين لهم الناس بها. وقد عبدوهم كآلهة، ولهذه الغاية كرسوا لهم هياكل، كما هي الآن

بالتوارث، كما أقاموا لهم أنصابا وسواري عبدوها باحترام كبير. وقد احتفل الفينيقيون بأكبر أعيادهم على اسم هؤلاء، كما بنوع خاص تيمنوا باسم ملوكهم الذين كان يُعَدّ بعضهم كآلهة، لأنهم لم يعترفوا بآلهة طبيعية غير الشمس والقمر والنجوم والكواكب، وكل ما يدخل في نظام الأفكار هذه: حيث كان لهم آلهة فانون وآلهة خالدون} ، وهو ما ينهب إليه أيضا المؤرخون في العصور الحديثة، فهربرت سبنسر يرى أن البشرية في بداية تشكلها لم تكن تعرف الدين، الذي ابتدأ بتقديس أرواح الآباء الأوائل للجماعات والقبائل، والتي اعتبرت شخصيات إلهية، وأن القوانين التي سنوها، والأخلاق والقيم التي عملوا عليها اعتبرت شرائع مقدسة، وقد جاء أبناؤهم ليكونوا جيلا ثانيا من الآلهة، وفي النهاية تم رفع الآباء الأوائل إلى مصاف الآلهة.

وأبرز مظاهر عبادة الأسلاف، كانت تتمثل في عبادة الشعوب لملوكهم، على اعتبار أنهم آباء الشعب الأثنيين وكانت الشعوب تُعَدّ ملوكها المؤسسين الأوائل أربابا، وهو الأمر الذي جعل بعض الملوك يدّعون الربوبية، فعند السومريين كان الملك يلقب بـ (ان) على اعتباره ممثل الإله الرسمي آن، وعلى اعتباره الملك السياسي، بل إن أحمد يوسف داود ذهب إلى أن الإله السومري الكبر آن، أو آنوا كان زعيما على الجماعة السومرية التي كانت تعيش على يابسة الخليج العربي قبل أن تملأها الماء وتصبح خليجا، وقام الزعيم أو الملك آن بقيادة الجماعة وخرج بها من يابسة (ما قبل الخليج)، أنقذها من الموت، وقد قام أتباعه بتقديسه، ومن ثم تأليهه على اعتباره الأب الأثني للسومريين، وقد ادعى كثير من الملوك السومريين الربوبية، على رأسهم ملك أوروك دموزي الذي أصبح ربا، وقد انتشرت عبادته في كل الشرق الأدنى القديم، كما ادعى الربوبية أيضا الملك لوجال بندا، أما ابنه الشهير جلجامش فكان نصف إله، كما هو الأمر بالنسبة للسيد المسيح، لأنه لم يستطع أن يصل إلى الربوبية، ولكنه لم يُحرم من أن يخلد اسمه بعد أن حُرِم من أن ينعم بالخلود الجسدي، وبذلك، ولأن طبيعته السماوية لم تستطع أن تنتصر على طبيعته الأرضية فكان مصيره الموت الجسدي والخلود المعنوي، أما الملك السومري شولجي (٢٠٩٥ - ٢٠٤٨ ق.م) فقد قام الشعب بتأليهه، وأطلقوا عليه لقب (شولجي المقدس) على اعتبار أنه أعاد لهم الفردوس المفقود، وكان الملك شولجي في أعياد الخصب يقوم بتمثيل دور الرب دموزي، وينام مع كاهنة المعبد التي تقوم بتمثيل دور الربة إنانا، وهذا الطقس كان شائعا في كل الحضارات القديمة، حيث كان الملك يقوم بتقمص شخصية الرب في الطقوس والاحتفالات الدينية، ولا سيما منها المتعلقة بالعقائد البعثية، وكان ينام مع كاهنة المعبد على اعتبار أنه رب الخصب، وعلى اعتبار أن الكاهنة تمثل ربة الخصب، وقد ذهب بعض الملوك بعيدا فادعى بعضهم أنه الرب الذي نزل من السماء، وتجسد بشكل ملك بشري على الأرض كي يدير أمور

شعبه عن كثب، ويمكن هنا اعتبار المسيح أنه الرب الذي نزل من السماء على الأرض وأصبح ملكا، كما يمكن اعتباره الملك الذي صعد من الأرض إلى السماء وأصبح ربا.

أما عند الأكاديين فقد أطلق الملك الشهير صارغون الأول (٢٣٧١ - ٢٣١٦ ق.م) على نفسه لقب (ملك الجهات الأربع)، و (وكيل الرب إنليل العظيم)، وكذلك هو الحال مع الملك نارام سين (٢٢٩١ - ٢٢٥٥ ق.م) الذي اعتبر نفسه وكيل الإله على الأرض.

أما عند المصريين فقد وصلت عقيدة عبادة الأسلاف إلى ذروتها وخصوصيتها، حيث كان الملك أو الفرعون يمثل دور الإله الرسمي، وكان الملك حين يموت، وحسب التصور الديني المصري، يتوحد مع إله البعث أوزوريس، وهذا يعني أن الفرعون (هو مسيح) سينبعث من بين الأموات، ولذا فإن الفرعون سيبقى خالدا إلى الأبد، ومن هنا قام الفراعنة ببناء الأهرامات التي تمثل قصرا للملك في حياة ما بعد الموت الجسدي، ومعبدا يتعبد فيه الشعب للفرعون السلف.

وكان المصريون يُعَدّون الرب آمون، أو آمون - رع ملكا وسيدا على البلاد، كما كانوا يُعَدّون الملك ربا مطلقا على الأرض بتفويض من الإله الرسمي للبلاد، وكان الفرعون يدعّي أنه يمثل المشيئة الإلهية على الأرض الإلهية، وبذلك فإن المشيئة الإلهية تمثل المشيئة الملكية، كما أن المشيئة الملكية تمثل المشيئة الإلهية {إني أهبك سنوات حتى الخلود، وحكما على القطرين في سرور، ما بقيت أنا حيا فستبقى أنت حيا أيضا على الأرض، متألقا كملك للوجه القبلي وملك للوجه البحري على عرش حوريس الخاص بالأحياء وسيبقى اسمك ما بقيت السماء، مقيما مستمرا في الخلود جزاء وفاقا على هذا الأثر التذكاري الجميل الكبير الطاهر المكين الجليل الذي أقمته لي حتى تحييني حياة الخلود}، وفي نص إلهي آخر إلى الفرعون {يا بني الحبيب إن قلبي ليبتهج عندما أرى جمالك، لقد جددت لي بيتي المقدس كأفق في السماء. ومن أجل هذا فإني أعطيك حياة رع الأبدية وسنوات أتوم}، وفي خطاب موجه من الفرعون إلى السماء {إني ابنكم صنيعة ذراعيكم، لقد أقمتموني ملكا له الحياة والصحة والقوة على الأرض. ولأجلي صنعتم الكمال على الأرض. إني أؤدي وظيفتي في سلام، ولا يألوا قلبي جهدا في البحث عن كل ما هو نافع وضروري لصالح هياكلكم}.

وكان المصريون يصفون الملك بأنه {هو الذي يضاعف الخيرات ويعرف كيف يعطي، هو الإله، بل ملك الآلهة، يعرف من يعرفه ويكافئ من يخدمه، ويحمي أتباعه، هو رع جسمه الظاهر، هو القرص، ويحيا إلى الأبد}.

وكان من الملوك الذين عرفوا بأنهم ادعوا الربوبية الفرعون بيبي، كما ادعى الفرعون أمنحوتب الثالث أن آمون تجسد في والده تحتمس الرابع عندما نام مع زوجته غير الملكية

المدعوة موت أم أويا، وهذا يعني أن امنحوتب الثالث هو ابن الإله آمون، وهو بذلك أيضا إله، وكذلك الأمر بالنسبة لابنه الفرعون الشهير إخناتون الذي ذهبت في أنه كان الرب (يَهْوَه).

وكان الملوك الكنعانيون كسواهم قد ادعوا الربوبية، والبعض منهم ادعى أنه يتحدر من أصول إلهية كما هو الأمر عند الملك كرت، أو كريت، كما كان يدّعي ملك جبيل أنه الإله إيل، ولكن بعض الملوك الكنعانيين كانوا في الوقت نفسه يُعَدّون أنفسهم كهنة الإله إيل، وهو ما يمكن استنتاجه من خلال التوراة، ومن هؤلاء كان ملك مدينة شاليم ملكي صادق، وملك مدينة جرار أبيمالك.

أما العرب، وحسب احمد يوسف داود، فإنهم لم يمروا بمرحلة عبادة الأجداد، ولم يتجاوزوا إجلال وتعظيم وتقديس آبائهم، ويبدو أن استثناء العرب من بين شعوب المنطقة في هذه الحالة ناتج عن الطبيعة الجغرافية البيئية لشبه الجزيرة العربية التي لم تشكل نظاما سياسيا مركزيا شموليا قائماً على الملكية المطلقة (حيث يشخص الرب في الملك، أو العكس)، وقد استبدلت عملية تشخيص الرب في الملك، بتشخيصه على شكل صنم قابل للتغير، والتبدل دون أن يفقد الرب شيئا من خصائصه القدسية الشمولية، بحيث أن الصنم لم يكن أكثر من وسيلة توضيحية بصرية للوصول إلى تصور الرب المجرد في البصيرة بشكل أكثر تجليا، وكان العرب يضعون أصنامهم في بيت الرب، والجدير ذكره أن بيت الرب عند العرب يمكن بناؤه في أي مكان لأنه يمثل مسكنا رمزيا، وليس مسكنا حقيقيا كما هو الأمر عند اليهودية التوراتية التقليدية التي ترى أن الهيكل هو بيت حقيقي للرب (يَهْوَه)، وأن الرب (يَهْوَه) لا يمكن له السكنى على الأرض إلا في هذا بيته المقدس، وقد كانت القبائل العربية أثناء ترحالها، تقيم أي نصب يمثل الرب، وتؤدي له مناسك الحج والطوفان على اعتبار أن الرب حل في هذا المكان، وفي هذا الزمان (هنا - الآن)، وقد كانت أشهر مساكن الله في شبه الجزيرة العربية هو مكة، وقد استطاعت قريش في سياق صراع قبلي اقتصادي أن تجعل منه بيت الله الوحيد.

أما بالنسبة للملوك، والأمراء، والشيوخ العرب فلم يكونوا يدعون الربوبية، ولم يدعوا أيضا أنهم ممثلون أو نوابا للرب على الأرض، بل كانوا قد خففوا من هذه الصيغة بإطلاق ألقاب على أنفسهم مثل المتوكل، والمعتمد، والواثق بالله، وسواه من هذه الألقاب، كما ادعوا أنهم حماة، وحراس، وخدام الدين، أو خدام بيت الرب، ولا سيما منهم ملوك وأمراء العباسيين والفاطميين، متبعين في ذلك تقاليد ملوك بلاد الرافدين، ولا سيما منهم البابليين، فقد كان ابن الملك حمورابي قد لقب نفسه بـ شمسو إيلونا (الشمس إلهنا) (١٧٤٩ - ١٧١٢ ق.م)، أما آخر ملك بابلي فقد كان يلقب بـ سمسو ديتانا (شمس الدين) (١٦٢٦ - ١٥٩٥ ق.م)، أما آخر ملوك إمارة أور فقد لقب نفسه بـ (داميق - إيل - يشو) الذي يعني بالبابلية خليل الله.

أما عند الروم فقد كان القياصرة يدعون الربوبية، بل انهم كانوا يقومون ببناء المعابد لعبادتهم، وعلى رأس هؤلاء القياصرة يوليوس قيصر، وكاليفولا، وسواه من القياصرة.

وكذلك الأمر عند شعوب الشرق الأقصى، حيث كان اليابانيون على سبيل المثال يُعَدّون الإمبراطور ابن السماء، لأنه ينحدر من سلالة تعود إلى الحفيد المباشر للشمس، وكان الإمبراطور يعبد كإله عظيم عند اليابانيين.

أما عند العبرانيين، فقد تمثلت عبادة الأسلاف، شأن العرب من بعدهم، من خلال عبادتهم وتقديسهم للماضي بكل مكوناته، وبكل محتوياته وخاصة في بعده الزمكاني.

وقد جعل العبرانيون من آبائهم مقدسات، ولكن، وعلى خلاف ما كانت تقوم به الشعوب الأثنية، لم يقم اليهود بتنزيه آبائهم الأوائل، وتنقيتهم من الشوائب، وإعادة صقل سيرتهم، بل على العكس ما قام به اليهود فقد ألصقوا بآبائهم المقدسين كل الموبقات، ولطخوا سيرتهم بأبشع الممارسات، ونزعوا عنهم أي أخلاق حميدة، ولكن العبرانيين قاموا بتقديس وتأليه الماضي لا من خلال عبادة الأجداد، بل من خلال عبادة الزمكان الأول، فهم عبدوا الماضي (كما يتصورونه، أو يتخيلونه) بصفته زمكانا، وبصفته الإطار الذي تمسرح عليه تاريخ الآباء الأوائل، وبذلك جعلوا، أو أرادوا من الحاضر أن يتحول إلى مطية تعيدهم إلى الماضي في المستقبل، ومن هنا فقد جعلوا من التوراة مركبة فضائية زمكانية ذهنية يعودون من خلالها إلى الماضي، الذي سيحاولون استعادته، وإعادة تأريخه على الزمكان الفيزيائي في المستقبل، كما جعلوا من الرب (يَهْوَه) حارسا على ماضيهم المتخيل، ومن هنا فإن إسرائيل الصهيونية قامت بإعادة إحياء الأسماء التوراتية على المدن، والقرى، الأماكن الجغرافية، كما أنها تقوم الآن بنبش الأرض (المقدسة) لاستحياء، وإعادة بناء الماضي على أرض الحاضر، كما أن القادة الصهاينة حاولوا أن يجعلوا تاريخهم مطابقا لتاريخ الآباء الأوائل، ولا سيما منهم يشوع، وداود، وسليمان، ويمكن النظر إلى قادة العصابات الصهيونية في منتصف القرن المنصرم على أنه استحياء لشخصية يشوع بن نون، أما رؤساء الوزراء الإسرائيليين، وعلى رأسهم شارون فهم استحياء للملك داود، وليست دولة إسرائيل الصهيونية سوى استحياء للمملكة داود التوراتية، وهم في محاولتهم الوصول إلى السلام كما يتصورونه يحاولون اسحياء مملكة سليمان التوراتية، وبالتالي فإن الصهيونية ستمضي قدما في مخططها الإحلالي، الاستحيائي إلى أن تستطيع إعادة بناء الهيكل المقدس، وجعل أورشليم عاصمة العالم، واليهود كهنة الديانة اليهودية التي يجب أن تدين بها كل الشعوب دون استثناء.

عبادة الشمس
عند العبرانيين

لقد قام الإنسان، وفي غير مكان، بعبادة عناصر الطبيعة بشكل عام، والأجرام السماوية بشكل خاص، ومنها الكواكب، والنجوم، وقد اعتقد الإنسان أن لتلك الأجرام أرواحا، وعقلا، وإرادة، ولأن هذه الأجرام تتدخل بشكل، أو بآخر في تصريف شؤون الإنسان، وتجنبا لأذاها، وتقربا منها على اعتبارها تتدخل في تأمين متطلبات الحياة، فقد حاول الإنسان استرضاءها بالتعبد إليها، وكان من أهم الأجرام السماوية التي عبدها الإنسان الشمس والقمر، وبينما انتشرت عبادة القمر في المجتمعات البدوية الرعوية، حيث كان القمر يضيء العتمة المخيفة لليل البدوي، انتشرت عبادة الشمس في المجتمعات الزراعية، حيث كانت الشمس أهم العناصر التي تتدخل في الدورة الزراعية، أما جغرافيا فقد انتشرت في الشرق الأدنى القديم عبادة القمر في شبه الجزيرة العربية، أما في الهلال الخصيب فقد انتشرت عبادة القمر، وعبادة الشمس جنبا إلى جنب، وبشكل شبه متساوٍ، أما في مصر فقد انتشرت عبادة الشمس بشكل واسع، بل يمكن اعتبار المعتقدات المصرية معتقدات شمسية.

وكانت الجماعات العبرية، وبسبب نمط حياتها المتجول، قد تعرفت، وتأثرت، وتبنت جميع العقائد التي كان تدين بها شعوب المنطقة، ومن هذه العقائد، عبادة الشمس التي تعرفت عليها الجماعات العبرية بشكل مميز في مصر، كما تعرفت على الإله رع، وعلى الإله حورس، كما تعرفت، وبشكل خاص، على الإله آتون، وكنا قد ذكرنا بأن إيلاف سيناء كان يضم جماعات مصرية من أتباع الديانة الأتونية المصرية، وقد أُجبرت هذه الجماعات على التخلي عن عقائدها التقليدية، لصالح العقيدة اليهوية السينائية، وما أن تفكك إيلاف سيناء، وضعفت هيمنة العقيدة اليهوية، حتى عادت تلك الجماعات إلى عقيدتهم الشمسية، أو أنهم قاموا بتزويجها مع العقائد الأخرى التي تعرفوا عليها في شرقي نهر الأردن، وفي بلاد كنعان، وكان فينكلر، وفي معرض مقاربته لعقائد الآباء الأوائل، قد ذهب إلى أن سفر التكوين بمجمله هو صيغة كتابية عن المعتقدات الرافدية، وأن إبراهيم هو اسم لإله القمر في مدينة أور، أما يعقوب فهو إله القمر في مدينة بيت إيل، ولذا

فقد بكى الأسباط عندما مات يعقوب مدة سبعة أيام مثلما كان البابليون يبكون على الإله سن (القمر) سبعة أيام، كما يذهب فينكلر إلى أن يوسف هو إله الشمس الذي انتقل من الشرق نحو مصر، وهناك تزوج من ابنة كاهن الشمس، وهذا ربما يشير إلى أن الجماعات العبرية التي عادت لتعتنق عبادة الشمس كانت تعود في أصولها العقيدية إلى سبطي منسّى، وأفرايم على وجه التحديد.

وقد وردت عدة إشارات لا حصر لها في أسفار الكتاب المقدس على عودة بعض الجماعات للتعبد للشمس:

«وإن كنتم لا تسمعون لي بل سلكتم معي بالخلاف.. أخرب مرتفعاتكم وأقطع شمساتكم وألقي جثثكم على جثث أصنامكم وترذلكم نفسي» لاويين ٢٦.

«فقال الرب لموسى خذ جميع رؤوس الشعب وعلقهم للرب مقابل الشمس فيرتد حمو غضب الرب عن إسرائيل» العدد ٢٥.

«لئلا ترفع عينيك إلى السماء وتنظر الشمس والقمر والنجوم كل جند السماء التي قسمها الرب إلهك لجميع الشعوب التي تحت كل السماء فتغتر وتسجد لها وتعبدها» تثنية٤.

«إذا وجد في وسطك.. رجل أو امرأة.. يعبد آلهة أخرى ويسجد لها أو للشمس أو للقمر.. ارجمه بالحجارة حتى يموت» تثنية ١٧.

وقد قام ملك يهوذا آسا (٩٠٨ - ٨٦٧ ق.م) بحركة تصحيحية «وعمل آسا ما هو صالح.. ونزع من كل مدن يهوذا المرتفعات وتماثيل الشمس» أخبار الأيام الثاني ١٤.

أما في عهد ملك يهوذا يوشيا (٦٣٩ - ٦٠٩ ق.م) فقد قام الكهنة في سياق الحركة التصحيحية الدينية الواسعة، بترميم الهيكل المقدس، كما قاموا بتدمير تماثيل الشمس أيضا «ابتدأ يطهر يهوذا وأورشليم من المرتفعات والسواري والتماثيل والمسبوكات. وهدموا أمامه مذابح البعليم وتماثيل الشمس.. وقطع جميع تماثيل الشمس في كل أرض إسرائيل» أخبار الأيام الثاني ٣٤، «ولا شى كهنة الأصنام الذين جعلهم ملوك يهوذا ونجّس المرتفعات في مدن يهوذا وما يحيط بأورشليم والذين يوقدون للبعل للشمس والقمر والمنازل ولكل أجناد السماء.. وأباد الخيل التي أعطاها ملوك يهوذا للشمس عند مدخل بيت الرب.. ومركبات الشمس أحرقها بالنار» الملوك الثاني ٢٣.

كما جاء في سفر إشعيا في معرض حديثه عن آخر الأيام «في ذلك اليوم يلتفت الإنسان إلى صانعه وتنظر عيناه إلى قدوس إسرائيل، ولا يلتفت إلى المذابح صنعة يديه ولا ينظر إلى ما صنعته أصابعه السواري والشمسات» إشعيا ١٧.

«في ذلك الزمان يقول الرب يخرجون عظام ملوك يهوذا وعظام رؤسائه وعظام الكهنة وعظام الأنبياء وعظام سكان أورشليم من قبورهم ويبسطونها للشمس والقمر ولكل جنود السموات التي أحبوها والتي عبدوها والتي ساروا وراءها والتي استشاروها والتي سجدوا لها. لا تجمع ولا تدفن بل تكون دمنة على وجه الأرض» إرميا ٨.

«يا ابن آدم هل رأيت ما هم عاملون. الرجاسات العظيمة التي بيت إسرائيل عاملها هنا لإبعادي عن مقدسي.. أرأيت يا ابن آدم ما تفعله شيوخ بيت إسرائيل في الظلام كل واحد في مخادع تصاويره.. هناك نسوة جالسات يبكين.. وهم ساجدون للشمس نحو الشرق»، وهذا النص يشير إلى استمرار عبادة الشمس في بلاد كنعان حتى سقوط أورشليم، وقد تم تصفية هذه العبادة في أتون مرحلة السبي، وربما أنها عادت للتقنع ضمن الديانة اليهودية، بعد عودة اليهود من بابل، وهي التي شكلت بنية تحتية في الديانة المسيحية.

ويمكن أن نضيف هنا أن إحدى مدن يهوذا (بيت شمس) كانت من نصيب بني هارون من اللاويين، وهي المدينة التي وضع فيها تابوت الرب لمدة من الزمن.

ويبدو أن العقيدة الشمسية بقيت تنتقل بطريقة متنحية في ضمير الجماعات التي أصبحت ضمن الإيلاف العبري، إلى أن عادت تلك العقيدة إلى البروز شيئا فشيئا في بعض المذاهب اليهودية في مرحلة ما بعد السبي، وتحديدا عند الطائفة الأسينية، والتي شكّلت طبقة أولى في العقيدة المسيحية الإنجيلية، والتي كانت، وحسب مخطوطات البحر الميت، تؤدي صلاتها الأولى نحو شمس الصباح (صلاة الأسلاف)، لكن العقيدة الشمسية تجلت بشكل واضح في العقيدة المسيحية، بل يمكن اعتبار المسيحية، في هذا السياق، انتصارا للعقيدة الشمسية، على العقيدة القمرية اليهودية، وهنا يمكن أن نستشهد بما جاء في سفر وصايا الأسباط الاثني عشر، وهو من الأسفار غير المعترف بها، للتأكيد على شمسية العقيدة المسيحية، ففي وصية لاوي إلى أبنائه وهو يصف لهم المسيح القادم الذي «نجمه سيسطع في السماء مثل ملك، فيشعل نار المعرفة مثلما تضيء الشمس النهار، ويمجده العالم أجمع. سيشع مثل الشمس على الأرض، وسيمحو الظلمات كلها تحت السماء. فيحل السلام على الأرض، وتتهلل السماء في أيامه وتبتهج الأرض»، أما في وصية يهوذا إلى أبنائه

فقد جاء عن المسيح القادم «لأجلكم سوف يبرز كوكب من يعقوب، ويقوم رجل من نسلي مثل شمس العدل، سائرا مع الناس باللطف والعدل، ويكون مطهرا من الخطيئة. ستتفتح السماوات من فوقه ويحل عليه الروح بركة من الأب القدوس»، ومن هنا فقد انتصرت، وانفصلت العقيدة الشمسية التي بقيت تتنقل بطريقة خفية في مسامات العقيدة القمرية اليهودية، من خلال الديانة المسيحية.

الدخول العبري
إلى بلاد كنعان و التاريخ

لقد جعلت التوراة من يشوع شخصية مفصلية في التاريخ العبري، فهو خرج من مصر مع موسى دون أن يكون له أي دور، أو حتى ذكر، أما في تيه سيناء فقد كان دوره سلبيا، ولم يتعدَ كونه حارساً شخصياً، ويداً يمنى لموسى، ولكننا نراه فجأة يتبوأ دور البطل الوحيد، والمطلق في مرحلة الدخول، ولكن التوراة لم تعط أي تفاصيل عن خلفية يشوع الاجتماعية، أو النفسية.

وحسب سفر يشوع فقد استطاع بنو إسرائيل بقيادة يشوع من اجتياح، وتدمير كامل، أو شبه كامل لبلاد كنعان خلال مرحلة قصيرة جدا، ولم يتبق من بلاد كنعان سوى المنطقة الساحلية الجنوبية التي استعصت على يشوع، والتي كان يستوطن فيها الفلسطينيون الذين كانوا إحدى جماعات إيلاف شعوب البحر، والذين كانوا قد دخلوا العصر الحديدي، بل واحتكروا صناعته أيضا، قبل سواهم من باقي الشعوب التي تستوطن بلاد كنعان، ولكن السفر نفسه عاد وتراجع قليلا عن تهويل الاجتياح، والمساحة المجتاحة، وحصرها بالضفة الغربية من نهر الأردن فحسب، وإذا ما تابعنا قراءة سفر القضاة، فإن هذه المساحة تتراجع، وتنكمش إلى بقع صغيرة متناثرة، وغير متصلة فيما بينها على الضفة الغربية.

وإذا ما أردنا أن نبحث في حيثيات دخول بني إسرائيل إلى بلاد كنعان، فلا بد من ربطها بحيثيات خروج بني إسرائيل من مصر، ولا سيما بالنسبة لتزمين الحدثين، ولكن أسطورة الدخول لم تلق الكثير من الجدل بين الباحثين، كما كان الأمر بالنسبة لزمكنة أسطورة الخروج.

يعتقد بعض الباحثين الذين يأخذون من التوراة مرجعا تاريخيا، أن منطقة العبور التي وردت في أسطورة الدخول العبري قد تمت في منطقة الداميح التي تقع على مسافة ٢٥ كم من مدينة أريحا، ففي تلك المنطقة يسير نهر الأردن عميقا بين ضفتين من الجير والطين، ومن المعروف أن شق الأردن غالبا ما يتعرض لهزات أرضية ناتجة عن نشاطات

بركانية، الأمر الذي يحدث انهيارات تشكل سدودا مؤقتة على نهر الأردن، وقد حدث مثل هذا الأمر سنة ١٩٢٧م، وقد توقف تدفق النهر لمدة يوم كامل، ويعتقد البعض - من الذين ينطلقون من أن التوراة تمثل حقيقة تاريخية - أن تلك الحالة الاستثنائية قد حدثت في لحظة الدخول العبري.

أما الباحثون الذين تبنوا وجود حادثتي خروج من مصر، من مكانيين مستقلين، فقد تبنوا أيضا مكانين للدخول إلى بلاد كنعان، أحدهما تم عبر شرقي الأردن، والجميع يعتقدون به، وهو العبور الثاني زمنيا، والأول زمنيا تم من خلال طريق ساحلي مباشر، ومن هؤلاء الباحثين الأب دوفو، والسيد القمني، والذي يذهب إلى أن الخروج الأول تم بعد إقامة بني إسرائيل في مصر مدة ٢١٥ سنة، وخرجوا في سياق الخروج الهكسوسي، حيث يرى أن تلك الجماعات انطلقت من صان الحجر، عبر بحيرة المنزلة، ودخلت إلى بلاد كنعان مباشرة دون المرور بسيناء، وقد حطت تلك الجماعات (اليهوذية - الهكسوسية) في جنوب بلاد كنعان وانتشروا حتى حدود مديان.

أما الخروج الثاني فهو الذي مر عبر سيناء، وتم بعد ٤٣٠ سنة من هجرة الجماعات العبرية إلى مصر في عهد يوسف، وقد دخلت تلك الجماعات، بعد متاهة سيناء، إلى بلاد كنعان عبر شرقي الأردن، وهم الجماعات الإسرائيلية التي استقرت في شمال بلاد كنعان، ويعتقد زينون كاسيدوفسكي أن القبائل اليهودية القديمة التي سكنت المنطقة الشمالية من بلاد كنعان لم تذهب إلى مصر أبدا، أما القبائل اليهودية الجنوبية فهي الجماعات التي كانت قدمت من مصر، وهو ما تذهب إليه أيضا الباحثة كاثلين كينون، والتي تعتقد أيضا أن الجماعات الإسرائيلية الشمالية (قبيلة إبراهيم) قدمت من بلاد الرافدين، واستقرت في شمال بلاد كنعان، ولم تذهب أبدا إلى مصر، أما الجماعات اليهوذية (قبيلة يعقوب) فهي التي قدمت من مصر، ودخلت إلى بلاد كنعان من شرقي الأردن، وهو ما ذهب إليه فرويد، أما روبنسون فيعتقد أن قبيلة يهوذا (التي لم تدخل مصر أبدا) كانت في البداية قد استقرت في المنطقة الجنوبية من بلاد كنعان (النقب)، ثم لحقت بها قبائل إسرائيل أخرى قادمة من مصر، وبينما يجمع أكثر الباحثين على أن مكان الدول كان عبر نهر الأردن، هناك بعض الباحثين يعتقدون أن مكان الدخول كان جنوبا من على محيط البحر الميت.

أما أندريه لومير فيذهب إلى أن العبرانيين في بلاد كنعان يعودون إلى أربعة مجموعات هي:

جماعة إبراهيم التي سكنت في جبل يهوذا في المنطقة القريبة من مدينة حبرون (الخليل).
أما المجموعة التي تعود إلى إسحاق فقد سكنت في منطقة النقب.
أما مجموعة يعقوب، فهي المجموعة التي قدمت من شمال وادي الرافدين، واستقرت في بلاد كنعان في القرن الثالث عشر قبل الميلاد، واستقرت في منطقة شكيم.
أما الجماعة الرابعة فهي جماعة يوسف، وهي فقط التي مرت بتجربة الخروج التوراتي وقد استقرت تلك الجماعة في منطقة أفرايم.

وقد حاولت القيادات العبرية في بلاد كنعان أن توحّد تلك الجماعات على اعتبارهم شعوباً أجنبية محتلة، ولكن تلك الجهود باءت بالفشل، ولا سيما في مرحلة القضاة، ولكن، وبسبب التوسع الفلسطيني، فقد اضطرت تلك الجماعات قسرا إلى أن تتحالف لمرحلة قصيرة للوقوف أمام المطامع الفلسطينية، وهي التي تمثل مرحلة المملكة المتحدة.

أما بالنسبة لزمن الدخول، فقد ارتبطت النظريات التي حاولت مقاربته بزمن الخروج التي كانت قد تبنته، فحسب التوراة، وبالتالي التوراتيين، فإن الفارق الزمني بين الخروج والدخول هو أربعون سنة، وهذا يعني أن كل النظريات التي طرحها التوراتيون التي حددوا من خلالها زمن الخروج، قد طرحت أن زمن الدخول تأتي بعد أربعين سنة من زمن الخروج، وأهم هذه النظريات التي أتينا على ذكرها تعيد زمن الخروج إلى بداية عهد الفرعون مرنفتاح (١٢٣٢ - ١٢٢٢ ق.م)، وهذا يعني أن بني إسرائيل دخلوا إلى بلاد كنعان في العقد الأول من القرن الثاني عشر قبل الميلاد عندما كان يتولى عرش مصر ابن مرنفتاح رعمسيس الثالث (١٢٢٢ - ١١٧٠ ق.م)، وبشكل متزامن مع قدوم شعوب البحر برا، وبحرا، حيث مروا من خلال بلاد كنعان نحو مصر التي ردتهم، وطاردتهم في بلاد كنعان نفسها، ولكن الجماعات البيلستية، استطاعت التمترس على الساحل الجنوبي لبلاد كنعان، وقد تدهورت الهيمنة المصرية على بلاد كنعان، في نهاية حكم رعمسيس الثالث، واستمرت في تدهورها حتى بداية الألفية الأولى قبل الميلاد، الأمر الذي، حسب رأي الباحثين، سمح للممالك، والمدن، والجماعات التي كانت تحت الهيمنة المصرية، ومنهم الجماعات العبرية في بلاد كنعان، أن تساهم بدرجة كبيرة في صناعة مستقبلها السياسي، في الوقت الذي كانت فيه بلاد الرافدين في مرحلة من السبات.

أما أنا فأعتقد أن دخول الجماعات العبرية إلى بلاد كنعان، تم على عدة مراحل زمنية، وأتت من عدة مناطق، ودخلت عبر أماكن متعددة أيضا، أما بالنسبة لدخول الجماعات التي خرجت من مصر، فأنا أذهب إلى أن الخروج تم أيضا على عدة مراحل

زمنيــة، ودخلــت أيــضا مــن عــدة منــاطق، ولكـــن يمكـــن تــشخيص مــرحلتي دخــول متميزتين:

- الأولى كانت في محيط القرن الخامس عشر قبل الميلاد، وهي التي تمت الإشارة إليها في رسائل تل العمارنة، وكانت بقيادة يشوع، وكان قد تشكل إيلاف عبري إسرائيلي من جماعات عبرية قدمت إلى شرقي الأردن من عدة مناطق، منها من مصر، ومنها ما قدم من سوريا الداخلية، ومنها ما قدم من بلاد النهرين، وقد دخلت هذه الجماعات إلى بلاد كنعان من المنطقة الجبلية الشمالية، والشمالية الشرقية عبر نهر الأردن، وترأس عليها يشوع بنون، في فترة كانت مصر قد فقد سيطرتها، وهيمنتها، وهيبتها في الشرق الأدنى القديم، وقد قام محررو التوراة بقص أحداث جماعة يشوع، وألصقوها بملحمة الخروج الموسوية، ودبجوا القصة التي تقول إن الرب (يَهْوَه) قد عاقب قوم موسى ممن كان عمرهم فوق عشرين سنة عند الخروج بحرمانهم من الدخول إلى الأرض الموعودة سوى يشوع بن نون وكالب بن يفنة.

وكان زينون كاسيدوفسكي قد ذكر في كتابه الواقع والأسطورة في التوراة، أنه ورد ذكر قائد عسكري باسم يشوع في رسائل تل العمارنة، وحسب كتاب الأسطورة والتراث لسيد القمني، فقد أورد أنه تم اكتشاف نقش في نوميديا ضمن آثار قرطاجة القديمة أوردته صحاف شمبرز، يقول {إننا خرجنا من قاطع الطريق يشوع بن نون، بعد أن قتل منا في عشية واحدة عشرة آلاف إنسان}، وإذا صحت قراءة هذا النقش، فهذا يعني أن يشوع قد عاش في مرحلة متأخرة جدا عن الزمن المفترض.

وكانت رسائل تل العمارنة قد أشارت إلى أن الجماعات العبرية استطاعت أن تسيطر على مدينة شكيم، كما أنها قامت بحصار أورشليم، وحسب ما جاء به الباحث يوسف سامي فقد لبى إخناتون رسائل النجدة التي كان يبعث به ملوك المدن الكنعانية، وبعث بقائد جيشه حور محب آنذاك، ولكن تلك النجدة أخفقت في مسعاها بسبب صغر حجمها.

- أما مرحلة الدخول الثانية فهي التي كانت للجماعات التي كانت قد خرجت من مصر في عهد الفرعون رعمسيس الأول (١٣١٩ - ١٣١٨ ق.م)، وهي التي ورد ذكرها في التوراة، ولكن دخول تلك الجماعات لم يحدث بعد أربعين سنة من الخروج كما أتت به التوراة، بل كان الدخول في البداية بطريقة تسللية سلكت عدة طرق أهمها كان من الجنوب، على محيط البحر الميت، وبعد زمان طويل، وبعد أن تعزز الوجود العبري في بلاد كنعان، قامت

الجماعات العبرية التي كان آباؤها قد خرجوا من مصر بالدخول بطريقة عسكرية، وهذا يفسر ما جاء في التوراة من أن الرب (يَهْوَه) قرر أن لا يدخل أحدا إلى بلاد كنعان ممن تم تعدادهم على يد موسى في صحراء سيناء، لأننا إذا ما صدقنا ما جاءت به التوراة، من أن بني إسرائيل قد دخلوا إلى بلاد كنعان بعد أربعين سنة من خروجهم من مصر، فإن ذلك يعني أن أكبر شخص دخل إلى بلاد كنعان لم يتجاوز ستين سنة، وهذا ما يفسر أيضا ما جاء في التوراة من أن قوم موسى قد أقاموا علاقات اجتماعية، وتزاوجوا مع المؤابيين، كما أنهم تخلوا عن عبادتهم اليهوية، واعتنقوا العقيدة المؤابية، وهذا لا بد أنه قد استغرق زمنا طويلا، ولم يكن بحدود السنة، أو أقل من ذلك كما أتت عليه التوراة، ويبدو أن العبرانيين الذين قضوا زمنا طويلا شرقي الأردن مكّن بعض الجماعات من التسلل، وبشكل تدريجي نحو الضفة الغربية لنهر الأردن، وعبر زمان طويل، كما أن التعارض الفاضح ما بين سفري يشوع، والقضاة، يشير بدرجة ما إلى أن الجماعات العبرية لم تدخل بالطريقة العسكرية التي قادها يشوع، بل كانت بشكل تسللي سلمي، وإن كانت هناك بعض الدخولات تحصل بطريقة عسكرية محدودة، ومن المؤكد أن الجماعات العبرية قد قضت زمنا يتجاوز الأربعين سنة بكثير، وما أتت به التوراة من أن زمن سيناء كان أربعين سنة، لم يكن سوى محاولة من محرري التوراة لإيجاد بعض التماسك بين زمني الخروج من مصر، والدخول إلى بلاد كنعان، وإعطاء شخصية يشوع الذي تمسرح في متاهة سيناء، دور يشوع بطل ملحمة الدخول، بعد أن أدرك محررو التوراة عدم منطقية تمديد الأعمار البشرية اكثر من المفترض، كما كان الأمر في مرحلة الآباء الأوائل.

ومن هنا، يمكن تفهم عقوبة الرب (يَهْوَه) من حرمان ممن خرجوا من مصر، أن يدخلوا إلى بلاد كنعان، من أن الفارق الزمني بين الخروج، والدخول كان طويلا، وكفيلا بفناء جيل كامل على الأقل أثناء ترحالهم من سيناء، وحتى الضفة الشرقية لنهر الأردن، وهذا يعني أن أحدا من الذين خرجوا من مصر لم يدخل إلى بلاد كنعان بقيادة يشوع، ولكن حسب ما أعتقد فقد تسللت إلى بلاد كنعان بعض الأسر، والجماعات العبرية، وعلى عدة مراحل، ومن عدة أماكن، في المرحلة الفاصلة ما بين ملحمتي الخروج، والدخول، وانضمت تلك الجماعات المتسللة إلى الجماعات العبرية المستوطنة في بلاد كنعان، وبعد تعزز الوجود العبري في بلاد كنعان، الذي لم يكن يروق لسكان البلاد، تجندت القبائل العبرية في شرقي الأردن ودخلت عسكريا إلى بلاد كنعان، مستفيدة من دعم الجماعات العبرية المتواجدة في بلاد كنعان، ومن غياب الحماية الخارجية، ومن

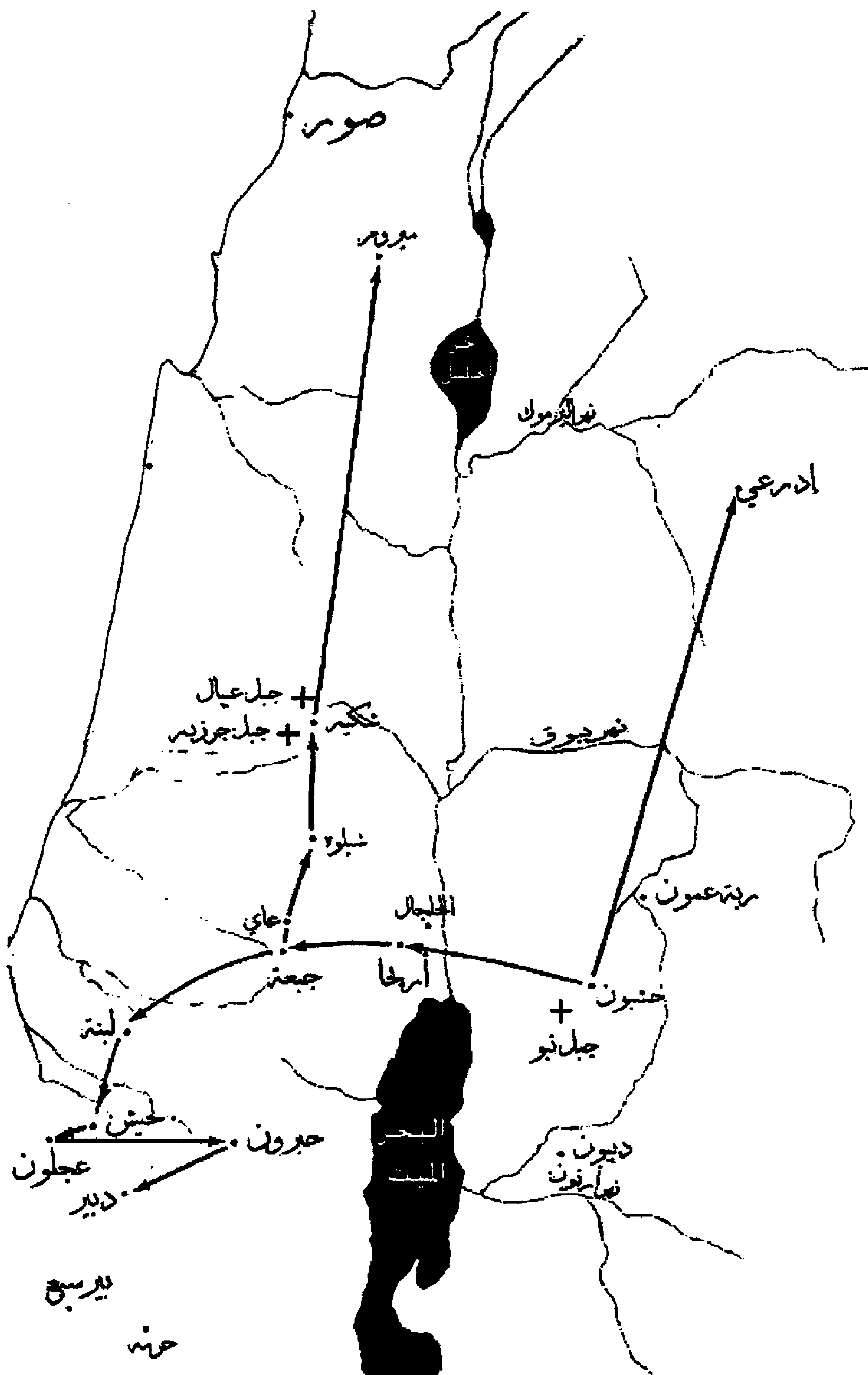
ضعف النظام السياسي العسكري في بلاد كنعان القائم على نظام المدينة - الدولة، الذي كان يفتقد إلى وجود قوة عسكرية يمكّنها من أن تقوم بالدفاع عن حدودها، وإن كان هناك شبه اتفاق على الأمن الجمعي، فقد كان لكل مدينة ملك يدير شؤون مدينته، وشؤون القرى الصغيرة المحيطة بها، وكان كل ملك مسؤولا بالدرجة الأولى عن حماية حدود مملكته، وهو النظام الذي حرصت مصر على تعزيزه، والذي يعتمد على جعل المدن مستقلة عن بعضها، يحكم كل مدينة حاكما تابعا لمصر، ودوره لا يتعدى كونه جامع ضرائب، وهذا الوضع إضافة إلى حالة القحط التي ضربت المنطقة في سياق القرن الثاني عشر قبل الميلاد، إضافة إلى الخلافات الكنعانية البينية والتي حالت دون تشكيل تحالف كنعاني حقيقي يقف في وجه الجماعات العبرية البدوية العبرية، التي استطاعت أن تدخل، وتتوغل، وأن تعيث فسادا في بعض المناطق الضعيفة، ويعتقد غوستاف لوبون، ويؤيده في ذلك فراس السواح، أن جماعات الخروج، وبسبب معاناتاتهم في صحارى سيناء، قد تحولوا إلى (قطعان من الذئاب الهزيلة)، وهاجموا بهمجية المدن الكنعانية الآمنة، ويبدو أن المرور كان في سنة جفاف شح فيه ماء نهر الأردن، وجفت الحياة في بلاد كنعان، وانتشر الجوع، والفقر، الأمر الذي جعل النمط البدوي الرعوي أكثر تأقلما من النمط الحضري المدني الزراعي، وقد تزامنت هذه الأحداث مع زحف شعوب البحر إلى المنطقة في عهد فرعون مصر مرنفتاح (١٢٣٢ - ١٢٢٢ ق.م)، والذي في عهده سادت الفوضى، لا سيما بعد أن كان قد استطاع أن يصد موجة من موجات شعوب البحر، وأن يقوم بحملة عسكرية على بلاد كنعان نحو سنة ١٢٢٧ قبل الميلاد، مما أدى إلى تغيرات ديمغرافية ساهمت في تمكين الجماعات البدوية العبرية من الدخول إلى الضفة الغربية، وحاولت الاستقرار بالمنطقة، ولكن الجماعات العمورية التي كانت تنتشر على محيط وادي عربة جنوب بلاد كنعان، وشرقي الأردن وفي منطقة حوران، إضافة إلى قدوم موجة أخرى من موجات شعوب البحر في عهد رعمسيس الثالث (١٢٢٢ - ١١٧٠ ق.م)، كانت تحد من رغبة الجماعات العبرية في الهيمنة على المنطقة.

وأنا أذهب إلى أن مرحلة الدخول العبري العسكري إلى بلاد كنعان تمت في المرحلة التي تلت قدوم شعوب البحر، والذي كان قد صدها مرنفتاح حين حاولت تلك الجماعات الإيلافية الدخول إلى مصر، وقام بعدها بحملة تأديبية على سوريا، وهي الحادثة التي أرخها، وخلدها بقصيدة النصر التي سبق ذكرها، وقد أدت تلك الأحداث إلى خلخلة الاستقرار في المنطقة بشكل كامل، وبشكل خاص في بلاد كنعان، وخلخلت البنية

الديمغرافية فيها بالتعاون مع حالة الجفاف التي كانت تجتاح المنطقة أيضا، الأمر الذي سمح للجماعات العبرية المتربصة في شرقي الأردن أن تدخل إلى بلاد كنعان في السنوات الأخيرة لحكم مرنفتاح، والتي سبقت، أو تزامنت مع استيطان الجماعات البيلستية على شواطئ بلاد كنعان الجنوبية، والتي على ما يبدو كانت بموافقة من قبل مرنفتاح، وابنه رعمسيس الثالث من بعده، وربما قام الفراعنة بتوظيفهم كمستوطنات مدنية - عسكرية لقطع، أو إعاقة أي زحف عسكري، أو شعوبي نحو مصر عبر الطريق الساحلي الكنعاني.

وقد ورثت الجماعات العبرية الأماكن التي كانت قد أفرغت من سكانها، كما قامت أيضا ببعض الهجمات على بعض المناطق الكنعانية، وحسب التوراة، كانت الجماعات العبرية تخضع إلى حكم القضاة، حيث في تلك المرحلة كانت تسود بلاد كنعان الفوضى السياسية، ولم يكن هناك قوى محلية تستطيع فرض هيمنتها على المنطقة، كما لم تكن القوى العظمى قادرة أيضا على فرض إرادتها أيضا، وبعد مدة بدأت التغيرات البيئية تقف إلى جانب النمط الحضري الزراعي، الأمر الذي سمح للكنعانيين، وسواهم من الجماعات الزراعية الحضرية، أن يمسكوا بزمام الأمور ثانية، وقد عانت الجماعات العبرية في تلك الفترة (مرحلة القضاة)، من هيمنة القوى المحلية المحيطة بها، الأمر الذي جعل الجماعات العبرية يحزمون أمرهم، وينتظمون تحت قيادة قبلية كان على رأسها في البداية شاول، ومن ثم داود، ومن بعده سليمان، ولكن هؤلاء القادة لم يكونوا أكثر من شيوخ قبليين، وكان دورهم لا يتعدى حل المشكلات والخلافات البينية، والدفاع عن العشائر العبرية فيما لو تعرضوا إلى أي غزو من قبل شعوب المنطقة، ومن بعدهم عادت الجماعات العبرية إلى التفكك ثانية.

وهذا يشكل استقراء لما هو ممكن تاريخيا في تلك المرحلة، مع الاستئناس بما بين سطور التوراة، بسبب عدم تمكن الأبحاث الأركولوجية من اكتشاف أي نص تاريخي يمكن الاعتماد عليه في قراءة تاريخ تلك المرحلة، وبما أن التوراة تذهب بعيدا في مبالغاتها لدور الجماعات العبرية في تلك المرحلة، ولأن أكثر الباحثين لم يأخذوها على محمل الصدق، والجد، فقد تجند البحث الأركولوجي الغربي المسيحي من أجل إثبات صحة ما أتت به التوراة.


صور
مبروم
نهر اليرموك
إدرعي
جبل عيبال
شكيم
جبل جرزيم
نهر يبوق
شيلوه
ربة عمون
الجلجال
عاي
جبعة
أريحا
حشبون
جبل نبو
لبنة
لخيش
حبرون
عجلون
دبير
البحر
الميت
ديبون
نهر أرنون
بيرسبع
حرمه

غزو كنعان

البحث الأركولوجي

إن قراءة متمعنة للتوراة، لا سيما تلك التي تستطيع أن تقرأ ما بين السطور، وأن تقرأ الفراغ الذي كانت تشغله بعض الجمل والكلمات التي قام المحرر بالتخلص منها، إضافة إلى الأحداث، والمعلومات التي أراد إخفاءها، من خلال التمويه، بالإضافة إلى اطلاع شامل ودقيق على النصوص، والنقوش التي تركتها الحضارات القديمة ذات الصلة، إضافة إلى نتائج الأبحاث الأركولوجية، مع إعمال الفكر، كل هذه مجتمعة قد تمكّننا من إجراء مقاربة تشخيصية بين النص التوراتي والمعطيات التاريخية، واستخلاص المجاهيل التوراتية، بحيث يمكننا من استخلاص النوى التاريخية في الأسطورة التوراتية.

وبينما لم تكن عملية استقراء التاريخ في مرحلة الآباء الأوائل معقدة، وليست محل سجال بين الباحثين، لعدم وجود ادعاءات تاريخية في الصراع على المكان في الزمان الحاضر، وبينما نجد في مرحلة الخروج بعض النصوص، لا سيما منها المصرية، التي يمكن أن يحاجج بها التوراتيون على وجه الخصوص، نجد هناك صعوبات كبيرة جدا في مرحلة الدخول، أو الاجتياح العبري لبلاد كنعان، ومرحلة المملكة المتحدة، والتي ضنت علينا الاكتشافات النصية التاريخية بأي نقش يتحدث من قريب، أو بعيد عن بلاد كنعان بسبب الانحسار الحضاري في الزمن البرونزي الثالث والحديدي الأول في منطقة الشرق الأدنى، ولا سيما بالنسبة لحضارات بلاد الرافدين ووادي النيل، والذي لم يجد الباحثون سوى الأعمال والحفريات الأركولوجية سندا وحيدا لمقاربة النص التوراتي.

لقد حاول البحث الأثري (المسيحي - الإنجيلي - التوراتي) في بدايته أن يكتشف أو يخرج التوراة من تحت الأرض كما كان يتمنى، وكان يتخذ، في مسعاه هذا، من الأزمنة والأمكنة التوراتية بوصلة لمعاول الباحثين، ولكنه، وبسبب فشل هذا التوجه، فقد تم وضع معيار زماني للبحث الآثاري في فلسطين على أساس الترتيب الزمني = الكرونولوجي، بدءا من العصر البرونزي الذي يقسم إلى:

البرونز المبكر: ويمتد ما بين ٣٣٠٠ - ٢٠٠٠ ق.م، والذي يمكن وصفه بمرحلة ما قبل التأريخ التوراتي.

البرونز الوسيط: ويمتد ما بين ٢٠٠٠ - ١٦٠٠ ق.م، وفيه، حسب الباحثين في التاريخ التوراتي، جرت أحداث مرحلة الآباء الأوائل.

البرونز الأخير: ويمتد ما بين ١٦٠٠ - ١٢٠٠ ق.م، وهو، مع العصر الحديدي الأول، تزامن مع مرحلة الخروج من مصر، ومرحلة الاجتياح اليشوعي لبلاد كنعان، والاستيطان العبري (مرحلة القضاة).

ثم الزمن الحديدي الذي يقسم إلى:

الحديدي الأول: ويمتد ما بين ١٢٠٠ - ١٠٠٠ ق.م، والذي يتزامن مع مرحلة القضاة، وبداية المملكة المتحدة.

الحديدي الثاني: ويمتد ما بين ١٠٠٠ - ٧٠٠ ق.م، ويتزامن مع المملكة المتحدة، وبداية مرحلة انقسام المملكة المتحدة إلى المملكة الشمالية (مملكة إسرائيل)، والمملكة الجنوبية (مملكة يهوذا).

إن التاريخ الخاص ببلاد كنعان تدخلت في صياغته عدة أمور:

الأول هو الموقع الجغرافي المهم والذي شكّل مطمعا لكل القوى الكبرى في الشرق الأدنى القديم، فمن يمتلك أو يسيطر على بلاد كنعان الجنوبية فقد سيطر على منطقة استراتيجية بالمفهوم العسكري، لأن تلك المنطقة تقف كبوابة، وكممر بري وحيد بين أفريقيا وآسيا، وبين أوربا البحرية والعالم القديم أيضا، وهو ما سمي بـ (جسر الأمم)، كما أن هذا الموقع أعطى بلاد كنعان أيضا بعدا اقتصاديا على غاية كبيرة من الأهمية، كما أن هذا الموقع أيضا جعل من بلاد كنعان منطقة عبورية مرورية بين ثلاث قارات دفعت بكثير من الأقليات للقدوم إليها، والاستيطان فيها، لا سيما وأنها منطقة ذات طابع تسامحي تتقبل الجميع على اختلاف معتقداتهم، وثقافاتهم، وعاداتهم.

وقد كانت تمر عبر بلاد كنعان (جسر الأمم) ثلاث طرق دولية رئيسية برية تربط أفريقيا بآسيا وهي:

- الطريق الساحلي (طريق حورس): وله أسماء أخرى هي الطريق الدولي، أو الحربي الكبير، وهو الطريق العسكري الذي كانت القوات المصرية تسلكه للوصول إلى البلاد السورية، وينطلق من حصن بالقرب من منطقة القنطرة على الجهة الشرقية من دلتا النيل، ويمتد على شاطئ المتوسط ليصل إلى العريش، ثم رفح، ثم غزة، حتى يافا، ثم ينعرج غربا نحو مدينة مجدو (تل المتسلم إلى الجنوب الشرقي من مدينة حيفا) حيث يتفرع هناك إلى ثلاثة فروع:

الفرع الأول يعود نحو شاطئ البحر المتوسط محاذياً جبل الكرمل، ليتابع سيره نحو المدن الفينيقية: صور - صيدا - جبيل - أوغاريت.

والفرع الثاني يذهب شرقا نحو شرقي الأردن، ومن هناك يذهب جنوبا بمحاذاة الشاطئ الشرقي للبحر الأحمر حتى اليمن، ثم يتجه شرقا نحو عمان، ومن ثم يتابع طريقه على الشاطئ الغربي للخليج العربي حتى يصل إلى المنطقة الجنوبية من بلاد الرافدين حيث هناك ينقسم إلى فرعين، أحدهما يسلك الطريق المحاذي للشاطئ الشرقي للخليج العربي وصولا إلى الهند، والآخر يتابع طريقه صعودا بمحاذاة نهر دجلة نحو نينوى، ثم مدينة ماري، ثم ينعطف غربا ليلتقي ثانية بالطرق الدولية.

والفرع الثالث ينطلق شمالا نحو دمشق، وهناك يذهب فرع منه نحو البادية السورية عبر مدينة تدمر، أما الفرع الرئيسي فيتابع سيره شمالا ليلتقي مع شبكة الطرق الدولية.

- **طريق الملوك**: ويبدأ من المنطقة الشرقية للدلتا، ويمر عبر صحراء سيناء نحو شرقي الأردن ومنه إلى دمشق.

- **طريق الصحراء**: وينطلق من الدلتا، ويمر عبر سيناء الغربية، ثم عبر وادي الأردن إلى بيت شان (بيسان)، ليصل أخيرا إلى شبكة الطرق الدولية هناك.

وقد شكلت هذه الطرق أهمية بالغة للتجارة، ولحركة الجيوش، ولحركة النزوحات الشعوبية أيضا.

الأمر الثاني الذي تدخّل في صناعة تاريخ المنطقة هو التغيرات البيئة، وتنوع المناخات والطبوغرافيا في منطقة صغيرة، والتبدلات البيئية لا توقّع تأثيرها على فلسطين فحسب، بل تؤثر على الحياة العامة في كل منطقة الهلال الخصيب، وعلى سوريا بشكل أخص، وهي على عكس ما هي عليه طبوغرافيا مصر وبلاد الرافدين ذات المناخ الواحد تقريبا، والتي مكّنت شعوبها من تكوين نظام سياسي مركزي، أما بالنسبة لبلاد الشام ككل، والمنطقة الجنوبية منها بالخاصة فالتنوع البيئي - الطوبوغرافي - الجغرافي حال دون تشكيل سلطة مركزية لصعوبة السيطرة على الأقاليم محليا كما هو الحال في بلاد الرافدين ووادي النيل، وجعل تلك المنطقة تعاني من تفكك سياسي طوال تاريخها القديم.

ويمكن أن نضيف إلى ذلك أن التنوع البيئي أدى إلى تنوع وتعدد في الأنماط الإنتاجية، والذي بسبب ذلك كان ذا نمط محلي، وهذا ما جعل التجارة وتبادل السلع بينية، والتنوع البيئي، وإن كان يحقق شيئا ما من الترابط الاجتماعي، كان يؤدي إلى عكس هذا الدور، لعدم وجود منتج محدد تنتجه المنطقة، بحيث يمكن أن يتشكل فائض إنتاجي تجاري، وهذا

ما ساهم أيضا دون تشكيل حكم مركزي، فقد كان المُنتج يقدم منتجاته من خلال مدينة صغيرة، أو مركز تسوّق صغير محلي يتمركز حول القرى المحيطة به والتي كان لها استقلاليتها النسبية، فقد كان لكل قرية أو مدينة سورها الخاص بها، وحاميها المحلي الذي قد يتحالف مع قرى الجوار في عقود شفوية ضعيفة، أو أنها تتبع لحماية قرية أو مدينة مقابل القليل من الإتاوة، وكانت هذه الاتفاقيات والتحالفات المحلية الشفوية سرعان ما تتفك تبعا للوضع المرحلي، ودخول المنطقة في صراعات عابرة محدودة.

أما بالنسبة للتجارة الدولية، والتي كانت بلاد كنعان تشكل ممرها، فقد كانت بيد تجار غير محليين بشكل عام، كما أنها كانت محمية من قبل قوى خارجية أيضا، إلا أنها بشكل عام كانت تساهم قليلا في رفع المستوى الاقتصادي المعيشي لبعض المدن والقرى التي تقع على الطرق التجارية الدولية (الملوك - الساحلي - الصحراوي)، ولكن هذه الطرق الدولية ساهمت بعكس التأثيرات البيئية السلبية على الوحدة الاجتماعية الأثنية، كما أن هذه الطرق رفدت المنطقة بالإنتاجات والتجارب والمفاهيم الحضارية (استيراد - تصدير).

إن تساوي الطاقة المُنتجة مع قيمة السلعة جعل الجميع بشكل عام متوسطي الحالة الاقتصادية، مع القليل من الاستثناءات، ولم يكن يعكر الاستقرار الاقتصادي المعيشي سوى الجفاف الذي كان يضرب البلاد، والذي كان له نظام شبه دوري معين، فقد كانت المنطقة تعاني من دورة جفاف تستمر لمدة سبع سنوات، تلحقها دورة مطيرة لمدة سبع سنوات أيضا، وهو الرقم الذي أصبح مقدسا، والذي اختزلته التوراة بحلم الفرعون الذي فسره له يوسف.

وهذا النظام الطقسي البيئي كان يعيد ترسيم الكثافة السكانية تبعا لمصادر المياه، وخصوبة التربة، والموقع التجاري لكل منطقة، وبذلك يساهم في تنوع النظام السكني ما بين المزرعة والقرية والمدينة حسب الطبيعة الجغرافية للمنطقة ومعطياتها، وكانت موجات الجفاف تؤدي إلى تغير في الأنماط الحياتية من النمط الزراعي إلى النمط البدوي الأكثر قدرة على تحمل الجفاف، وكان الجفاف الذي يجتاح بلاد كنعان يشكل جزءاً من جفاف عام، وكانت بلاد كنعان تتحمل - إضافة إلى تأثيرات الجفاف عليها - الحركات الشعوبية القبلية التي تحدثها هذه الموجات، الأمر الذي يزيد الوضع سوء.

كما أن التنوع في الإنتاج المحلي الكفلي في حال دون وجود قواسم تجارية مشتركة للجميع، وهذا ما حال أيضا دون تشكل نظام احتكاري (فائض الثروة)، وهو الذي يُعَدّ أحد أسباب ومقومات السلطة المركزية، وبذلك آثر سكان المنطقة أن يكونوا خاضعين لنظام أعراف محلية قد تتغير بتغير الظروف، لا سيما وأن التجمعات المجتمعية السكانية المختلفة،

والتي نتج اختلافها عن اختلاف البيئات التي يعيشون فيها، أضافت عاملا آخر ساهم في عدم تشكل حكم ونظام سياسي مركزي، وكان النظام الاجتماعي السياسي الاقتصادي ذا نمط عائلي، فبعض العائلات كانت زراعية، وبعضها رعوية، وبعضها يعمل في التجارة، وأخرى في المعدنة، وكان النظام الأمني العسكري - كما ذكرنا - قائماً على حماية محلية يتكفل بها شيخ القرية أو المدينة مقابل تقديم الطاعة والولاء له من قبل رعاياه، وهذه القرية أو المدينة بدورها تدين بالولاء لمدينة إقليمية أكبر منها، وبشكل عام لم يكن هناك من تنسيق بين تلك القوى إلا في بعض الحالات التي كانت تتعرض فيه البلاد لخطر خارجي (للقوى المحيطة بالمنطقة)، ولكن دون أن تستطيع هذه التحالفات المؤقتة، الوقوف أمام القوى الإمبراطورية، وبمعنى ما، كان النظام الاجتماعي العائلي السياسي هو الغالب على النظام العسكري السياسي.

إن النظام السياسي لمنطقة فلسطين الناتج عن تقاطع فقر الحياة العامة النسبي، والتنوع البيئي والأثني جعل منطقة فلسطين، وعلى الدوام، منطقة مسيطر عليها من قبل الكيانات الإقليمية الدولية المحيطة ولا سيما من قبل سلطة وادي النيل، التي كانت تُعَدّ بلاد كنعان الجزء الأهم في المجال الأمني المصري، لا سيما بعد الاجتياح الهكسوسي لها.

وما ميّز التوزع الديموغرافي (الكثافة السكانية) في سوريا - على خلاف حضارات الوادين - في العصور القديمة هو النمط الدراماتيكي ما بين ارتفاع شديد، وانخفاض شديد أيضا، وقد تم تفسير ذلك فيما سبق على أنه ناتج فقط عن الجيوش التي ابتلت بها المنطقة من خارجها، ولكن تبين في الآونة الأخيرة أن هذا التباين كان ينتج بالدرجة الأولى عن موجات من الجفاف الشديد التي كانت تؤدي إلى عدم إمكانية استمرار الحياة فيها، فكان الناس يتركون قراهم للرياح ولظروف الزمان لكي تهدمها، وبالدرجة الثانية عن اجتياحات الجيوش التي كانت تسعى للسيطرة على منطقة ذات أهمية استراتيجية خاصة.

وقد أظهرت نتائج البحث الأركولوجي أن بلاد كنعان قد تعرضت لثلاث موجات دمار:

أولها هي موجة الدمار التي حصلت في العصر البرونزي المبكر في نهاية الألف الثالثة قبل الميلاد، وكان سببها الأساسي هي موجة الجفاف التي ضربت المنطقة.

أما موجة الدمار الثانية فكانت ما بين القرنيين السادس عشر والخامس عشر قبل الميلاد، وهي تتوافق وتتزامن تاريخيا مع مرحلة ملاحقة المصريين لفلول الهكسوس في منطقة كنعان، ومع الاضطرابات الديموغرافية في المنطقة التي لحقت ذلك.

أما موجة الدمار الثالثة فكانت بين القرنيين الثالث عشر والثاني عشر، وهي تتوافق مع تعمق الجفاف الميسيني، من جهة، واندخال الشعوب الإيجية، والقبائل العبرية في منطقة بلاد كنعان من جهة ثانية.

وقد بينت البحوث الأركولوجية أن المنطقة كانت قد دمرت في العصر البرونزي المبكر (٣٢٠٠ - ٢٠٠٠ ق.م)، وقد اتهمت القبائل العمورية - الآرامية بإحداث هذا التدمير، ولكن نظرية تدمير ثقافة عصر البرونز المبكر من قبل القبائل العمورية - الآرامية بدأت تضعف بعد أن تركزت البحوث حول يد التبدلات المناخية في إحداث هذا التدمير، أو على الأقل كان لها اليد الطولى، وكانت للقبائل العمورية - الآرامية اليد القصرى في تلك الكارثة.

كما أن نظرية مجيء القبائل العمورية - الآرامية من شبه الجزيرة العربية قد بدأت تحيط بها الشكوك بعد أن بينت الدراسات أنهم كانوا من أبناء منطقة الهلال الخصيب الذين جعلتهم الكارثة المناخية يهجرون ديارهم ويتحولون من جماعات زراعية إلى جماعات رعوية متنقلة في محاولة تأقلمية مع البيئة، ثم أخذت تبحث عن مواقع جديدة لها، وربما ساهمت في تسديد الضربة الأخيرة على المدنيات الآيلة إلى السقوط بسبب التبدل المناخي، وملأت الفراغ في الداخل السوري، وهم أنفسهم الذين نزلوا جنوبا نحو شبه الجزيرة العربية، وبذلك انعكست نظرية هجرة الساميين من شبه الجزيرة العربية نحو الهلال الخصيب، وأصبح يقال بأن القبائل العربية ما هي إلا قبائل مصدرها من الهلال الخصيب نزلت نحو الجزيرة العربية.

ومن ثم حصل التحول الطقسي في البرونز الوسيط (٢٠٠٠ - ١٦٠٠ ق.م)، والذي أدى بتلك القبائل العمورية - الآرامية إلى الاستقرار مرة ثانية في المدن المهدمة، وتأسيس ممالكهم، وكانت أولها المملكة البابلية القديمة.

لقد تبين للباحثين أن ظاهرة التبدي (العودة إلى البداوة) تحدث كثيرا بعد حصول تبدلات سببها الحروب، أو بأسباب طبيعية بيئية، فقد كان الجفاف يؤدي إلى نضوب مصادر الاستقرار، والتمدن، الأمر الذي يقود بعض القبائل، التي كانت قد تحولت بسبب حالة الاستقرار إلى الاستيطان، بالتحول ثانية إلى نمطها البدوي بعد تهدم حالة الاستقرار، وغالبا ما تسعى هذه القبائل إلى العودة إلى مواطنها القديمة التي حفظتها ذاكرة القبائل، وهي تسعى من خلال ذلك أن تدعم روابطها الثقافية التي تخاف عليها من التشتت، وكانت تعود إلى الحالة الاستيطانية بعودة أسباب الاستقرار ثانية.

كما أن التغير البيئي الذي شكل هذه القبائل العمورية - الآرامية، وساهم في حراكيتها التاريخية، ساهم أيضا في استقطاب جماعات حورية آرية (هند أوربية) تسللت نحو

الشمال الشرقي السوري (في شمال الجزيرة السورية)، وشكلت عدة مدنيات على رأسها مدينة نوزي، ومن ثم قدمت الجماعات الحثية الأناضولية الذين أسسوا عدة مدن أهمها كركميش، كما ساهمت - ولكن بدرجة ضعيفة - بهذه التحركات الشعوبية قبائل الخابيرو (العبرية)، والتي لم تستطع أن تجد لها مكانا محددا لتستقر به فبقيت هامشية تعتاش على ما تطرحه لها الظروف الدولية والبيئية.

أما في بلاد كنعان، والتي كانت جزءا من الوضع العام الحضاري والثقافي لسورية، فقد شهدت نفس الظاهرة من حيث التدمير، كما أنها شهدت أيضا، بعد عودة المناخ الزراعي، ازدهارا بسبب الظروف البيئية المناسبة للزراعة، كما أن الازدهار الدولي العام بسبب عودة الظروف المناخية نشّط الحركة التجارية، والذي عاد بالنفع على فائض الزراعة في بلاد كنعان، وعلى عوائد الطرق التجارية الدولية، ولا سيما في منطقة سهل يزرعيل (سهل مرج ابن عامر).

إن الخريطة الحضارية الجغرافية السورية طوال العهود القديمة، ولا سيما منذ بداية أو ما قبل بداية العصر البرونزي المتأخر (١٦٠٠ - ١٢٠٠ ق.م)، كانت تمتد حضاريا ومجتمعيا عبر صحراء سيناء، حتى منطقة الدلتا التي كانت ذات طابع سوري أكثر منه مصري فرعوني، فقد كان سكان الدلتا من الشعوب السورية أو الآسيوية المتنوعة بشكل عام، ومنهم الجماعات الهكسوسية والعبرية حيث كانوا ومن خلال بحثهم عن الموقع الأفضل يزحفون سلميا إلى الشمال الغربي من وادي النيل، وهناك استطاعوا - في النصف الثاني من القرن الثامن عشر قبل الميلاد (١٧٣٠ ق.م) بعد أن تم اندماجهم في كتلة بشرية واحدة - أن يشكلوا دولة الهكسوس بعاصمتها أفاريس، والتي زحفت جنوبا وأنهت حكم المملكة المتوسطة وأجبرت الفراعنة على الزحف نحو الجنوب، وقد بقي الهكسوس يحكمون مصر السفلى حتى استطاع القائد المصري أحمس أن يقضي على دولة الهكسوس سنة ١٥٧٠ قبل الميلاد، وأن يعلن نفسه فرعونا على المملكة الحديثة.

أما في العصر البرونزي الأخير (١٦٠٠ - ١٢٠٠ ق.م)، وبعد القضاء على هكسوس الدلتا، أصبحت المنطقة مقسمة بين ثلاث قوى دولية هم: الحثيون في آسيا الصغرى، والميتانيون (الحوريون) في منطقة الجزيرة السورية، والمصريون في وادي النيل، مع غياب أو تهميش لقوة بلاد الرافدين التي كانت خامدة تحت ظل الحكم الكاشي الذي كان قد أنهى الحكم البابلي القديم، كما أن القوة المصرية كانت في حالة انكماش بعد أن تم طرد الهكسوس، ولا سيما بعد أن اعتلت العرش الملكة حتشبسوت (١٤٩٠ - ١٤٦٩ ق.م)، ولكن تحتمس الثالث

(١٤٦٩ - ١٤٣٦ ق.م) الذي تفرد بالحكم سنة ١٤٦٩ قبل الميلاد قام بمد نفوذه نحو البلاد السورية، والتي استطاع فيها - في مرحلة لاحقة - الحثيون أن يسيطروا وينهوا الوجود الميتاني وأن يتقاسموا البلاد السورية مع مصر، وقد وضع الحثيون الدويلات في سورية تحت الجزية، ومنها مملكة أمورو وعاصمتها سيميرا (بالقرب من طرطوس) والتي كانت تهيمن على السهول الساحلية والوسطى من سورية، وقد أتينا على ذكر نص المعاهدة بين الملك الحثي شوبي لوليماس وملك آمورو عازيرو ابن عبدي عشيرته.

ولكن وبعد أن اعتلى عرش مصر الفرعون إخناتون ضعفت السيطرة المصرية على سورية بسبب انشغال إخناتون بالمشكلات الداخلية التي أحدثها معتقده الديني الجديد، مما سمح لجماعات العابيرو بأن تعيث في حالة الأمن والاستقرار في جنوب سوزيا، ومع التبدلات المناخية البطيئة (الجفاف الميسيني) وهي تدنو من نهاية عصر البرونز المتأخر (١٦٠٠ - ١٢٠٠ ق.م) تدنت الحالة العامة في منطقة شرق المتوسط بما فيها آسيا الصغرى، والتي كانت الأكثر تأثرا، والتي أدت أو ساهمت في اندثار الإمبراطورية الحثية، بينما كانت مصر الأقل تأثرا بسبب وجود وادي النيل، فانهارت الحالة السكانية والزراعية والاقتصادية في بلاد الشام، ولا سيما منها بلاد كنعان، وحصلت تبدلات ديمغرافية جذرية، فقد هُجرت القرى الصغيرة، وتحول بعض أهلها من العمل بالزراعة إلى العمل بالرعي، وبعضهم التجأ إلى المدن الرئيسية الأكثر أمنا واستقرارا والأقل تأثرا بالتغيرات البيئية.

وكان الجفاف الميسيني الذي بلغ ذروته في النصف الثاني من القرن الثالث عشر قبل الميلاد، والذي ضرب المنطقة كاملة بما فيها شرقي المتوسط ومنطقة بحر إيجة التي اجتاحتها الغزوات البربرية من جهة، والحروب المحلية والتي كان أهمها حرب طروادة الشهيرة - هذه الأحداث - أدت إلى تغيرات ديمغرافية شاملة بسبب تفكك البنى السياسية في الأرخبيل الإيجي، وقادت إلى هجرة جماعية أو نزوح فوضوي بطريقين: أولهما بحري، حيث توجهت بعض الجماعات الإيجية نحو قبرص، وبعضها توجه نحو شواطئ ليبيا، وهناك انضمت إليها كتل بشرية جديدة، ثم توجهت نحو دلتا النيل بقيادة مريي، وقد استطاعت أن تستولي على المنطقة الغربية من الدلتا، حيث تصدى لهم وردهم على أعقابهم فرعون مصر مرنفتاح في النصف الثاني من القرن الثالث عشر قبل الميلاد، ومن ثم انطلقت دفعة ثانية برا وبحرا وحطت على شواطئ أسيا الصغرى نحو الإمبراطورية الحثية التي كانت بحالة تبدد وتلاشي، ومن هناك انضم إليها المزيد من الجوعى ليشكلوا القشة التي قصمت ظهر البعير، وأدت إلى تدمير الحضارة والمدنية المتهاوية على الساحل السوري بسبب نفس الجفاف الذي ضرب المنطقة،

وتابعت هذه الأخلاط البشرية طريقها عبر المدن السورية المتقهقرة فأنهتها، وتابعت طريقها بمحاذاة الشاطئ الشرقي للمتوسط وصولا إلى مصر، ولكن رعمسيس الثالث (١٢٢٢ - ١١٧٠ ق.م) ردهم على أعقابهم أيضا من حيث أتوا نحو بلاد الشام، وقد استطاعت جماعات البيلست الاستيطان على الشاطئ الجنوبي لبلاد كنعان، وهذه الأحداث تتزامن مع مرحلة الخروج العبري بقيادة موسى، والدخول بقيادة يشوع حسب الزمان المقترح للمقولة التوراتية.

نتائج البحث الأركولوجي لبلاد كنعان:

كان الباحث الأركولوجي يأتي من أوربا إلى المنطقة وهو مشبع بالنص العبري على اعتبار أنه يمثل وثيقة تاريخية، وكان بحثه الأركولوجي متوجها ببوصلة النص التوراتي، وهذا ما أدى إلى تضييق مساحة الرؤية الأركولوجية بحيث اتخذت من جغرافيا التوراة أهدافا لمعاولهم، أما الزمان فكان العصر البرونزي الثالث والحديدي الأول، حسب ما أجمع عليه أكثر الباحثين التاريخيين من أن الخروج قد تم في زمن الفرعون مرنفتاح (١٢٣٢ - ١٢٢٢ ق.م)، وهذا يعني أن الدخول قد كان في بداية القرن الثاني عشر قبل الميلاد، مع بداية العصر الحديدي الأول، وقد تبنى هذا التزمين الباحثون الأركولوجيون.

أظهرت الأبحاث الأركولوجية في بلاد كنعان أن الحياة كانت ضعيفة في تلك المرحلة (الفترة الانتقالية بين العصر البرونزي الثالث والحديدي الأول) في منطقة الهضاب المركزية، ولم تكن هناك سوى مدينة شكيم (نابلس) كمدينة مهمة ما بين أورشليم في الجنوب، ووادي وسهل يزرعيل (مرج ابن عامر) في الشمال، وشبه منقطعة في جبال يهوذا إلا في بعض المناطق البسيطة، والتي تأخرت عودة الحياة إليها (ولم يكن فيها سوى موقعين صغيرين هما خربة رابوض وبيت زور) التي استمرت فيهما الحياة.

ومع بداية العصر الحديدي بدأ المناخ يعتدل، وشيئا فشيئا بدأ الجفاف يتراجع بعد عودة المناخ المطري مع بداية العصر الحديدي الأول (١٢٠٠ - ١٠٠٠ ق.م)، وبدأ الطقس العام يميل نحو التحسن في سوريا بشكل عام، في الوقت الذي بدأت القبائل الآرامية تنشر وجودها السياسي على بلاد الشام الداخلية.

وقد بدأت الحياة تعود بشكل تدريجي إلى بلاد كنعان بدءا بالمنطقة الشمالية (الهضاب المركزية) في نهاية العصر البرونزي المتأخر وبداية العصر الحديدي الأول، وامتدت ولكن بشكل أكثر بطئا نحو الجنوب لتشمل جبال أورشليم في العصر الحديدي الأول، وكان التوطن يأتي من مصدرين: أولهما نتج عن عودة توزيع ديموغرافي من الداخل، مترافقاً

مع تزايد سكاني محلي، والمصدر الثاني نتج عن تسرب تدريجي لقبائل بدوية عبر نهر الأردن.

وقد أظهرت الأبحاث الأركولوجية التي قام بها موشي كوشافي، أنه تم بناء نحو مئة وعشرين قرية أو مستوطنة جديدة في العصر الحديدي الأول ذات طابع رعوي - زراعي في منطقة (أفرايم) على جبال الضفة الغربية بين بيت لحم جنوبا، ونابلس شمالا، أما زرتال فقد اكتشف ١٣٦ مستوطنة جديدة تعود للعصر الحديدي الأول في منطقة (منسّي) على جبال الضفة الغربية بين نابلس جنوبا، وجنين شمالا، أضيفت إلى ١١٦ مستوطنة قديمة تعود إلى العصر البرونزي الوسيط (٢٠٠٠ - ١٦٠٠ ق.م)، وعلى ٣٩ قرية زراعية تعود إلى عصر البرونز الأخير (١٦٠٠ - ١٢٠٠ ق.م).

وكان العدد الكلي للقرى التي كانت قد أنشئت في منطقة الهضاب المركزية في العصر الحديدي الأول ٢٥٦ قرية استيطانية جديدة، انضمت إلى القرى القليلة الأقدم.

وقد بدأت المستوطنات الجديدة بالظهور على المنحدرات الشرقية، ثم زحفت نحو الأعلى متسربة بين القرى القديمة الموجودة سابقا، والتي لم تتعرض إلى أي تدمير لها (المفترض أنها كنعانية)، وهذا يشير إلى أن الاستيطان الجديد الذي تم في عصر الحديد الأول من قِبل قبائل قدمت عبر الأردن كان ذا طابع سلمي، ولم يكن لتلك المستوطنات نمط حضاري خاص بها بحيث يمكن تمييزها عن المستوطنات القديمة (الكنعانية)، وبلغت ذروة الاستيطان في العصر الحديدي الثاني (١٠٠٠ - ٧٠٠ ق.م)، وقد استوطن القادمون الجدد في الأماكن المهجورة الفقيرة والتي لا تتوفر فيها المياه، والتي كانوا يحصلون عليها من القرى الكنعانية القديمة - التي كانت قد تشكّلت في عصور سابقة - ويضعونها في جرار ضخمة تم اكتشافها في المستوطنات الجديدة، وكان يظن أنها ميزة حضارية للقادمين الجدد، ولكن، وبعد أن وجد المستوطنون الجدد حلولا للحصول على الماء من خلال حفر البِرَك كمستودعات للمياه تملأ أثناء الموسم المطري في فصل الشتاء ليتم التزود بها في فصل الصيف، لا سيما بعد انتشار استخدام معدن الحديد الذي ساعدهم، من خلال صناعة الأدوات القاسية، في عمليات الحفر ضمن الصخر، وقد زالت هذه الجرار الضخمة متزامنة مع حفر البرك.

ومع تزايد الكثافة السكانية اتجهت المنطقة نحو المركزية الإدارية ومنها السياسية، وهذه المعطيات الأركولوجية تتقاطع مع المعطيات النصية في التوراة، ونقش ميشع، والحوليات الآشورية، التي أتت على ذكر مملكة بيت عمري في منطقة السامرة (مملكة إسرائيل) في سياق القرن التاسع قبل الميلاد، وكان أول ملك لها ورد ذكره

تاريخيا هو عمري (٨٨٢-٨٧١ ق.م)، الذي بنى مدينة السامرة على النمط الفينيقي السوري عاصمة له، على عكس ما حصل على الساحل الجنوبي أثناء استيطانها من قبل البيلست الذين كان لها هوية حضارية متميزة في البداية، ولكنهم سرعان ما تكنعنوا دينيا، وثقافيا.

لقد دلت الأبحاث الإركولوجية أن بلاد كنعان في المرحلة الانتقالية بين القرن الثالث عشر قبل الميلاد، والثاني عشر قبل الميلاد قد استشرى فيه الفقر، وانهارت التحصينات الدفاعية، وأن مدن لايش، وعجلون، ودافير، وحبرون، وحاصور، وبيت لحم تعرضت إلى تدمير، وإحراق في القرن الثاني عشر قبل الميلاد، ولكن لم تكتشف في مدينة جبعون، التي تقع على بعد ٨ كم من القدس، آثار للحريق والتدمير كسواها من المدن المثيلة، بل ظهر أنها كانت مدينة غنية جدا ، الأمر الذي يتماشى مع المقولة التوراتية، حيث جاء في سفر يشوع أن مدينة جبعون قد عقدت تحالفا مع الجماعات العبرية الغازية بقيادة يشوع، وبذلك لم تقم القوات العبرية بغزوها، وتدميرها كما حصل مع المدن الكنعانية الأخرى، أما بالنسبة لمدينة عاي فقد تبين أنها أنشئت نحو سنة ٣١٠٠ ق.م، وكانت في البداية عبارة عن قرية غير مسورة، ومن ثم تم تسويرها، وقد دمرت في نحو سنة ٢٤٠٠ ق.م بشكل مفاجئ، وظلت عبارة عن خرائب قرابة ما يزيد على الألف سنة، حيث أعيد بناؤها نحو سنة ١٢٠٠ ق.م، وعادت لتهجر ثانية في حدود سنة ١٠٥٠ ق.م، أما بالنسبة لمدينة أريحا والتي تعود بداية استيطانها إلى مراحل الاستيطان الإنسانية الأولى، وهي التي تُعَدّ أقدم مدينة مأهولة في العالم، وقد مرت بعدة مراحل بين الاستيطان، والهجران، وقد تبين أنها كانت قد تعرضت لزلزال سنة ٢٣٠٠ ق.م، وأعيد بناؤها نحو سنة ١٩٠٠ ق.م، ويعتقد أنها كانت مدينة هكسوسية في تلك الفترة، وتوقفت فيها الحياة ثانية، بعد أن دمرت نحو سنة ١٥٦٠ ق.م، ويُعتقد أن هذا التدمير تم على يد الفرعون أحمس الأول (١٥٧٠ - ١٥٤٦ ق.م) أثناء مطاردته لفلول الهكسوس في بلاد كنعان، حيث سُكنت ثانية ولمدة قصيرة، وعادت ثانية لتهجر في بداية القرن الرابع عشر قبل الميلاد، ويبدو أن الجماعات العبرية التي قامت بإحداث عدة اضطرابات في بلاد كنعان، قبل وصول قوم موسى بكثير، هي التي قامت بتدميرها، حسب ما جاء في الرسائل التي كان ملوك المنطقة يبعثون بها إلى الفرعون أمنحوتب الثالث (١٤١٢ - ١٣٨٧ ق.م)، وأمنحوتب الرابع (إخناتون) (١٣٨٧ - ١٣٦٦ ق.م) لنجدتهم من غزوات العبيرو.

أما بالنسبة لمدينة القدس رمز مرحلة المملكة المتحدة، فعلى الرغم من الصعوبات الكبيرة التي لاقاها البحث الأركولوجي بسبب قدسية الأماكن المستهدفة أركولوجيا من

جهة، وبسبب تركز بؤرة الصراع الحديث فيها، فقد أكدت الدراسات الستراتيغرافية، والتحليلية أن أورشليم نشأت كبلدة صغيرة، وبشكل مسوّر على هضبة أوفيل في سياق عصر البرونز الوسيط (٢٠٠٠ - ١٦٠٠ ق.م) نحو سنة ١٨٠٠ ق.م، وقد هُجرت في العصر البرونزي الأخير (١٦٠٠ - ١٢٠٠ ق.م) في سياق الجفاف العام الذي جفّف الحياة في كل منطقة الشرق الأدنى بشكل عام، وسوريا بشكل خاص، وعادت الحياة ثانية إلى المدينة بعودة الأمطار إلى معدلاتها شأنها شأن مرتفعات يهوذا في بداية عصر الحديد الثاني.

ولكن عودة الحياة إلى أورشليم حسب ما بينته الدراسات الآثارية كان ضعيفا بحيث لم تكن أورشليم أكثر من مدينة محلية بالكاد تشمل سيطرتها على القرى المحيطة مباشرة بها، لأن أورشليم (القدس) كاملة لم تكن في القرن العاشر قبل الميلاد أكثر من قرية يبلغ أعظم طول لها مئة وخمسين مترا، وأعظم عرض لها بحدود خمسين مترا، ومساحة بحدود خمسة آلاف متر مربع، ولم يتجاوز سكانها أكثر من ألفي نسمة، وبالتالي لم تكن مدينة أورشليم مسكونة منذ دخول يشوع التوراتي، وحتى نهاية القرن العاشر قبل الميلاد، وبالتالي أيضا، وبشكل مباشر، لم تكن هناك عاصمة لداود وسليمان، ولم تصبح أورشليم مدينة تتبوأ منصب العاصمة إلا في سياق المرحلة الانتقالية ما بين القرن الثامن والسابع قبل الميلاد.

بيـــن
الأركـولـوجيـا و الـتـوراة

إن البحـث الأركولـوجي لـبلاد كنعـان، والـذي كـان في البدايـة يحلـم بأنـه سـوف يكتشف تحت التراب التوراة متمثلة بالهيكل المقدس، أكتشف أنه يبحث عن سراب، بل وأصبح في بعض وجوهه - من خلال ردة الفعل التي تأتي من صدمة الخيبة التي أصيب بها - يبحث عن كل ما من شأنه أن يثبت بطلان المقولة التوراتية، جملة، وتفصيلا، وهذا ما دفع بالباحثين على اختلاف انتماءاتهم، وتوجهاتهم، لإعادة كتابة تاريخ المنطقة على أسس علمية، عقلية، موضوعية، لا على أسس روحية، ذاتية:

- بالنسبة لرواية الآباء الأوائل فقد تشكل لدى الباحثين شبه إجماع، أن تلك الرواية التوراتية لا تتعدى كونها رواية مجازية، رمزية، ليس لها أي مدلولات تاريخية على الإطلاق.
- أما بالنسبة لرواية الخروج التوراتية، فلم تكن أكثر من حادثة تاريخية بسيطة، تم تضخيمها وإلباسها حلة من الأسطورة، فقد تبين أن ممالك شرقي الأردن العمونية، والموآبية، والآرامية، والأدومية، التي كان قد اصطدم بها قوم موسى أثناء مرورهم عليها في طريقهم نحو الأرض الموعودة، لم تكن قد وجدت بعد على مسرح التاريخ السياسي حسب ما أكدته الدراسات الأركولوجية، كما لم يأت أي ذكر تاريخي لمملكة صوبة خارج النص التوراتي والتي يأتي ذكرها متزامنة مع المملكة المتحدة، على الرغم من أن الأركولوجيين حاولوا البحث عنها في الأماكن الأكثر تواردا لوجودها دون جدوى، أما بالنسبة للنصوص والنقوش المصرية، فلم تأت على ذكر تلك الرواية، التي لو كانت تاريخية، لكان من شأنها إحداث تغيير جذري في تاريخ العالم القديم كاملا.
- أما بالنسبة لأسطورة الدخول، أو الاجتياح العبري لبلاد كنعان، ومرحلة القضاة، فقد بينت الدراسات الأركولوجية أن فلسطين كانت قبل الدخول المفترض

ليشوع تعاني من الجفاف (الميسيني) لمدة طويلة من الزمن، أدى إلى تدمير زراعة المرتفعات بشكل عام، وهذا بدوره أدى إلى هجرة جماعية باتجاه السفوح والوديان، بحيث أصبحت المرتفعات مهجورة، أو ذات كثافة سكانية منخفضة، وبالتالي حدوث تخلخل ديموغرافي عام في المنطقة، وحراكية اجتماعية قادت إلى عدم استقرار مع غياب الأمن والطمأنينة وازدياد أعمال السطو، وكانت المناطق قد تأثرت بحالة الجفاف بشكل فيه بعض التمايز، وكانت السهول السفحية بالطبع أقل تأثرا بسبب وجود الوديان والأرض الأكثر خصوبة، وكانت منطقة الهضاب المركزية أقل تأثرا من الجبال الجنوبية التي وصل بها الجفاف إلى درجة انقطاع الحياة فيها بشكل نهائيَ، أو شبه نهائي، كما أن الحملات العسكرية المصرية، ولا سيما حملة مرنفتاح، وزحف شعوب البحر كانت تضيف عاملا مهما في تدمير البنية الديموغرافية والمعمارية لبلاد كنعان، وفي تلك المرحلة حسب التأريخ التوراتي يبدأ دور القبائل العبرية بالظهور على مسرح الأحداث.

كان هذا الواقع الديموغرافي في بلاد كنعان، في الوقت الذي كان فيه سفر يشوع يسرد رواياته وملاحمه عن الهجوم الكاسح الذي تشنه بشكل متلاحق الأسباط الاثني عشر على المدن الكنعانية، دون أي ذكر للفرعون رعمسيس الثالث (١٢٢٢ - ١١٧٠ ق.م) والذي كان يشن حملاته على فلسطين وهو يطارد فلول شعوب البحر التي حاولت غزو مصر عن طريق بلاد كنعان، وكذلك الأمر بالنسبة لجماعات البيلست التي يفترض تواجدها في نفس مرحلة الاجتياح العبري لبلاد كنعان.

وكان يشوع - حسب ما جاء في سفره - قد بدأ هجومه على مدينة أريحا ودمرها بالتعاون مع الرب (يَهْوَه)، والتي أعاد بعض الباحثين هذا التدمير الأسطوري إلى حدوث زلزال، لإعطاء صفة علمية عقلية للأسطورة التوراتية التي تقول إنهم قاموا بالدوران حول المدينة دورة كل يوم لمدة ستة أيام، وفي اليوم السابع داروا على صوت الأبواق سبع دورات متلاحقة، ثم صرخوا دفعة واحدة، فانهارت أسوار أريحا ليدخل إليها العبريون ويدمروها من الداخل، في الوقت الذي أكدت فيه الأبحاث الأركولوجية أن مدينة أريحا كانت في الزمن المفترض لدخول القبائل العبرية أطلالا منسية، وبالكاد كان يعرف اسمها أثناء دخول القبائل العبرية إلى بلاد كنعان، حيث كانت مدمرة منذ سنة (١٥٦٠ ق.م)، حين كانت مدينة هكسوسية، وعلى ما يبدو أنها دمرت على يد أحمس الأول أثناء طرده للهكسوس

من مصر، ومطاردة فلولهم وتدمير مدنهم في بلاد الشام، ولم تبن ثانية إلا في القرن الثاني عشر قبل الميلاد، وكذلك الأمر بالنسبة لمدينة عاي التي تقع غرب وإلى الشمال قليلا من مدينة أريحا بالقرب من بيت إيل، والتي جند لها يشوع كل رجال الحرب من بني إسرائيل والذي يزيد عددهم عن ستمائة ألف مقاتل، ولم يستطع غزوها إلا بالخدعة، بعد أن انكسر أمام رجالها في محاولته الأولى، هي أيضا كانت مثل أريحا، مدمرة، ولكن قبل ألف عام من تاريخ الدخول، ولم يكن من أثر عمراني لها سوى بقايا حجارة، واسم أطلالها على الألسن، وحسب رأي المختصين لم يكن عدد سكانها يزيد عن اثني عشر ألفا، وقد بقيت خربة إلى مدة طويلة استمرت إلى ما بعد تحرير سفر يشوع «أحرق يشوع عاي وجعلها تلا أبديا إلى هذا اليوم» يشوع ٨.

ويبدو أن القبائل، والجماعات العبرية التي دخلت في بداية القرن الثاني عشر قبل الميلاد، وجدت تلك المدن مهدمة، فنصبت خيامها بالقرب منها، ولما مرت أيام كثيرة، ادعت هذه القبائل أنها هي من قامت بتدميرها، ولكي يسوغوا عدم سكناهم لها لأنها كانت مدمرة نهائيا من جهة، ومن جهة ثانية لأنهم لم يكونوا بعد قد بدؤوا بالسكنى في بيوت ثابتة، فقد حرّموا على العبرانيين السكن فيها، ودون ما يسوغ تحريمهم هذا، كما يمكن، إذا ما أضفنا إلى ما سبق أن القبائل العبرية لم تستطع التسلل إلى منطقة العناقيين (الفلستيين) طوال وجودهم في بلاد كنعان، أن نفهم لماذا طرح مفهوم (غزة - أريحا أولا) في مباحثات السلام التي انطلقت بعيد حرب الخليج الثانية في بداية العقد الأخير للقرن المنصرم.

أما بالنسبة للمدن الجنوبية الأخرى، فقد ثبت وجود تزامن بين المقولة التوراتية وبين المعطيات الأركولوجية حول دمارها، ويعزو التوراتيين هذا الدمار إلى الاجتياح اليشوعي، بينما يذهب التيار الراديكالي إلى أن هذا التزامن لا يعني، أو لا يؤكد المقولة التوراتية، فربما كان هذا الدمار يعود إلى حملات رعمسيس الثاني (١٢٩٩ - ١٢٣٢)، أو إلى خليفته مرنفتاح (١٢٣٢ - ١٢٢٢ ق.م)، أثناء حملته التأديبية على بلاد كنعان، أو بسبب شعوب البحر أنفسهم أثناء زحفهم نحو مصر، أو أثناء تراجعهم من مصر التي ردتهم بقيادة رعمسيس الثالث (١٢٢٢ - ١١٧٠ ق.م).

كما أن التوراة لم تذكر أي شيء عن الهيمنة المصرية على منطقة فلسطين، ولا سيما منطقة سهل يزرعيل حيث أكتشف في مدينة مجدو، جنوبي شرق حيفا حاضرة

سهل يزرعيل، قاعدة تمثال للفرعون رعمسيس الثالث، كما أن التوراة لم تذكر في مرحلة القضاة أي شي عن القوة الآشورية، والتي، وعلى الرغم من أنها كانت في حالة تراجعية، إلا أنها بقيت قوة دولية لها حساباتها، كما أن النتائج الأركولوجية في كل معطياتها تفند تماما مقولة التوراة في مرحلة القضاة، ولا سيما في جانبها العسكري.

- أما بالنسبة لعصر المملكة المتحدة، فإضافة إلى الصمت المطبق من قبل النصوص التاريخية، فقد جاء البحث الأركولوجي المركّز مخيباً لآمال التوراتيين، بعد أن فشل في أن يجد أي حجر حقيقي يؤكد بشكل واضح وصريح، أنه قد تم بناؤه من قبل أحد الملوك الآباء الثلاثة شاول، وداود، وسليمان، وتبين للباحثين، والمؤرخين التوراتيين استحالة وجود هذا العصر في تلك المرحلة، لأن أورشليم كانت قرية صغيرة، لا تزيد مساحتها عن خمسة دونمات (خمسة آلاف متر مربع)، ولا يزيد عدد سكانها عن ألفي نسمة، وهذه المقاييس هي أصغر من أي من المباني التي ورد ذكرها بإسهاب في التوراة، والتي ادعت أن الملك سليمان قام ببنائها، وهي الهيكل والقصور الملكية، وأن كامل أبنيتها في تلك المرحلة لا تكفي لإسكان زوجات الملك سليمان ومحضياته الألف، وبذلك انتهى المؤرخون إلى أن تلك المملكة لم يكن لها أي وجود حقيقي على أرض الواقع، وأن تلك الأبنية لم يكن لها وجود إلا في خيال من كتب وحرر التوراة، والذين لم يذكروا، أثناء تدوينهم لأسفار التوراة، أي شيء يدل على أن الهيكل المقدس - وهو رمز هذه المرحلة حسب التوراة - كان له دور في حركية المجتمع والتاريخ في كل المراحل التاريخية، وقد أكد المؤرخ توماس تومبسون أن الهضاب المركزية لم تكن قادرة أن تشكل {هيكلية الدولة القادرة على التحكم بأفضل مناطق إقليمها إلا بعد قرنين على الأقل من التاريخ المعزو للملكة المتحدة} ، أما مدينة أورشليم في جبال يهوذا {فقد كان عليها أن تنتظر قرونا عدة قادمة قبل أن تمتلك المقدرة على تحدي عشرات المدن القوية والمستقلة الأخرى في فلسطين، فهي لم تكتسب وضع المدينة الحقيقية إلا في سياق القرن السابع قبل الميلاد}.

وهذه النتيجة الأركولوجية شكّلت للباحثين صدمة كان من شأنها أن تصيبهم بحالة من الشلل المؤقت في عمليات البحث اللاهث وراء أي شيء يشير من بعيد أو قريب إلى تلك

المرحلة التوراتية، كما أن النتائج البحثية حول المملكة المتحدة كانت أكثر خيبة من النتائج الأركولوجية لمرحلة الدخول والاستيطان التي مكنت الباحثين التوراتيين من ادعاء أن العمليات التدميرية التي تعرضت لها بلاد كنعان فيما بين البرونزي المتأخر والحديدي الأول تعود إلى القبائل العبرية، دون أن يقدموا أي دليل يؤكد على شخصية القوى التي قامت بأعمال التدمير، فكل ما وجده البحث الأركولوجي هو طبقات من أبنية مهدمة فوق بعضها بعضاً، لا تقدم شيئا حقيقيا صريحا يمكن الاستفادة من مقاربته تاريخيا، سوى إجراء تقابل بين زمن التدمير، وبين التزمين التوراتي لمرحلة الاجتياح العبري لبلاد كنعان، وهذا التدمير تم على أبنية ذات طابع عمراني كنعاني، وأعيد بناؤها أيضا، على مراحل وبطابع كنعاني أيضا، كما استخدم هؤلاء المستوطنون الجدد الأدوات والفخاريات والمنحوتات بطابعها، وهويتها الكنعانية.

وقد حاول الباحثون التوراتيون أن يتعلقوا بنقش دان الذي اكتشف سنة ١٩٩٣م، والذي حُدِّد زمن كتابته في القرن التاسع قبل الميلاد، وهو عبارة عن مقطع صغير {ك بيت دود} وفُسر كالتالي (ملك من بيت داود)، وقد اعتبر من قبل التوراتيين أنه الدليل الحاسم على وجود داود التوراتي كملك، على الرغم من أن كلمة (بيت) قد تعني مكان أو بلدة أو مدينة أو معبد، كما هي حال أسماء الكثير من القرى الفلسطينية مثل بيت لحم، وبيت ريما وغيرها، أما كلمة (دود) فتعني المحبوب أو الودود، وهي قد تكون صفة وليس اسماً علماً، ويمكن أن يترجم النقش بـ (بيت أو هيكل المحبوب)، كما يذهب بعض المفسرين، في الوقت الذي يمكن أن يترجم النقش أيضا بـ (ملك من بيت داود)، وهنا يمكن أن نذكر أيضا أنه ورد في سجلات ماري اسم داود على أنه كان قائدا لمجموعة من الجند المرتزقة.

وفي النهاية فقد أعلن البحث الأركولوجي موقفه، ورأيه الحاسم الذي ينص على استحالة وجود المملكة المتحدة على أرض الواقع، ومن هنا فقد كثرت النظريات، والافتراضات التي حاولت أن تقارب تاريخيا تلك المملكة كما رسمت ديمغرافيتها، وجغرافيتها التوراة، ولكن جميع الافتراضات تذهب إلى أن الملوك الثلاثة للملكة المتحدة شاول - داود - سليمان هم القضاة أو الشيوخ الأكثر تميزا، والذين استطاعوا أن يوحّدوا المجموعات العبرية في بلاد كنعان، وقد أُسطرت تلك الشخصيات من قبل محرري التوراة بعد ما يزيد عن خمسة قرون من الزمن المفترض لوجودهما، بعد أن قام المحررون بإلصاق بعض سير الشخصيات التاريخية (تحتمس الثالث، أمنحوتب الثالث)، مع إلصاق بعض

قصاصات من سير شعبية لبعض الشخصيات الشعبية على رموز تلك المملكة (داود، وسليمان)، وهذا ما أدى إلى تشكيل شخصيات تميل إلى النمط الكاركتوري، أو الموزاييكي، أما الباحثون الأكثر موضوعية فقد ذهبوا إلى قناعة مفادها أن البحث عن هيكل سليمان هو أشبه بالبحث عن شبح داود وسليمان، أو كمن يركض وراء السراب.

كما بيّن البحث العلمي الموضوعي أن الديانة اليهوية، والتي يدعي الباحثون التوراتيون المحافظون أنها كانت مميزة للقبائل العبرية، أو هي الشيء الوحيد الذي يميز الكنعانيين عن العبريين، ويعطيهم هوية خاصة فقد ثبت أن (يَهْوَه) كان من أحد آلهة بلاد كنعان، ويأتي في الترتيب الثالث من حيث انتشار عبادته بعد الإله إيل والرب بعل، وكان (يَهْوَه) يُذكر إلى جانب زوجته المدعوة عشيرة، وقد تم اكتشاف معبدين متجاورين في منطقة شكيم أحدهما لبعل، والآخر لـ (يَهْوَه)، وقد وجد في كلا المعبدين تماثيل لعشتار، وذلك يعني أو يشير إلى أن العبرانيين ربما جعلوا من عشتار زوجة لـ (يَهْوَه)، كما يشير أيضا إلى أن منطقة شكيم كانت تدين بالديانة البعلية الصرفة، أما المتشددون من اليهويين فقد زاوجوا بين اليهوية العبرانية والبعلية الكنعانية، كما اكتشف المنقبون نقشاً فخارياً في موقع أجرود في الجنوب يعود إلى القرن الثامن قبل الميلاد يقول {فليباركك الإله (يَهْوَه) وعشيرته، ليباركك (يَهْوَه) ويحفظك ويبقى إلى جانبك} ، وكان الإله (يَهْوَه) يلقب ويرمز له بالعجل في منطقة السامرة، وقد وجد هناك تمثال برونزي للعجل المقدس، كما عثرت بعثة أمريكية سنة ١٩٩٠م في معبد كنعاني في مدينة عسقلان على تمثال لعجل بحجم اليد جسده صنع من البرونز، وأطرافه من الفضة، ويرجع تاريخه إلى القرن السادس عشر قبل الميلاد، كما عثر أيضا في مدينة السامرة على تمثال برونزي للعجل، كما عثر على كسر فخارية كتابات ترمز إلى الإله (يَهْوَه) بالعجل، وقد بقي اليهود يعبدون العجل كرمز للإله (يَهْوَه) حتى مرحلة السبي، كما أن كاثلين كينون اكتشفت معبداً كنعانياً بالقرب من الموقع المفترض لهيكل سليمان ويعود إلى القرن الثامن قبل الميلاد، وقد عثرت فيه على مجموعة من التماثيل لربة الخصب (عشتار أو عناة)، وكما بينت الأبحاث أن المملكتين كانتا تدينان بأنماط متعددة من الدين الكنعاني السائد لا سيما في الريف المحيط بأورشليم كان منهم الإله (يَهْوَه).

وبشكل عام يمكن القول إنه كان هناك ميل لعبادة (يَهْوَه) (الإله الذكري) مع آلهة الخصب الكنعانية، وعلى رأسها عشيرة أو عشتار وهي تمثل زوجة إيل في مدن يهوذا، أما في

بلاد الفينيقيين فكانت عناة، أو إيلات تمثل أخت وزوجة بعل، وهما ابنا الإله إيل من زوجته عشتار، وكان رمزها الصليب، أما في الريف فكانت هناك أولوية لعبادة آلهة الخصب إضافة إلى العبادة اليهوية، ومن المعتقد أن سفر نشيد الأناشيد الذي أتى في التوراة كانت صلوات تتلى في معابد آلهة الخصب، وكانت عبادتها تتم من خلال صورها وتماثيلها، أو من خلال شجرة خضراء تزرع قرب المذبح، أو من خلال جذع شجرة ينصب قرب المذبح، وكان زوجها في يهوذا هو الرب (يَهْوَه) بدل بعل الفينيقي، وبدل إيل الكنعاني، وربما كان الهيكل المقدس في أورشليم معبداً لـ (يَهْوَه) وزوجته عشيرة.

وموجز ما سبق لقد بينت الأبحاث الاركولوجية أن الجماعات الغازية (العبرية) قامت بتدمير مدن وقرى لها هويتها الكنعانية وأقاموا على أنقاضها، أو على مقربة منها بيوتاً بدائية ضمن مستوطنات جديدة بسيطة تمثل مرحلة انتقالية بين الخيمة والمنزل، ولم يكن لتلك المستوطنات أي هوية حضارية معينة تلمّح أو تشير إلى هويّة الذين قاموا بعمليات التدمير، والبناء، وقد أعاد الكثير من الباحثين هذا التدمير إلى القبائل العبرية، وذلك من خلال قراءتهم المسبقة لتاريخ المنطقة من خلال التوراة، ولما استقر العبريون وبدؤوا بالتحول من مرحلة البداوة، إلى مرحلة الاستقرار، احتاجوا إلى خبرات الكنعانيين في ذلك، فتعلموا منهم الطقوس الزراعية البعلية، وبذلك اعتنقوا الديانة البعلية، أو زاوجوا بين الديانة البعلية الزراعية، وبين الديانة اليهوية الرعوية.

على الرغم من أن تاريخ المنطقة يطرح الموضوع على أن حالة الفوضى التي شهدتها المنطقة بسبب ضعف قوى الإمبراطوريات الكبرى مترافقاً مع التغيرات البيئية (الجفاف الميسيني) قد سمح لحركات شعوبية وقبلية متعددة كانت تقوم بأعمال تدميرية، ومن هذه الحركات الشعوبية كانت حركة القبائل العبرية التي كانت قد قدمت من مصر، ويبدو أنها ساهمت في عمليات التدمير هذه، والتي استمرت لمدة طويلة، ولم تكن فجائية كما قال النص التوراتي، كما ساهمت في عمليات التدمير شعوب البحر التي تزامنت مع الحراكية العبرية، إضافة إلى حراكية الجفاف المسيني، وهذه الحركات جميعها كانت قد تركت وراءها البلاد مدمرة مع تغير ديموغرافي واسع فيها، أدى إلى إضعاف الحياة في المدن والقرى الكنعانية، وقد استغلت هذه الحالة القبائل العبرية المتواجدة منذ زمن بحالة رعوية على الأراضي المشاع، لا سيما في جنوب بلاد كنعان، وعلى جبال الضفة الغربية لنهر الأردن، فتسللت عبر نهر الأردن إلى الضفة الغربية، ومن هناك سرحت بخيامها في المسافات البينية للمدن المنكمشة على نفسها، كما استوطنت على بعض المواقع المفرغة أو المنخفضة

ديموغرافيا وقامت بالانتشار عليها، وربما قامت ببعض الأعمال التدميرية، وهذه النقطة لا تنفي الصفة التدميرية عن القبائل العبرية، بل توضح ضعف القوة التي لا يمكن لها أن تقوم بمثل هذه الأعمال التدميرية، كما كشفت عن ذلك التوراة نفسها في النصف الثاني من سفر يشوع والأسفار التي تليها.

ومن أجل حل مسألة اللاتطابق، ما بين نتائج الأبحاث الأركولوجية، والنص أو التأريخ التوراتي، ومن أجل إيجاد حالة تواسط بين النتائج البحثية العلمية والمقولات النصية اللغوية، فقد طُرحت عدة نظريات عن أصول الجماعات العبرية (الإسرائيليين) في بلاد كنعان.

إن الحقائق ترمم نقصها من خلال النظريات، والنظريات تحاول بطريقة احتمالية منطقية - باعتمادها على الاستقراء - سد ثغر الحقيقة، والنظريات تطرح نفسها كبديل احتمالي مؤقت للحقيقة الغائبة، بينما يتسنى للعلم اكتشافها، واستحضارها لتأخذ موقعها بدل النظريات، والحقيقة الجديدة قد تتماشى مع النظريات، ولكن وفي الوقت نفسه قد تتعارض معها، وبذلك تسقطها، أو تستبدلها بنظريات أخرى، أو تجبرها على إعادة صياغة نفسها لتتماشى وتتواءم مع الحقائق الجديدة.

والنظريات التي تتنافس فيما بينها لسد ثغر الحقائق هي التي تحث - من خلال بحثها عن البرهان - الأبحاث على المضي لإثبات أو نفي النظرية التي تبقى في محل الشك حتى يتم إثباتها أو نفيها بالدليل القاطع، وبذلك فالنظريات أشبه ما يمكن باستقراء ملابسات جريمة لمقاربة الحقيقة من خلال ما تطرحه الدلائل ونتائج التحقيق من معطيات، والنظريات لا يمكن قبولها كبديل للحقيقة، ولكن يمكن تبنيها واعتمادها بمقدار ما تكون منطقية تتماشى وتتطابق مع الموقع الذي يتوجب أن تسده وكأنها الحقيقة.

كما أن النظريات لا تخلوا من تلونها بالأيديولوجيا، فكل طرف يتبنى النظريات التي تتماشى مع معتقداته، كما أنه يرفض النظريات التي تتعارض مع نظريته، ولذا كثيرا ما يكون هناك مبالغة وتطرف في طرح وتبني النظريات المتعددة، وتتحول الساحة إلى مركز صراع عصابي يصبح فيه كل طرف عبدا لأفكاره وقناعاته ومعتقداته، وهذا يشوش على الباحثين عن الحقيقة، وربما يقود هذا الصراع دفة البحث العلمي أو يؤثر على توجهه على أقل تقدير.

والنظريات التأريخية، ولا سيما في موضوعات عقيدية دينية كثيرا ما تكون ذاتية، تريد أن تسوّق نفسها على أنها موضوعية، وعلى المتلقي الموضوعي أن يحدد المكان الذي يقف

عليه صاحب النظرية، كما عليه أن يلم بغايات صاحب النظرية في سبيل الوصول إلى قراءة أكثر موضوعية لموضوعية الموضوع، وفي الوقت نفسه فإن المتلقي هو ذات أيضا، وينظر إلى المشهد ككل على اعتبار أنه موضوع بما فيه ذات صاحب النظرية.

ومن أكثر الأزمنة التوراتية التي طرح لها الكثير من النظريات لتفسيرها هي مرحلة الاجتياح العبري لبلاد كنعان، وحتى نهاية المملكة المتحدة، وذلك لعدم تمكن البحث العلمي من البت في مصداقية المقولة التوراتية، وأهم هذه النظريات المتعددة هي:

- الأولى نظرية آلت، وهي التي تبنت دخول الجماعات العبرية إلى بلاد كنعان على أساس التسرب السلمي التي تحدثنا عنها، والذي استغرق وقتا طويلا.

- والثانية نظرية الانتفاضة الداخلية والتي طرحها، وتبناها مندنهول، الذي يرى أن الجماعات الإسرائيلية ما هي إلا جماعات فلاحية كانت قيادتها قد قدمت في مرحلة سابقة من مصر، وكانت تعبد الرب (يَهْوَه)، وبمعنى آخر، وحسب رأيه فإن الديانة اليهوية قدمت متشكلة من خارج بلاد كنعان، وقد ثارت هذه الجماعات على حكامها في المدن الكنعانية، وهاجرت إلى الهضاب المهجورة، ولكن نظرية مندنهول تتعارض مع المعطيات الأركولوجية التي تؤكد أن الديانة في عصر الحديد في المستوطنات الجديدة كانت الديانة الكنعانية البعلية.

- والثالثة هي نظرية بوتقة الانصهار والتي تبناها ماكسويل ميللر، الذي يرى أن إسرائيل تشكلت من اتحاد ثلاث قبائل كنعانية هي: أفرايم ومنسّى وبنيامين، ثم انضمت إليها قبيلة جلعاد في شرقي الأردن، وانضمت لاحقا إليها باقي القبائل العشر الكنعانية، وهو يرى أن القضاة أو الشيوخ ساهموا في انصهار واندماج هذه القبائل تحت مفهوم ديني وسياسي واجتماعي أثني واحد.

- أما النظرية الرابعة (نظرية التطور الديني المحلي)، فهي مشتقة من النظريات السابقة التي تؤكد على المصدر الداخلي مع رافد بسيط من مصدر خارجي، وهي تذهب إلى أن الدين اليهوي نتج عن تطور محلي للديانة الكنعانية.

- أما النظرية الخامسة وهي النظرية الأركولوجية التي تزاوج بين نظرية التسرب السلمي ونظرية بوتقة الانصهار.

- أما كمال الصليبي في كتابه (التوراة جاءت من جزيرة العرب) فقد ذهب بعيدا في محاولته حل لغز غياب أي أثر يدل على أن فلسطين هي المكان الذي تمسرحت عليه الأحداث التوراتية في مرحلة المملكة وما قبلها، من خلال اعتماد المحور الزماني في النص

التوراتي، ورفض المحور المكاني فيه (الجغرافي)، حيث يرى الباحث كمال الصليبي أن التاريخ التوراتي، منذ بدايته وحتى مرحلة السبي البابلي، تمسرح تاريخيا في جنوب غرب الجزيرة العربية، وموجز نظريته لخصها في جملة تقول {إن البيئة التاريخية للتوراة لم تكن في فلسطين، بل في غرب شبه الجزيرة العربية بمحاذاة البحر الأحمر، وتحديدا في بلاد السراة بين الطائف ومشارف اليمن} {وإن أرض التوراة كلها كانت في غرب شبه الجزيرة العربية، وذلك بطول ٦٠٠ كم، وبعرض ٢٠٠ كم، تشمل ما هو اليوم عسير والجزء الجنوبي من الحجاز} وقد جاءت نظريته - في الوقت الذي قام فيه البحث الأثري الأركولوجي بنسف التأريخ التوراتي بمركبيه الزماني والمكاني - وكأنها المنقذ للمأزق التوراتي الأركولوجي، مما يحق لنا أن نضع شكوكا في حسن نية الباحث العربي اللبناني الأصل كمال الصليبي، الذي أراد أن يعيد البحث في التأريخ التوراتي، الذي وصل إلى نهاية المأزق، إلى المربع الأول، من خلال إنقاذه للمركب المكاني، وذلك باعتماده على تقنية الحفريات اللغوية والصوتية، وبطريقة قد تدعوا إلى الدهشة، وربما للسخرية أحيانا، كما تدعوا إلى الاستغراب من باحث له موقعه الأكاديمي المميز الذي لو استبعدناه لظننا أننا أمام مؤرخ هذائي، أو فانتازي على أقل تقدير، وقد قام من خلال تقنيات لغوية بمقارنة أسماء توراتية مع مواقع جغرافية تقع جنوب غرب شبه الجزيرة العربية حاول من خلالها أن يثبت أن التاريخ التوراتي كان قد تمسرح على جبال عسير التي تقع في المنطقة الجنوبية الغربية من شبه الجزيرة العربية، ولا نعرف إن كان بذلك يريد الصليبي من المؤرخين والباحثين العرب وأيضا من الخطاب العربي التعاطف مع نظريته؟، وهل القضية هي سوء نية؟، أم هي بحث عن الحقيقة؟، أم هي تدخل ضمن خطوط مؤامرة - يعتقد بها البعض - وهذا على الرغم من استبعادها فلا يمكن نفيها تماما!، ولكن وبتصدير حسن النية تجاه كمال الصليبي فإن نظريته تحاول، دون أن يكون لها حتى الآن دور حقيقي، أن تخرج التأريخ التوراتي من مأزقه الأركولوجي، ونظرية كمال الصليبي، تبناها بعض الباحثين العرب، كما اشتقت منها عدة نظريات تبنت نفس العقلية، أو النهج الذي قام كمال الصليبي بالبناء عليه، ومنهم الباحث زياد منى الذي يذهب إلى أن التوراة تمسرحت على جبال اليمن، وأحمد يوسف داود الذي يذهب إلى أن بلاد كنعان التوراتية تقع إلى جنوب بلاد زهران، وفرج الله ديب الذي يذهب إلى أن التاريخ التوراتي تمسرح جغرافيا في اليمن، وفي محيط صنعاء، وفاضل الربيعي الذي يذهب إلى أن القبائل العبرية قد عاشت تجربتها الروحية في وسط وشمال شبه الجزيرة العربية، تحديدا في المنطقة الواقعة بين الحجاز، وبلاد الشام، ومن هناك انتقلت نحو بلاد

كنعان، وقد أخذت معها ذكرياتها المؤسطرة، كما أخذت معتقداتها في صيغها الأولى غير المنصوصة، بحيث تطورت تلك المعتقدات بُعيد اطلاع القبائل العبرية على الثقافة السورية، وهو يرى أن مدينة أورشليم المقدسة ليست سوى أسطورة عربية قديمة، وهي نظرية فضفاضة يمكن لها أن تحتوي ضمنها الكثير من المقالات.

ويبدو أن من تبنى نظرية الصليبي، قاموا، دون قصد، بتعقيدها، وإضعافها، من خلال إزاحة جغرافية التوراة إلى مواقع أخرى متعددة من شبه الجزيرة العربية، وهذا يعني أن مؤلفين آخرين يمكن لهم أن ينقلوا جغرافية التوراة إلى أي موقع آخر من الشرق الأدنى القديم، وخاصة إلى الأماكن التي وصلت إليها اللغة الآرامية (أو العربية)، على اعتبار أن التسميات التوراتية هي تسميات اشتقت من اللغة الآرامية التي انتشرت على يد حضارات بلاد الرافدين، ومن بعدها الإمبراطورية الفارسية الإخمينية إلى العالم القديم، وقد تركت اللغة الآرامية تسمياتها على الأماكن التي وصلت إليها، كما توطدت تلك التسميات من خلال انتشار اللغة على يد الإمبراطورية الإسلامية، وهكذا يمكن لأي باحث يتبنى منهجية الصليبي اللغوية أن يقوم بنقل جغرافيا التوراة إلى أي من هذه الأماكن، بل يمكن لأي باحث إن أراد، أن ينقل تاريخ أي شعب إلى أي موقع جغرافي (كمركب مكاني) من خلال لي عنق اللغة، والإشكالية هنا لا تكمن في نقل الجغرافية فحسب، بل تكمن في أن أصحاب هذه النظريات، وكمال الصليبي على وجه التحديد، يتخذون من التوراة وثيقة تاريخية، وهذا من شأنه أن يجعل اليهود بشكل عام، والصهيونية بشكل خاص، فيما لو قاموا بتبني نظريته، أن يطالبوا بأن يعودوا إلى جغرافيا التوراة (الصليبية!)، كما كانوا، وما زالوا يطالبون بفلسطين على أنها هي مملكة داود.

ومع إضمار، وإظهار حسن النية تجاه أصحاب هذه النظريات، يمكن النظر إلى هذه النظريات على أنها مجموعة أفكار لا هم لها سوى حل الأزمة التوراتية التي حشرها فيه البحث الأركولوجي، كما أنها من جانب آخر قامت تلك النظريات، باستئصال تاريخ بلاد كنعان وتركتها بلا تاريخ، وقامت بازدراع تاريخ بلاد كنعان، في عملية فاشلة، في المنطقة الغربية من شبه الجزيرة العربية، وفشل تلك العملية (الجراحية الازدراعية) ناتج من عدم تطابق أو تماثل الزمكانيين، وهكذا فقد جعل الصليبي، ومن ذهب مذهبه، من فلسطين أرضاً بلا تاريخ، كما جعلت الصهيونية من فلسطين أيضا أرضاً بلا شعب.

وإن كان (الصليبيون) أي كمال الصليبي، ومن ذهب مذهبه، قد استطاعوا، حسب تصوراتهم، أن يمسكوا بقياد زمام افتراضاتهم من مرحلة الآباء الأوائل وحتى مرحلة السبي

البابلي، فقد عانى الجميع من انفلات هذا الانقياد لمرحلة ما بعد السبي، وتحديدا لم يستطيعوا أن يجيبوا بشكل واضح، ومقنع، على جملة من الأسئلة:

كيف، ومتى تمركز اليهود في فلسطين، وهل كانت أرض كنعان خالية من السكان..؟!

كيف استطاع اليهود نقل الجغرافيا التوراتية من جنوب غرب شبه الجزيرة العربية إلى فلسطين، وما هي الجغرافيا التاريخية لفلسطين، وأين هو تاريخ بلاد فلسطين، وكيف تمت عملية التزوير التاريخية..؟!

هل أطلق اليهود تلك التسميات التوراتية على خرائب في بلاد كنعان السورية، أم قاموا ببناء مدن وأطلقوا عليها أسماء المدن التوراتية، على الرغم من أن أسماء المدن في فلسطين حسب التوراة أسماء آرامية، وليست أسماء عبرية..؟!.

ويذهب أحمد يوسف داود في محاولة لإجابته عن بعض الأسئلة السابقة، إلى أن عملية التزوير في جغرافية التوراة حصلت بعد عودة المسبيين من بابل إلى بلاد كنعان في غامد وزهران التي كانوا قد هجّروا منها على يد الكلدانيين، وقد تابع اليهود حياتهم في بلادهم الأصلية، إلى أن احتل الاسكندر المقدوني المنطقة، وحسب ما يذهب إليه أحمد يوسف داود فإن الجماعات اليهودية كانت تعاني في بلاد غامد وزهران، في تلك الفترة، من موجة قحط وجفاف، وبعد أن انقسمت إمبراطورية الاسكندر المقدوني في الشرق الأدنى القديم بين السلوقيين الذين حكموا على بلاد الهلال الخصيب، والبطالمة الذين حكموا على بلاد مصر، وبينما كان الطرفان منهمكين في صراعهما البيني استغلت الجماعات اليهودية الفرصة وبدأت بالنزوح من بلاد كنعان في شبه الجزيرة العربية إلى فلسطين في جنوب سوريا واستقرت هناك، وقامت بتزوير أسماء المناطق والقرى، والمواقع في فلسطين، وأحمد يوسف داود الذي بدت نظريته الأكثر تماسكا من بين النظريات السابقة، فإنها في هذا المكان بدت ضعيفة، وينقصها الكثير من الأدلة، والبراهين، والحجج التي يمكنها أن تجيب على مجموعة كبيرة من الأسئلة، وكان أحمد يوسف داود قد تبنى، واعتمد على ما جاء في كتاب (التمهيد للحياة الإنجلية) للمؤرخ اليهودي أوزيب الذي كان قد تنصّر في عهد الإمبراطور الروماني قسطنطين، وكان أوزيب قد ذكر نقلا عن المؤرخ بورفيروس أن {سانخونياتن البيروتي يقص، مع الحرص الكبير على الحقيقة، جميع ما له علاقة باليهود، لأنه لم يغير الأمكنة والأسماء، وقد كانت بين يديه مذكرات ألفها جيروم بعل.. وزمن هؤلاء الناس يقارب الزمن الذي عاش فيه موسى.. أما بخصوص سنخونياتن فقد عاصر

الملكة الآشورية سمير اميس} ، وكان المؤرخ فيلون الجبيلي (٦١ - ١٤١م) قد قام بترجمة أعمال سنخونياتن من اللغة الفينيقية إلى اليونانية ، وحسب أحمد يوسف داود ، فإن أوزيب حصل على أعمال سانخونياتن، وأعمال فيلون الجبيلي فادعى بعضها ، واتلف كل ما من شأنه أن يكشف حقائق التزوير التوراتي.

وكما ذكرت سابقا فإن هذه النظريات أتت من مؤرخين اعتمدوا على أن الرواية التوراتية هي نص تاريخي، ولأن الجغرافيا التوراتية مشوشة ، ولأن الأحداث التاريخية التوراتية لا تنسجم مع الجغرافيا التوراتية التي تُعَدّ أن بلاد كنعان التوراتية هي التي تقع في جنوب سوريا ، فقد حاول هؤلاء الباحثون أن يجدوا المسرح الحقيقي للأحداث التوراتية ، وعلى ما يبدو كان لكمال الصليبي السبق في اكتشاف بعض المواقع في شبه الجزيرة العربية التي لديها أسماء متقاربة إلى درجة ما مع تسميات توراتية ، وقد بدا كمال الصليبي كما لو أنه حاوٍ أو ساحر وهو يستخرج، ويشتق الكلمات من بعضها من أجل إثبات ما ذهب إليه، بحيث، وكما ذكرنا ، يمكن لأي باحث، إذا ما تبع منهجية الصليبي، أن ينقل جغرافيا أي تاريخ، أو ينقل تاريخ أي جغرافيا إلى موقع آخر، لا سيما وأن الشرق الأدنى القديم يشكل وحدة تاريخية ، ثقافية، لغوية ، بشكل عام، وإن الكثير من تسميات المدن والقرى والمواقع الجغرافية تتكرر حرفيا ، أو مع قليل من التبدل في كثير من الأقاليم، فلو أردنا أن نبحث عن مدن، أو قرى تحمل اسم (بصر) ومشتقاتها مثلا لوجدناها بالعشرات في الوطن العربي.

وحسب اعتقادي إن الأحداث التوراتية عبارة عن روايات مجازية في مرحلة الآباء الأوائل، أي بمعنى أنها روايات غير تاريخية ، وبالتالي ليس لديها مسرح جغرافي، وعملية التزوير التوراتي تمت من خلال توقيع روايات لا تاريخية على مكان جغرافي في سياق صراع شعوبي بين الكنعانيين، والعبرانيين، فبعد أن تم سبي الشعوب المتعددة من بلاد كنعان، ومنهم اليهود ، على يد الآشوريين، والبابليين، وبعد أن سمح الفرس لتلك الشعوب بالعودة إلى بلادهم التي هُجّروا منها ، نشب صراع قانوني على الملكية التاريخية لبلاد كنعان، وقد قام اليهود بتوقيع قصصهم، ورواياتهم التراثية عن آبائهم الأوائل على أرض كنعان، وجعلوا من بلاد كنعان وطنا يختص بهم فحسب، وبذلك، وحسب ما أذهب إليه، فإن الجغرافية الطبيعية لبلاد كنعان هي التي أجبرت المحررين على صناعة التاريخ، لأن أسماء المدن هي التي أجبرت المحررين هي اختلاق، وابتداع، وإعادة تحرير قصص وروايات من أجل تبرير تسمية تلك المواقع بأسمائها ، وربط هذه التسميات بالآباء الأولين، أي أن

الجغرافيا الكنعانية ساهمت في صناعة القصص التوراتية، وبالتالي التاريخ التوراتي، وليس العكس.

ولأن المحررين التوراتيين لم ينجحوا كثيرا في عمليات تهويد التاريخ الجغرافي، وتهويد الجغرافيا التاريخية، بسبب سرعة تحضير، وتحرير وثائق الادعاءات، وهذا ما ساهم أيضا بوجود الكثير من الأخطاء التحريرية، والنسخية، الأمر الذي أدى إلى وجود تخبط، أو افتراق تاريخي جغرافي في التوراة، وهو الأمر الذي أدى أيضا إلى تخبط في كتابة تاريخ المنطقة بشكل عام، وسيبقى هذا التخبط قائما ما دامت الوثيقة الأهم في كتابة التاريخ هي التوراة، وسيبقى هناك الكثير من النظريات والطروحات التي تحاول أن تعيد كتابة تاريخ منطقة الشرق الأدنى القديم، وستطرح الكثير من النظريات والطروحات الجريئة المغامرة التي، حسب رأيي، لن تصل بقفزتها الهوائية إلى اليابسة ثانية، وبالأخص منها تلك التي تبنى على رؤية ذاتية، أو إيديولوجية، من مثل نظرية الصليبي، ومن ذهب مذهبه، ولكنها، وعلى الرغم من ذلك، استطاعت أن تحرك عقول وأذهان المؤرخين، وأخرجتهم من طوطمية الكثير من المقولات، وأعطت للمؤرخين الشجاعة في الذهاب في تصوراتهم، وحولتهم من مؤرخين سلبيين إلى باحثين إيجابيين.

إسـرائيل الـكـنـعـانـيـة الـعـبريـة

و

إسـرائيـل الـعـبريـة الـكـنـعـانـيـة

أما أنا، فسأحاول أن أبدي وجهة نظري التي لم آت من خلالها بالكثير من الجديد، والتي اعتمدت في صياغتها على مجموعة من الركائز الأركولوجية، والنصية، وعلى الأخص النص التوراتي، مع اعتمادي أيضا على ما تم استقراؤه من قبل الباحثين التاريخيين ولا سيما منهم الباحث فراس السواح، وفي البداية سوف أذكر مجموعة من الملاحظات سأوردها بشكل تراتبي.

قصة الأباء الأوائل ووصولهم إلى بلاد كنعان كما أتت في التوراة:

- ظهر الرب لأبرام في شكيم، ووعده بأن هذه الأرض ستكون له ولنسله من بعده، وبنى فيها إبراهيم مذبحا للرب، وفيها أقام يعقوب (إسرائيل) وبنى معبد (إيل إله إسرائيل) بعد أن كان قد دفن تحت البطمة التي عند شكيم كل الآلهة الغريبة التي كانت عائلته تتعبد لها، والتي كانت راحيل قد قامت بسرقتها من بيت أبيها من حاران، كما تم في شكيم أيضا بيع يوسف إلى التجار الإسماعيليين أو المديانيين، وفيها تم دفن مومياء يوسف بعد أن أتى بها قوم موسى من مصر.
- كما أن يشوع قد اتخذ من مدينة شكيم التي تقع في وسط بلاد كنعان، وعلى مفترق عدة طرق مقرا لحكمه «جمع يشوع جميع أسباط إسرائيل إلى شكيم.. وقطع يشوع عهداً للشعب في ذلك اليوم، وجعل لهم فريضة وحكماً في شكيم. وكتب يشوع هذا الكلام في سفر شريعة الله. وأخذ حجراً كبيراً ونصبه هناك تحت البلوطة عند مقدس الرب لتكون شاهداً عليهم» يشوع ٢٤، وكذلك الأمر بالنسبة للملك أبيمالك الذي حكم للعبرانيين لمدة ثلاث سنوات في عصر القضاة، كما أن رحبعام ذهب إلى شكيم ليمسحوه ملكا عليهم، ولكنهم رفضوه ونصّبوا يربعام ملكا عليهم في شكيم باسم مملكة إسرائيل.

- وجود طائفة السامريين في شكيم كمدينة رئيسية لهم (عاصمة)، وهم الذين يتخذون من جبل الجرزيم مكانا لعبادتهم، وقاموا ببناء هيكل مقدس عليه، وهو المكان الذي يدّعون أن الرب يسكن فيه، وهو المكان، حسب تصورهم، الذي حاول إبراهيم أن يقدم عليه ابنه قربانا للرب، وهو المكان الذي سيعود إليه المسيح المنتظر، والسامريون لا يعترفون إلا بالأسفار السبعة الأولى (التوراة وسفري يشوع والقضاة)، ولا يعترفون بأي نبي من أنبياء اليهود، ولا بداود وسليمان، ولا بأورشليم وجبل صهيون والهيكل، والبعض منهم ينفي عن نفسه صفة اليهودية.

- حصل صراع ديني ضمن قوم موسى في سيناء بين عبدة بعل الكنعاني ورمزه العجل الذي قام هارون بصناعته من الذهب ليتعبد له جماعات الخروج أثناء غياب موسى في جبل سيناء، وبين عبدة الرب (يَهْوَه) والتي مثلها موسى.

- خطبة الوداع لموسى التي أتينا على ذكرها، والتي جاء فيها بشكل ملتبس الحديث عن مملكة وملك إسرائيلي قبل دخول جماعته إلى بلاد كنعان، واسم الملك أو لقبه يشارون أو شورون أو شارون (المستقيم)، والملقب أيضا بإسرائيل.

«وكان يشورون ملكا حين اجتمع رؤساء الشعب أسباط إسرائيل معا.» تثنية.

«والآن اسمع يا يعقوب عبدي وإسرائيل الذي اخترته.... لا تخف يا عبدي يعقوب ويايشورون الذي اخترته» إشعيا.

كما جاء في التوراة أن قبيلة آب (من سبط شمعون) كان لها فرعان، أحدهما كان مع قوم موسى، والآخر مع المديانيين.

- **في رسائل تل العمارنة، والنصوص المصرية بشكل عام:**

جاء في نصوص المملكة القديمة أن الفرعون سينوسرت الأول (١٩٧٨ - ١٩٤٣ ق.م) قام بحملة على البلاد السورية، ودمر مدينة شكيميم (شكيم) الذي كان يحكم عليها الملك أبش هدد.

جاء في نص أمنفيس أن أمنحوتب الثاني (١٤٣٦ - ١٤٢٥ ق.م) قام في النصف الثاني من القرن الخامس عشر باجتياح لبلاد كنعان، وأسر مجموعة من العبرانيين.

قام العبيرو بعدة هجمات على المدن الكنعانية في نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن الرابع عشر قبل الميلاد، في عهد الفرعون أمنحوتب الثالث (١٤١٢ - ١٣٨٧ ق.م) وأمنحوتب الرابع (إخناتون) (١٣٨٧ - ١٣٧٦ ق.م)، وقد استطاعوا أن يستولوا على عدة مدن كنعانية، أهمها مدينة شكيم.

قام الفراعنة بعدة حملات على بلاد كنعان، وقد سبوا الكثير من العبرانيين، ومن هؤلاء الفراعنة رعمسيس الأول (١٣١٩ - ١٣١٨)، وخليفته سيتي الأول (١٣١٨ - ١٢٩٩ ق.م)، وأخيرا وهو الأهم مرنفتاح (١٢٣٢ - ١٢٢٢ ق.م) والذي حسب قصيدة النصر التي تركها قد قام بإنهاء (مملكة) إسرائيل، وهذا النقش شكّل الركيزة الأهم التي تم عليها بناء هذه النظرية.

- نتائج البحث الأركولوجي والتي أتينا على ذكرها، وخاصة تلك التي تقول إن المدينة الوحيدة المهمة التي بقيت قائمة حتى نهاية العصر البرونزي المتأخر هي مدينة شكيم، على الرغم من كل أعمال التدمير العسكرية التي قامت بها الجيوش، إضافة إلى جيش الجفاف الميسيني، ثم انقطاع الاستيطان فيها متزامنا مع حملة مرنفتاح على بلاد كنعان، الأمر الذي يشير إلى أن إسرائيل التي ورد ذكرها في قصيدة النصر هي شكيم ومحيطها، والتي ربما شملت سهل يزراعيل (مرج ابن عامر)، وهي على ما يبدو كانت عاصمة مملكة إسرائيل الكنعانية، وكانت مدينة شكيم قد بنيت على يد العموريين في الألف الرابعة قبل الميلاد، ثم أصبحت هكسوسية (١٧٥٠ - ١٥٥٠ ق.م)، وقد كشف البحث الأركولوجي معبداً هكسوسياً فيها، وكانت المدينة مسورة، وقد تم تدميرها سنة ١٥٥٠ ق.م، وهو التاريخ الذي يتوافق مع حملة الفرعون أحمس (١٥٧٠ - ١٥٤٦ ق.م) الذي طارد فلول الهكسوس حتى بلاد كنعان وقام بتدمير مدنهم فيها، ثم أصبحت كنعانية وقد تم كشف معبد كنعاني مهم فيها.

ومع الاستئناس بالنظريات، والمقاربات السابقة، إضافة إلى نتائج الأعمال البحثية الأركولوجية، وبتقاطعها مع النتائج الاستقرائية التي أتينا عليها من خلال توصيف حالة بلاد كنعان قبيل دخول القبائل العبرية، إضافة إلى النص التوراتي، بعد معرفتنا بصيغ المبالغة التي أتى بها المحررون التوراتيون، وأخيرا من خلال الحالة التاريخية للمنطقة في المرحلة اللاحقة، والتي هي من أكثر المراحل المضاءة تاريخيا من خلال النصوص التي أمدتنا بها الحضارتان الآشورية والبابلية، ومن خلال قراءة شاملة لكل تلك المعطيات يمكننا أن نذهب إلى أن الجماعات العبرية كانت قد قدمت إلى بلاد كنعان من مناطق متعددة، وعلى الأخص من بلاد الرافدين، وعلى مراحل زمنية متعددة أيضا، وكانت أولى الهجرات على ما يبدو (وعلى ذمة التوراة) قد انطلقت من جنوب بلاد الرافدين في القرن التاسع عشر قبل الميلاد، وهي القبائل التي تم اختزالها في التوراة برحلة إبراهيم، والذي يشكل رمزا لعدة جماعات عبرية تشكلت

من مزيج من الشعوب البائدة، والسائدة من السومريين والآكاديين والعموريين الذين التحقوا والتفوا حول جماعات آرامية قامت بدور القيادة للفيف الشعوب التي كانت تتقل من مكان لآخر بحثا عن لقمة العيش، وقد حطت برحالها في بلاد كنعان لمدة زمنية طويلة حيث اعتنقت الدين الحنيف وتبنت إيل الإله السوري العموري - الكنعاني، وكان مقر عبادته في مدينة شكيم (نابلس)، ثم تابع قسم من تلك الجماعات العبرية نحو دلتا النيل ومعها دينها الحنيف، في سياق الدخول أو الاجتياح الهكسوسي لمصر وربما كانت هذه الجماعات جزءا من هذا الاجتياح.

أما من تبقى في بلاد كنعان من تلك الجماعات العبرية فقد استطاعت أن تستوطن، ومن ثم تتوطن في بلاد كنعان، وقد تعززت تلك الجماعات بقدوم مجموعات عبرية أخرى من شمال وادي الرافدين، وبأعداد كبيرة، وعلى مراحل متعددة في سياق القرن الخامس عشر قبل الميلاد، ورفدت بجماعات أخرى قدمت من مصر بعد أن استطاع الأمير المصري أحمس الأول (١٥٧٠ - ١٥٤٦ ق.م) أن يطرد الهكسوس من دلتا النيل، ومن غير المستبعد أن يكون قد تم طرد جماعات عبرية معهم، وقد استطاعت هذه المجموعات أن تستوطن بالقوة، وأن تهيمن بشكل جزئي على بلاد كنعان (بقيادة يشوع)، وأن تثير في المنطقة اضطرابات متعددة، وقد استنجد ملوك المنطقة بمصر حسب ما جاء في رسائل تل العمارنة، والتي أتى فيها أن العابيرو استطاعوا أن يسيطروا على مدينة شكيم، في الوقت التي كانت فيه مصر مشغولة بخلافاتها المحلية في عهدي أمنحوتب الثالث (١٤١٢ - ١٣٨٧ ق.م)، وأمنحوتب الرابع (١٣٨٧ - ١٣٦٦ ق.م)، وقد توطنت تلك المجموعات في منطقة السامرة على الهضاب المركزية للضفة الغربية لنهر الأردن، واندمجت في وسطها الكنعاني، وعبدت الآلهة الكنعانية الإيلية - البعلية التي تتخذ من العجل رمزا لها، وساهمت في تشكيل مملكة إسرائيل الكنعانية - العبرية في سياق القرن الخامس عشر قبل الميلاد، والتي تعرضت لعدة عمليات سبي من قبل الفراعنة ابتداء بالفرعون أمنحوتب الثاني في سياق النصف الثاني من القرن الخامس عشر، حيث انضمت تلك الجماعات المسبية مع دينها البعلي إلى الجماعات العبرية الإيلية التي كانت قد دخلت إلى مصر في سياق القرن الثامن عشر قبل الميلاد للعمل كعبيد في بناء المعابد، والحصون المصرية، حيث هناك تأثرت العقائد العبرية الإيلية - البعلية بديانة إخناتون التوحيدية، فحسب ما جاء في نقش وجد في بيت شان (بيسان) يعود إلى الفرعون رعمسيس الثاني (١٢٩٩ - ١٢٣٢)، يتحدث فيه عن قيامه ببناء مدينة رعمسيس، وأنه سخّر في بنائها العبيد الأسيويين، ويبدو أن تلك الجماعات كانت من نسل أو من أتباع شخصين يدعيان يعقوب إيل (أو يعقوب هار)، ويوسف

إيل والذي ورد ذكرهما كقائدين أو شيخين قبليين من الهكسوس في بردية تورين التي تعود إلى عهد الفرعون تحتمس الثالث (١٤٦٩ - ١٤٣٦ ق.م).

أما بالنسبة لبلاد كنعان، فقد قام مرنفتاح (١٢٣٢ - ١٢٢٢ ق.م)، بعد أن تصدى، ودحر موجة شعوب البحر التي حاولت الدخول إلى مصر، بحملة تأديبية في السنة الخامسة لحكمه، وأنهى مملكة إسرائيل الكنعانية والتي كان يملك عليها - حسب ما ذهبت إليه - الملك يشارون أو يشورون أو شارون (والذي يعني المستقيم، وهو غالبا يمثل لقبا أو صفة وليس اسما)، وشتت الكثير من شعبها على محيطها الجغرافي، أما من تبقى من جماعات سكانية فقد ذابوا جزئيا بتأثير الجفاف الميسيني الذي بلغ ذروته في النصف الثاني من القرن الثالث عشر قبل الميلاد، وهذا يتزامن مع الفترة الفاصلة ما بين الخروج والدخول (متاهة سيناء)، وبدأ الجفاف بالتراجع بعد الدخول العبري إلى بلاد كنعان، وعاد الطقس المطري إلى طبيعته في القرن التاسع أو العاشر قبل الميلاد.

وقد أدى هذا الجفاف على إضعاف الحياة، في بلاد كنعان، وقام بإعادة توزيع ديموغرافي للمنطقة، وحصر وجودها في الأماكن الخصبة من محيط السامرة، كما أن تأثيره كان متباينا على شعوب المنطقة، فبينما انخفض التواجد الكنعاني الإسرائيلي الزراعي بسبب الجفاف، استطاع التواجد العبري الإسرائيلي (البدوي أو شبه البدوي) من مقاومة الجفاف نسبيا لا سيما بعد انخفاض الكثافة السكانية الأمر الذي منحهم مساحات واسعة للرعي على أراض زراعية مهجورة، أما في الجبال الأقل خصبا، ولا سيما في محيط أورشليم وحبرون (الخليل) فقد أدى الجفاف الميسيني إلى إفراغها من سكانها بشكل شبه تام، وبالتالي تركها للرياح وللظروف البيئية لتقوم بتدميرها.

أما بالنسبة للجماعات العبرية التي كانت قد وصلت إلى مصر، هجرة، أو سبيا، فقد خرجت من هناك إما طردا مع الهكسوس نحو صحراء سيناء في سنة ١٥٧٠ ق.م، أو هروبا بشكل جماعات صغيرة في مراحل لاحقة مع لفيف من الجماعات المتنوعة عرقيا واجتماعيا، والتي كانت تعاني من اضطهاد السلطة الفرعونية، ولا سيما في عهد الفرعون توت عنخ آمون (١٣٦٦ - ١٣٥٧ ق.م) الذي تسلم الحكم بعد إخناتون، وهم الذين كانوا يدينون بالديانة الإخناتونية التوحيدية، أما الخروج الأكبر (التوراتي) فقد حصل في فترة انتقال الحكم بين رعمسيس الأول (١٣١٩ - ١٣١٨ ق.م)، وسيتي الأول (١٣١٨ - ١٢٩٩ ق.م)، وفي سيناء تم تجميعهم وتنظيم صفوفهم في إيلاف واحد، بعد أن انضمت إليهم أيضا جماعات سينائية عبرية كانت تجوب المنطقة ما بين بلاد كنعان والدلتا، وهناك حصلت عدة خلافات دينية بين

الجماعات العبرية الإسرائيلية البعلية، وهي الجماعات التي رحّلت (أسرت، أو استقدمت، أو رحلت) من منطقة السامرة إلى مصر في الفترة ما بين طرد الهكسوس من مصر، ومرحلة تل العمارنة، والجماعات العبرية اليعقوبية، والجماعات السينائية التي كانت تدين باليهوية، والجماعات العرقية الأخرى (العبيد، والمسخرين، والمرضى) التي كانت تدين بالإخناتونية، وفي سيناء تم تبني (يَهْوَه) وشريعته إلها لجماعات الخروج، ومن هناك دخلت هذه الجماعات إلى شرقي الأردن حيث انضم إليها مزيدا من الجماعات العبرية التي كانت هناك، في الوقت الذي قام بها مرنفتاح (١٢٣٢ - ١٢٢٢ ق.م) نحو سنة ١٢٢٧ قبل الميلاد بحملة عسكرية إلى بلاد كنعان ودمر خلالها عدة ممالك، ومنها مملكة إسرائيل الكنعانية التي كانت تتخذ من شكيم عاصمة لها، وهذا ما أدى إلى انخفاض ديموغرافي شديد على الضفة الغربية لنهر الأردن، في الوقت الذي وصلت فيه جماعات الخروج (بقيادة موسى إلى الضفة الشرقية من نهر الأردن).

ومع بدء عودة المناخ المطري، الذي ترافق، أو سُبق بانخفاض التوزع السكاني بسبب الجفاف الميسيني، وحركة الجيوش العسكرية، بدأت الجماعات الكنعانية الإسرائيلية، والكنعانية اليبوسية، وسواها التي نزلت باتجاه السفوح والسهول الداخلية تستقطب من قبل قراها القديمة التي كانت قد هجرتها، وأخذت تصعد نحو الهضاب والجبال لتستوطن ثانية فيها، وبذلك بدأ المناخ المطري يرمم الديموغرافيا الداخلية، وقد ترافقت هذه الحراكية الديموغرافية الداخلية، بتسلل تدريجي لجماعات الخروج ذات الأغلبية العبرية من شرق الأردن نحو بلاد كنعان في بداية العصر الحديدي الأول لتعزز التواجد العبري هناك، وقد توزعت هذه الجماعات حسب ديانتها، حيث عادت الجماعات (الإسرائيلية) التي تدين بالبعلية الكنعانية إلى المكان الذي نزحت منه على الهضاب المركزية الشمالية في منطقة السامرة ومحيطها مع القليل من الذين يدينون باليهوية، أما الجماعات التي تدين باليهوية (اليعقوبية) فقد توزعت في منطقة جبال القدس والخليل، والتي كان الجفاف الميسيني قد أتى على سكانها تقريبا، إلا من بعض القرى الكَنعانية المهمة مثل يبوس (أورشليم)، وحبرون (الخليل)، وعندما بدأت بلاد كنعان تعود إلى ازدهارها الزراعي، وازداد تواتر التسلل العشائري من شرقي الأردن إليها، حاولت الشعوب، لا سيما المتاخمة لنهر الأردن، أن تقف كجدار أمام هذا التسلل، الأمر الذي قاد بعض القبائل البدوية العبرية في شرقي الأردن لأن تتجند، وتدخل عسكريا إلى بلاد كنعان، الأمر الذي أشاع فوضى ديمغرافية في المنطقة، ولا سيما في الضفة الغربية لنهر الأردن، ولكن بلاد كنعان استطاعت أن تستوعب القادمين الجدد، الذين استكانوا للوجود

الكنعاني، وعاشوا كنمط قبلي عشائري رعوي تكاملي هامشي للنمط الزراعي الكنعاني، وكانوا يحتكمون لشيوخهم لحل مشكلاتهم البينية، وأثناء بحثهم عن هوية شخصية جماعية تميزهم وتمدهم بعناصر القوة للتحرر من دونيتهم، وبعد مدة تمتد قرابة قرنين من الزمان، نصّبوا شاؤل كملك أو كشيخ شيوخ على مجموع قبائل بني إسرائيل، ومن ثم تبعه داود الذي استلم السيادة بالقوة من خلال قيادته لعصابة نهب وسلب، وهيمن على مجموع القبائل العبرية، وأسس كياناً قضائياً لم تستطع الأبحاث العلمية على تعددها أن تؤكد امتلاكه لسلطة سياسية جغرافية، وثم جاء ابنه سليمان ليتابع مسيرة أبيه السيادية القبلية، واستطاع أن يقمع بالقوة كل الحركات التحررية القبلية من خلال قبضته الحديدية، وربما استطاع أن يقوم ببعض الأعمال البنائية البسيطة، والتي أزيلت مع أول غزوة على المنطقة ولم يبق لها من أثر، وبالطبع فإن هذا النظام السياسي القضائي القَبَلي الذي أتى ذكره في التوراة (المملكة الموحدة)، إن كان قد تشكل، فإنه لم يكن سوى نمط من أنماط النظام السياسي العسكري الذي كان سائدا آنذاك (المدينة - الدولة)، ولكن بخلاف بسيط هو أن النظام يمكن أن يكون نظام (الشيخ - القبيلة) الذي يفتقد إلى المفهوم الجغرافي السياسي، ومن هنا فإن تلك المملكة التوراتية النصية لم تكن من مشيخة قبيلة، يحكمها، أو يقضي عليها شيخ (ملك) يأتمر على تلك الجماعات المتناثرة على الأرض الكنعانية على هامش المدن الكنعانية، وهذا النظام مشابه إلى درجة كبيرة لنظام (القهال) الذي ساد في أوربا الشرقية فيما قبل القرن العشرين الميلادي، وهذا النظام القبلي ما زال سائدا في الدول العربية، فالقبائل البدوية في بلاد الشام والعراق والجزيرة العربية تخضع للنظام المدني للدولة التابعة لها، وفي الوقت نفسه فتلك القبائل تابعة قضائيا (في بعض القضايا القبلية، والخلافات البينية) لشيخ القبيلة والذي يتم توارثه من الأباء إلى الأبناء.

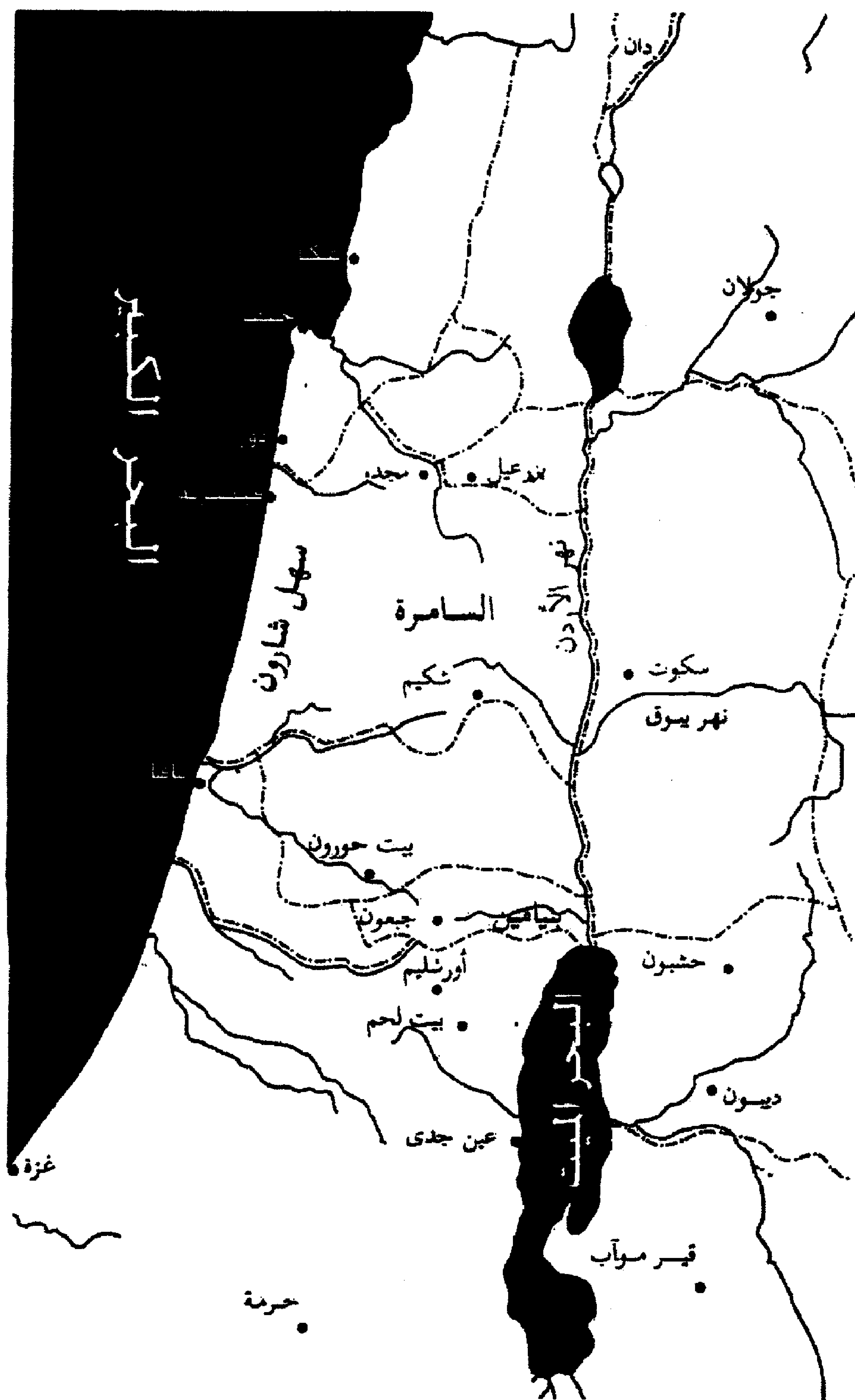
وبعد مدة من الزمان استطاعت منطقة السامرة في سياق القرن التاسع قبل الميلاد، أن تعيد تشكيل مملكة السامرة (إسرائيل) الذي كان مرنفتاح قد أتى عليها نحو سنة ١٢٢٧ قبل الميلاد، ولكن بينما كانت تلك المملكة الإسرائيلية القديمة كنعانية - عبرية (بأغلبية كنعانية)، أصبحت مملكة إسرائيل الجديدة عبرية - كنعانية ذات أغلبية عبرية، وهي التي يمكن تسميتها بإسرائيل العبرية، تميزا لها عن مملكة إسرائيل الكنعانية، وبالطبع تميزا أيضا لها عن إسرائيل اليهودية أو الصهيونية الحالية، وقد أكدت الأبحاث الأركولوجية على حصول تطور في البنية المعمارية ذات طابع كنعاني صرف في المدن المحيطة بالسامرة في حدود القرن التاسع قبل الميلاد، وقد تزامن هذا التطور المعماري مع عودة الحالة البيئية إلى طبيعتها

وتحسن الأحوال الاقتصادية للمنطقة، وقد كشفت الأعمال الأركولوجية عن وجود تحصينات وأسوار دفاعية عسكرية في المدن والقرى في المنطقة الشمالية من جبال الضفة الغربية، وهذا يتوافق مع ما جاء في التوراة حول قيام مملكة السامرة (مملكة إسرائيل)، كما ويتوافق أيضا مع ما جاء في الحوليات الآشورية، وبعد ضعف، وانهيار النظام السياسي في منطقة السامرة على يد الآشوريين، نهضت المنطقة الجنوبية المحيطة بمدينة أورشليم لتأخذ دورا سياسيا مهما في بلاد كنعان، وشكلت مملكة يهوذا العبرية اليهودية.

وهذه النظرية التوفيقية - التي أتيت عليها - لا تتعارض مع النظريات السابقة التي أتينا على ذكرها، كما يمكنها أن تفسر، وأن تتماشى مع كل المعطيات النصية والتاريخية والأركولوجية.

فهي تتبنى من جهة، وتفسر من جهة ثانية:

- رحلة إبراهيم التوراتية من جنوب الرافدين، كما أنها تفسر ورود ذكر قبيلة بنامين في نصوص ماري الواقعة شمال وادي الرافدين.
- الاضطرابات التي أحدثتها جماعات العبيرو في بلاد كنعان في سياق الفترة الانتقالية ما بين القرن الخامس عشر والرابع عشر، والتي أتت رسائل تل العمارنة على ذكرها.
- ورود اسم يعقوب إيل، ويوسف إيل كقادة من الهكسوس في سجلات الفرعون تحتمس الثالث.
- ورود كلمة إسرائيل في *قصيدة النصر للفرعون مرنفتاح*.
- عبادة جماعات الخروج التوراتية للعجل (الكنعاني) المقدس في سيناء قبل وصولها إلى بلاد كنعان.
- وجود معبد إخناتوني في سيناء (سرابيط الخادم) يعود إلى مرحلة ما بعد عهد إخناتون في مصر.
- استمرار عبادة الشمس (الإخناتونية) في بلاد كنعان حتى بعد سقوط مملكة يهوذا.
- كيف أن قبيلة آب العبرانية كان لها فرع مع جماعات الخروج، وفرع مع المديانيين.
- كما أنها تتبنى وتفسر أهم مصدرين توراتيين، وهما المصدر الألوهيمي الذي يعود إلى مملكة إسرائيل الكنعانية - العبرية، ومن بعدها مملكة إسرائيل العبرية - الكنعانية، والمصدر اليهوي والذي يعود إلى مملكة يهوذا اليهودية (اليعقوبية).
- كما أنها تتبنى وتفسر المعطيات الأركولوجية.


دان
جولان
مجدو
يزرعيل
سهل شارون
السامرة
نهر الأردن
سكوت
شكيم
نهر يبوق
بيت حورون
جبعون
أورشليم
حشبون
بيت لحم
ديبون
عين جدي
غزة
قير موآب
حرمة

موقع شكيم

مرحلة الانقسام

جاءت الأسفار التي أرخت لمرحلة الانقسام، أكثر واقعية، وأقرب إلى النص التاريخي منه إلى النص الأسطوري، أو القصصي، وهناك تقاطع واضح، بين النص التوراتي لتلك المرحلة، والنصوص التاريخية التي دونتها حضارات المنطقة، لا سيما وأن تحرير التوراة أتى في نهاية هذه المرحلة، وهذا ما أعطى فرصة للمحرر التوراتي أن يكون قريبا من الأحداث التي لم تقم الألسن بتهويلها، ومن ثم بأسطرتها، كما لم تمنح المحرر التوراتي مساحة واسعة للتلاعب كثيرا بالتاريخ، ر وأنه كان على اطلاع بالنصوص والحوليات، والنقوش الآشورية، والبابلية، التي أرخت لتلك المرحلة، والتي ربما اعتمد عليها المحرر التوراتي في بعض الأحيان.

تاريخ وحوليات بلاد الرافدين والهلال الخصيب:

بعد سقوط بابل نحو القرن السادس عشر قبل الميلاد بيد الحثيين، دخلت بلاد الرافدين في حالة من الغياب الحضاري، إلى أن عادت لتأخذ دورها الحضاري على يد الآشوريين، والذين كانوا قد حطّوا في بلاد آشور في الألف الثالث قبل الميلاد، وخضعوا للحكم الأكادي، ومن ثم البابلي القديم، وكانوا قد شكلوا في تلك الفترة إمارة مستقلة سرعان ما قضى عليها حمورابي، ومن ثم تعرضوا ككل شعوب المنطقة إلى حكم الحوريين (الميتانيين) والحثيين، ولكنهم عادوا يدافعون عن وجودهم ثانية، ولا سيما بعد استلام الحكم الأمير آشور أوبلط الأول (١٣٦٥ - ١٣٣٠ ق.م)، والذي استطاع أن ينتصر على الحوريين، وأن يضم مملكتهم ميتاني إلى دولة أشور، التي ازدادت توسعا في عهد أداد نيراري الأول (١٣٠٤ - ١٢٧٦ ق.م) حتى وصلت إلى كركميش، وفي عهد خليفته شلمنصر الأول (١٢٧٦ - ١٢٤٥ ق.م) توسعت باتجاه الغرب والجنوب، ومن ثم بعدها دخلت مرحلة من الانكماش استمرت مدة ١٣٠ سنة تقريبا (وهي تزامن مرحلة القضاة التوراتية)، ولكنها عادت ونهضت ثانية كأقوى جيش ضارب بعد أن استخدم جيشها العجلات السريعة التي تجرها الخيول، ولا سيما على عهد تغلات فلاصر الأول (١١١٤ - ١٠٧٦ ق.م) الذي أسس

إمبراطورية قوية استمرت قرابة قرن من الزمان، وقد وصل نفوذه حتى المتوسط مرورا بسوريا كاملة، وقد جاء في نص له يقول {تنفيذا لأوامر إلهي آشور، فقد قهرت البلدان الواقعة بين البحر الأدنى والبحر الأعلى الذي في الغرب. مضيت إلى لبنان حيث قطعت أخشاب الأرز لبناء معبد آنو وحدد. ثم تابعت التحرك نحو آمورو إلى مدينة سيميرا على مسافة ثلاثة أميال مضاعفة داخل البر}، ومن ثم عادت المملكة الآشورية إلى كبوتها ثانية وانكماشها على إثر انتشار القبائل الآرامية، وتشكيلهم لإمارات متعددة في كل منطقة الهلال الخصيب، وقد قام أداد نيراري الثاني (٩١٢ - ٨٩١ ق.م) بالنهوض ثانية بها، ثم تولى الحكم من بعده توكولوتي نينورتا الثاني (٨٩١ - ٨٨٤ ق.م)، ومن ثم تابع الدور آشور ناصربال الثاني (٨٨٤ - ٨٥٨ ق.م) الذي أخضع كل منطقة الهلال الخصيب لحكمه، وخلفه ابنه شلمنصر الثالث (٨٥٨ - ٨٢٤ ق.م) الذي وطّد، ووسع ما كان قد ورثه عن أبيه، وفي عهده واجه في معركة قرقرة سنة ٨٥٣ قبل الميلاد حلف الممالك السورية المؤلف من اثني عشر ملكا تحت قيادة حدد عدري ملك دمشق حسب ما جاء في نص المسلة السوداء، فبعد أن يأتي شلمنصر الثالث على ذكر طريق رحلته من نينوى نحو الشمال الغربي عابرا دجلة أولا، ثم الفرات حيث أخذ الإتاوات من الممالك التي مر بها وصولا إلى حلب يقول {ثم غادرت الفرات نحو حلب التي خاف أهلها وخروا عند قدمي. فتلقيت منهم فضة وذهبا جزية، وقدمت قربانا إلى هدد إله حلب. من حلب توجهت إلى مدن إرخوليني ملك حماة، فتحت مدن أدينو وبرغا ومقره الملكي في أرغانا وأضرمت النار في قصره. غادرت أرغانا وأتيت إلى قرقرة فدمرتها وأحرقتها.

هب إلى ساح المعركة

حدد عدري ملك إميريشو (دمشق) ومعه	١٢٠٠٠عربة	١٢٠٠فارس	٢٠٠٠٠جندي
وإرخوليني ملك حماة	٧٠٠ عربة	٧٠٠ فارس	١٠٠٠٠جندي
وآخاب الإسرائيلي آخاب بن عمري	٢٠٠٠ عربة		١٠٠٠٠جندي
ومن موصري	١٠٠٠٠جندي (مجهول)		
ومن قوية (مملكة صغيرة على شاطئ المتوسط الشمالي في الأراضي التركية)			٥٠٠ جندي
ومن عرقاتا (شمال شرق طرابلس)	١٠٠ عربة		١٠٠٠٠جندي
وجاء ماتينو بعل من أرواد ومعه			٢٠٠ جندي
وأمير أشتاتو (جنوب مدينة جبلة) ومعه			٢٠٠ جندي

وأدنو بعل من سيانو (شرق مدينة جبلة) ٣٠ عربة ١٠٠٠ جندي

ومعـــــــــــــــــــــــــه

وجنـــــــــــديبو العربـــــــــــي ١٠٠٠جمـــــل

ويعــــشا أمـــير رحـــوبي (جنـــوب بيــسان) ومعـــه...

ومــــــــــــن عمـــــــــــون:..

فكانوا اثني عشر ملكا هبوا في وجهي للمعركة الحاسمة، فحاربتهم بما وهبني الإله آشور من قوة، وبما وهبني الإله نرجال من سلاح فتاك، وهزمتهم بين مدينة قرقرة ومدينة جيلزو، وملأت نهر العاصي بجثثهم..}.

وحسب الوثيقة فقد انتصر في المعركة شلمنصر الثالث (٨٥٨ - ٨٢٤ ق.م) وجندل فيها ٢٠٩٠٠ محارب، وفي التوراة، ولسبب غير معروف، لم يأت المحرر على ذكر اشتراك آخاب (٨٧١ - ٨٥١ ق.م) في معركة قرقرة، وربما يعود السبب إلى أن محرري التوراة اليهود لم يشاؤوا أن يسجلوا أن بني إسرائيل، الذين كانوا مكروهين من قبل اليهود، قد اشتركوا بتلك الحرب الشهيرة وبقوة كبيرة (٢٠٠٠ عربة - ١٠٠٠٠ جندي) وهي القوة الثانية من بين قوات التحالف بعد قوة مملكة دمشق، دون أن يشترك اليهود بها، لأنهم لم يكونوا بعد قد شكلوا مملكتهم، بل على العكس فقد أظهر محررو التوراة أن مملكة إسرائيل، في تلك الفترة، كانت مملكة ضعيفة لا حول ولا قوة لها، وربما لم يكن محررو التوراة في القرن الخامس قبل الميلاد على دراية بأحداث تلك المعركة التي دارت رحاها في القرن التاسع قبل الميلاد، كما أننا نلاحظ أن اسم ملك دمشق يرد في التوراة باسم بن هدد، بينما يرد في نص المسلة السوداء باسم حدد عدري، وربما أن المحرر التوراتي اليهوذي والذي كتب سفره بعد مدة زمنية بعيدة عن الأحداث لم يكن لديه سوى القليل من الأخبار المشوشة والمتداخلة.

وعلى الرغم من انتصار شلمنصر الثالث في معركة قرقرة إلا أنه لم يستطع إخضاع المنطقة تماما لسلطته، بل احتاج إلى أن يعود عدة مرات إلى المنطقة لفرض سيطرته، فقد جاء في نص آخر {في السنة الثامنة عشرة من بدء ملكي عبرت الفرات للمرة السادسة عشرة. حزائيل ملك دمشق وضع ثقته بجيشه العرم، وجمع قواته بأعداد كبيرة جاعلا من جبل سنيرو المقابل لجبل لبنان قاعدة له، قاتلته وهزمته وجندلت ستة عشر ألفا من جنوده المدربين، وغنمت ١١٢١ عربة و٤٧٠ جوادا وكل معسكره. أما هو فقد هرب طالبا حياته، فتبعته إلى دمشق مقره الملكي وحاصرته هناك وقطعت بساتينه، سرت إلى جبال حوران فهدمت وأحرقت عددا

لا يحصى من المدن وأخذت منهم جزية لا حصر لها. كما سرت إلى جبل بعل راسي الذي يقع إلى جانب البحر، وأقمت هناك نصبا تذكاريا عليه صورتي. في ذلك الوقت تلقيت الجزية من صور وصيدون ومن ياهو ابن عمري} ، إن ياهو (٨٤٠ - ٨١٤ ق.م) حسب التأريخ التوراتي ليس ابن عمري بل هو الذي قضى على آخاب ابن عمري ونصّب نفسه ملكا، ويبدو أن هذا الخلل يعود إلى سوء فهم من محرر النص التوراتي أو النص الآشوري، وجاء على قاعدة نقش يمثل رجلاً يقدم الطاعة للملك شلمنصر الثالث في المسلة السوداء {جزية ياهو ابن عمري. تلقيت منه فضة وذهبا، طاسة ذهبية ومزهرية ذهبية مدببة القاعدة، كمية من الرصاص، عدداً من الصولجانات، أدوية مصنوعة من خشب البلسام. كل ذلك تسلمت منه} ، وهذه التقدمة وخضوع ياهو للملك الآشوري شلمنصر الثالث، وتقبيل الأرض تحت قدميه غير مذكورة أيضا في التوراة، ويعود ذلك إما لعدم معرفة المؤرخ التوراتي بهذه الأحداث، وإما لأن اليهوذيين (اليهود) كانوا لا يرغبون أن يظهروا هذا الضعف الشديد على ياهو الذي قام بحركة تصحيحية لصالح الدين اليهوذي الذي تدين به مملكة الجنوب اليهوذية، والتي يعود إلى شعبها كتابة التوراة، وفي كلا النصين لم يرد ذكر بني يهوذا، لأن كيانهم السياسي الجغرافي العسكري لم يكن قد تشكل بعد، أو أنه أصغر من أن يكون معروفا ومعترفا به بعد، فهم لم يكونوا أكثر من قبيلة رعوية تضرب بخيامها في المنطقة الجنوبية ما بين مدينة أورشليم ومنطقة بئر السبع.

وقد كان للنزاعات الداخلية التي حلت في نهاية عهد الملك الآشوري شلمنصر الثالث (٨٥٨ - ٨٢٤ ق.م) من قبل أحد أبنائه الأثر الكبير في بدء الضعف الآشوري حيث تمردت أكثر الأقاليم التابعة والخاضعة للحكم الآشوري، ودخلت أشور في فترة نكسة استمرت لمدة مئة وعشرين سنة (٨٢٤ - ٧٤٤ ق.م)، ولكن بعد مرور ثمانين عاما عاد حدد نيراري الثالث (٨١٠ - ٧٨٣ ق.م) تحت وصاية أمه شامورانات (سميراميس) وفرض الهيمنة الآشورية ثانية لمدة قصيرة {ومن شاطئ الفرات أخضعت بلاد حاتي، وكل أراضي آمورو وصور وصيدا وأرض عمري وأيدوم وبلاد الفلستيين إلى البحر الكبير حيث تغرب الشمس. جميعهم أخضعت تحت قدمي وفرضت عليهم الجزية. سرت نحو بلاد دمشق، وحبست ملكها ماري في دمشقي مقر ملكه}.

أما عصر المد الحقيقي فكان في عهد تغلات فلاصر الثالث (٧٤٤ - ٧٢٧ ق.م) الذي أوصل الإمبراطورية إلى أوج عظمتها، حيث أخضع الهلال الخصيب كاملا ولم تسلم منه مصر أيضا، وآسيا الصغرى وبلاد عيلام (أفغانستان) في الشرق، وقد أجبر ممالك الشرق القديم

على دفع الجزية كما جاء في الحوليات الآشورية {تلقيت جزية خاشتاشبي ملك قوماجين، وأوريك ملك قوية، وسيبيتي بعل ملك جبيل، وإنليل ملك حماة، وينامو ملك الشمال... ومتان بعل ملك أرواد، وسابينو بعل ملك بيت عمون، وسلمانو ملك موآب، وميتيني ملك أشقلون، وآحاز ملك يهوذا، وكوش ماليكو ملك أدوم، وهانو ملك غزة} ، وفي نص آخر {تلقيت الجزية من ريحانو ملك دمشق، ومن مناحيم ملك السامرة، ومن حيرام ملك صور، ومن سيبيتي بعل ملك جبيل، ومن أوريك ملك قوية، ومن بيسيريس ملك كركميش، ومن إنليل ملك حماة..} ، وفي نص ثالث {أما منحيم فقد هبطت عليه كما العاصفة الثلجية، ففر وحيدا ثم عاد وانحنى عند قدمي. أعدته إلى مكانه وفرضت عليه جزية} ، وعن د أحمد سوسة في كتابه ملامح من التاريخ القديم ليهود العراق، يقول: وقد جاء في كتابات تجلات فلاصر الثالث ما نصه {قمت بضم جميع مدن بيت عومري في حملاتي السابقة ولم أترك سوى مدينة السامرة... أخذت نفتالي بأسرها وضممتها إلى آشور وعهدت برجالي حكاما عليها. وجميع سكان أرض بيت عومري وممتلكاتهم حملت إلى آشور} {وسقت الكثيرين من بيت عمري وممتلكاتهم إلى آشور. ثم انقلبوا بعد ذلك على ملكهم فقح فأحللت بدلا عنه هوشع ملكا عليهم وتلقيت منه جزية} ، كما أن فقح (٧٤٠ - ٧٣٢ ق.م) الذي حكم في بلاد عمري عصى عن دفع الجزية، وقام بعد أن تحالف مع رصين ملك دمشق بشن حرب على أورشليم التي استنجدت بتغلات فلاصر الثالث مقابل جزية كبيرة من الذهب الذي قام أيضا بحملة تأديبية أخرى على مملكة دمشق حيث - حسب ما تورده التوراة - قتل رصين.

وبعد موت تغلات فلاصر الثالث تولى الحكم في آشور ابنه شلمنصر الخامس (٧٢٧ - ٧٢٢ ق.م) الذي تعيد إليه التوراة سبي بلاد عمري أو السامرة أو (إسرائيل) وتدميرها إلى الأبد بعد أن عصي على آشور بتحريض من مصر حسب ما أتى في التوراة، بينما في النصوص الآشورية فتعيده إلى خليفته صارغون أو سرجون الثاني (٧٢٢ - ٧٠٥ ق.م)، والجدير ذكره أن النصوص الآشورية تأتي على ذكر (بيت عمري) وليس مملكة عمري، أو مملكة إسرائيل {صارغون ملك آشور فاتح السامرة وكل بيت عمري الذي غنم أشدود وشينوختي، وأمسك اليماني (جزر يونانية) في البحر كالسمك. الذي قضى على كاسكو وطابالي وخيلاكو (كيليكا). الذي طارد ميتا ملك موشكو. الذي قهر مصر في رفح الذي أخذ هانو ملك غزة أسيرا. الذي أخضع الملوك السبعة بأراضي يدنانا (جزيرة قبرص) على مسافة سبعة أيام في البحر} ، وفي نص آخر {لقد حاصرت وفتحت السامرة، وجلوت ٢٧٢٩٠ من سكانها، وجهزت من بينهم فصيلة بخمسين عربة ضممتها إلى فيلقي الملكي. أما المدينة فقد أعدت بناءها

بأفضل ما كانت وأسكنت فيها شعوبا من المناطق الأخرى التي قهرتها. ثم أقمت عليهم ضابطا من لدني حاكما عليهم وفرضت عليه جزية الآشوريين} ، وفي نص ثالث {ياوبيدي من عامة مدينة حماة حثي ملعون، جعل نفسه ملكا على المدينة، وحرض ضدي مدن أرواد وسيميرا ودمشق والسامرة فتعاونوا وجهزوا جيشا مشتركا. دعوت جمع جند آشور وأطبقت عليه في قرقرة مدينته الأثيرة، ففتحتها وأحرقتها. أما هو فقد أمسكت به وسلخت جلده وقتلت المتمردين في مدنهم وأحللت النظام والسلام} ، والخطأ هنا إما من محرري التوراة، أو أن سرجون الثاني كان رئيس الحملة على بلاد كنعان أثناء حكم شلمنصر الخامس، أو أن الأحداث حصلت بين حكمي شلمنصر الخامس وسرجون الثاني، ولكن من المؤكد أن سرجون الثاني هو الذي قام بحملة واسعة لتغير ديمغرافيا البلاد التي قهرها، وكذلك كان الأمر في عهد خليفته سنحاريب (٧٠٥ - ٦٨١ ق.م) الذي قام بحملات واسعة أيضا بعد أن استغلت الممالك فترة انتقال الحكم من سرجون الثاني إلى سنحاريب فعصت عن دفع الجزية {كل ملوك آمورو جاؤوا بهداياهم السخية أمامي وقبلوا قدمي: مناحيم ملك شمسي مورنا، توبعلو ملك صيدون، أبيليتي ملك أرواد، أوروملكي ملك جبيل، ميتيني ملك أشدود، بوديليو ملك بيت عمون، كامسون ملك موآب، ايرومو ملك ايدوم، أما صدقيا ملك أشقلون الذي لم يخضع لي فقد قبضت عليه وجلوته إلى آشور مع زوجته وأولاده واخوته وكل ذكور عائلته، وأقمت بدلا عنه شارولوداري وفرضت عليه الجزية والخنوع} ، {تابعت حملتي فحاصرت بيت داجون ويافا وبني برقة وآزورو وهي تابعة لصدقيا، ففتحتها وحملت الأسلاب منها. أما مدينة عقرون فقد قام مسؤولوها ووجهاؤها وعامتها بوضع مليكهم بادي في الأغلال لأنه كان على العهد الذي قطعه مع آشور، وسلموه إلى حزقيا اليهودي الذي رماه في السجن وعامله معاملة الأعداء. ثم خاف فدعا لمساعدته قوات ملكي مصر وأثيوبيا التي لا تعد. فجاؤوا لمساعدته. وفي سهل التقو انتظمت صفوفهم ضدي وشحذوا أسلحتهم. بعد استخارة نبوءة الإله آشور، مولاي، هاجمتهم وهزمتهم. وفي غمرة القتال قمت بنفسي بأسر فرسان العربات وأمرائهم من مصريين وأثيوبيين. حاصرت مدينة التقو وتمنة وأخذتهما، وحملت معي أسلابهما. ثم استبحت مدينة عقرون وقتلت مسؤوليها ووجهاءها الذين أجرموا، وعلقت جثثهم على الأعمدة حول المدينة. أما عامتها فمن وجدت منهم مذنبا أخذته أسير حرب ومن وجدت بريئا أطلقته. وأعدت ملكهم بادي من أورشليم وأقمته على العرش سيدا لهم، وفرضت عليه الجزية يدفعها لي أنا مولاه} {أما حزقيا اليهودي الذي أبى الخضوع لي، فقد ألقيت الحصار على ٤٦ من مدنه الحصينة وقلاعه المسوّرة وعدد لا يحصى من القرى حولها أخذتها، مستعملا المدكات والمنجنيق مما

ساعدنا على الاقتراب من الأسوار واختراقها. سقت أمامي منهم الغنائم: ٢٠٠١٥٠ من الذكور ومن الإناث شيبة وشبانا، وأحصنة وبغالا وحميرا وجمالا ماشية كبيرة وصغيرة لا حصر لها. أما حزقيا نفسه، فقد صار حبيسا في مقره الملكي كعصفور في قفص. فأحطته بالمتاريس والخنادق لحجز الفارين عند البوابات. والمدن التي أخذتها منه أعطيتها لـ ميتيني ملك أشدود وبادي ملك عقرون وسيسيبيل ملك غزة، فأنقصت بذلك مساحة أراضيه، ورفعت فوق ذلك عليه الجزية التي تؤدى لي أنا سيده بما يفوق الجزية السابقة تسلم سنويا، لقد غمره الخوف من رهبة جلالتي، والقوات التي أتى بها إلى أورشليم لمعاونته قد اختلت صفوفها وتركته. فأرسل إلي في نينوى عاصمة ملكي ثلاثين وزنة من الذهب و٨٠٠ وزنة من الفضة، وأحجارا كريمة، وكميات من الأثمد وقطع الصخر الأحمر، ومقاعد وكراسي مزينة بالعاج، وجلود الفيلة، وخشب الأبانوس، وصناديق خشبية، وكل أنواع النفائس. كما أرسل إلي بناته ومحظياته وموسيقيه من بنات وشبان} ، نلاحظ أن الجميع وصفوا بالملوك عدا حزقيا (أما حزقيا اليهودي) وهو أول مرة يذكر فيها لقب يهودي، وبذلك لم يبق من يهوذا سوى أورشليم كمدينة تحت الجزية.

وبعد مقتل سنحاريب من قبل أحد أبنائه، استلم ابنه أسرحادون (٦٨١ - ٦٦٩ ق.م) العرش بقبضة حديدية، حيث أجبر الملوك أنفسهم على أعمال السخرة في بناء مدينته حصن أسرحدون ليرضي جنون العظمة الذي أصيب به، ومن هؤلاء منسي ملك يهوذا {دعوت إلي ملوك بلاد حاتي على الجهة الأخرى للنهر: بعلو ملك صور، ومنسى ملك يهوذا، وقوش جبري ملك آدوم، وموسوري ملك موآب، وسلبيل ملك غزة، وميتيني بعل ملك أرواد، وآبي بعل ملك شمسي مورونا، وبوديل ملك عمون، وأهي مكي ملك أشدود و.... كل هؤلاء أرسلتهم إلى نينوى مقر ملكي، وجعلتهم ينقلون إليها، تحت أقسى الظروف، مواد بناء لقصري، جذوعا ودعائم وألواحا من خشب الأرز والصنوبر..} ، نلاحظ هنا أن أسرحدون يطلق على سوريا (وعلى ملوكها) باسم بلاد حاتي، وكذلك أشار شلمانصر الثالث إلى آخاب كملك حثي.

وقد استطاعت قوات أسرحدون أن تُخضع كامل الأراضي المصرية لسلطة آشور، وأجزاء من شمال أفريقيا وشواطئ اليونان وآسيا الصغرى، وصارت أكبر إمبراطورية عرفت حتى ذلك التاريخ، والتي لم تدم طويلا ففي عهد آشور بني بعل (٦٦٩ - ٦٢٩ ق.م) ابن سنحاريب بدأت الاضطرابات الكبرى في الإمبراطورية المترامية الأطراف، وقد تمردت أكثر الأقاليم على سلطة آشور، وممن تمرد كان ترهاقة والي أو ملك مصر، فعاد عليه آشور بانيبال وأخضع مصر السفلى ثانية، ووصل إلى العاصمة الجنوبية طيبة، ولكن الاضطرابات في

الأقاليم المترامية الأطراف استمرت، وتزايدت الأقاليم التي أعلنت تمردها على الحكم الآشوري الذي كان قد وسّع حكمه إلى ما لا يستطيع له، وهذا ما سنح الفرصة للكلدانيين من إقامة مملكة بابلية ثانية بقيادة نابوبولاصر (٦٢٥ - ٦٠٦ ق.م) الذي كان يحكم بابل، وقام مع حلفائه الميديين في إيران بالزحف على آشور ودمروها سنة ٦١٤ قبل الميلاد، ثم تابع زحفه نحو نينوى سنة ٦١٢ قبل الميلاد، فتمركز الجيش الآشوري في حاران تحت قيادة آشور باليط الذي استنجد بالفرعون نخو الذي لبى النداء، ولكن دون جدوى، فقد انكسر الجيش المصري بالقرب من حاران، وبذلك تفرقت وتشتت القوات الآشورية إلى الأبد.

ويبدأ العهد الكلداني، أو البابلي الحديث، ويعود الكلدانيون إلى أمارة أور (أمارة أرض البحر) التي تقع عند التقاء نهر الفرات ونهر دجلة على الخليج العربي، والتي كانت قد انفصلت عن الحكم البابلي القديم في عهد شمسو إيلونا سنة ١٧٤٢ قبل الميلاد، واتخذت من مدينة أور عاصمة لها، وكان أول ملوكها إيلوما إيلو، ولكن تلك الأمارة بقيت ضعيفة ومهَيمن عليها إلى أن استطاع ملكها مردوخ بلادان بعد ألف عام أن يفتح بابل سنة ٧٢١ قبل الميلاد، ولكن سرجون الثاني بعد عشر سنوات رده إلى موقعه السابق، ثم قام سنحاريب بحملة قوية ودمرها، ولكن بعد موت أشور بانيبال، وإثر ضعف الإمبراطورية الآشورية، استطاع نابوبلاصر سنة ٦٢٥ ق.م أن يتولى الحكم في بابل، وأسس بذلك المملكة الكلدانية والتي وصلت إلى قمة مجدها في عهد نبوخذ ناصر (٦٠٥ - ٥٦٢ ق.م) الذي تم له الانتصار على الجيش المصري الموالي للآشوريين حتى حدود مصر سنة ٥٨٦ قبل الميلاد {في السنة السابعة.. قاد ملك أكاد جيوشه نحو بلاد حاتي، فحاصر مدينة يهوذا وفتحها في شهر آذار وأقام عليها ملكا جديدا اختاره، وأخذ منها جزية كبيرة حملها إلى بابل}.

أما في التوراة فقد جاء أن نبوخذ ناصر قام سنة ٥٩٨ قبل الميلاد بحملة على يهوذا، وسبى الكثير من شعبها، وعلى رأسهم يهوياكين إلى بابل وملّك متنيا (٥٩٧ - ٥٨٦ ق.م) الذي أسماه صدقيا، والذي قام بتمرد على بابل بعد تسع سنوات من حكمه، فعاد إليه نبوخذ ناصر، وأنهى مملكة يهوذا نهائيا، وسبا شعبها، ولم يبق منهم سوى المتاشين بعد أن سوى أبنيتها بالأرض، غير أن المملكة البابلية الحديثة انتهت سريعا على أيدي الفرس بقيادة قورش الثاني سنة ٥٣٩ ق.م، وورثوا عنهم كامل تخوم المملكة، وقد أصدر قورش قانونا سنة ٥٣٧ ق.م يسمح بموجبه بعودة وجهاء يهوذا إلى أورشليم، وقد استطاع قمبيز (٥٢٩ - ٥٢٢ ق.م) - الذي ورث مملكة أبيه قورش الذي قُتل في حملته على آسيا الوسطى - أن يحتل مصر سنة ٥٢٥ ق.م كتعويض عن هزيمة أبيه في أسيا الوسطى، وفي طريق عودته من مصر إلى فارس

لقمع تمرد قام به الميديون مات قمبيز، وقد تمكن برديا الميدي من تنصيب نفسه ملكا على بلاد فارس، ولكن سريعا ما قام انقلاب آخر أودى بحياة برديا، واستلم بدلا عنه داريوس الأول ابن قمبيز (٥٢٢ - ٤٨٥ ق.م)، وفي تلك المرحلة تمردت أكثر الأقاليم الفارسية، ولكن داريوس استطاع أن يقمع كل التمردات، وأن يتفرغ بعد ذلك لحربه القادمة مع اليونان.

وبذلك كانت غزوات، أو حملات الآشوريين إلى فلسطين ثلاث:

الأولى كانت بقيادة تغلات فلاصر الثالث (٧٤٤ - ٧٢٧ ق.م) سنة ٧٣٢ ق.م. وقد استولى فيها على مملكة السامرة عدا مدينة السامرة تحديدا، وقام بسبي البعض من شعبها، وهو ما يمكن تسميته بالسبي الآشوري الأول.

والثانية كانت في عهد العاهل الآشوري شلمنصر الخامس (٧٢٧ - ٧٢٢ ق.م، وكانت الغزوة العسكرية بقيادة سرجون الثاني (٧٢٢ - ٧٠٥ ق.م) سنة ٧٢٢ ق.م، وهي الغزوة التي أنهى فيها مملكة إسرائيل، وسبى شعبها بشكل شبه كامل (السبي الآشوري الثاني).

والثالثة كانت بقيادة سنحاريب (٧٠٥ - ٦٨١ ق.م) سنة ٧٠١ ق.م، وفيها هاجم مملكة يهوذا، وأسر منها ٢٠٠١٥٠ إنسان (السبي الآشوري الثالث).

أما الكلدانيون فقد قاموا بأربع حملات على فلسطين بقيادة نبوخذ ناصر (٦٠٥ - ٥٦٢ق.م):

الأولى كانت سنة ٦٠٦ ق.م حين كان يشارك نبوخذ نصر والده نبويلاصر الحكم، واكتفى بسلب هيكل أورشليم، وأخذ بعض الأسرى.

والثانية كانت سنة ٥٩٧ ق.م، وقد أخذ معه عشرة آلاف من الأسرى.

والثالثة كانت سنة ٥٨٦ ق.م، وكانت الحملة القاضية على مدينة أورشليم، وأخذ نبوخذ نصر معه ٨٣٢ أسيرا بما فيهم الملك صدقيا.

والرابعة، وهي الأخيرة، كانت في سنة ٥٨١ ق.م، حيث تم سبي المزيد من ريف يهوذا.

وقد مارست الإمبراطوريتان الآشورية والكلدانية سياسة التهجير للمناطق التي كانت تقع تحت سيطرتها، فقد قام الآشوريون بترحيل شعب السامرة إلى المناطق الواقعة شمال وشرق وادي الرافدين (أيران، والحدود العراقية التركية وهي المناطق التي ينتشر فيها الأكراد الآن، وقد قام الآشوريون بتوطين قبائل عربية مكانهم، وقد جاء في نص لسرجون الثاني (٧٢٢ - ٧٠٥ ق.م) {بناء على نبوءة صادقة من إلهي آشور سرت وقهرت قبائل ثمود وإباديدي ومارسيمانو وحاييا، العرب الذين يعيشون بعيدا في الصحراء، الذين لا يعرفون البحار ولا الرؤساء، ولم يأتوا بجزيتهم لأي ملك. لقد أبعدت من بقي منهم حيا وأسكنتهم في السامرة}.

وكانت المملكة الآشورية بسياستها هذه - والتي اتبعها أيضا الكلدانيون - تعاقب المنطقة الثائرة وتجعلها درسا لمن تسول له نفسه أن يتمرد عليها، كما أنها كانت من خلال ذلك تقوم بتغيير ديموغرافي وإثني في البلاد التي تم فتحها حديثا، وفي المنطقتين التي رحّلت منها، والتي رحّلت إليها الشعوب، الأمر الذي يؤدي إلى تدمير البنية التحتية للحالة الأثنية وللولاءات القبلية، بحيث يصبح الولاء الأكبر للإمبراطورية والإمبراطور، وبذلك إنهاء حالات التمرد والعصيان التي كانت تعيق استمرار عمليات التوسع، هذا من جهة، ومن جهة ثانية كان المرحّلون يقومون بأعمال وظيفية في أماكن استيطانهم الجديدة ضد أصحاب البلاد الأصليين، ولذلك فقد كانت تمنح المهجّرين أراضي خصبة، وكانت تقوم بحمايتهم وتُعَدّهم ممثلين لسلطة الدولة، أي بمعنى كانت تجعل منهم جماعات وظيفية، كما أنها كانت تقوم من خلال ذلك بتوطين بعض الشعوب في المناطق المهجورة والمدمرة، وبالتالي تشكيل رافد اقتصادي يصب في خزينة الإمبراطورية، أما الشعوب التي كانت توطنهم في منطقة آشور فكانت ترفد الجيش الآشوري بمجندين أكفاء في حملاتها التوسعية.

وقد قام الآشوريون بترحيل شبه كامل لشعب مملكة بيت عمري (مملكة السامرة)، وأسكنوهم في عدة مناطق متفرقة من شمال وشرق بلاد الرافدين، الأمر الذي أدى إلى تفتت وتلاشي وذوبان تاريخ هذه الجماعات، وقد طرحت نظريات، وافتراضات كثيرة في العصر الحديث حول التعرف على أنسالهم، كانت أقرب إلى النكات منها إلى النظريات، والتي اختلفت في افتراضاتها بين أنهم، أو منهم الهنود الحمر، أو الشعوب الأنكلوسكسونية، أو الشعوب الجرمانية، أو الفالاشا الأثيوبيون، أو شعب الملايو وقبائل البوشتون (البتان) الأفغانية، أوجماعة ذي النواس، أو النساطرة الآشوريون الذين يعيشون في إقليم كردستان، وعلى ما يبدو فقد قام الآشوريون بتوطين الذين رحلتهم من مملكة إسرائيل في عدة أماكن متفرقة، الأمر الذي أدى إلى ذوبان تلك الجماعات مع الشعوب الوطنية لتلك الأقاليم، والمناطق، والغريب في الأمر أن محرري التوراة لم يأتوا على ذكر الإسرائيليين الذين تم ترحيلهم من مملكة إسرائيل، وفي هذا السياق يعتقد أحمد سوسة أن يهود بابل، لم يعرفوا شيئا عن الإسرائيليين واليهود الذي تم سبيهم على يد الآشوريين، ولذا لم تأت التوراة على ذكرهم، لأنهم كانوا قد وطنوا في جبال إقليم كردستان المعزولة.

أما الكلدانيون فقد قاموا بترحيل الجماعات اليهودية إلى بابل والمناطق المحيطة بها، الأمر الذي مكّن اليهود من الاستمرار في تواجدهم الإثني، لا سيما وأن الانتماء الإثني اليهودي كان أكثر صلابة من الانتماء الإثني للقبائل الإسرائيلية، وبذلك استطاع اليهود أن

يلموا شملهم في المنفى، وأن يعودوا إلى مقاطعة اليهودية عندما دالت الأحداث التاريخية على المملكة الكلدانية، كما أن البابلين، وفي الوقت نفسه، قاموا بإعادة توطين بعض الشعوب في بلدانهم التي كان الآشوريون قد قاموا بتهجيرهم منها، وقد جاء في نص على لسان نابونيد ملك بابل {هذه هي المعجزة التي أظهرها الإله سن. المعجزة التي لم يكن لإله آخر أن يظهر مثلها. لقد هبط سن سيد الآلهة والإلهات في السماوات العلا. نزل عليّ من عليائه إليّ أنا نابونيد. جاءني في الحلم وقال لي: أعد بناء الإهلول معبد سن في حاران، ولسوف أسلم إلى يديك قياد البلاد جميعا.. تنفيذا لأمر إلهي، أعدت بناء الإهلول معبد سن، وسقت إلى حاران جماعات من بابل ومن سوريا العليا، من حدود مصر عند البحر الأعلى إلى شواطئ البحر الأدنى}، وقد مارس هذه السياسة الفرس بعد سقوط بابل في يدهم، وهنا لنا أن نتساءل، أو نفترض أن الجماعات التي أعيد تسكينها في أورشليم على يد قورش، قدم بها الفرس من أماكن متعددة أغلبهم من اليهود الذين كانوا قد تم سبيهم منها.

في هذه المرحلة كانت إمبراطوريات بلاد الرافدين هي المهيمنة على بلاد كنعان، ولم يكن لبلاد النيل دور حقيقي، فبعد أن قام شيشنق ملك مصر الليبي (٩٤٥ - ٩٢٤ ق.م) بحملته على بلاد كنعان خلال حكم رحبعام (٩٢٨ - ٩١١ ق.م) على يهوذا، حيث أجبر شيشنق مملكة يهوذا على دفع الجزية دون أن يكون هناك نص مصري يتحدث عن هذا الاجتياح بشكل صريح، إلا أنه ورد سجل على أحد جدران معبد آمون بالكرنك يتضمن قائمة بمئة وثمانين مدينة استولى عليها شيشنق في مواقع تشمل بلاد كنعان.

وبعد حملة شيشنق هذه دخلت مصر في مرحلة غياب استمرت مدة طويلة من الزمن، إلى أن عاد ذكرها من خلال تحالفها، أثناء حكم سوا، مع مملكة السامرة (إسرائيل) في أيامها الأخيرة، وبسبب هذا التحالف قام شلمانصر بإنهاء مملكة السامرة (إسرائيل) بشكل نهائي، وقد تحالفت مملكة يهوذا أثناء حكم حزقيا (٧١٥ - ٦٩٨ ق.م) مع مصر التي حاولت استرجاع دورها في المنطقة ضد سنحاريب ملك آشور الذي قام بتأديبه، وحين صعد ملك مصر نخو للحرب ضد البابليين، بعد أن استنجد به الملك الآشوري آشور باليط، وقفت مملكة يهوذا كبواب حسب اتفاق مع البابليين ضد القوات المصرية، وقد قُتِل ملكها يوشيا (٦٣٩ - ٦٠٩ ق.م) أثناء تصديه للقوات المصرية في مجدو، والتي أيضا بعد عودتها مكسورة أمام البابليين الجدد قامت بأسر ابنه يهو آحاز (٦٠٩ - ٦٠٨ ق.م)، وفرضت القوات المصرية الجزية على مملكة يهوذا بعد أن نصّبت أخوه يهوياقيم (٦٠٩ - ٥٩٨ ق.م)، وقد دارت عدة معارك بين البابليين، والقوات المصرية بقيادة نخو دون أن يتم حسم الموقف، وبقيت القوات المصرية تسيطر

على أجزاء واسعة من سورية الداخلية، ولكن القوة البابلية بقيادة نبوخذ ناصر (٦٠٥ - ٥٦٢ ق.م)، وبعد أن أجهزت على بقايا القوات الآشورية، وأنهت الدور المصري بعد معركة كركميش سنة ٦٠٤ ق.م، وردّت القوات المصرية حتى حدودها، والتي لم يبق لها سوى أن تستقبل بعض اللاجئين من بني يهوذا الذين فروا خشية انتقام البابليين منهم.

أما الصراعات المحلية الداخلية في جنوب سوريا في تلك الفترة، فقد حصلت عدة صدامات بين الآراميين والقبائل العبرية كما سبق ذكره، وقد استطاع الآراميون أن يخضعوا بلاد كنعان للجزية، وكانت الإمارات الآرامية منتشرة بشكل واسع في منطقة الهلال الخصيب، وكانت تشكل عائقا أمام انتشار الآشوريين، ولكن وبسبب نظامهم السياسي غير المركزي فلم تستطع تلك الدويلات - الإمارات أن تفرض وجودا ثابتا على الساحة، بخاصة وأنها كانت على خلافات فيما بينها، سوى أنها كانت تقوم باتحادات أمام كل خطر خارجي يتهددها، ولكنها لم تستطع أن تنجح أيضا في صد الاجتياحات الآشورية التي كانت تستفرد بكل إمارة على حدة، بخاصة وأن تلك الإمارات كانت متباعدة ومتدخلة ضمن الكيانات المتفرقة، وقد سقطت دمشق الإمارة الآرامية الأكبر والأقوى سنة ٧٣٢ ق.م على يد الملك الآشوري تغلات بلاصر الثالث (٧٤٤ - ٧٢٧ ق.م)، وبعد اثني عشر عاما سقطت مدينة حماة آخر أمارة آرامية سنة ٧٢٠ ق.م، وبذلك انتهى الوجود السياسي الآرامي ليأذن للغة والثقافة الآرامية والتي تُعَدّ الابنة الشرعية لتزاوج الثقافة البابلية، مع الثقافة الكنعانية أن تهيمن على كل الثقافات واللغات الأخرى، وكانت اللغة الآرامية تمتاز عن سواها من اللغات بسهولة قواعدها، وبليونتها، وكثرة مفرداتها، وقابليتها للاشتقاق، وسهولة لفظها، خاصة بعد أن قام الفرس الأخمينيون بتبنيها، وبذلك تم نشرها في العالم القديم، وقد أدى انتشار الثقافة واللغة الآرامية إلى تراجع اللغة الكنعانية، واللغة، أو اللهجة العبرية بين الجماعات العبرية منذ القرن الثامن قبل الميلاد، الأمر الذي دعا في مرحلة لاحقة إلى ترجمة التوراة إلى اللغة الآرامية كي يقرأها اليهود أنفسهم، وقد أصبحت العبرية من اللغات الميتة، ومن ثم، وفي مرحلة لاحقة، تمت ترجمة التوراة من الآرامية إلى العبرية، الأمر الذي ساهم بتفكك النص التوراتي.

ولكن الآراميين بالخاصة الذين انتهى دورهم السياسي، والذي ظل ضعيفا، إذا ما قيس بدورهم الحضاري الثقافي الذي انتشر في كل الشرق الأدنى القديم، فإنهم استطاعوا أن يحافظوا على وجودهم السياسي من خلال الكلدانيين، الذين يشكل صلبهم الآراميون إلى جانب مزيج من بقايا الشعوب الزائلة من السومريين، والأكاديين، والعموريين وربما العبريين، وكما جاء في أحد النصوص فقد لقب نبوخذ ناصر نفسه بملك آكاد.

ومن النصوص المهمة التي وجدت في المنطقة وليس خارجها كما هو الحال بالنسبة للشواهد السابقة، والتي تركها ميشع ملك موآب، والذي ورد ذكره في التوراة، وقد كُتب نقش ميشع على حجر من البازلت الأسود، وتم اكتشافه سنة ١٨٦٨م، في قرية ديبان (ديبون القديمة)، وعليه أربعة وثلاثون سطراً كتبت بالحروف الفينيقية القديمة، وهو محفوظ الآن في متحف اللوفر في باريس منذ سنة ١٨٧٣م:

أنا ميشع ملك موآب الديباني

أبي ملك على موآب ثلاثين سنة، وأنا ملكت

بعد أبي وبنيت هذا المرتفع لـ كموش (بقرحة)

لأنه أعانني على كل الملوك، ولأنه نصرني على أعدائي، أما عمري

ملك إسرائيل (إيشرائيل) فإنه أذل موآب أياما كثيرة، لأن كموش كان غاضبا على أرضه

فخلفه ابنه وقال سأذل موآب في أيامي. قال

فنظرت إليه وإلى بيته، وإسرائيل باد، باد إلى الأبد وعمري احتل كل أرض

(ميدبا) وأقام عليها في أيامه، ونصف أيام ابنه أربعين عاما. أرجعها

كموش في أيامي. فبنيت (بعل معان = ميون) وجعلت فيها بركة للخزن، وبنيت

(قريتان = قريتايم = تيرجانان). وكان أهل (جاد) يسكنون في أرض (عطرت = عطاروت) من زمن بعيد. وعمّر ملك

اسرائيل (عطرت) فحاربت المدينة وأخذتها وقتلت كل أهل

المدينة، فهنيء كموش وموآب. وجئت من هناك برئيسهم أرئيل (وفي ترجمة أخرى = بطل دودا، وفي ترجمة أخرى مذبح داود) وسحبته

أمام كموش بـ (قريوت) وأسكنت بهم أهل (شران = شارون) وأهل

(محرت = مهريت) ثم أسكنت فيها رجال شارون وماخاروت. فقال لي كموش اذهب وخذ (نبه = نبو) من بني إسرائيل

فسرت بالليل وحاربت من مطلع الفجر إلى الظهيرة، وأخذتها

وقتلتهم جميعا، سبعة آلاف رجل وامرأة

وجارية، لأني وهبتهم قربانا لعشتر كموش. وأخذت من هناك..

يَهْوَه، وسحبتهم أمام كموش. ثم بنى ملك إسرائيل

(يهص = ياهص)، وسكن بها وهو يحاربني. فطرد كموش من أمامي

وأخذت من موآب مائتي رجل من أفضلهم، وسيرتهم إلى (يهص) وأخذتها
فضممتها إلى (ديبون). أنا بنيت (قرحة = قورحة)، و (حمت هيعرن = سور الغابات)،
و (حمت هموفل = سور القلعة)، فبنيت أبوابها وبنيت أبراجها
وأنا بنيت بيت الملك (مولوك)، وجعلت بركتين بقرب
المدينة. ولم توجد بئر في داخل بلدة (قرحة)، فقلت للشعب اجعلوا
لكم آبارا في بيوتكم. وأنا قطعت الأشجار (لقرحة) على يد الأسرى من بني
إسرائيل. أنا بنيت (عرعر = عروعير)، وأنا مهدت الطريق إلى (أرنن = أرنون)
أنا بنيت بيت (باموث = باروت) لأنه كان قد تخرب، وبنيت (بصر = باصر = بيزر) لأنها
كانت خرابا

... (ديبون) خمسون، لأن كل (ديبون) خضعت لي وأنا
حكمت... مائة المدن التي ضممتها إلى المملكة، وأنا بنيت
(ميدبا) وبيت (دبلتان = دبلتايم) و (بيت بعل معان) وسيرت إليها
غنم البلاد. و (حورنان = حورنايم) أقام بها..
... فقال لي كموش انزل لقتال (حورنان) فنزلت
.... وكموش سكن بها في أيامي

ويقول عبد المجيد همو أن الكلمة التي تمت ترجمتها إلى (إسرائيل) وردت حرفيا (يشرال) ، وهذا حسب رأيه، لا يؤكد أنها إسرائيل تحديدا، أما في ترجمة منقولة عن كتاب أوهام التاريخ اليهودي لـ جودت السعد، فقد أكد أن الترجمة التي وردت فيها كلمة إسرائيل هي إضافة من المترجم، وما يذكر هو بيت عمري ، وأحيانا حاكم السامرة، ولا ترد كلمة إسرائيل على الإطلاق.

وهنا، في هذا النقش أيضا، لم يأت أي ذكر على الإطلاق لمملكة يهوذا، أما العلاقة بين موآب ومملكة إسرائيل فلم يرد لها أي ذكر إلا أنه في عهد يهورام (٨٥٠ - ٨٤٠ ق.م) بعد موت أبيه آخاب (٨٧١ - ٨٥١ ق.م) مباشرة «وكان ميشع ملك موآب صاحب مواش.. وعند موت آخاب عصي ملك موآب على ملك إسرائيل.. وخرج الملك يهورام.. وأرسل إلى يهوشافاط ملك يهوذا يقول. قد عصي علي ملك موآب. فهل تذهب معي إلى موآب للحرب. فقال أصعد. فذهب ملك إسرائيل وملك يهوذا وملك أدوم»، وتقول القصة التوراتية إن الجيش في طريقه تعرض للعطش، وكان معهم النبي أليشع تلميذ النبي إيليا، الذي طلب عوّادا ليعزف من أجل أن يكلمه الرب، وبعدها نزل مطر غزير فسالت الأودية والأنهار، ولما وصلت المياه إلى معسكر الموآبيين

ورأوا المياه الحمراء قالوا إن الجيوش انقسمت على نفسها وتصارعت، وهذا أثر دمائهم في الماء وما على المؤآبيين سوى نهب معسكرات الملوك الثلاثة، ولكنهم فوجئوا بالجيش الإسرائيلي الذي ضربهم حتى مدنهم التي دمروها، فحاول ميشع الالتفاف على ملك أدوم فلم يقدر عليه أيضا فما كان من ميشع إلا أن «أخذ ابنه البكر الذي كان ملكا عوضا عنه وأصعده محرقة على السور. فكان غيظ عظيم على إسرائيل. فانصرفوا عنه ورجعوا إلى أرضهم» الملوك الثاني٣، ومن خلال النصين: التاريخي لنقش ميشع، والنص التوراتي، نجد تطابقا تاريخا، ولكن تم تسويق النص التوراتي بطريقة أسطورية، إلا أنه لم يخرج كثيرا عن النتيجة التاريخية، وكعادة محرري التوراة فإنهم يعيدون انكساراتهم إلى قوى إلهية، فحسب ما جاء في التوراة، فبعد أن دمر الإسرائيليون موآب نهائيا فجأة وبكلمتين فقط، وبعد أن قام ميشع بتقديم بكره قربانا للإله يرجع الجيش الإسرائيلي منكسرا، دون إيضاح كيف تم ذلك.

كما يمكن أن نفترض، بل وأن نؤكد أن مملكة يهوذا لم تشترك في هذه الحرب لأنها في توصيف التوراة للمعركة لا يرد لها أي ذكر من جهة، وأيضا في نص ميشع لم يرد لها ذكر على الرغم من مجاورتها لمملكة مؤآب، وكان حري بميشع أن يذكر أنه انتصر على ثلاثة جيوش، بدل أن يقول إنه انتصر على جيش واحد، وما إيراد اشتراك مملكة يهوذا في تلك الحرب سوى محاولة من محرري التوراة (اليهوذيين) لرد وجودهم السياسي العسكري إلى مرحلة سابقة لوجودهم التاريخي الحقيقي، ولم يأت أي نص تاريخي على ذكر مملكة يهوذا حتى نهاية القرن الثامن قبل الميلاد، على الرغم من ذكر ممالك صغيرة جدا، ففي معركة قرقرة التي قامت بين شلمنصر الثالث (٨٥٨ - ٨٢٤ ق.م) ملك أشور سنة ٨٥٣ قبل الميلاد، وبين تحالف الممالك السورية والتي اشتركت فيها مملكة دمشق وحماة وإسرائيل بقيادة آخاب (٨٧١ - ٨٥١ ق.م)، وممالك الساحل السوري، والقبائل العربية بقيادة جنديبو، والذي حسب رأي بعض المؤرخين كان يقود المقاتلين من إئتلاف ثمود الذين كانوا ينتشرون في شمال شبه الجزيرة العربية، ومملكة عمون، ومملكة رحوبي الصغيرة التي تقع جنوب بيسان، ولم يأت أي ذكر لمملكة يهوذا، وأيضا لم يرد ذكرها في الاجتياحات التأديبية التي قام بها شلمنصر الثالث بعد معركة قرقرة، والتي أخضع فيها ممالك صور وصيدون ومملكة عمري (إسرائيل)، وأيضا في اجتياح حدد نيرازي الثالث (٨١٠ - ٧٨٣ ق.م) والذي أخضع فيه ممالك حاتي وأمورو وصور وصيدا ومملكة عمري أيضا وأدوم والفلستيين.

وكان أول نص تاريخي أتى على ذكر ليهوذا يعود إلى الملك الآشوري تغلات فلاصر الثالث (٧٤٤ - ٧٢٧ ق.م) الذي قام باجتياح واسع لممالك المنطقة {تلقيت جزية خاشتاشبي ملك

قوماجين، وأوريك ملك قوية، وسيبيتي بعل ملك جبيل، وإنليل ملك حماة، وينامو ملك الشمال... ومتان بعل ملك أرواد، وسابينو بعل ملك بيت عمون، وسلمانو ملك مؤاب، وميتيني ملك أشقلون، وآحاز ملك يهوذا، وكوش ماليكو ملك أدوم، وهانو ملك غزة}.

ولكن لم يتم ذكرها في نصوص سرجون الثاني (٧٢٢ - ٧٠٥ ق.م) الذي أنهى مملكة السامرة (إسرائيل) نهائيا، ليعود ذكرها في نصوص سنحاريب (٧٠٥ - ٦٨١ ق.م)، حيث كانت حينها قد نهضت مملكة يهوذا قبيل، وبعد سقوط مملكة السامرة (إسرائيل)، وفي سفر حزقيال جاء «أما أنت فارفع مرثاة على رؤساء إسرائيل وقل. ما هي أمك. لبوة ربضت بين الأسود وربت جراءها بين الأشبال. ربت واحدا من جرائها فصار شبلا وتعلم افتراس الفريسة. أكل الناس. فلما سمعت به الأمم أخذ في حفرتهم فأتوا به بخزائم إلى أرض مصر. فلما رأت أنها قد انتظرت وهلك رجاؤها أخذت آخر من جرائها وصيرته شبلا. فتمشى بين الأسود. صار شبلا وتعلم افتراس الفريسة. أكل الناس. وعرف قصورهم وخرب مدنهم فاقفرت الأرض وملؤها من صوت زمجريه. فاتفق عليه الأمم من كل جهة من البلدان وبسطوا عليه شبكتهم فأخذ في حفرتهم فوضعوه في قفص بخزائم وأحضروه إلى ملك بابل وأتوا به إلى القلاع لكيلا يسمع صوته بعد على جبال إسرائيل» حزقيال ١٩.

وهذا النص يضعنا أمام احتمالين:

الأول.. إن المحرر قد أخطأ في كلمة مصر، والتي يجب أن تكون هي آشور، على اعتبار أن المقصود بالشبل الأول هو مملكة السامرة (إسرائيل)، أما الشبل الثاني فهو مملكة يهوذا، وهذا، إن صحّت القراءة، فإنه يؤكد ما أتينا عليه هنا من أن مملكة يهوذا لم يكن لها وجود إلا في سياق تفكك مملكة السامرة (إسرائيل).

الثاني.. إن المحرر لم يخطئ في الجملة، وهذا النص يتقاطع مع (نقش مرنفتاح) والذي جاء فيه أن مرنفتاح قام بتدمير إسرائيل في بداية القرن الثالث عشر قبل الميلاد، وهي المملكة الكنعانية العبرانية والتي كانت قد أبيدت قبل دخول العبرانيين إلى بلاد كنعان.

ويرى التوراتيون - وهم ربما كانوا أقرب إلى التفسير الصحيح - أن المقصود بالشبلين هما الملكان يهوآحاز، ويهوياكين، على الرغم من أن صفات الشبلين، حسب ما ورد في سفر حزقيال، هما أبعد ما يمكن عن صفات الملكين يهوآحاز، ويهوياكين.

وقد أصبح هناك شبه إجماع أن أورشليم لم تصبح مدينة مركزية لها اعتباراتها الإدارية والسياسية إلا في منتصف القرن الثامن قبل الميلاد، بعد أن سحبت البساط من تحت مدينة حبرون، واستأثرت بقيادة الجبال الجنوبية، وقد استطاعت أن تعلن نفسها عاصمة، وقد ورد

ذكرها لأول مرة من خلال ذكر ملكها آحاز (٧٣٣ - ٧١٥ ق.م) الذي قدّم الجزية للملك تغلات فلاصر الثالث (٧٤٤ - ٧٢٧ ق.م) سنة ٧٣٢ قبل الميلاد، وبمعنى آخر لم يكن الملوك الذين أتت التوراة على ذكرهم ابتداء بشاول، ومرورا بداود، وسليمان، وانتهاء بعزريا سوى أسماء شيوخ قبيلة يهوذا، والذين كانوا يحكمون قبليا وعشائريا لتلك القبيلة، ومن الممكن أن يكون آحاز قد بدأ ببناء الهيكل المقدس، بعد أن قام بزيارة إلى دمشق ورأى بعينيه المعابد السورية، وقام ببناء معبد على النمط الدمشقي، أو أن الملك حزقيا (٧١٥ - ٦٩٨ ق.م) من بناه أو أنهى بناءه، وهو الملك الذي حكم لمدة طويلة، وقام بعدة أعمال عمرانية.

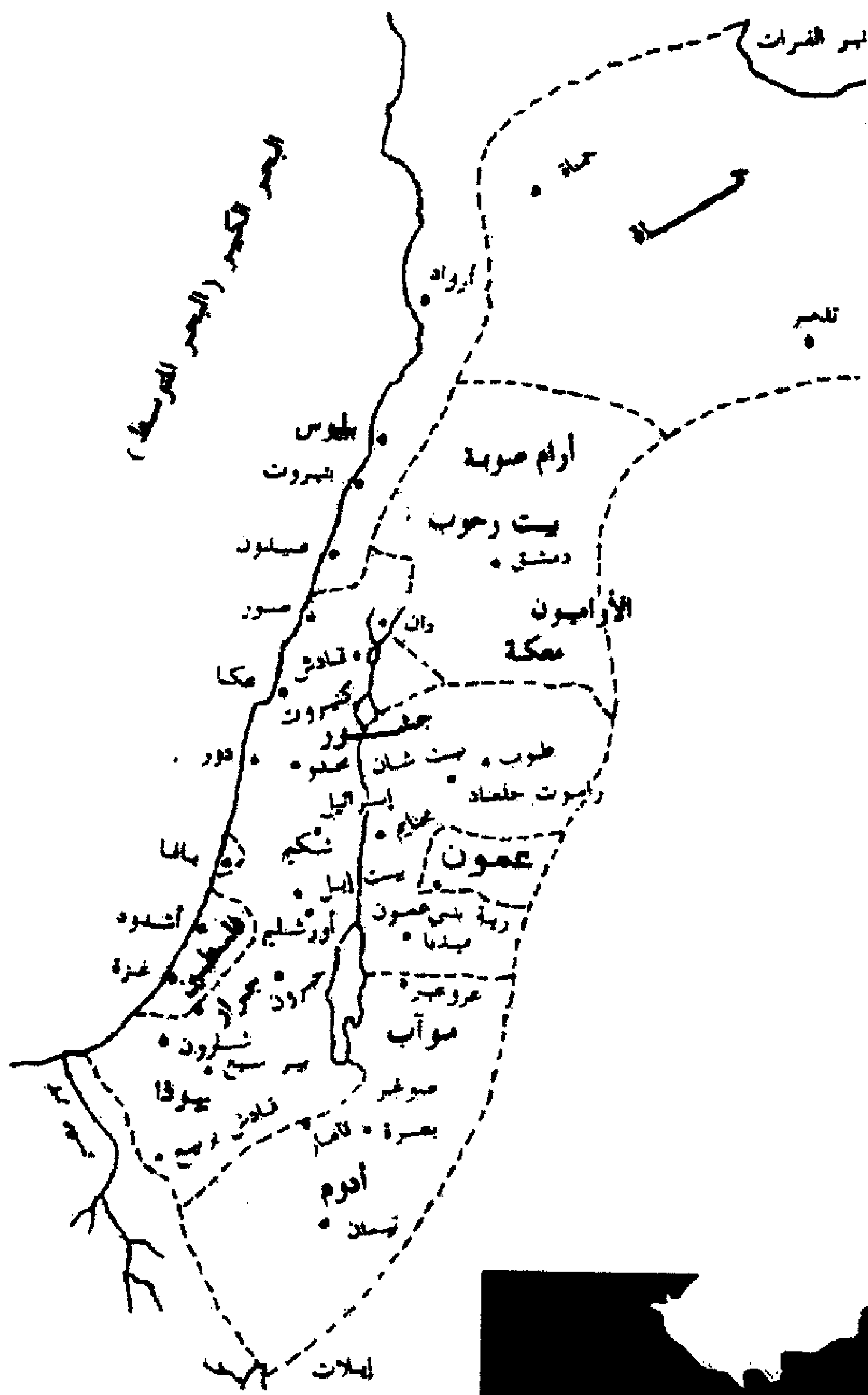
وقد كان للحملات التي شنتها آشور على المدن المحيطة بيهوذا وإزالتها تأثير مهم على أورشليم التي أخذت تستأثر بأدوار تلك المدن وتوسع من نفوذها وسيطرتها، خاصة وأنها كانت تستفيد من النازحين إليها من تلك المدن لتعزيز البنية التحتية الديموغرافية.

وبينما كانت المدن، والقرى المحيطة بمدينة أورشليم تتراجع ديموغرافيا، كانت أورشليم تتقدم وتتوسع ويزداد دورها كقوة مهمة في المنطقة، ولكن بعد أن تولى أسرحدون المُلك في آشور (٦٨١ - ٦٦٩ ق.م)، وقام بمغامرته المجنونة بضم مصر إليه، وتوسيع إمبراطوريته دون وجود استراتيجية محكمة للسيطرة عليها، أدى إلى حصول اضطرابات واسعة لم يكن بمقدور القوة الآشورية السيطرة عليها، وقد ورّث أسرحدون (٦٨١ - ٦٦٩ ق.م) هذه الاضطرابات إلى خليفته آشوربانيبال (٦٦٨ - ٦٣٢ ق.م)، والذي في آخر عهده توحدت مصر، وأعلنت مصر استقلالها عن آشور، وبعد موت آشوربانيبال مباشرة أعلن نابو بولاصر الكلداني استقلاله عن آشور، وأعلن نفسه ملكا على بابل (٦٢٥ - ٦٠٦ ق.م)، وبالتعاون مع مملكة ميديا قام بالهجوم على مدينة آشور ثم مدينة نمرود ثم مدينة نينوى، مما اضطر القوات الآشورية أن تستقر في حاران، ومن هناك قام آخر ملوك آشور المدعو آشور أباليط بطلب المساعدة من ملك مصر نخو الذي استجاب له وهب لنجدته، وفي الطريق تصدى له يوشيا (٦٣٩ - ٦٠٩ ق.م) ملك يهوذا في مجدو، حيث تم قتله من قبل القوات المصرية التي تابعت تقدمها، ولم تؤد المعارك التي دارت بين الكلدانيين والمصريين إلى حسم الموقف، إلا أن الفرعون نخو استطاع أن يسيطر على سوريا الوسطى والجنوبية، وأقام لنفسه مقرا في ربلة بالقرب من مدينة حمص في وسط سوريا، ومن هناك بعث بحملة إلى يهوذا فأسر ملكها يهوآحاز ابن يوشيا (٦٠٩ - ٦٠٩ ق.م) وعين بدلا عنه أخوه يهوياقيم (٦٠٩ - ٥٩٨ ق.م)، وبذلك أصبحت يهوذا تابعة لمصر، ولكن بابل بعد أن أنهت فلول قوات آشور، تفرغ عاهلها البابلي نبوخذ ناصر (٦٠٥ - ٥٦٢ ق.م) للجبهة المصرية التي ردها حتى حدودها، وفي طريقه احتل

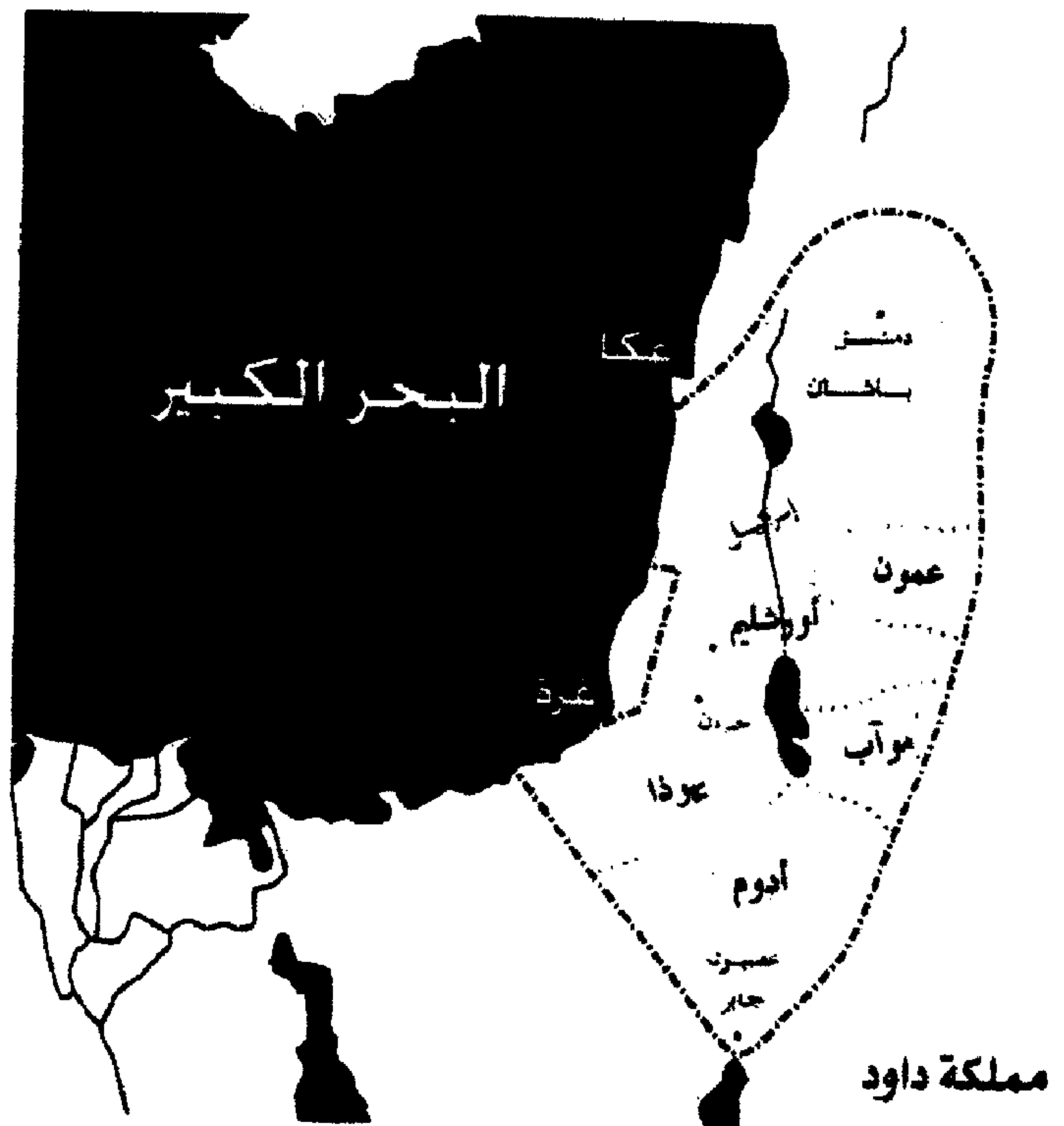
مملكة يهوذا، وأسر ملكها يهوياقيم وعيّن بدلا عنه ابنه يهوياكين (٥٩٨ - ٥٩٧ ق.م) الذي ما إن واتته الفرصة المناسبة حتى أعلن تمرده على بابل، وعلى ملكها نبوخذ ناصر الذي كان قد اتخذ من ربلة مقرا له لقيادة القوات، ومن هناك قام بعدة حملات تأديبية للممالك المتمردة، وفي نص لنبوخذ ناصر كُتب سنة ٥٩٧ قبل الميلاد {في السنة السابعة، قاد ملك أكاد جيوشه نحو بلاد حاتي فحاصر مدينة يهوذا وفتحها في اليوم الثاني من شهر آذار، فقبض على الملك وعوّض عنه ملكا جديدا اختاره، وأخذ منها جزية كبيرة حملها إلى بابل}.

وبعد جولة دبلوماسية قام بها سنة ٥٩٢ قبل الميلاد ملك مصر نخو (٦٠٩ - ٥٨٣ ق.م) في بلاد كنعان لتحريضها على العصيان مقابل وعود مصرية بدعم مملكة يهوذا ضد البابليين، انقسم الرأي في يهوذا إلى فريقين: الأول سياسي ترأسه الملك صدقيا (٥٩٧ - ٥٨٦ ق.م) والذي قرر التمرد العسكري ضد بابل، والثاني لاهوتي ترأسه النبي إرميا الذي عارض هذا المنحى، وقد كان الموقف والقرار الأخير للملك صدقيا ومن معه، لا سيما بعد أن قام الملك صدقيا بسجن النبي إرميا، وبذلك تم إعلان تمرد أورشليم على بابل، وكان رد نبوخذ ناصر صاعقا على كل المنطقة ككل، وأنهى التمردات في الممالك الكنعانية بشكل عام، ولكن أورشليم استطاعت أن تقاوم من خلال سورها الحصين الذي لم يستطع الجيش البابلي اقتحامه إلا بعد حصار استمر لمدة سنتين، ولما بدا الأمر للملك صدقيا أن المدينة على وشك السقوط بسبب الجوع، قام بالهروب مع عائلته من خلال فتحة سرية في السور، ولكن البابليين قبضوا عليه وقادوه إلى نبوخذ ناصر المقيم في مقر قيادته العسكرية في ربلة غربي حمص، وهناك تم قتل عائلة صدقيا أمام عينيه، ثم قام نبوخذ ناصر بسمل عيني صدقيا، وبعث به أسيرا إلى بابل.

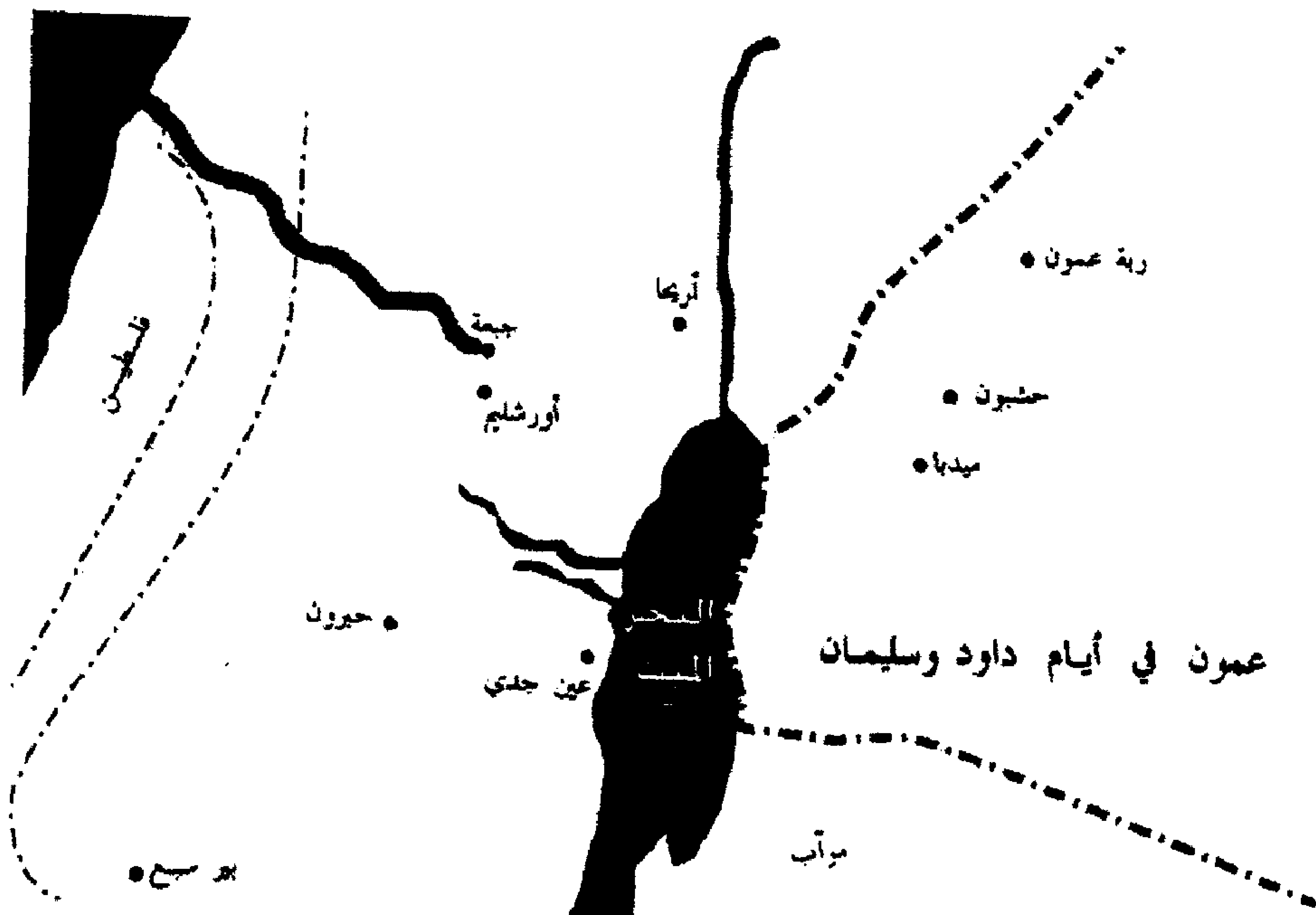
وبعد ذلك استطاع نبوزردان، قائد جيش نبوخذ ناصر، اقتحام أسوار أورشليم سنة ٥٨٦ قبل الميلاد (في يوم ١٤ - تموز - ٥٨٦ ق.م حسب أحمد سوسة)، وقام بتدميرها وسبى كل سياسييها وقادتها وحرفييها وأغنيائها، ولم يبق سوى فقرائها الذي وكّل عليهم جدليا بن أخيقام كجامع أموال الجزية، وهذا الحدث، الذي لم يكتشف له نص بابلي، أكدته التنقيبات الأركولوجية التي قامت به الباحثة البريطانية كاثلين كينون، والتي أظهرت آثار الدمار والحرائق وانتهاء الحياة في مملكة يهوذا لمدة قرن ونصف القرن من الزمن، كما أنه اكتشف خاتم مكتوب عليه (جداليا بن احيكام).



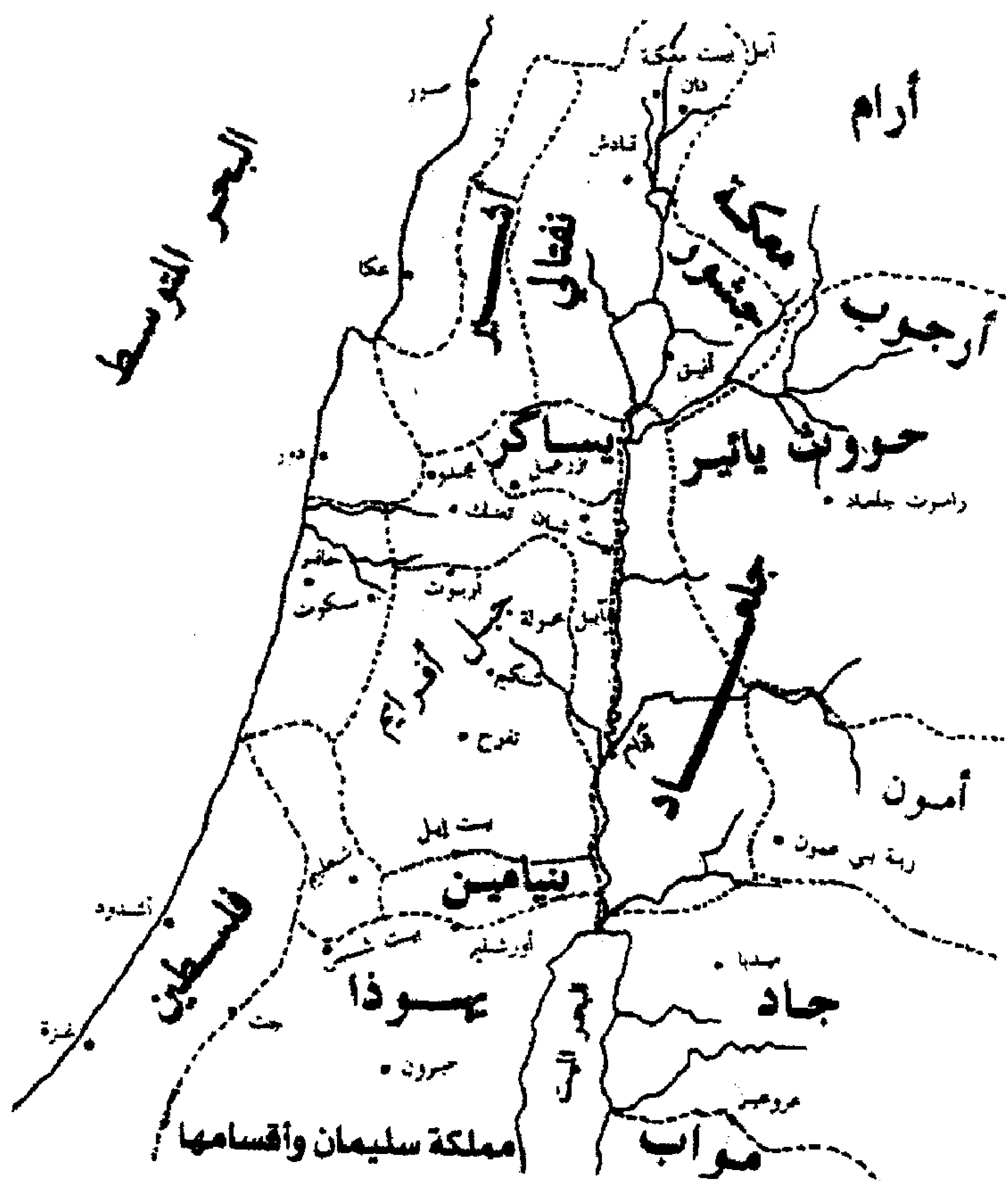
المملكة في عهد داود



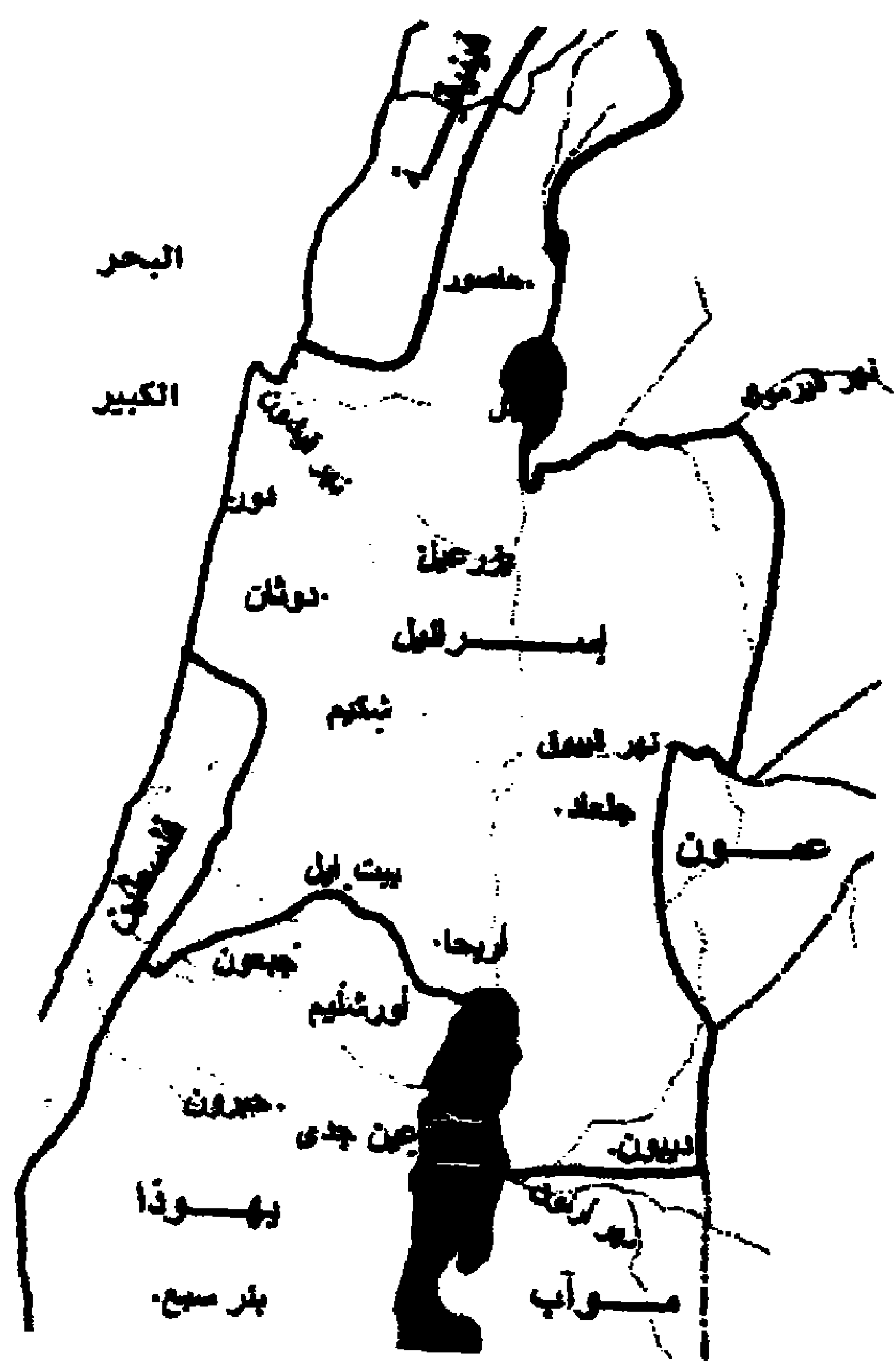
مملكة داود



موطن العمونيين في أيام داود



مملكة سليمان وأقسامها



خريطة لانقسام مملكة داود



مملكتا يهوذا وإسرائيل بعد الانقسام

فينيقية
صيدون
البحر المتوسط
دمشق
صور
باشان
الجليل الأعلى
الجولان
عكا
الجليل الأسفل
حيفا
نهر اليرموك
نهر الزرقاء
قيصرية
نهر الأردن
جلعاد
سهل شارون
السامرة
جرش
السامرة
نهر اليبوق
شكيم
افرايم
يافا
عمون
أريحا
عمان
اورشليم
حبرون
وادى ارنون
بير سبع
موآب
آدوم

موقع السامرة

المراجـــع

القرآن الكريم.

الكتاب المقدس - مجموعة محررين - دار الكتاب المقدس.

إسرائيل وعقيدة الأرض الوعودة - إيكار سكاف.

بروتوكولات حكماء صهيون - عجاج نويهض - مجموعة الأجزاء الأربعة - الطبعة الرابعة 1996 - دار الاستقلال للدراسات والنشر - المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

فلسطين أرض الرسالات السماوية - روجيه غارودي - ت: قصي أتاسي - ميشيل واكيم - الطبعة الأولى 1988 - دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر.

الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية - روجيه غارودي - ت: حافظ الجمالي - صياح الجهم - دار عطية للنشر.

إسرائيل (الصهيونية السياسية) - روجيه غارودي - ت: جبرائيل بيطار - مركز الدراسات العسكرية.

أوهام التاريخ اليهودي- جودت السعد - الطبعة الأولى 1988 - الأهلية للنشر والتوزيع.

خفايا التوراة وأسرار شعب إسرائيل - كمال الصليبي - الطبعة الرابعة 1988 - دار الساقي.

البحث عن يسوع - كمال الصليبي - دار الشروق.

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي - اليأس شوفاني- الطبعة الثانية 1988 - مؤسسة الدراسات الفلسطينية.

صراعنا مع اليهودية بين الصلح المستحيل والمواجهة الحتمية - العقيد الركن محمد بن مهنا العلي - ط1 1993 - دار أمية للنشر والتوزيع.

موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية - عبد الوهاب المسيري - دار الشروق.

من هو اليهودي - إسحق دوتشير - ت: نجاة قصاب حسن - دار العروبة للطباعة.

تاريخ أورشليم - فراس السواح - دار علاء الدين للنشر.

آرام دمشق وإسرائيل - فراس السواح - دار علاء الدين للنشر.

لغز عشتار - فراس السواح - دار علاء الدين للنشر.
الأسطورة والمعنى - فراس السواح - دار علاء الدين للنشر.
الرحمن والشيطان - فراس السواح - دار علاء الدين للنشر.
موسوعة تاريخ الأديان - فراس السواح - دار علاء الدين للنشر.
تاريخ نقد العهد القديم - زالمان شازار - ت: أحمد محمد هويدي - ٢٠٠٠ - المجلس الأعلى للثقافة.
أساطير التوراة الكبرى وتراث الشرق القديم - د. كارم محمود عزيز.
الماضي الخرافي: التوراة والتاريخ - توماس طمسن - ت: عدنان حسن.
الإيديولوجية الصهيونية - ج١ ج٢ - د. عبد الوهاب المسيري - ١٩٨٣ - سلسلة عالم المعرفة الكويتية.
أحجار على رقعة الشطرنج - وليام غاي كار - ت: سعيد جزائرلي - ط١٤ - ٢٠٠٠ - دار النفائس.
أهل الكهف - هالة العوري - ٢٠٠٠ - رياض الريس للكتب والنشر.
تاريخ اليهود - أحمد عثمان - مكتبة الشروق.
دائرة المعارف الكتابية.
تاريخ يَهْوَه - جورجي كنعان - الدار العربية للعلوم.
محمد واليهودية - جورجي كنعان - بيسان للنشر والتوزيع.
بثور في جلد التاريخ - جورجي كنعان - بيسان للنشر والتوزيع.
مملكة الصعايك - جورجي كنعان - دار الطليعة.
من يجرؤ على محاكمة الإله - جورجي كنعان - دار الطليعة.
الله هو القضية والمسيح هو المشكلة - جورجي كنعان.
الواقع والأسطورة في التوراة - زينون كاسيدوفسكي - ت: د. حسان إسحاق - الأبجدية للنشر.
العرب والساميون والعبرانيون وبنو إسرائيل واليهود - د. أحمد يوسف داوود - إصدار خاص.
تاريخ سوريا الحضاري القديم (المركز) - د. أحمد يوسف داوود - إصدار خاص.
تاريخ سوريا القديم - تصحيح وتحرير: د. أحمد يوسف داوود - دار الصفدي.
جغرافية التوراة مصر وبنو إسرائيل في عسير - زياد منى - دار الريس للكتب والنشر.
الأسطورة والتراث - سيد القمني - المركز المصري لبحوث الحضارة.

النبي موسى وآخر أيام تل العمارنة - د سيد القمني - المركز المصري لبحوث الحضارة.

الإسرائيليات - د سيد القمني - إصدار خاص.

النهايات: الهوس القيامي الألفي - ديتر تسمرلينغ - ت: ميشيل كيلو - دار قدمس للنشر والتوزيع.

ملامح من التاريخ القديم ليهود العراق - د. أحمد سوسة - المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

الفرق والمذاهب اليهودية منذ البدايات - عبد المجيد همو - الأوائل.

ما بين موسى وعزرا كيف نشأت اليهودية - عبد المجيد همو - الأوائل.

الله أم يَهْوَه أيهما إله اليهود - عبد المجيد همو - الأوائل.

اليهودية بعد عزرا.. وكيف أقرت - عبد المجيد همو - الأوائل.

مفاهيم تلمودية.. نظرة اليهود إلى العالم - عبد المجيد همو - الأوائل.

الفرق والمذاهب اليهودية منذ البدايات - عبد المجيد همو - الأوائل.

نقد الدين اليهودي - جميل خرطبيل - الأوائل.

حقائق وأباطيل في تاريخ بني إسرائيل - فوزي محمد حميد - دار الصفدي

مصير إسرائيل في النبوءات - محمد عرب - الأوائل.

دراسات توراتية - حنا حنا - الأوائل.

إرم ذات العماد - فاضل الربيعي - رياض الريس للكتب والنشر.

العصور الحجرية، وما قبل الأسرات في مصر والشرق الأدنى القديم - د. أحمد أمين سليم - دار المعرفة الجامعية.

لبنان القديم - كارلهاينز - برنهردت - ت: ميشيل كيلو - قدمس للنشر والتوزيع.

الديانة الفرعونية - واليس بدج - ت: نهاد خياطة - دار علاء الدين للنشر.

الرومان - د. سيد أحمد علي الناصري - دار النهضة العربية.

تاريخ بلاد الرافدين - د. عيد مرعي - الأبجدية للنشر.

الأساطير - أحمد كمال زكي - مكتبة الأسرة.

العبادات في الأديان السماوية - عبد الرزاق رحيم صلال الموحي - الأوائل.

الخديعة الكبرى - د. محمد جمال طحان - الأوائل.

كيف صنع اليهود الهولوكوست - نورمان فنكلشتاين - ت: د ماري شهرستان - الأوائل.

مناهضة السامية - برنار دي لازار - ت: د ماري شهرستان - الأوائل.

الأثنولوجيا - محمد الخطيب - دار علاء الدين للنشر.

ديانة مصر القديمة - محمد الخطيب - دار علاء الدين للنشر.

الفهرس

منشورات دار علاء الدين في مجال التاريخ والميثولوجيا

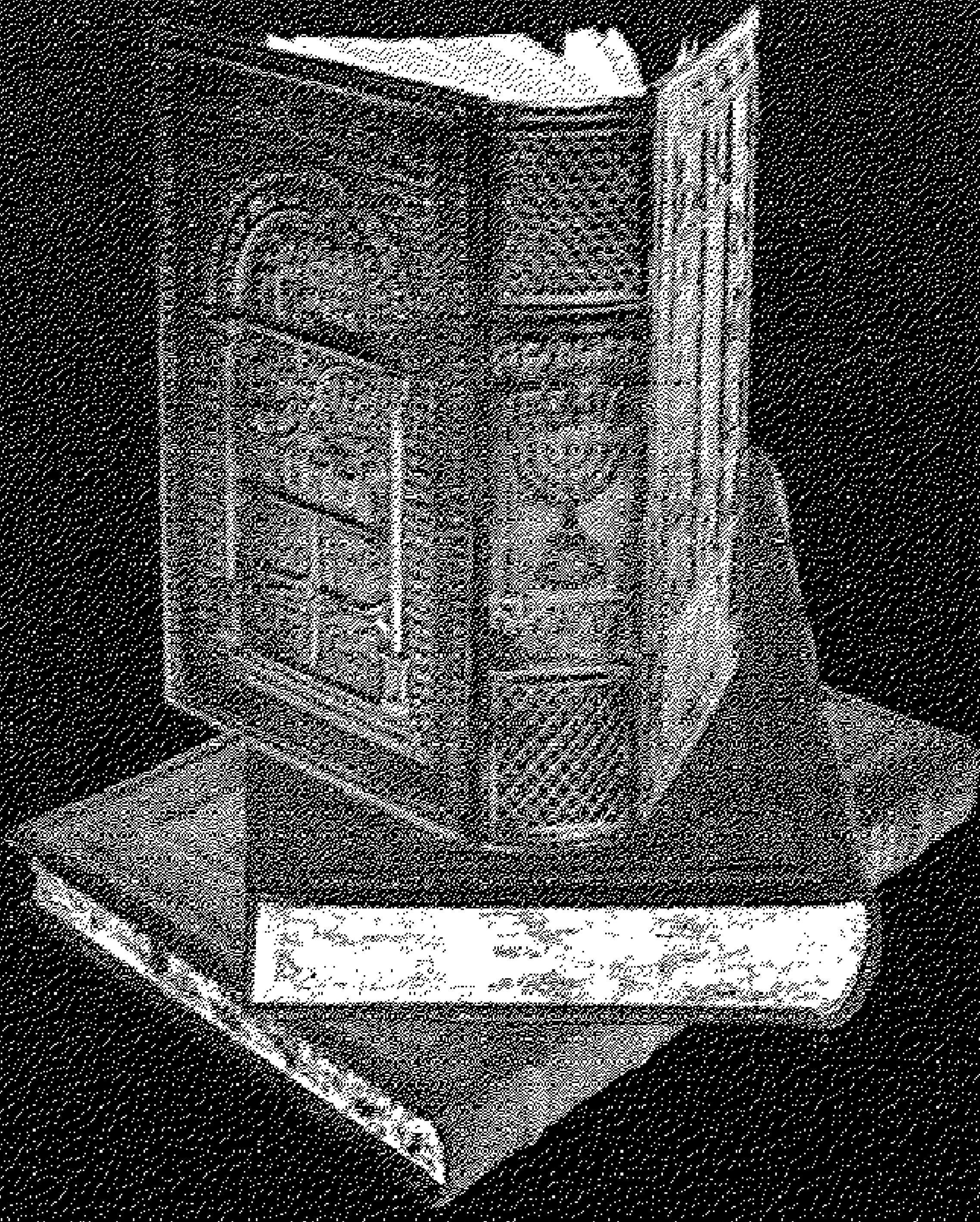
- دراسات حول الأكراد
بد ليرخ
- التاريخ السري
بروكوبيوس
- الجنس في العالم القديم
بول فريشاور
- فتح بلاد الغال يوليوس قيصر
بيتي راديس
- السكان القدماء لبلاد ما بين النهرين وسورية الشمالية
جان كلود مارغرون
- من هم الموحدون الدروز
جميل أبو ترابي
- أميرات سوريات حكمن روما
جودفري تورتون
- أساطير في أصل النار
جيمس فريزر
- الاقتباس والجنس في التوراة
خالص مسور
- اليوم الآخر ونهاية الزمان
د. خالد صناديقي
- في أصل العرب ومواطنهم
د. ماجد عبد الله الشمس
- القاهرة وبيت المقدس ودمشق
دافيد صموئيل مارجوليوث
- سلسلة الأساطير السورية
رينيه لابات
- طقوس الجنس المقدس عند السومريين
س. كريمر
- بنو معروف في التاريخ
سعيد الصغير
- التشريعات البابلية
عبد الحكيم الذنون
- بدايات الحضارة
عبد الحكيم الذنون
- الأسطورة في بلاد الرافدين الخلق والتكوين
عبد الحميد محمد
- بناة ثقافتنا الحضارية
عبود قرة
- ستالينغراد ملحمة العصر
ف. تشويكوف
- الحضارات القديمة ١-٢
ف. دياكوف / س. كوفاليف
- صراع بين الحرية والاستبداد
فارس الحناوي
- الأسطورة والمعنى
فراس السواح
- التاو تي تشينغ إنجيل الحكمة التاوية في الصين
فراس السواح
- الحدث التوراتي والشرق الأدنى القديم
فراس السواح
- الرحمن والشيطان
فراس السواح
- الوجه الآخر للمسيح
فراس السواح
- آرام دمشق وإسرائيل
فراس السواح

منشورات دار علاء الدين في مجال التاريخ والميثولوجيا

- تاريخ أورشليم والبحث عن مملكة اليهود
  ـــــــ فراس السواح
- جلجامش ملحمة الرافدين الخالدة
  ـــــــ فراس السواح
- دين الإنسان
  ـــــــ فراس السواح
- لغز عشتار
  ـــــــ فراس السواح
- مغامرة العقل الأولى
  ـــــــ فراس السواح
- موسوعة تاريخ الأديان الكتاب الأول
  ـــــــ فراس السواح
- موسوعة تاريخ الأديان الكتاب الثاني
  ـــــــ فراس السواح
- سلطان باشا الأطرش تاريخ وطن
  ـــــــ فريد عبد الكريم فياض
- المصادر التاريخية العربية في الأندلس
  ـــــــ لك بويكا
- سحر الأساطير
  ـــــــ مفد البديل
- الحضارة والميثولوجيا في العراق القديم
  ـــــــ ماجد عبد الله الشمس
- معجم الأساطير
  ـــــــ ماكس شابيرو، رودا هندريكس
- شريعة حمورابي
  ـــــــ مجموعة من المؤلفين
- كليوباترا وعصرها
  ـــــــ مجموعة من المؤلفين



- الاثنولوجيا دراسة عن المجتمعات البدائية
  ـــــــ محمد الخطيب
- الدين والأسطورة عند العرب في الجاهلية
  ـــــــ محمد الخطيب
- الفكر الإغريقي
  ـــــــ محمد الخطيب
- ديانة مصر الفرعونية
  ـــــــ محمد الخطيب
- مصر أيام الفراعنة
  ـــــــ محمد الخطيب
- موسوعة تاريخ القفقاس والجركس
  ـــــــ محمد جمال صادق ابه زاو
- هل هبط آدم في القفقاس
  ـــــــ محمد عمر بغداي
- صرح ومهد الحضارة السورية
  ـــــــ مفيد عرنوق
- الديانة الزرادشتية مزديسنا
  ـــــــ نوري إسماعيل
- الديانة الفرعونية
  ـــــــ واليس بدج
- نقد النص التوراتي - التأريخ التوراتي المزيف بين إسرائيل الكنعانية وإسرائيل العبرية وإسرائيل الصهيونية الكتاب الأول
  ـــــــ د. إسماعيل ناصر الصمادي
- التأريخ التاريخي ما بين السبي البابلي وإسرائيل الصهيونية - التأريخ التوراتي المزيف بين إسرائيل الكنعانية وإسرائيل العبرية وإسرائيل الصهيونية الكتاب الثالث
  ـــــــ د. إسماعيل ناصر الصمادي



يتناول هذا الكتاب فلسطين التاريخ والجغرافيا، وموجز تاريخ الشرق القديم وبلاد النيل، ثم يدرس مقاربة التأريخ التوراتي مع النصوص التاريخية لمرحلة الآباء الأوائل والخروج.

ويبحث في الإخناتونية والرب وتابوت العهد والمسيحية، واليهودية بين التعدد والتفريد والتوحيد و«يَهْوَه» بين الربوبية والألوهة. والأركولوجيا والتوراة ونتائج الأبحاث الأركولوجية.

ويستعرض الكثير من الآراء والنظريات التي تناولت هذا الموضوع ويحاورها بأناة وموضوعية، وذلك من خلال منهجية علمية واضحة وأسلوب بحثي دقيق.



يطلب الكتاب على العنوان التالي: دار علاء الدين للنشر والطباعة والتوزيع - سورية - دمشق
ص.ب. ٣٠٥٩٨ - هاتف ٥٦١٧٠٧١ - فاكس ٥٦١٣٢٤١ - بريد إلكتروني ala-addin@mail.sy